التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى

رؤية معاصرة

د/جمال الدين فالح الكيلاني

مكتبة المصطفى للنشر

الطبعة الاولى

2011

الاهداء

الى الدكتورة

لقاء جمعة الطائي

عرفانا بفضلها

وتقديرا لعلمها

واجلالا لقدرها

اخوك د/جمال الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة العلامة المؤرخ الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف:

اطلعت على ماكتبت اخي وتلميذي: الباحث جمال الدين فالح الكيلاني ،من دروس في التاريخ والحضارة العربية الاسلامية ، بصورة مركزة ،تهدف الى تتبع ذلك التاريخ وتلك الحضارة ، ومحاولة تقديم رؤية معاصرة لهما ،عكست مدى اطلاعك وحرصك على المتابعة في اختصاصك،وقد بذلت جهدا واضحا ومشكورا في ذلك ....

الدعاء مرفوع الى الله تعالى ان يدعم توفيقكم في امور دنياكم واخرتكم وان يلهمكم الصبر على البحث والجلد في استقصاء مصادر تاريخ امتنا العربية الاسلامية ، التي هي في حاجة الى العقول النزيهة ، والجهود الحثيثة من ابنائها.

وفقكم الله .

المخلص

د/عماد عبدالسلام رؤوف

1998/1/5

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

باسمك –اللهم– استرشد وابتدي ،وبنور الهامك استضيئ واهتدي،واحمدك يامن علم الانسان ما لم يعلم ،ومنحه عقلا به يفكر ويتفهم ،وخلق له لسانا

به يعبر ويتكلم ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي الخاتم وعلى اله الذين هم مظهر صدق لنور النبوة ،وقدوة المستضعفين حين تقل العدالة وتسود القوة ،وعلى اصحابه الذين سلكوا مسلك الحق المبين ،ونفذوا اوامر الله وهم على علم ويقين ،ورضي الله عن التابعين الذين صدعوا بمقتضى سلطان العقل والدين ، فاصبحوا قدوة حسنة لمن اراد العزة من ابناء المسلمين،وعن الاولياء الصالحين و العلماء العاملين الذين شغلوا انفسهم بما فيه خير الناس في كل زمان وحين .

ثم اعوذ بالله من شر حاسد اذا حسد ، ومن كيد حاقد اذا حقد ،والجأ اليه من عبث العابثين ،ومن مكر المنافقين ،واستعين به على تشفي الشامتين ،واتوسل اليه توسل التائب من ذنبه ،وان يجعل الصبر حليفنا في كل حال ، تأسيا بمن صبر في "الطائف" ودعا الله فقال :

"اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ،وقلة حيلتي،وهواني على الناس،يا ارحم الراحمين،انت رب المستضعفين،وانت ربي الى من تكلني؟ الى بعيد يتجهمني؟ ام الى عدو ملكته امري؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي ،ولكن عافيتك هي اوسع لي ،اعوذ بنور وجهك ،الذي اشرقت له الظلمات ،وصلح عليه امر الدنيا والاخره ،من ان تنزل بي غضبك ،او يحل بي سخطك ،لك العتبى حتى ترضى ،ولا حول ولا قوة الا بك" .

وبعد:

لايوجد تعريف عام للتاريخ يتفق عليه من قبل جميع المؤرخين .فهو من الابحاث التي يختلف فيها النظر باختلاف الاشخاص ، فالتاريخ قصة البشرية في حال تطورها منذ ان ظهرت الى هذا اليوم .

للتاريخ مساس قوي بمختلف فروع العلم الاخرى ،ولابد لمن يريد فهم التاريخ فهما صحيحا ، ان يلم ببعض العلوم . فالجغرافية مثلا تأثير كبير على جريان التاريخ ، ويجب ان يكون المؤرخ امينا يذكر الحقائق التاريخية كما هي دون تغيير وان لايتحزب الى رأي من الاراء او سياسة بل يجب ان يكون محايدا تجاه حوادث التاريخ .وعليه ان يكون جسورا وان لاتأخذه في الحق لومة لائم

وان يكون واسع الفكر يستطيع الربط بين الحوادث .

ان لدرس التاريخ فوائد مهمة جدا ، فهو يعلمنا التدقيق وسعة النظر الى الامور وطريقة البحث فيه تطبع عقليتنا بالطابع العلمي والتاريخ يكمل بقية لعلوم الاجتماعية ، واهم فائدة له ان درس الماضي يساعدنا على تفهم الحاضر فجذور انظمتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية تمتد عميقا في تربة الاجيال الماضية ، وعلينا اذا اردنا فهم الحاضر ان نرجع الى الجذور التي جاءت منها وان نتتبع نشؤها الى يومنا هذا.

لقد ادت عوامل متنوعة ،سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية الى ان تشهد المنطقة اهتماما متزايدا بالتاريخ الاسلامي ،قراءة وتفسير، بل وعلى اعتبار هذا التاريخ كله تاريخ معاصر ، يعيش معنا ونتحرك بفلكه ، ومن هنا برزت ضرورة تقديم رؤية معاصرة للتاريخ الاسلامي،واعادة قراءة الماضي وفق نظرة جديدة ،هي في الواقع نتاج عصرنا هذا ،بأيجابياته وسلبياته .

ولا ريب ان هذه الدراسات التي اقدمها يعتريها النقص في العديد من جوانبها ولا ادعي الكمال ولكن كان همي ان اقدم دروس مفيدة في التاريخ الاسلامي في العصور الوسطى ، وفق رؤية عصرية ، وبصورة موجزة ،تفوز برضا ، الطالب و المثقف والمهتم والمتخصص في هذا العالم المتحول ،مستعينا بشتى انواع المصادر والمراجع المعتبرة في مجال الاختصاص،والتي وضعت قائمة باهمها اخر الكتاب ،دعما للحقيقة والتفسير ،اما الهوامش فقد تعمدت الى ابعادها لكون طبيعة الكتاب محاظرات ودروس كلاسيكية ،هي حصيلة سنين طويلة من دراسة و تدريس مادة التاريخ ،وعلى أي حال آمل ان تثير هذه الدروس الطلاب والباحثين على السواء ،وان تشجع على مواصلة البحث في التاريخ والحضارة العربية الاسلامية .

والله ولي التوفيق والهادي الى سواء الطريق.

جمال الدين فالح الكيلاني

بغداد

في صدر الاسلام

بدأ الرسول ρ عند وصوله للمدينة بالإتصال و موادعة أي حل و معالجة مسئلة اليهود في المدينة، كذلك جمع ρ بيده السلطتين الدينية و السياسية، أكد ρ على سيادة الدولة و حدودها التي يفترض أن تكون محروسة، فضلاً عن لزام الأطراف جميعاً بالدفاع عن المدينة إذا تعرضت لخطر، ولأجل ذلك وضع الرسول محمد ρ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وذلك في أول خطوة بعد دخوله المدينة.

لأن المهاجرين الذين جاءوا من مكة المكرمة لم يكن معهم أي شيء أي لا يملكون شيء لأنهم هربوا سراً من مكة نحو المدينة وأطلق عليهم اسم المهاجرين أما المسلمين الذين استقبلوهم في المدينة أطلق عليهم الأنصار وأصبحت تسميتي الأنصار والمهاجرين تسميتينسس جديدتين في الإسلام بدل الأسماء أو الألقاب القبلية التي كانت يعرف بها هؤلاء المسلمون من الأنصار والمهاجرين وهو مبدأ إسلامي للنظام العربي القديم وهو نظام الحلف يقول بن سعد في طبقاته ((الرسول لما قدم المدينة، آخى بين المهاجرين لبعض وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحلف والمواساة ويتوارثون بعد ملاحظة دون ذوي الرحم، وكانوا تسعين رجلاً))، لكن هذا الحال تغير بعد معركة بدر الكبرى وذلك مع انسجامه مع قوله تعالى((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين))، (سورة الأحزاب آية 6).

وكان قصد الرسول من ذلك هو قيام تكوين اجتماعي جديد أساسه العقيدة الإسلامية، وإلغاء الانتماء القبلي والتعصب له، بل تكوين حضاري قومي إنساني ينسجم مع ما يهدف إليه الدين الإسلامي من عملية تغير شمولي لواقع العرب هذا من جانب أما في الجانب الآخر فهو حل الأزمة الاقتصادية والسكنية للمهاجرين وتوفير مصدر رزق لهم بعد أن فقدوا مساكنهم وآمالهم في مكة، وكذلك إيجاد مكان يلجئوا إليه بشكل مشروع وصحيح.

أما الخطوة التالية لعملية التنظيم فكانت إصدار الصحيفة حيث عمد الرسول محمد صلى الله عليه و سلم إلى تنظيم العلاقة بين المسلمين و بين حلفائهم من القبائل العربية و التي لم تدخل في الدين الإسلامي بعد، و قد تجلت أولى محاولات التنظيم في وثيقة عرفت باسم الكتاب أو الصحيفة، فكانت بداية لتنظيم لنواة الدولة العربية الإسلامية، و يرى البعض في الوثيقة أو الصحيفة على أنها تشبه الدستور الذي تسير عليه الدولة ، أو أنها وثيقة بهذا الاتجاه .

و عند التأني في قراءة هذه الوثيقة و مضمونها نجد:

1. أنها سعت لأضعاف العصبية القبلية و إبراز الرابطة الجديدة و هي الرابطة الدينية، حيث أنها جعلت المسلمين من المهاجرين و الأنصار و من تبعهم و لحق بهم و جاهد معهم، أمة واحدة أي جماعة واحدة من دون الناس.
2. التكافئ بين المسلمين في هذه الوثيقة و ينصرون المظلوم على الظالم و يرعون حقوق القرابة و الصحبة و الجوار.
3. نظمت حق الأخذ بالثأر فنصت على ((أن المؤمنين من بغى منهم أو أبتغى (سيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين و أن أيديهم علية جميعهم و لو كان ولد أحدهم)) .
4. لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر و لا ينصر كافر على مؤمن.
5. و قد تركت الوثيقة حرية أداء العبادات لليهود أية العقيدة لهم، و لمن يرغب منهم الإنتماء إلى الإسلام لا إعتراض عليه، لكن لمن لا يرغب دخول الإسلام من اليهود ((فمن تبعنا من يهود فإن له النصر و الأسوة غير مظلومين و لا متناصر عليهم، و بهذه الطريقة دخلوا في إطار الأمة، و لكن ليس عليهم واجبات الأنصار و المهاجرين و لا حقوق له.

إن هذه البدايات التنظيمية هي التي وضعت الأسس الأولى للنظام الإداري في دولة الإسلام و كما سنوضح ذلك في المحاضرات القادمة.

بعد أن حط الرسول رحاله نزل في بادئ الأمر في دار أيوب الأنصاري، ثم بنى المسجد ثم أخذ الرسول محمد صلى الله عليه و أله و صحبه و سلم يرسل إلى القبائل العربية من ينظمها في الدين الجديد و يعلمها القرآن الكريم، ثم أخذ التنظيم الأول يتسع في حياة الرسول ρ حيث أخذ ينسب بعض العمال في المدن و القبائل الكبيرة في كل من الحجاز و اليمن و طلب من العمال التعامل مع الناس خيرا و مشاركة الناس في كل شيء و العمل بالحق و العدل، أما أهم واجبات أولئك العمال فإنها كانت تتلخص في:

1. تعليم المسلمين القرآن.
2. تعلم المسلمين الصلاة.
3. و إصدار الأوامر في جمع الزكاة و جبايتها.

و تشير المصادر إلى أن الرسول محمد ρ كتب إلى عمر بن حريش عامله على نجران كتابا في الفرائض و السنن و الصدقات و الهبات.

و قد ذكر خليفة بن خياط المتوفى 240هـ قائمة بأسماء عمال الرسول محمد صلى الله عليه و أله و صحبه و سلم و قائمة أخرى بأسماء عماله صلى الله عليه و أله و سلم على الصدقات، لكن أبن هشام المتوفى سنة (213هـ) الذي سبق خليفة بالقدم ذكر لنا قائمة أخرى بأسماء الأمراء و العمال على الصدقات ملاحظة أنظر أبن هشام،

كتاب خروج الأمراء و العمال على الصدقات ج4 من صفحة264، 247 ، و قد جاءت قائمة خليفة بن خياط في معظمها متطابقة مع قائمة أبن هشام و لكن في زيادة أكثر.

ويمكن أن ندون بعض الملاحظات على أولئك العمال

1. كان الرسول ρ يختار عماله من أولى عمله و أولى دينه و نجدهم على الأغلب من العرب لكي يكون لهم سلطان على المسلمين و غيرهم و هؤلاء يحسنون العمل فيما يتولون ، و كان يوجد من يوصل المعلومات للرسول صلى الله عليه و آله و سلم عن عماله و أخبارهم من ذلك أنه عزل عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي و ذلك لكون نفر من عبد القيس شكى الحضرمي لرسول الله صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم .

وولى بدل عنه إبان بن سعيد و أوصاه أن يكرم سراتهم أي رؤسائهم.

2. محاسبة العمال و استخراج المفروض و قد أستعمل مرة رجلا على الصدقات فلما رجع حاسبه، فقال الرجل هذا لكم و هذا اهدي إليه فقال ρ ما بال الرجل فتستعمله على المال فيحاذر من الله، فيقول هذا لكم و هذا اهدي إليه أفلا مقعد في بيت أبيه و أمه فنظر يهدي إليه أم لا.

3. خصص رواتب للعمال في ذلك أنه فرض لعتاب بن أسيد و أهله على مكة درهم واحدا في كل يوم، فقام عتاب يخطب و يقول أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله درهماً في كل يوم فليس بي حاجة إلى أحد.

4- يأمر رسول الله محمد ρ عماله أن يسيروا في الناس سرة حسنة وأن يعدلوا نقل ابن هشام عن ابن إسحاق عن عبدا لله ابن أبي بكر رضي الله عنهم، قول رسول الله ρ لمعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن ((يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر وإنك ستقدم على قوماً أهل كتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل شهادة لا إله إلا الله.

ووجه رسول الله محمد ρ علياً ابن أبي طالب كرم الله وجهه وعليه السلام إلى بعض الوجوه ((فأوصاه لقد بعثتك وإنا بك ضنين فأبرز للناس، وقدم الوضيع على الشريف، والضعيف على القوي، والنساء قبل الرجال ولا تدخلن أحد بقلبك على أمرك وشاور القرآن خاصة أمامك)).

5- كان الرسول محمد ρ يستشر أهل الرأي والبصيرة والمشهود لهم بالعقل والعدل وقوة الإيمان والتفاني في سبيل الإسلام وهؤلاء سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ومنهم- حمزة، جعفر، أبو بكر، علي، عمر بن الخطاب، ابن مسعود، عمار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري، بلال الحبش، المقداد بن أسود الكندي.

وهؤلاء القوم سموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم إسلام قومهم، والنقيب هنا بمعنى الضمين وكان الرسول محمد ρ قد استعان بنفر من الصحابة أطلق عليهم الكملة ((أو الكمل)) والكملة فيما قبل الإسلام وأول الإسلام هم الذين كانوا يجيدون الكتابة بالعربية ويحسنون العوم ((السباحة)) والرماية.

كما استعان الرسول محمد ρ بأحد القضاة وهو عبد الله بن نوفل، أما بيت المال فلم يخصص له مكان خاص وإن كان في بيت الرسول محمد ρ، أو في بيوت بعض الصحابة، وإن سبب هو عدم الاحتفاظ بالأموال مدة طويلة لكونها تفرق على المسلمين أي الأموال تعطى للمسلمين حسب الاستحقاق أراد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مرة إحصاء المسلمين فقال ρ { أكتبوا إلي من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبوا له 1500 رجل فلم يكن أول الأمر ديوان كتاب حافظ أي سجل يجمع أسماء الناس.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

لما ولي أبو بكر الصديق τ و أرضاه الخلافة وجد لزام عليه أن يقرر عمال الرسول محمد ρ على أعمالهم ، أضاف عمال جدد أو مسؤوليات جديدة، فجعل أبو عبيدة على بيت المال وترك لعمر بن الخطاب أمر القضاء ولعلي ابن أبي طالب أمر الفتاوى في المشكلات.

وفي عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق أخذ العمال يختارون القضاة ويعينونهم في المناطق المختلفة التي كانوا يولون أمرها، ويذكر بعض المؤرخين أن مشاكل الناس وقت ذلك لا تكاد تذكر إذا قضت سنة لم يأتي رجل إلى عمر ولم يشكوا إليه أحد وتفسير ذلك أن الناس رأوا طبيعياً أن يعطي الإنسان الحق ويقفوا عند حدود الله تعالى، ولا يقترفوا منكر ولا يأكل أموال الناس بالباطل في عهد الخليفة أبو بكر الصديق τ، وفي عهده تجاوزت **الدولة** حدود جزيرة العرب فقسمت على ولايات والولايات إلى عمالات وهي مكة، الطائف، صنعاء، حضرموت، خولان، زبيد، نجران، جرش، البحرين، وهذا يعني أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات واليمن إلى ثمان، والبحرين وما إليها ولاية.

عمر بن الخطاب τ

أما في عهد عمر بن الخطاب τ فعلينا أن نربط نظام الولاية وتطورها ما يلي:-

1- سعة الدولة العربية الإسلامية.

2- إدخال التقاليد الجديدة.

ويمكن أن نذكر المبادئ الأساسية التي أستند إليها نظام الولاية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب τ إلى ما يلي:-

1- كان الخليفة عمر بن الخطاب τ يؤمن بالنظام المركزي أي أنه أراد أن يكون على علم بكل ما يحدث في الدولة لذلك عمل بالمركزية الصارمة على الولايات فأستحدث نظام المشاطرة لمعرفة أخبار الوالي وسيرة في الرعية وربما أستدعى آلية بعض الولات وأخذهم بالمحاسبة فيستعيد جميع الأموال التي جمعوها بعضهم وبخاصة من الهدايا أو غيرها لتذهب إلى بيت المال.

2- مبدأ الاعتماد على العنصر العربي إذا اعتبر عمر بن الخطاب العرب مادة الإسلام فأعزهم ورفض أي إذلال للعرب ومنع ضربهم وأهانتهم لأنه اعتبرهم مادة التحرير والفتوحات، لذلك قام عمر برد السبايا من أهل الردة إلى أهاليهم وقال "إني كرهت أن يعبر السبي سنة العرب" وقال "لا تجلدوا العرب فتذكوهم" وهذا ليس تعصب بقدر ما هو فهم لواقع ومكانة وتقديراً لهم في الإسلام وواقع عربي يفرض نفسه.

3- راعى الخليفة عمر بن الخطاب τ اعتبارات تمليها الظروف المحلية للمناطق فمثلاً ما ينطبق على اليمامة قد لا ينطبق على الشام أو مصر كذلك سمع لبعض الولايات بتصرفات تتيح لهم أداء حياتهم بصورة تامة.

4- إقرار الولاة وإعطائهم حرية للعمل واسعة مع (رقابة وتشديد وفرض عليهم واجبات دينية ودنيوية وجعل على كل منهم عين تراقبه وطالما أكد عليهم الحرص على أقامة الصلاة والعدل والزهد في العيش وعدم قبول الهدايا.

5- كان الخليفة عمر بن الخطاب τ يجمع بين الشدة واللين في إقامة الحدود وكان τ يقيمها على أقرب الناس إليه فقد حد في الخمر أبنه وعاقب ابن عمر بن العاص عامله على مصر.

عثمان بن عفان τ

فقد حافظ عثمان بن عفان على الأوضاع التي وضعها عمر بن الخطاب τ وكان أول كتبة إلى أمرائه ما قاله لهم "خير وضع لكم عمر فلا يغيب عن بال أحدكم حق ولا ينطلي عن أحدكم تغير ولا تبديل في غير الله ويحكم ويتبدل لكم غيركم".

وأمر عماله أن يعدلوا في السيرة ويعطوا المحتاجين ما لهم ويأخذوا ما عليهم من ذلك ما قاله لعمال الخراج خذوا الحق وأعطوا الحق والأمانة تقوم عليها ولا تكونوا أول من يسلبها الوفاء وأكثر من هذا فإنه كتب إلى الأمصار أن يوافقوه كل موسم هم ومن يشكوهم وحق الناس بأن يأمر بالمعروف وينهوا عن المنكر وألا يذل المسلم نفسه.

وكانت فلسفة عثمان أن صح التعبير في إدارة الدولة هي الأخذ بمبادئ الاعتماد على الأكثر ولاء وإخلاصا لعهده، فظن أن ذلك يتحقق بالاعتماد على ذوي القربى. وهذا الأمر جلب الوبال.

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

فكانت طريقته بالإدارة غير مختلفة عن طريق من سبقوه من الخلفاء الراشدين ψ أجمعين وكان الإمام علي عليه السلام يولي العامل ويطلق يده في الأمور على الجملة ويتتبع سيرته، وطالما حث عماله على العيش بالميسور والرفق بالرعية وكان عليه السلام يضع المنهاج الذي يسيرون عليه وقد انطوت وصايا الإمام علي الكثيرة لعماله على هذا الجانب فقال لأحد عماله "ولا تضرب أحد منهم في سوطاً في درهم ولا تقمه على رجلة في درهم" وكتب إلى عامله الأشتر النخعي قائلاً له "وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإنه في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم... وليكن نظرك في عمارة الأرض وأبلغ من نظرك في استجلاب الخراج... ومن طلب الخراج قبل عمارة الأرض أضر البلاد وهلك العباد" وكان كرم الله وجهه يدعو عماله إلى اللين في معاملة الرعية وفي الوقت نفسه كان يبدي شدة على من تطاول من عماله على الرعية أو مد يده إلى أموال الدولة بغير وجه حق وكان كرم الله وجهه في أثر عنه إن كان يختار عماله من الصحابة الكرام لشقه بهم.

وكان عليه السلام يطبق القيم والمبادئ الإسلامية بحذافيرها وبأسلوب الفروسية العربية.

تاريخ الوزارة

وفي مستهل العصر الأموي يبرز أمامنا دور الجيش العربي الإسلامي والذي تقع عليه مسئولية مواصلة نشر الإسلام وحماية من أعدائه وحماية الدولة من الأخطار الخارجية وبخاصة الروم فلا عجب إذا ما رأينا بروز ولاة جمعوا في شخوصهم القابليات العسكرية والإدارية، وشهدت التنظيمات الإدارية في العهد الأموي تطوراً مهماً فظهرت نظم جديدة مثل الوزارة وقيام الدواوين وعملها والتي أنيطت بها مهمات مختلفة حسب التغيير الذي طرأ على نظام الحكم وهذا سوف ما نتحدث عنه في سياق هذه المحاضرة وسوف تكون البداية هو الحديث نظام الوزارة ودورها في إدارة الدولة العربية الإسلامية، وكذلك نتطرق عن كيفية نشوء الوزارة ولماذا أوجدت وما هو أصل هذه التسمية وهل هناك صفات يتصف بها الوزير وأنواع الوزارة وكيفية اختيار الوزير وما هي علاقة مؤسسة الوزارة بمؤسسة الخلافة وكيف تسير الأمور بينهما.

الوزارة

قدم الكثير من المؤرخين القدماء اجتهادا في تعريف الوزارة، الوزير كلمة مشتقة من الوزر وهو الثقل، لأن الوزير يحمل أعباء الدولة أو من الوزر وهو الملجأ والمعتصم، بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره، قال ابن خلدون في مقدمة "أعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه، فما منك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعبده، وقد طلب موسى (υ) من الله سبحانه وتعالى أن يمده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال "وأجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري" سورة طه/آية 31.

أما إذا أريد بالوزارة أستعانه السلطان أو الأمير بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم، فهي تتصل بصدر الإسلام، لأن الرسول الكريم محمد ρ كان يشاور أصحابه في الأمور العامه والخاصة ويخص أبا بكر τ ببعض الأمور، حتى أن العرب كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي، كذلك كان حال عمر بن الخطاب مع أبي بكر τ، فقد كان يشرف على القضاء ويقوم بتوزيع الزكاة، وكذلك كان شأن عثمان وعلي مع عمر رضي الله عنهم فإنه كان يستعين بهما أو يستنير بأرائهما ويعهد إليهما في القيام بالكثير من أمور الدولة والنظر في أحوال الرعية.

وكان علي كرم الله وجهه يقوم بالقضاء بين الناس وبكتابة الرسائل وفداء أسرى المسلمين.

وكان هؤلاء الأعوان يعملون عمل الوزير، وأن كان اسم الوزير لم يطلق عليهم، لأنهم لم يكونوا في حاجة في تلك الفترة لهذا المنصب أو لهذا النظام لبساطة الإسلام وبعده عن أبلة الملوك.

وكان الخليفة يستعين في إدارة شئون الدولة بمجلس يتألف بمجموعة من الصحابة، وكان لا يقطع أمراً دونهم لذلك كان نظام الحكم في ذلك العصر نظامي ما يسمى اليوم ديمقراطي جمهوري.

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية وتحولت إلى ملك وراثي، أخذ الخلفاء الأمويون يختارون بعض ذوي الرأي ليستعينوا بهم وبآرائهم، فكان هؤلاء يقومون بعمل الوزير وإن لم يلقبوا بلقب الوزير، ومع ذلك أننا نجد ، زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان، ورواح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك بن مروان.

والوزارة تأتي بالدرجة بعد الخلافة من حيث الأهمية في إدارة الدولة ونظامها، وكما أشرنا في هذه المحاضرة إلى تعريفات الوزارة وتقول أن التعريفات التي قيلت عن الوزارة، فهي تستند في مجملها أما من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو اللغة وغير ذلك.

ومهما يكن اشتقاق كلمة الوزارة التي أختلف بشأن لفظها سواء كان ذلك من الوزراء أو المؤازرة فهي في جميع الأحوال بغض النظر عن الأصل اللغوي فإنها تدل على المساعدة والمشاورة باعتبار أن الوزير هو الساعد الأيمن للخليفة.

ولأهمية ما ذهب إليه بعضهم في نسبة أصل الوزارة إلى الآرامية أو الفارسية أو غير ذلك إذ أن اللفظة عربية وردت في القرآن الكريم وإن كانت تعني شيء آخر يختلف عن الوزارة بتطورها اللاحق، أما كون وظيفة الوزير عرفت في الحضارات القديمة وبخاصة في حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل فإن الوزراء لم يكونوا وزراء بالمعنى الذي نقصده وإنما كانوا معاونين أو مستشارين للملوك وقت ذاك.

ويمكن القول أيضاً أن الوزارة لم تظهر إلى حيز العمل إلا في العصر العباسي، أما قبل ذلك لم يكن المنصب موجوداً، فالمسعودي يشير إلى عدم وجود الوزارة عند الأمويين ويضيف ابن خلكان عند الكلام عن أول وزير عباس فيقول ولم يكن قبله من يعرف بهذا المنصب لا في دولة بني أمية ولا غيرها، وجاء في الفخري أن الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرب قوانينها إلا في دولة بني العباس. وأول وزير عند نشأة الدولة العباسية هو أبو سلمة الخلال والذي سمي وزير آل محمد.

ومهما يكن في شيء، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم كما أسلفنا حيث يقول جل وعلى على لسان موسى ʊ "وأجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمر" سورة طه/31 وكذلك قوله تعالى "ولقد أتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً" سورة الفرقان

بيد أن الظروف كانت مواتية لاستحداث منصب الوزير الذي ظهر بظهور دولة بني العباس، حيث كان أبو سلمة الخلال أول وزير وسمي وزير آل محمد وكانت الخلافة الأموية قد خصت بعض ممن حولها وميزة بالكاتب وقد أختص الكاتب بشقه الخليفة كما هو حال عبد الحميد الكاتب.

إنما تولي أول وزير عباس من الفرس أي في عصر العباسيين الأول وهو أبو سلمة الخلال الموريانى ثم البرامكة، بنو سهل، فإنما محاولاتهم تجاوز سلطة الخليفة وحاولوا السيطرة على أجهزة الدولة الإدارية والمالية في وقت كان فيه السلطان أو الخليفة العربي قوياً لا يسمح لأي عنصر أجنبي أن يتطاول على الخلافة.

ونود أن نؤكد على الفكرة الأساسية التي يجب أن نضعها أمامنا دائماً في دراستنا وهي أن الوزارة أن استحدثت أساساً لمعاونة الخليفة وتطورت بتطور النظام الإداري والمالي وصار لها على مر السنين تقاليد راسخة ومراسيم معقدة.

فكلما تعقدت الدولة وزادت مرافقها نمواً وتطوراً نجد أن ذلك ينعكس على مصب الوزارة ليزداد تعقيداً وأهميةً وبغض النظر عن التفاصيل فإن الصراع حول السلطات الإدارية والمالية وغيرها، هو الذي دعا الخلفاء الأقوياء، إلى أخذ المبادرة قبل أن تفلت الأمور من أيديهم، وهذا يعلل لنا اتخاذهم المواقف المتشددة من الوزراء الأعاجم الذين حاولوا سلب صلاحيات وهو ليس من صميم اختصاصهم.

صفات الوزير

لما كان منصب الوزير يتطلب صفات تليق بالشخص الثاني في الدولة باعتباره المنفذ للسياسات المالية والإدارية والمشاور الأول للخليفة، والمرجع الفعلي لجميع ما يتصل بحفظ أو سلامة سير الأمور خاصة حيث كثرت واجبات الخلافة وتعقدت المسئوليات وازدادت حاجات المركز والأقاليم عند أخذ تعدى الكتاب إلى وضع تقييم وصفات وسجايا ومثل عليا، افترض إنها يجب أن تتوفر في الوزير، لكننا يجب أن تقر أن هذه الصفات أقرب للخيال منه إلى الواقع، فالمثل العليا التي وضعوها وأرتئ توفرها جميعاً في شخص يختار لمنصب الوزراء يكاد يكون أمراً متعذراً.

ومهما يكن فيمكن أن تقول أن الصفات الواقعية التي يجب أن تتوفر في الوزير.

1 - أن يكون خبيراً بشئون المالية وجباية الضرائب والشؤون الإدارية.

2- أن يكون له إطلاع واسع على ما يجري في أرجاء الدولة.

3- يجب أن يكون عفيفاً نزيهاً يرفض الرشاوي ويتعفف عن مد يده إلى أموال الدولة – أو على أموال الآخرين، شرط النزاهة هذا أكد عليه جميع المهتمين بدراسة السير الواقعي لتاريخ الوزارة في العصر العباسي منطلق من عدم النزاهة في العصور المختلفة.

4- أستند الوزارة إلى تقاليد الكتابة إذ أن الكتابة هي التي قدمت الرصيد للوزارة، أي أفترض في الوزارة أن يكونوا كتاب في الأصل حسني الخط وسليمي المعرفة والخطابة، أي أنهم يستطيعون أن يخطوا ويكتبوا ويصيغوا القوانين والوثائق والتقارير بشكل دقيق.

5- وأضافوا صفات أخرى تركز على الصفات الخلقية كصدق الذاكرة القوية والظهور بالمظهر اللائق في مجلس الخليفة، وهذا ما يسمى اليوم بالعادات الاجتماعية الراقية.

والوزارة نوعان:

1 - وزارة التفويض وهي: أن يفوض والوزير من قبل الخليفة في تمشية أمور الدولة بدون العودة إلى الخليفة إلا في بعض قليل منها أي يمكن القول عن هذه الوزارة أنها مطلقة.

2- وزارة التنفيذ: وهي وزارة مقيدة وصلاحياتها محددة.

حكي عن المأمون عندما أختار وزير تفويض أنه قال "أني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفة واستقامة في طرائقه وقد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ان أؤتمن على الأسرار قام بها وأن قلد مهمات الأمور نهض بها يسكنه الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء وأناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء أن أحسن إليه شكر، وأن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غيره، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه" هذه صورة نافعة جامعة لما يجب أن يتصف به وزير التفويض.

وعلى الوزير المفوض أن يطلع الخليفة على شيئين يقوم بهما الأول: يبلغ الخليفة عن حركته اليومية وخصوصاً في مجال المراسيم والأوامر التي يصدرها.

والثاني: لا يتدخل بما يقوم به الخليفة.

أما وزارة التنفيذ (فحكمها أضعف وشروطها أقل لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام ((الخليفة)) أنظر الأحكام السلطانية صفحة 44.

ومهمة هذه الوزارة

1- الوساطة بين الخليفة والرعية أي أنه حلقة الوصل بين جماهير الناس والخليفة ينقل ما يحتاجون وما يردون من الدولة ويبلغ بأوامر وقرارات الخليفة.
2- إبلاغ العمال وحكام الأقاليم وقادة الجند والولاة بما يرغب ويريد الخليفة، وكذلك إعلام الخليفة بسير وعمل الولاة والعمال وحكام الأقاليم وقادة الجند وغيرهم.

وفي هذه الوزارة يجوز تكليف غير المسلم، وذلك لكون هذه الوزارة وزارة تنفيذ أنها تقوم بتنفيذ أوامر الخليفة فقط ولا تمتلك أية صلاحيات مثل وزارة التفويض.

وقد حدد الماوردي أربعة فروقات بين الوزارتين " أحدهما أن الحرية مقيدة في وزارة التفويض وغير مقيدة في وزارة التنفيذ، والثاني أن الإسلام مقيد في وزارة التفويض وغير مقيد في وزارة التنفيذ والثالث العلم بالأحكام الشرعية مقيد في وزارة التفويض وغير مقيد في وزارة التنفيذ والرابع أن المعرفة بأمري الحرب والخراج مقيدة في وزارة التفويض وغير مقيدة في وزارة التنفيذ"

الماوردي الأحكام السلطانية صفحة 47.

الوزارة في العصر العباسي الأول، أن الملاحظة التي تسترعى النظر في الوزارة في العصر العباسي الأول أنها بين مد وجزر ويتوقف مصير الوزير على مدى التزامه بالواجبات المنوطة به وأنه كلما كان الخليفة قوي، كلما كان أستطاع أن يحدد مركز الوزير في عهد الخليفتين العباسين أبو العباس وأبو جعفر المنصور مثلاً، كان الوزراء أشبه بكتاب أو بالأحرى وزراء تنفيذ يخشون الخليفة القوي ويلزمون بهدي الواجبات المحددة خاصة وأن مصير أبي سلمة الخلال ارتسم في أذهان من جاء بعده من الوزراء وبغض النظر عن التفاصيل، فإن المنصور لم يسمح بإعطاء صلاحيات واسعة للوزارة.

وكلما تقدم الزمن كلما استقرت الخلافة العباسية وتنظيماتها وأمورها الإدارية تقدماً، فإذا بلغنا عن عهد الخليفة العباسي المهدي 158 – 169هـ كانت الدواوين قد نظمت واحتاجت إلى خبراء إداريين وكتبة كثيرين ومن ثم تكون هذه كلها تحت أشراف الوزير ومن هنا أختار المهدي وزراء متضلعين في الحسابات والأمور المالية وكانت وزارته أيضاً وزارة تنفيذ.

تشغل قضية البرامكة والإيقاع بهم حيزاً في التاريخ العباسي ولكنه حيز مبالغ فيه كثيراً فقد كانت غير واقعية تحاول الإقلال من شأن الخليفة هارون الرشيد، مثله ناقشها المؤرخون القدامى، وينسوا سبب الإطاحة بالبرامكة، وهو تجاوزهم المالي والإداري الذي انعكس في جملة أمور خرجت عن الوزارة وهي محاولة تدخلهم في بعض واجبات الخليفة الشرعية مثل ديوان الخاتم وفي سك العملة هذا إلى جانب استحواذهم على الدعاية وإحاطة أنفسهم بهالة من الشهرة بذخهم الواسع وتبذيرهم الأموال وأستجلبهم للمؤيدين، كل ذلك أقنع الخليفة هارون

الرشيد ذلك الخليفة الصالح القوي والمحارب الشجاع أن يسترجع صلاحياته، فكأنه جرب وزارة كانت وزارة كانت قد أعطيت السلطة المطلقة، ثم أكتشف النتائج السيئة لذلك فعاد وقرر استرجاع هذه الصلاحيات.

وقد تكررت التجربة في عهد المأمون فقد أدى له آل سهل خدمات كثيرة خلال صراعه مع أخيه الأمين فكافئهم بتفويض الوزارة إليهم وأطلق أيديهم فيها ثم أكتشف بعد أن استقرت الأوضاع وتطلع لمعرفة سكانه تمرس بالتيارات السياسية السائدة في عهده.

فأوقفهم عند حدهم، فعاد فعله أبيه بالبرامكة وإعادة الصلاحيات لسلطة الخليفة وقصر العمل الوزاري على وزارة التنفيذ محدودة الصلاحيات.

ومن هذا التوجه فإننا نقف عند حقيقة مهمة وهي: لم يكن يبرز وزير في العصر العباسي الأول يطغى على سلطة وشخصية الخليفة العباس في تلك الفترة إلا ولقي مصيراً سيئاً، فقد قتل أبو سلمة الخلال وحل محله خالد البرامكي الذي لم يتلقب بلقب وزيراً تشائماً. وحينما حاول أبو أيوب المورياني أن يسيء فتعرض رغم أنه من أبرز الإداريين والكتاب القديرين فقد لقي مصيراً سيئاً كذلك، ولأن الخليفة أبو جعفر المنصور كان قوياً فقد جعل الوزارة والمحيطين به أشبه بالكتاب لديه وكان من حوله وزراء قديرين، لكنهم كانوا من طراز وزارة التنفيذ ولعل أبرزهم عبد الله بن يسار والذي يعبر فذاً بالكتابة والإدارة ويعقوب ابن أبي داود والحسين بن الصباح الذي حظي بثقة الخليفة أن الفترة القائمة بين (247هـ إلى 334هـ هي فترة سيطرة الأتراك العسكرية، وفي هذه الفترة تولى الوزارة أسر أكثر من مرة بحيث أصبحت فيهم شبه وراثية لخبرته وتفضلهم مثل آل الفرات. وآل الجراح وآل خاقان وغيرهم.

وفي هذه الفترة أو في هذا العصر ضعف أكثر الخلفاء وكثر عبث الوزراء فالعباس ابن الحسن مثلاً والذي عرف بسوء سيرته هو الذي أختار المقتدر العباس للخلافة وذلك سنة 269هـ وهو الذي أدى إلى عزله عين ابن المقتدر في نفس السنة، وفي عصر المقتدر القلق الذي أمتد قرابة ربع قرن و 295هـ إلى 320هـ نجد أن أربع عشر وزيراً فيهم الأفذاذ القادرون وفيهم التافهون المرتشون حيث تولى الحسن ابن الفرات وهو من أكفاء الإداريين والماليين ومن كبار المثقفين فقد تولى الوزارة ثلاثة مرات عام 304هـ وعام 306هـ و 311هـ ولم يزع الأمين لكنه أتهم بأنه متآمر على الخلافة وهناك علي بن عيسى الجراح الوزير الصالح النزيهة العالم المتواضع الذي شهدت الدولة في أيامه أعظم الإصلاحات وقد رفض أن يستلم راتباً وحين قلل مصروفات الحاشية وإيقاف البذخ عند حده صيانة للمصلحة العامة أصطدم بالحاشية وصُودرت أمواله وسجن في سنة 314هـ ثم عاد ثانية المقتدر في 316هـ ولكنه نكب في المرة الثالثة.

ويمكن القول بأنه في أوائل القرن الرابع الهجري قد شهد انتقاص صلاحيات الوزير ففي عهد أمره الأمراء توليهم واجبات الوزير ومن جهة أخرى تعقدت مراسيم الوزارة فكان لباس خاص في عمله وهو السواد خاصة أيام المواكب والاحتفالات حيث كان يلبس قباد وسيف بمنطقة وعمامة سوداء.

وكان يحيط بكل وزير حاشية من الخبراء والمحاسبين تنتعش في استيزاره وتبتعد عند عزله وكان الوزير يقول عند استبعاده عن الوزير لقد كتبو متطلقاً.

ونستطيع القول أن أكثر الوزراء الذين تقلبوا في الوزارة في القرن الرابع الهجري وما بعده صودروا وإنما فشلوا بسبب الصعوبات المالية والإثراء غير المشروع وكانت الأموال المصادرة تعاد إلى بيت المال ونلاحظ كثرة

المصادرات حيث يصادر الوزير المتهم عادة من خليفة من الوزراء من نظام المصادرة له نواحي إيجابية لأنه أعاد إلى بيت المال الأموال التي أخذت بغير وجه حق وإذا كانت فترة العشر سنوات طويلة التي تطلق على الفترة الواقعة بين سنوا 324هـ و 334هـ وهي فترة أمير الأمراء كانت فترة اضطراب عسكري واختلال أنعكس على نظام الوزارة وحطم تقاليدها المرعية بحيث أن أمير الأمراء العسكري سلب صلاحيات وواجبات الوزير، فإن سنة 334 تعد حاسمة تاريخ الوزارة لأن الأمير البويهي قام مقام الوزير، وبطل رسم الوزارة حتى قال الصابي في وصف هذه الظاهرة (وزراء الدولة العباسية وكتاب الأيام الديلمية) مشيراً إلى ظاهرة تحويل صلاحيات الوزير إلى كاتب عضد الدولة البويهي.

وبلغت الوزارة حداً كبيراً من الاستهانة عندما اختار بختار الدولة البويهي سنة 364هـ صاحب مطبخة ابن بقية لمنصب الوزارة، وتم ظاهرة أخرى في هذا القرن أيضاً وهي أن عضد الدولة البويهي أتخذ وزيرين في وقت واحد، كان أحدهما نصرانياً وزير تنفيذ وفي القرن الرابع الهجري وما بعده أتخذ الوزراء ألقاب دنيوية مثل علم الدين، أمين الملة، شرق الملك وهذه الألقاب تختلف عن ألقاب الخلفاء ذات الطابع الديني وفي القرن الرابع الهجري وما بعده عظمت ثروة الوزراء فكان ابن الفرات ملك عشرة ملايين دينار وكان كريماً مسرفاً أما علي بن عيسى رغم مزاياه الشخصية الإدارية العالية فكان يملك (17) مليون دينار كما تقول المصادر في نفس الوقت كان بعض الوزراء غير كفوئيين فـ(حامد بن عباس كان تاجراً وليس من الكتاب أما ابن مقلة فهو من أصل اجتماعي متواضع، لكنه كان أعظم خطاً في عصره، أما الخصيب فكان سيء السيرة مهملاً بترك الكتب والرسائل متراكمة ويقوم ابنه بفضها ووضع حلول لها.

ولكن الوزراء العظام كانوا كثيرين أيضاً وتركوا رصيد يعتد به بالتنظيم والتقدم الإداري والمالي وفي رسوم الوزارة اعتبرت نوافذ مشرقة في الحضارة العربية ويكفي أن نذكر منهم على سبل المثال علي بن عيسى وابن الفرات وكذلك الصاحب بن عابد وابن العميد وكافة الآخرين من الأدباء المشهورين ومن الوزراء القديرين.

الدواوين 1- ديوان العطاء

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ولا يردون على ذلك مالاً ولا جزاء إلا من عند الله، وقد بذل بعضهم كثيراً من ماله في وجوه البر والإحسان ولم يفرض لهم النبي محمد ρ ولا الخليفة الأول أبو بكر الصديق τ عطاء مقرراً للمقاتلة من الجنود، لكن جرت العادة أنهم إذا ما زوغ بلداً من البلدان وأخذوا نصيبهم من الغنائم بحسب ما تقره الشريعة الإسلامية الحنيفة، وإذا ورد إلى المدينة شيء قسمه النبي محمد ρ في المسجد وجرى الأمر على هذه الشاكلة إلى سنة 15 هـ ولما توالت حروب التحرير والفتوحات العربية الإسلامية، وأصبحت الدولة العربية تملك ثروة وقدرات مالية حصلت عليها بعد تحرير العراق من الفرس وفتح بلاد فارس.

رأى عمر بن الخطاب τ بعد أن أصبح خليفة توزيع هذه الأموال على المسلمين ابتداءً من المقاتلة مراعياً في هذا مراتبهم ومبلغ استحقاقهم، ولهذا قرر العرب إقامة الديوان وكتابة أسماء الجند فيه، والديوان هو السجل أو الدفتر الذي تحفظ فيه أسماء الناس وأطلق أسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان يقول الماوردي "الديوان موضع الحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال " الماوردي/الأحكام السلطانية صفحة 307.

ومن المعلوم أن الديوان قد أستحدث أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب τ بعد أن أزدادت الواردات المالية وغيرها إلى بيت المال تتطلب الأمر أن تنظم عملية توزيع الأموال على المسلمين ويقول ابن خلدون عن الديوان "وظيفة الديوان بأنها تعني القيام على الجبايات وحفظ حقوق الدولة والداخل والخرج وإحصاء العسكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أوقاتها" الدواوين مثل ديوان العطاء وديوان الجند.

ولما أصبح الخليفة عمر بن الخطاب هو على رأس الدولة العربية الإسلامية، تجاوز الخليفة عمر بن الخطاب τ

حدود سلطة الخليفة الأول أبو بكر الصديق τ بإتخاذه برأيه الشكل المؤسس للدولة متجاوباً مع تحديات المرحلة وظروفها الجديدة فقد أصبحت المدينة عاصمة دولة واسعة الأطراف تدار منها آلة الحكم بصورة مركزية فجاء ظهور الديوان أستجابة لاتساع مواردها ومراقبة أموالها وتحركات جنودها ومؤشراً للأنتقال من القاعدة البسيطة للمعاملات القائمة على التوزيع المباشر للدولة إلى قاعدة منظورة في تنظيم عائدات الخلافة أو الدولة وطريقة توزيعها حسب جداول وإحصاءات دقيقة بأشراف صاحب بيت المال الذي كان يتمتع بسلطة واسعة وقد أشار ابن تيمية في كتاب السياسة الشرعية إلى ذلك حيث ذكر بأنه لم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد رسول الله محمد ρ وأبي بكر الصديق τ بل كان يقسم المال شيئاً فشيئاً.

فلما كان زمن الخليفة عمر بن الخطاب τ كثر المال واتسعت البلاد وكثر الناس فجعل ديوان العطاء للمقاتلين، وكان المسلمون هم الجند وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا وكانوا لا يريدون على إسلامهم ونصرة نبيهم جزاء وبسبب تتابع وصول الأموال رأى عمر بن الخطاب التوسيع على المسلمين وتوزيع تلك الأموال وقد أكد الطبري ذلك فقال "أن عمر بن الخطاب فرض الفرض للمسلمين ودون الديوان في العام الخامس عشر للهجرة أما عن سبب وضع ديوان العطاء "أن أبا هييبرة قدم إلى الخليفة عمر بن الخطاب بمال من البحرين فقال له عمر لماذا جئت به فقال خمسائة ألف درهم فأستكثره عمر فقال له أتدري ما تقول؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات فقال عمر أطيب هو، فقال لا أدري فصعد عمر المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا وإن شئتم عددنا لكم عداً" وروي عابدين يحيى عن الحارث بن نفيل أن عمر τ أستشار المسلمين في تدوين الديوان فقال له علي أبن أبي طالب رضي الله عنه تقسيم كل سنة ما أجتمع إليه من المال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان ابن عفان τ أرى مالاً فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، فقال خالد بن الوليد τ قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً

وجندوا جنوداً فدون ديواناً وجند جنوداً فأخذ يقوله "عن عقيل أبن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من شبان قريش وقال أكتبوا الناس على منازلهم فبدءوا ببني هاشم فكتبوهم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ثم رفعوه إلى عمر، فلما نظر فيه قال لا: ما وددت أنه كان هكذا ولكن ابدءوا بقرابة رسول الله ρ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله فشكره العباس رضوان الله عليه على ذلك وقال وصلتك رحم وروى زيد بن أبن أسلم عن أبيه أن بني عدي جاءوا إلى عمر فقال أنك خليفة رسول الله، فلو جعلت نفسك حيث جعلك الله سبحانه وتعالى وجعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا فقال بخ بخ يا بني عدي أردتم الأكل على ظهري وأن أذهب حسناتي لكم لا" الماوري الأحكام السلطانية صفحة 307 – 308.

ثم أمر الخليفة عمر بن الخطاب دفع ديوان العطاء أو ديوان الجند ونظم من حيث الترتيب العام إلى ثلاثة أقسام أو أسس :

1- أساس النسب والقرابة من رسول الله ρ قبيلة بعد قبيلة.
2- أساس السبق في الإسلام وحسن الأثر في الدين.
3- أساس التفاضل عند انقراض أهل السيف بالتقدم بالشجاعة والبلاء والجهاد.

أما من حيث الترتيب الخاص هو ترتيب الواحد بعد الواحد حسب السابقة في الإسلام فإن تقاربوا في الدين فإن تقاربوا فيه فإن السن فإن تقاربوا فيها فالشجاعة فأن تقاربوا فيها فإن الخيار من القرعة والاجتهاد، ولم يغفل الديوان من أسلم من غير العرب في العطاء فقد فرض لهم الخليفة مقدار معلوم من المال.

وديوان الجند أو العطاء خصص لعطاء الجود، أما ديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء، وانحصرت الأعمال الإدارية في عهد بني أمية في أربعة دواوين أو إدارات رئيسية هي:

1- ديوان الخراج.
2- ديوان الرسائل ويشرف صاحبه على الولايات، والرسائل التي ترد من الولاة.
3- ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة.
4- ديوان الخاتم، وقد أنشأه معاوية بن أبي سفيان وكان أكبر دواوين الدولة العربية الإسلامية، ويقوم موظفوه بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان،

ويرجع السبب في إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية أبن أبي سفيان أحال رجلاً على زياد ابن أبيه عامله على العراق بمائة ألف درهم فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب وكانت توقيعاتهم غير مختومة وجعل المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدد وقال "ما أ:لته إلا بمائة ألف" ثم أستعاد المائة ألف من الرجل ووضع ديوان الخاتم، فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها في شيء" أنظر الفخري صفحة 102.

على أن ختم الرسائل والصكوك كان قبل ذلك، فقد روى أن النبي ρ لما أراد أن يكتب إلى هرقل إمبراطور الروم، قيل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فأتخذ الرسول محمد ρ خاتماً من فضة ونقش فيه. "محمد رسول الله". ثم ختم به أبو بكر وعمر وعثمان إلى أن سقط من يد عثمان في بئر اريس، فصنع آخر على مثاله. وكان ديوان الخاتم يعد من الدواوين الكبرى منذ خلافة معاوية إلى أواسط عهد العباسيين، ثم الغي لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم.

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه. منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة وما هو خاص بنفقات الجند.

يقول سيد أمير علي: إن النظام الإداري والسياسي في الدولة العربية الإسلامية على عهد دولة الأمويين لم تكن من عمل معاوية بل إن عبد الملك هو الذي وضع هذا النظام فقد صبغ الإدارة المالية بالصبغة العربية وبتحويلة الدواوين إلى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين العرب وقام الحجاج بن يوسف الثقفي بتنفيذ سياسة عبد الملك.

ويعتبر إصلاح العملية من أهم الأعمال والإنجازات العربية الإسلامية وقد تحقق ذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وهي تدل عن حسن سياسته وبعد نظره، إذ لم تكن في الدولة العربية عملة مقررة إلى ذلك الحين، حيث كانت كل ولاية تقوم بضرب العملة داخلياً في دار الضرب التي لديها، على أنها لم تفي بالغرض المطلوب لعدم ضبط معيار هذه النقود وظهور تزييفها، ولأجل ذلك بنى عبد الملك داراً للضرب، وأمر بسحب العملة في جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية وضرب بدلها عملة جديدة من الذهب والفضة، وكان يعاقب كل من يزيف العملة عقاباً صارماً، وكذلك تحول ديوان الخراج في مصر إلى العربية في عهد الملك الوليد بن عبد الملك حيث حذى حذو أبيه في هذا المجال.

تعريب الدواوين و أهمية ذلك للدولة العربية الإسلامية والتي تعتبر من الأمور المهمة من الأمور المهمة التي قامت بها الدولة الأموية حيث كانت تكتب بالرومية في بلاد الشام و الفارسية في العراق و القبطية و اليونانية في مصر و قد استوجب هذا التعريب سياسة الدولة التي سار عليها بني أمية و استقرار الدولة و تثبيت كيانها و سيادة اللغة العربية إن التعريب هو عبارة عن استكمال للسيادة السياسية والاقتصادية للدولة العربية الإسلامية و باستكمال التعريب الذي استغرق لأكثر من عشرون سنة استقلت الدولة العربية الإسلامية عن أي تبعية أجنبية، و تعريب الدواوين تبعه عمل أخر و قد أشرنا إليه في هذه المحاضرة و هو تعريب الدواوين و أن تعليل الدوافع للتعريب تكمن في عدة أمور وهي:

1- الدولة البيزنطية تستطيع متى تشاء أن الورق و القطامى و الطوابير و العملة الذهبية عن الدولة العربية الإسلامية و الواقع أن العرب ضحوا بيدهم لأول مرة على عدة موارد جديدة من الذهب بينما كانت مناجم الذهب تحت السيادة البيزنطية و قد أدت حركة الفتوحات إلى تحويل هذه المناجم إلى السيادة العربية فلم يعد هنالك من داعي للاعتماد على النقد البيزنطي بل أن الميزان التجاري قد تحول لصالح العرب و صارت العملة الإسلامية هي العملة العالمية في التجارة.

كانت حكومة الدول التي قامت في بلاد العرب قبل الإسلام ذات منهج ديمقراطي كما يسمى و هذا متأتي من كون القبيلة في البلاد العربية أو القبيلة العربية قبل الإسلام كانت كل قبيلة تشكل وحدة إدارية مستقلة عن القبائل الأخرى، و كانت العلاقات بين شيخ القبيلة و أفرادها علاقات ديمقراطية، و لن يحل أي أمر إلا بالمناورة و الإتفاق بين رؤساء العشائر في أية قبيلة عربية يحدث في مشكلة سواء كانت تلك المشكلة داخلية أو خارجية مع قبيلة أو قبائل أخرى، حيث يدعو كبير القبيلة أو شيخها الأعلى إلى إجتماع لهؤلاء الرؤساء لتدارس الأمر، و في كل الأحوال لم يكن هناك قانون مكتوب يحل النزاعات أو أي شيء ينشب داخل القبيلة بل كانت المشاكل تحل حسب ما هو متعارف عليه أو العرف و الذي هو بدوره يقام مقام القانون.

و لما ظهر الإسلام أحل الوحدة الدينية القومية محل العصبية القبلية، و أصبح العرب المسلمون عند ظهور الإسلام متساوون في كل شيء إمتزجوا في تلك البودقية الإلهية العظيمة و التي لم تبتعد كثيرا عن القيم و التقاليد العربية الأصيلة حيث أكد الإسلام على التساوي بين الخلق و خصوصا تلك الأمة التي جاء بها الإسلام لكي يجعل منها أمة عظيمة وهي أمتنا العربية و جاء قوله بالمساواة بين الناس و ترك العصبية القبلية و الانتقال إلى الوحدة الدينية القومية و من ثم الموقع الذي يحتله الإنسان هو بالإيمان و العمل الجيد لوجه الله و ذلك قوله تعالى ((يا أيها الناس إنا خلقنكم من ذكر وأنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)).

سورة الحجرات / أية 13

و كذلك تأكيده على الوحدة في قوله تعالى ((و أعتصموا بحبل الله. جميعا و لا تفرقوا و أذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم و أصبحتم بنعمه أخوانا)).

أل عمران / أية 103

و كذلك قوله تعالى ((و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم)).

سورة الأنفال / أية 62

أما أتخذ الجانب الديمقراطي أو الشورى كما هو معروف في الإسلام، لم يكن كذلك بعيدا عن حياة العرب و في رد بلقيس حول ما جاء برسالة سليمان حيث قالت كما جاء في الذكر الحكيم ((قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون))

سورة النمل / أية 32

لم تكن حكومة الرسول في المدينة المنورة حكومة دينية و حسب بل كانت حكومة سياسية كذلك، فقد كان ρ **يقود الجيوش الإسلامية و يفصل في الخصومات و يجبي الأموال، ومن ثم** جمع بيديه السلطتين الدينية و السياسية معا على أن السلطة السياسية جاءت عرضا، لأن الفرض الأول الذي بعث الرسول ρ من أجله إنما كان نشر الدين الإسلامي الدعوة إليه.

ولما هاجر الرسول ρ إلى المدينة وضع نظام للدولة العربية الإسلامية، كما أشرنا و كان ينيب عمالا على القبائل و على المدن، و كان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة في الحجاز و اليمن عامل من قبله، يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة و جمع الزكاة.

و من ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية، و قد فرض الرسول ρ العامل الذي يعينه على مكة و هو عتاب إبن أسيد راتبا مقداره درهما كل يوم، فكان هذا الراتب أول ما وضع من الرواتب للعمال في الإسلام و في عموم الدولة العربية الإسلامية و التي كانت تحت قيادة الرسول ρ.

أما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم و غيرها و لما ولي أبو بكر الصديق τ الخلافة أمر عمال الرسول على أعمالهم و قسمت بلاد العرب إلى عدة ولايات و هي مكة، المدينة، و الطائف، و حضرموت، و حولان، و زبيد و رمع أو الجبل في اليمن، و الجند، و نجران، و جرش، و البحرين.

و لما إتسعت الدولة العربية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب τ ، قسم البلاد إلى أقسام إدارية كبيرة ليسهل حكمها و الإشراف عليها و على مواردها و ثرواتها وهي :
ولاية الأهواز، ولاية البحرين، و ولاية سجستان و مكران و كرمان، و ولاية طبرستان و ولاية خراسان و جعل بلاد فارس ثلاث ولايات، أما العراق فقسمه قسمان أحدهما حاضرته الكوفى و الأخرى حاضرته البصرة، و قسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما قاعدته حمص و الثانية قاعدة دمشق، و جعل فلسطين قسما قائما بذاته و قسم أفريقية إلى ثلاث ولايات هي ، ولاية مصر العليا و ولاية مصر السفلى و ولاية غرب مصر و صحراء ليبيا .

و عين عمر بن الخطاب τ على هذه عمالا أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة نفسه و الذي كان يجمع بيده السلطتين التنفيذية و القضائية، و كان أمراء الأقاليم يسمون عمالا و معنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة، و قد أستعملت كلمة والي فيما بعد، و هذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ و السلطان كما كانت الحال مع الحجاج بين يوسف الثقفي و الذي ولى العراق من قبل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان و أبنه

الوليد بن عبد الملك من بعده، كذلك أطلقت عليه كلمة أمير و إن تطور هذا اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة أستبداية التي كان يتمتع بها الولاة على عهد بني أمية.

كما أصبحت كلمة عامل في عهد بني أمية تطلق على رئيس الناحية الإدارية و كان حكام الولايات يلقبون بلقب أمير، ذلك اللقب الذي يطلق على أمراء بيت الملك، و لم تكن ثمة صلة أو رابطة بين لقب أمير و لقب عامل و لقب أمير الأمراء الذي أدخله الخلفاء العباسيون في سنة 324 هـ، و تلقب به قائد القواد مؤنس الخادم الذي لم يعتبر نفسه أميرا قط، ثم جاء كافور الإخشيدي فرض بأن يلقب بلقب أستاذ.

و كان في كل إقليم عامل (أو وال أو أمير) يقوم بإمامة الناس في الصلاة و الفصل في النزاع و قيادة الجند و جمع المال و ما إلى ذلك و كان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال، و كان يعمل مع الوالي جنبا إلى جنب، هذا يدير دفة السياسة و ذاك يتولى شؤون الدولة المالية، و كان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي مما أدى إلى تنازع السلطة و قيام المنافسة بينهما الأمر الذي يعلل قصر عهد الولاة و عمال الخراج و كان عامل الخراج يعين من قبل الخليفة مباشرة و لكن الأمير كان يتمتع بالسلطة المطلقة، و قد ذكر الطبري أسماء ولاة الأقاليم في الدولة العربية الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب τ ، ثم في عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي إتسعت رقعة الدولة في عهده بشكل كبير.

و الخليفة عمر بن الخطاب τ هو أول من وضع النظام السياسي للدولة العربية الإسلامية و كذلك نظام الإدارة، و كانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب τ **تهدف فيما تهدف إليه هو تماسك بلاد العرب و إدخال القبائل بعضها في بعض لتكون أمة و واحدة هي الأمة العربية ، و كانت تهدف سياسته إلى عدم إختلاط العرب مع شعوب الأقاليم التي فتحها ، لكي لا تضيع قوميتهم و يذكر البعض عن دور الخليفة عمر بن الخطاب حيث يقول أحدهم في تاريخه لو أن عمر بن الخطاب** τ عاش أطول مما عاش لاستطاع وهبه الله قوة الشكيمة و الحنكة و الشخصية البارزة القوية أن يقوي من شأن الوحدة العربية و يحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة و التي هددت كيان الدولة العربية الإسلامية و الإسلام .

و قد أختار الخليفة عمر بن الخطاب τ **الولاة من العرب، و سار على هذه السياسة من جاء من بعده من الخلفاء الراشدين و الأمويين.**

روي عن الطبري، أن الخليفة عمر بن الخطاب τ خطب الناس يوما فقال:

أيها الناس إني و الله ما أرسل لكم عمالا ليضربوا أبشاركم ((و يقصد بها جلودكم)) ولا ليأخذوا أعشاركم ((و يقصد بها أموالكم))، و لكن أرسلهم ليعلموكم دينكم و سنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فوثب عمرو بن العاص و قال: رأيتك يا أمير المؤمنين كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه !

قال عمر بن الخطاب τ أي و الذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، و قد رأيت رسول الله

ρ يقص من نفسه، ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الأمراء و ظلم الولاة فقال:
((ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم، فتفتنوهم، و لا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم)).

ناهيك بما فعله عمر بن الخطاب τ بولد عمرو بن العاص و بجبلة بن الأيهم حين حكم بالقصاص لكل منهما لواحد من السوقة.

و كان عمر بن الخطاب τ يسأل الرعية إذا وفدت عليه في موسم الحج أو في غير موسمه عن حال أمرائهم و سيرتهم فيهم روي عن الأسود بن أبي زيد قال:
كان الوفد إذا قدموا على عمر، مألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول:
هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول: هل يعود العبد !
فيقولون نعم، فيقول كيف صنيعه بالضعيف ! هل يجلس على بابه، فإن قالوا لخصلة منها لا، عزله.

و كان عمر بن الخطاب τ لا يولي عاملا إلا إذا كتب له عهدا و أشهد عليه رهطا من المهاجرين و الأنصار، و أشترط عليه ألا يركب برذ وناقة ((أي حمارا)) و لا يأكل نقيا و لا يلبس رقيقا و لا يتخذ بابا دون حاجات الناس.

الامارة على الاقاليم

كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد أحوال الرعية بنفسه، ويطوف في الأسواق وهو يقرأ القرآن ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم، بل أنه قد عزم الطوائف في الولايات في الدولة العربية الإسلامية.
ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها فقد روى أنه قال: لئن عشت أن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، ولله لنعم الحول هذا.

كما رسم الخليفة عثمان بن عفان السياسة التي يسير عليها عماله في الولايات والأقاليم في الدولة وفي هذه العبارة التي أوردها الطبري في حوادث سنة 24هـ فقد كتب إلى عماله أي عثمان بن عفان رضي الله عنه ((أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك أنقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

والأمارة على البلدان نوعان:

1- إمارة عامة.
2- وأمارة خاصة.

والعامة أي الإمارة العامة نوعان:

أ- إمارة استكفاء بعقد عن اختيار.
ب- إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار.
أما أمارة الاختيار فتشمل على سبعة أمور أوردها الماوردي وهي:

1- النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم.
2- النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.
3- جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منهما.
4- حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين في تغير أو تبديل.
5- إقامة الحدود من حق الله وحق الآدميين.
6- الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يتخلف عليها.
7- تسير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتواجهوا معاونين عليه.
8- ((فإن كان هذا الإقليم ثغراً ملاحظة للعدو أقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسا لأهل الخمس)).

أما الإمارة عن الاضطرار فهي التي يأخذها الوالي ويقرها الخليفة وفيها يكون الوالي مستبداً في السياسة والتدبير، ولكن المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة، ولا يمكنه أن يغض النظر عن لدعه أو إهمال.

وأما عن الإمارة الخاصة فيقول الماوردي ((يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة ((البيضة ويقصد بها المجتمع وموضع السلطات ومستقر الدعوة)) والذب عن الحريم وليس له أيتعرض للقضاء والأحكام والجباية الخراج والصدقات)).

وكانت إمارة العمال على إماراتهم في العهد الأول عامة، ثم رؤى أن تخصص، فكانت إمرة عمرو بن العاص على مصر عامة، إذ كان يقود الجيوش ويقضي في الخصومات ويجبي الأموال، ثم عين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج، وبذلك أصبحت ولاية عمرو خاصة بعد أن كانت عامة وبعد مدة قليلة تقلد قضاة مصر قاض للفصل في الخصومات، فصارت سلطة الوالي مقصورة على قيادة الجند أو الجيوش وإمامة الصلاة.

وقد بلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك.

ولو عدنا إلى هذا التوجه أي أفراد أو إعطاء الولاية لأحد أفراد البيت المالك لا نجد أنه ترك أثراً كبيراً على سير الأوضاع في الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي وكانت أضرارها بليغة جداً حيث يقول سيد أمير علي في ذلك، أن هناك نقصاً تطرق إلى النظام الإداري في عهد بني أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد، وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الإقامة في حواضر ولاياتهم أما في عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط الذين كانوا يقيمون في دمشق ويعينون من قبلهم رجالاً يحكمون الولايات نيابة عنهم، على عكس الفترة الراشدية تماماً حيث كان الوالي يقيم في ولاية ولا يخرجها إلا بالإقالة أو للقاء الخليفة أو الحج أو الحرب أو غيرها، وهذا الواقع إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام الخلافة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين لرضا الله عنهم أجمعين بالرعية أما في العهد الأموي وعلى ضوء ما تقدم نرى أن هذا الأسلوب من الإدارة هو إن دل على شيء فإنما يدل على إهمال هذا المنصب المهم وبدوره أي إلى عدم الاهتمام بالرعية.

وكانت الولاية عامة للخليفة على جميع أجزاء الدولة العربية الإسلامية، ومن ثم كان من حق الخليفة تعيين القضاة والولاة ليحكموا نيابة عنه وباسمه تلك الولايات والأقاليم التابعة للدولة، وكان الخليفة يستعين في إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين. منهم:

* عامل الخراج أو صاحب بيت المال.
* القاضي.
* والقائد.
* وصاحب الشرطة.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد عين عمالاً للصلاة وبشكل خاص في فلسطين ودمشق وحمص وقنسرين. وهذا الإجراء من الخليفة عمر بن الخطاب يدل على حرص الخليفة على الاهتمام بالصلاة في مواعيدها هذا أولاً ورغبة في تقوية العقيدة الإسلامية ثانياً، وذلك لوجود عقائد وأديان سماوية أخرى ولها أتباع كثر في

هذه المناطق ولا يحق لأين كان إجبارهم على ترك عقائدهم أو الانتقال إلى الإسلام إلا بالرغبة والطوع، فكان هذا الاهتمام من قبل الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ولكي يأخذ الدين الإسلامي دورة الفاعل والرائد عند أبناء تلك الولايات والأقاليم.

وفي العهد الأموي بلغت الدولة العربية الإسلامية أقصى اتساع لها، وكانت تقسم إلى خمس ولايات كبرى هي:

1- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.

2- مصر بقسميها السفلي والعليا.

3- العراقات:

أ- العراق العربي(بلاد بابل وأشور واكد القديمة أي حدود العراق الطبيعية).

ب- العراق العجمي((ويقصد بها (بلاد فارس نفسها).

وعمان والبحرين وكرمان وسجستان، وكابل وخراسان وبلاد ما وراء النهر والسند، وبعض أجزاء بلاد البنجاب. وكانت كل هذه الأقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها وإلى العراق وحاضرته الكوفة، ويلي خراسان وبلاد ما وراء النهر عامل من قبل العراق ومركزه مدينة مرو عادة. وكانت بلاد البحرين وعمان تحت إشراف أو تدار من قبل عامل البصرة من قبل وإلى العراق.

4- بلاد الجزيرة وتشيعها أرمينية وأذربيجان وبعض بلاد أسيا الصغرى.

5- الولاية الخامسة وهي أهم الولايات، وتشمل كل إفريقية الشمالية وتصل حدود هذه الولاية حتى غرب مصر، وكذلك بلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار، مركزها القيروان، قد كان ينوب والي آخر يقيه عنه ولاة لحكم طنجة وجزر البحر المتوسط وبلاد الأندلس.

حيث كان تدار هكذا هذه الدولة الشاسعة المترامية الأطراف الكبيرة السكان ومن خلال هذا التقسيم تمكن العرب المسلمين من تحقيق الاستقرار والأمن وخصوصاً في القرون الأولى من الهجرة وهذا أن دل على شيء إنما يدل على تلك العقلية الإدارية الراجحة والتي تمكنت من خبط الدولة.

ليس هناك تمييز بين إنسان وآخر ضمن مواطن أو رعايا الدولة العربية الإسلامية في هذا العصر فلا تمييز على أساس الجنس أو كلغة وأن كانت اللغة العربية هي السائدة في جميع ولايات الدولة والقومية أو اللون أو المعتقد الديني فكان جميع الناس سواسية في الوظائف وفعلاً هذا الأمر يتقدم على كثير من الأنظمة التي تدعى التحضر والحداثة وهي تضع قوانين صارمة أو رعاياها في كثير من مواقع السلطة والعمل وفي أحيان كثيرة القوانين تكون مانعة وعلى رغم ليس مجال حديثنا أو محاضرتنا هذا الكلام الذي قلناه لكن إشارة مهمة ضمن سياق المحاضرة.

وعليه نعود إلى موضعنا في المحاضرة، كان الخليفة العباس في هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شؤونها، لكن سلطاتهم المدنية والقضائية كانت تخضع لبعض القيود، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً، وإذا عزل عن منصبه طلب منه، يقدم كشفاً مفصلاً عن شؤون ولايته وكان أقل شك في صدقه كافياً لمصادرة أملاكه جميعها المنقولة وغير المنقولة، وفي زمن المنصور العباسي لم تكن مهمة الوالي بأي حال أكثر من وظيفة صورية.

كانت الإدارة في العصر العباسي الأول مركزية وبهذا أصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقي السلطة، بعكس ولاة الأمويين، كالحجاج بن يوسف الثقفي وزياد أبن أبيه، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة لذلك استحالت الإدارة اللامركزية إلى إدارة مركزية مما يشعر بتقليص نفوذ العمال، ومن أهم الموظفين في ولايات الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي الأول هو صاحب المال، وصاحب البريد، والقاضي أما عمل الوالي في هذه الفترة فقد أقتصر على الصلاة وقيادة الجند.

ويقول سيد أمير علي في ذلك أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محدد مماثلة للنظم الحديثة في الأمم المتحضرة، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة في بعض الوجوه مما عليه في أيامنا هذه، فكانت كل مناصب الدولة، مفتوحة أمام جميع من يسكن ضمن حدود الدولة العربية الإسلامية، وبصورة أوضح ليس

تطور بعض الاجهزة الادارية في الدولة الاسلامية

الأجهزة الإدارية في الدولة العربية الإسلامية والتي اقتضتها ظروف تطور البلاد الحضاري والاجتماعي والسياسي وتقدمها وهذا أمر طبيعي أن تتطور الإدارات في مؤسسات الدولة حسب تطور جوانب الحياة من جهة وتطور البلد من جهة أخرى وظهور حاجات ومتطلبات سياسية وإدارية جديدة مختلفة.

ومن هذه الأجهزة الإدارية أن صح التعبير ونسميها بأجهزة وهي فعلاً هكذا.

1- الشرطة.
2- الكتابة.
3- البريد.
4- الحسبة.

وسوف نبدأ بمعرفة مفهوم الشرطة وكيف تطورت إداراتها في الدولة العربية الإسلامية تطلق كلمة شرطة على الجند الذين يعملون على حفظ النظام وإقرار الأمن البلاد ليلاً ونهاراً. ويقال أن الاسم مشتق من شرط أي وضع علامة، بمعنى الشرطة هم الذين اشترطوا أو عملوا بعلامات خاصة تميزهم عن غيرهم، ويقال كذلك إن هذا النظام مأخوذ من الأمن عند البيزنطيين، لكن لم يصمد هذا الرأي أمام الحقائق وهي أن الشرطة وقيامها في الدولة العربية الإسلامية هو جزء من متطلبات الإدارة الراقية الجديدة للدولة في عصر الإسلام وكانت الشرطة في الدولة العربية الإسلامية في بداية أمرها تابعة للقضاء وعملها يقوم على إقامة الحدود أي تنفيذ العقوبات والأحكام التي يصدرها القاضي، ثم ما لبثت أن انفصلت واستقلت عن القضاء وأصبح صاحب الشرطة هو الذي ينظر في الجرائم وهكذا أصبح هناك نوعان من القضاء:

1- قضاء شرعي يتناول الأمور الشرعية والأصول الشخصية مثل الزواج وانطلاق المواريث والوصايا والأحباس إلى غير ذلك من الأمور التي تتصل بالشرع والتي وردت فيها الأحكام الشرعية، ويتولاه قاض القضاة في المشرق أو قاضي الجماعة في المغرب من الدولة العربية الإسلامية.

2- قضاء مدني يفصل في الجرائم الخاصة بالقضايا الجنائية والسياسية ويتولاه صاحب الشرطة.

وهذه التفرقة بين القضاء الشرعي وبين القضاء المدني أوجدتها وأستلزمتها المصلحة العامة، لأن القاضي الشرعي مجبر على تطبيق الشرع وإقامة الحدود التي وردت صريحة في القرآن الكريم، مثل القاتل يقتل والزاني والزانية يرجمان والسارق تقطع يده... الخ، حتى يقال أن أحد الصحابة نصح أمرآة قدمت إليه بتهمة السرقة بأن تنكر التهمة عن نفسها حتى لا يضطر إلى إقامة الحد عليها والأمر بقطع يدها، أما القاضي المدني أو صاحب الشرطة، فإنه يفصل بين القضايا وفق الشعور المعاصر إذ إنه يقيس الجرائم بمقاييسها ويدخل في حيثيات حكمه الظروف والملابسات والاعتبارات التي وقعت فيها الجريمة أو التي أحاطت بمرتكب الجريمة فيجعلها أساساً لحكمه دون التعقيد بحكم الشرع تماماً ولهذا روئي من باب السياسة كما يقول ابن خلدون في مقدمة تنزيه القاضي عن هذه السلطة ووضعها في أيدي أناس آخرين يكونون عادة من كبار القادة وعظماء الخاصة، وهذه السلطة المدنية الواسعة كانت تسمى بخطة الشرطة "إدارة الشرطة" ويسمى الذي يتولاها بصاحب الشرطة.

إذن فصاحب الشرطة هو الذي ينظر ويحقق ويفصل في الجرائم السياسية والمدنية وكل ما يتعلق بحفظ الأمن والنظام ويجعل الأمور تسير بشكل طبيعي فهو بمثابة قاضي الجنايات، وكثيراً ما كان يرشح للوزارة أو الحجابة لأهمية مركزه عند السلطان وبشر ابن خلدون حول شرطة الأندلس، فيقول الشرطة في الأندلس، كانت مقسمة إلى قسمين شرطة عليا وشرطة صغرى، فصاحب الشرطة العليا أو الكبرى، كان ينظر إلى الجرائم التي يرتكبها كبار القوم من الخاصة وأهل الجاه، وكان يتولاها رجل من كبار رجال الدولة وكانت جلساته تعقد بباب قصر السلطان.

أما صاحب الشرطة الصغرى، فكان ينظر في الجرائم التي يرتكبها العامة.

وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم الطبقي للشرطة فنجده يتنافى مع روح الإسلام وتعاليمه التي لا تفرق بين مسلم وآخر،

وخير مثال على ذلك عمر بن الخطاب τ والذي كان يقاض الصحابة مع عامة الناس على قدم المساواة.

ومما يجب الإشارة له في هذا الجانب هو أن هذا التقسيم وجد في مصر أيضاً ولكنه على أساس مناطق أو إقليمي وليس على أساس طبقي، فوجدت الشرطة العليا في شمال الفسطاط، والشرطة السفلى في جنوب الفسطاط.

وكيف كان الأمر، فإن صاحب يعتبر رأس السلطة التنفيذية القضائية أو كان يعاونه رجال الشرطة والعس الذين يطوفون بالليل للحراسة وكانوا يعرفون في الأندلس بالدرابين، لأن بلاد الأندلس كانت لها دروب تغلق في أول الليل بواسطة الدرابين، وكان كل واحد منهم معه سلاح وكلب وسراج، ومن الطريف أن عادة غلق الأبواب ما زالت متبعة في أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً وبواسطة درابين يعرفون باسم سيرينوس.

2- الكتابة

كانت مهنة الكتابة مهمة في الدولة العربية الإسلامية وظهرت هذه الإدارة في زمن الرسول عندما كتب رسائله للحكام والملوك الأجانب وكذلك تواصلت في عهد الراشدين وعرفنا أن بعض الصحابة يقوم بالكتابة وتحرير بعض الكتب للخليفة ولما انتقلت الخلافة على بني أمية تطورت الكتابة بعض الشيء وظهرت شخصيات لامعة في هذا الجانب، لكن الأمر أختلف في عصر العباسيين.

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول، وأصبح من الضروري تعين موظفين يعاونون الوزراء للأشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها ومن أشهر الكتاب في هذا العصر كان كاتب الرسائل، وكاتب الخراج وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه، كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه فقد أثر عن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الذكية هم كاتبه أن يجبه فقال له أبو جعفر المنصور "لا بل أنا أجيبه إذ تقارن على الأحساب فدعني وإياه".

وقد زخرت الدولة العربية الإسلامية بطائفة من الكتاب لم يسمع الدهر بمثلهم فقد أشتهر عبد الحميد الكاتب وابن العميد وكذلك يحيى البرمكي والفضل بن الربيع وكذلك الفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف، وعبد الملك الزيات وغير "ولا بد من القول لماذا يقصد بكلمة كاتب أنها تعادل وزير اليوم ولا زالت مستعملة كلمة كاتب في المغرب العربي وخصوصاً تونس والمغرب تطلق على الوزير المعين".

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب.

3- البريد

من المعروف أن معاوية ابن أبي سفيان هو أول من أدخل نظام البريد في الدولة العربية الإسلامية ثم جاء عبد الملك بن مروان فأدخل علية تحسينات، ولم يكن البريد في ذلك الوقت بريداً عاماً للجمهور كما هو الحال عندنا اليوم، بل بريداً خاصاً بأعمال الدولة وسلامتها وكانت مهمته مراقبة عمال الدولة وإبلاغ العاصمة أو المركز في أقرب وقت مستطاع بما يجري في الولايات من أحداث سياسية واقتصادية وغيرها، أي أنه يشبه ما يسمى اليوم بإدارة الأمن العام.

وكان المشرف على هذه الإدارة يسمى صاحب البريد، وجرت العادة أن يكون رجلاً أميناً يكتب الأخبار بدقة وأمانة، وقد أهتم العباسيون بهذا النظام لا سيما في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي أحاط الدولة العربية الإسلامية بشبكة دقيقة من خطوط البريد كي يتوخى السرعة في تلقي الأخبار وإصدار الأوامر.

وقد قسمت الخطوط أو المسافات هذه إلى محطات وفي كل محطة يوجد عدد من العمال والخيول والجمال وكل ما يحتاج إليه عامل البريد من زاد وعلف ومياه.

وتقدر مسافة البريد بين كل محطة وأخرى بنحو أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال، أي أن مسافة البريد اثنا عشر ميلاً.

وكذلك كان هناك ما يمكن أن نسميه اليوم بالبريد الجوي ونعني بهذا الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة وكان لهذا الحمام أبراج خاصة في جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية في ذلك الوقت مثل محطات البريد البري ولكنها تزيد عنها في المسافة، فإذا نزل الحمام في مركز من هذه المراكز أو المحطات، نقل البرج الرسالة التي بجناحه إلى طائر آخر كي يصل بها إلى المرحلة التي تليها وهكذا.

وكان الإيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي يقلها الحمام الزاجل، إذ يستغني فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب ويكتفي بذكر التاريخ والساعة والمطلوب، في صيغة مختصرة، وبخط دقيق عرف باسم الغبار، لأنه مثل ذرات الغبار، كذلك كان حجم هذه الرسائل الجوية صغيراً جداً قد يقدر بحجم سلاميات الأصابع وهكذا نرى مما تقدم أن إدارة البريد كانت إدارة دقيقة، تربط الدولة بقائدها، وخلالها يطلع على كل مستجد أول بأول.

4- الحسبة

كانت هذه في بادئ الأمر تعتبر من توابع القضاء الشرعي ومتممة له، وأن كانت فيما بعد انتقلت إلى القضاء المدني ويشير إلى ذلك ابن خلدون في قوله "كانت الحسبة في كثير من الدول الإسلامية قبل ؟؟؟ بمصر والمغرب بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها باختياره، ثم انفردت في وظائف الملك وأفردت بالولاية واصبح تعيين المحتسب من وحي الإدارة المدنية لا من حق القاضي".

وتعتبر الحسبة من أوائل المؤسسات الإدارية التي ظهرت في الدولة العربية الإسلامية، لهذا كانت لها صفة دينية في أساسها الأول وتقوم على تنفيذ النصيحة التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" فوظيفة المحتسب إذن، هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع حدوثه وخصوصاً في المشاكل اليومية الواضحة التي لا نزاع فيها والتي لا تحتاج إلى حلف يمين أو سماع شهود أو إقامة حدود، فهذه كلها من اختصاص القاضي، ولا دخل للمحتسب فيها، أما التعزيزات أو الأحكام التأديبية السريعة كالتوبيخ والتشهير فهي من اختصاص المحتسب، لهذا كانت وظيفة المحتسب تتولى الأشراف على العمال والتجار والصناع وكل من يصح أن يخدع عملاءه بأي صفة كانت مما يؤدي بالأضرار بالمسلمين وغير من سكنة الدولة العربية الإسلامية ويسمى المحتسب في أحيان كثيرة بصاحب السوق.

حيث كانت الرقابة على الأسواق ومنذ أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب τ، بيد هذا العامل أو صاحب السوق والذي عليه واجبات ومهام في هذا الإطار منها مراقبة الأوزان والمكاييل، وفحص المواد المعروضة خوفاً أن يوجد فيها تلاعب أو غش، وكذلك التحكيم في الخلافات التي تنشأ بين أصحاب المهن، وفي بعض الأحيان يقوم بجمع ضريبة السوق، وهذه الوظيفة في الواقع هي أصل وظيفة المحتسب والتي ذكرت لأول مرة في التاريخ العربي الإسلام في ولاية يزيد بن هبيرة عامل مدينة واسط بحدود 103 هـ حيث كان مهدي بن عبد الرحمن ومن ثم إياس بن معاوية محتسبين في واسط، ثم كان عاصم الأحول على الحسبة في الكوفة ثم اكتسبت الحسبة أهمية كبيرة في العصر العباسي وأصبحت هذه الوظيفة تعمل في عموم الدولة العربية الإسلامية، بحيث صار المحتسب هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدن الإسلامية كافة لما أصبح لها من دور حيوي اقتصادي في ذلك الوقت.

الجيش وادارته في المشرق في الدولة الاسلامية

أرتبطت نشأة الجيش في الإسلام بفكرة الجهاد أو القتال في سبيل الله والذي يعتبر ركناً من أركان الدين، وفرضاً فرضه الله على المسلمين للدفاع عن النفس وعن أرض الإسلام من جهة، ولتأمين الدعوة الإسلامية ضد من يقف في سبيلها من جهة أخرى.

مما يتكون الجيش العربي الإسلامي

كان الجيش في عصر الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والخلفاء الراشدين τ جميعاً وحتى في عهد الأمويين، أي في عصر الدولة العربية الإسلامية، يتكون في أساسه من العنصر العربي بحكم أن العرب هم مادة

الإسلام، وإن كان هذا لم يمنع من اشتراك العناصر غير العربية والتي دخلت إلى الإسلام كالفرس والروم والذين كانوا يسمون بالحمراء، مثال ذلك عمرو بن العاص حينما بنى مدينة الفسطاط في مصر، أختط لكل قبيلة من القبائل العربية خِطة (بكسر الخاء) أو حياً لتنزل فيه كما أفرد خططاً أو أحياء للعناصر من غير العرب في جيشه مثل خطط الفارسيين والحمراوات ويعني بذلك الروم وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة للعرب.

ولما كانت حروب التحرير والفتوحات الأولى قد تمت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب τ، فقد تطلب الأمر سرعة اتخاذ تشكيل أو تنظيم عسكري لهذه الجيوش العربية المنتشرة في البلاد المفتوحة، لهذا أتخذ

الخليفة عمر بن الخطاب τ في هذا السبيل خطوات حاسمة تشهد ببراعة كقائد حربي ممتاز مثال ذلك أنه أوجد ما عرف بديوان الجند أو الجيش أو العساكر، للإشراف عليهم بتقييد أسمائهم وإحصاء أعمالهم والأنفاق عليهم وعلى أسرهم بما عرف بالعطاء أو الرزق فديوان الجند هو أول ديوان في الإسلام، كذلك يرجع الفضل إلى

عمر بن الخطاب τ في إقامة الحصون والمعسكرات في البلاد المحررة والمفتوحة لإقامة المقاتلين العرب، ومن أهم تلك المراكز البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والتي ما لبثت أن تحولت إلى عواصم وأمصار أي مدن كبرى.

ولما ولي الأمويون، ساروا على نفس هذه السياسة العربية من حيث تنظيم ديوان الجند وإقامة القواعد والحصون وإدخال التجنيد الإجباري، لأول مرة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، وذلك لمواصلة عملية حروب التحرير والفتوحات الكبرى، ومحاربة أعداء الدولة وفي المقدم من هؤلاء الأعداء الروم البيزنطيين.

أما في العهد العباسي، فقد حدثت تطورات كبيرة في الجيش العربي الإسلامي، أصبح أعداد الجنود من غير العرب ليس بقليل وبشكل خاص الجنود الفرس أو العجم، والذين كانوا قد ساهموا في إسقاط النظام الأموي وإقامة النظام العباسي. وذلك بقيادة الفارسي أبو مسلم الخراساني والذي لقي حتفه على يدي خلفاء بني العباس بعد أن أخذ يتآمر على الدولة العربية الإسلامية تحت قيادة بني العباس.

وهذا المتغير الجديد في تركيبة الجيش العربي الإسلامي في عصر العباسيين أي دخول الأعاجم إلى الجيش، كانت له آثار سلبية علية حيث برز تنافس بين العرب والفرس داخل هذه المؤسسة العسكرية وهذا التنافس تحول إلى صراع بين الطرفين أي بين العرب والأعاجم وتلمس نتائجه وآثاره في مقتل أبو مسلم الخراساني كما ذكرنا، وكذلك ظهرت بوادر هذا الصراع عندما قام الرشيد بالتخلص من البرامكة لما حس منهم بتعصبهم وأتجاههم الفارسي المجوسي وذلك عندما أراد وحرف طريق سيرة الدولة العربية الإسلامية بتجاه آخر والسيطرة عليها من قبلهم، ثم صورة الصراع في تلك الفتنة التي قامت بين الرشيد الأمين والمأمون، "ورأيت الدولة نفسها في هذا الصراع مثل الفارسي الذي يركب جواد بن في آن واحد، فهو على حافة السقوط مهما مهر في الركوب" سعيد عبد الفتاح/ تاريخ الحضارة صفحة 172.

ولهذا أضطر خلفاء بني العباس الأوائل إلى استخدام عنصر محارب جديد في الدولة العربية الإسلامية وهو العنصر التركي، وذلك للحد من نفوذ الفرس والعرب، وهذا العمل الذي قام بها الخلفاء العباسيين في العصر الأول هو عمل كمن يهرب من الرمضاء إلىالنار، وذلك لما ظهر من تأثير على بنية الدولة العربية الإسلامية.

وكانت أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيجون) مثل خوارزم والشاش (طشقند) وأشروستة وفرغانة وسمرقند وبخارى، تعتبر في ذلك الوقت مراكز هامة للرقيق التركين إعداده وتربيته تربية عسكرية إسلامية ثم إرساله أو بالأصح تصديره إلى كافة أنحاء الدولة الإسلامية.

وقد جرت العادة أن ولاة هذه الأقاليم، كانوا يرسلون بعض الرقيق على شكل هدايا إلى الخليفة أو الوزير، حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة أو العصيان أو التمرد في ذلك الإقليم، وتشير المراجع إلى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا إلى المجتمع العربي الإسلامي الأول عن طريق الحرب أو الشراء ولم يعاملوا معاملة سائر الرقيق كما هو متعارف عليه في ذلك الوقت بالخدمة في الأعمال الحقيرة مثل كنس الدار وخدمة الدواب وما شابه ذلك. بل كانوا يتولون مناصب الحكم والقيادة في الدولة الإسلامية وقد أشار إلى ذلك المؤرخ أبن حول ت 450هـ تفضيل الأتراك على سائر الأجناد. بقوله "ولا يرضى التركي إذا خرج من وثاقه إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجابة أو الرياسة على فرقة" كما أنه لا يرضى إلا بأن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه".

وكان استخدام المماليك الأتراك في الوظائف الكبرى في الدولة العربية الإسلامية آنذاك يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول، مثال ذلك الخليفة العباسي المأمون الذي أستخدم في حرسه عدداً من المماليك الأتراك مثل طولون التركي الذي صار قائداً للحرس الخلافة العباسية الخاص أو الحرس الخاص للخليفة العباس وهو والد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام.

وفي عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله والذي هو ؟؟؟ كانت أمه تركية لذلك أخذ يتوسع في استخدام المماليك الأتراك كجنود في الجيش في ذلك الوقت حتى يقال أن هؤلاء الجنود قد بلغ عددهم بضعة عشر ألفاً وبنى لهم عاصمة جديدة في شمال مدينة بغداد وهي مدينة سامراء، بعدما أضاق أهل بغداد ذرعاً بهؤلاء الجنود الأتراك وقد فعل المعتصم فعلة أتت بالنهاية على الدولة العربية الإسلامية وعلى الخلافة العباسية وهيبتها عندما أتخذ قراراً غير سليماً وهو أنه أمر بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم وأرزاقهم منه وإحلال الترك محلهم.

وبفعلته هذه أي المعتصم ومما يؤسف له إذا فعل ذلك عن دراية أو من دون دراية كمن يوجه طلقة الرحمة كما يقال في الوقت الحاضر فإن الخليفة العباس المعتصم قد وجه هذه الطلقة إلى الدولة العربية الإسلامية وكيانها، وكانت الخطوة الأولى بالخلافة قد بدأت كما عرفنا ذلك من التاريخ.

وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الأتراك بعد أن صاروا عنصر هاماً في المجتمع والجيش الإسلامي، فلماذا ضعف نفوذ الخلافة العباسية في الولايات والأقاليم أخذ عمال الأطراف يجنحون إلى الاستقلال بولايتهم، صار هذا العنصر التركي هو عماد تلك الحركات الانفصالية وقاعدة لها.

لذلك نرى أن جميع الدول التي قامت في المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الثالث الهجري، اعتمدت على الرقيق أو المماليك الأتراك في جيوشها، وتبعت نظاماً تربوياً وعسكرياً إسلامياً دقيقاً في تربيتهم وتدريبهم وأعدادهم، ولعل من أبرز هذه الدول، الدولة السامانية التي قامت في بلاد ما وراء النهر وذلك سنة 290 هجرية واتخذت من مدينة بخارى عاصمة لها، فقد حرص ملوك هذه الدولة، رغم من أصلهم الفارسي، على

الجهاد في وسط آسيا وجذب المماليك من أجل هذا المشروع أي مشروع الجهاد وهم المماليك الأتراك والقيام عليهم والاهتمام بهم وبتربيتهم حتى صار معظم جيوش السامانيين من رقيق الترك المماليك.

وقد أعطانا الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي توفي سنة 485 هجرية في كتابه سياسة نامة وصفاً دقيقاً لهذا النظام التربوي العسكري الذي وضعه السامانيون لمماليكهم ومن ذلك قوله ما معناه "إن مماليك السامانيين يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه. فالمملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدميه فيسير مركوباً قباء من القطن بجوار سيده الممتطي صهوة جواده ولا يسمح للمملوك في عامه الأول من الخدمة أن يركب الخيل إطلاقاً وإلا عوقب أشد العقاب فإذا ما أتم عامه الأول، يسمح له بركوب فرس بدون سرج ولجام. ثم يمنح في العام الخامس من خدمته سرجاً وسروالاً من القطن المخلوط بالحرير وبعض الأسلحة، وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ملابسه السابقة، وفي العام السابع يمنح خباءً وثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته، وعندئذٍ يستحق المملوك لقب عريف الدار، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاه بالفضة كما يرتدي قباءً حريريا ثم يأخذ مملوك في الترقي عاماً بعد عام وتزداد حاشية تدريجياً على أن يصل إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحاجب، ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من الولاية أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين"

الجيش وادارة الاسلام (المغرب والاندلس)

و إكمالا لما ذكرناه عن إدارة الجيش في الدولة الإسلامية ، حيث يضيف الوزير نظام الملك في كتابه مسار الذكر أن هذا النظام العسكري التربوي الساماني قد طبق على أيامه في القرن الخامس الهجري في دولة الأتراك السلاجقة و الذين أكثروا من جلب المماليك من بلاد القفجان شمالي البحر الأسود واهتموا بتربيتهم وتدريبهم ثم أطلقوا على كبارهم أسم الأتابكة وهي جمع أتابك ومعناها الوالد الأمير لأنهم جعلوهم مربين لأولادهم القصر ومنحهم الإقطاعيات الكبيرة مقابل قيامهم على شؤون هؤلاء الأبناء وتأديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعيات، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومي في آسيا الصغرى. فإنه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون واحتلوا تلك البلاد في القرن الثامن الهجري والدول الأتابكية كثيرة العدد وبيوتها لا تنتهي إلى نسب واحد، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية والأتصال بالبيت السلجوقي، والنظام الإقطاعي الإسلامي، ومن مماليك السلاجقة الذين صاروا أتابكة، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل وحلب، وهو ابن قسيم الدولة أق سنقر أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه، وعن طريق زنكي وأبنه نور الدين زنكي، كان ظهور صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بالنظم السلجوقية وإليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم والإدارة العسكرية إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الأيوبيين، ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك التي تبلورت فيها خلاصة وحصيلة

هذه النظم التربوية العسكرية الإسلامية السابقة، ولهذا استطاعت هذه الدولة أن تقهر المغول شرقاً وتطرد الصليبيين من فلسطين وأجزاء أخرى من بلاد العرب والمسلمين غرباً وفي آن واحد.

وإذا كان العنصر التركي قد سيطر على جيوش الدول التي قامت في الجزء الشرقي من الخلافة العربية الإسلامية والتي كان يمثلها العباسيون فإن هناك عنصراً آخر من المماليك وهم الصقالبه قد لعبوا دوراً هاماً في جيوش الجزء الغربي أو مغرب الدولة العربية الإسلامية آنذاك ونقصد به المغرب والأندلس.

وكلمة صقلب وصقالبة أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية، لأن الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى عرب أسبانيا، ولذا أطلق عليهم العرب أسم الصقالبه وهو تعريب لكلمة أوروبية أسكلاف Esclave أو سلاف Slave ومعناها عبد أو رقيق وهي الكلمة التي سميت بها الشعوب السلافية، ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوا صغاراً من مختلف نواحي أوروبا بصفة عامة ومن شمال أسبانيا بصفة خاصة ثم ربوهم تربية عسكرية إسلامية ووضعوهم في معسكرات خاصة بجوار قصر الإمارة ومنعوهم من الاختلاط بالأهالي شأنهم في ذلك شأن المماليك الأتراك في الشرق الإسلامي.

كانت جيوش المغرب والأندلس في بادئ الأمر تقوم على أساس النظامي القبلي والعشائري وكان يتكون من العرب والبربر، وكانت الدولة تستمد منهم القوة الحربية العسكرية على أساس النظام الإقطاعي العسكري المعروف في العصور الوسطى في مشرق ديار الإسلام وفي مغربها، فقبائل العرب والبربر التي حلت بالأندلس مثلاً قد وزعي على القرى والمدن الأندلسية وأعطي لها حق الأراضي في تلك القرى أو المدن وكذلك جباية الأموال من أهلها، فكانت تأخذ عطاءها من هذه الأموال وترسل الفائض إلى خزانة الدول، وفي مقابل هذا الإقطاع كان على كل قبيلة أو عشيرة تساهم بعدد من أبنائها في حالة الحرب وظل هذا النظام العسكري هو النظام المتبع في الأندلس حتى أيام الأمير الأموي الحكم بن هشام والملقب بالربضي وهو حفيد عبد الرحمن الرحيم الداخل، فقد رأى هذا الأمير أن يقيم إلى جانب النظام الإقطاعي نظاماً عسكرياً دائماً يعتمد عليه في كل وقت ويتقاضى جنوده مرتباً ثابتاً من الدولة وقد جاء هذا التغير نتيجة لثورة خطيرة قامت في ربض من أرباض قرطبة "أي ضواحيها" كادت تطيع بعرض هذا الأمير، ولكنه تمكن من القضاء عليها قضاءً مبرماً لدرجة أن أسمه صار مقترناً بها فقيل "الحكم الربض" وقد رأى هذا الأمير عقب ذلك أن يتخذ لنفسه فرقة من الحرس الإشارة إليهم، وهم في الأصل كانوا مسيح وجلبوا صغاراً واعتنقوا الإسلام وربوا تربية عسكرية إسلامية، وأستطاع بعضهم أن يصل إلى منصب القيادة والرئاسة في الدولة، وهكذا وجد في الدولة الأموية في الأندلس نظام الدائم أو المحترف كما يسمى وكان مقر ذلك الجيش العاصمة قرطبة، أما نظام القبائل والعشائر التي كانت تقيم في البوادي والولايات.

ولكن يبدو أن هذا الوضع الجديد قد أثار الحسد والتنافس بين هذه العناصر المختلفة، ونلحظ ذلك بوضوح في الهزيمة التي مني بها الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الناصر أمام الأسبان في موقعة شمنقة وذلك سنة 27 هـ في شمال مدريد، والسبب في هذه الهزيمة أن الخليفة الناصر منح قيادة جيوشه لمملوكه نجدة الصقلبي، فأثار بذلك غضب القواد العرب، فتخلوا عنه أبان المعركة مما أدى إلى هزيمته وقتل قائده نجدة الصقلبي. ولما جاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وقبض على زمام الأمور في الأندلس سنة 371هجرية، رأى أن

إدارة الجيش بهذه الطريقة كفيل بأن يخلق الحزازات والفتن بين عناصر الجيش وقواده، ولهذا عدل لقيادته، فألغى العنصرية في ترتيب الجيش كما ألغى النظام الإقطاعي العسكري، بمعنى أنه جعل الجيش نظامياً دائماً يتكون من فرق متعددة، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المختلفة كعرب، والبربر والصقالبة، وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلاً من استغلاله للإقطاع كما كان الحال سابقاً، ولقد أفاد هذا النظام الإداري الجديد في بادئ الأمر إذ زالت العصبية العنصرية بين فرق الجيش وأستطاع المنصور بن أبي عامر يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه وأن يحرز انتصاراته الحربية المشهورة ضد الأسبان.

- إلا أن هذا لم يدم طويلاً إذ بعد موت المنصور سنة 392 وأبنه عبد الملك المظفر سنة 399 هـ دب الفساد في جسم الدولة، فلم تستطيع الحكومة دفع رواتب الجند فكثر شغبهم، وانتقل الفساد إليهم فضعفوا وهزموا أمام العدو وظل الحال على هذا الوضع إلى أن جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري فرأوا أن خير وسيلة لإصلاح الجيش هو إعادة النظام الإقطاعي العسكري من جديد وفي ذلك يقول المؤرخ الأندلسي المعاصر أبو بكر الطرطوشي توفي سنة 520هـ في كتابه سراج الملوك "سمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون: ما زال أهل الإسلام ظاهر بن علي عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، كما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه، إلى أن كان الأمر في آخر أيام بن أبي عامر، فرد عطايا الجند

مشاهرة بقبض الأموال، وقدم على الأرض جباة يحبونها فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا في العمارة، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعف الأجناد وقوي العدد على بلاد المسلمين نقص وأمر العدو ظهور إلى أن دخلها الملثمون "ويقصد هنا المرابطون" فردوا الإقطاعيات كما كانت في الزمان القديم".

ولا بد من الإشارة إلى أن ما حدث في الأندلس حدث أيضاً في المغرب الأقصى، من حيث أعماد الحكام على قبائل وعشائر العرب والبربر في تكوين الجيش هناك، وكذلك عملوا على نفس النظام الإقطاعي العسكري من حيث استخدام أولئك في البوادي، وكذلك استخدموا حكام أهل المغرب الصقالبة كحرس في الحواض والعواصم التابعة لهم.

والمصادر التاريخية تقول لنا أن هؤلاء الصقالبة جاءوا إلى المغرب أطفالاً من سبي إيطاليا وسواحل دالماسا وأنه كانت توجد في مدينة بلرم في شمال جزيرة صقلية العربية حارة الصقالبة وصفها الرحالة ابن حوقل كمدينة عامر مما يرجع أنها كانت نقطة تجمع وأعداد للرقيق الصقلبي قبل إرساله إلى المغرب.

ويشير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب إلى أن الأغالبة والفاطميين من بعدهم، اعتمدوا على الصقالبة في جيوشهم، ويضرب مثلاً على ذلك بزيادة الله الأغلبي حينما فر إلى مصر بعد زوال ملكه على يد الفاطميين، بأنه أنتخب من مماليكه الصقالبة ألف خادم وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار، كذلك يرجع المستشرق التشكوسلوفاكي هربك أن القائد الفاطمي المعروف بـ جوهر الصقلبي كان صقلبياً وليس صقلياً، ويدلل على ذلك، بأن جزيرة صقلية كانت وقتئذٍ في يد المسلمين وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق ويفترض أن جوهراً جاء إلى المغرب عن طريق صقليه ، حيث توجد حارة الصقالبة كما أشرنا لذلك فنسب إليها رغم كونه صقلبياً.

ومن الطرائف التي يذكرها التاريخ أن الدولة الفاطمية حينما استقرت في مصر، استخدمت في جيوشها عناصر من المماليك الأتراك إلى جانب عناصر من المماليك الصقالبة، فهي بهذا الجمع بين الطرفين من المماليك تعتبر الدولة الإسلامية الوحيدة التي جمعت وعلى نطاق واسع بين الأتراك والصقالبة أي بين مماليك المشرق والمغرب، أي بين الرقيق الذي جيء به من الشرق والرقيق الذي جيء به من الغرب.

ادارة القضاء

القضاء منصب رفيع قد يأتي بعد الخلافة مباشرة، لأن صاحبه يمثل الشرع وأحكام الدين، حقيقة أن الوزارة كانت أوسع سلطة ونفوذاً، ألا أنها كانت تعتبر من توابع الخلافة أي أنها لم تكن مستقلة تمام الاستقلال أما القضاء فكان مستقلاً في إدارته ولا يقبل أي تدخل من جانب السلطة التنفيذية، ولهذا كان كثيراً من العلماء يمتنعون عن قبول منصب القضاء خوفاً من تدخل السلطة الحاكمة في شؤونهم وقد نال بعض هؤلاء العلماء أذى كبير جراء رفضهم منصب القضاء، مثال على ذلك الإمام أبو حنيفة النعمان توفي سنة 150 هجرية، والذي أعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور، وذلك لكونه يخش أن يحمله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية وبما لا يتفق مع ذمته وضميره، ونتيجة لهذا الرفض عاقبة الخليفة أبو جعفر المنصور بالسجن ثم عفا عنه الخليفة بعد ذلك وإلى جانب استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية، فإن القاضي كان يتمتع بمكانة كبيرة بين جمهور الناس من أنه المنفذ لأحكام الشريعة والدين.

كيف تطور القضاء في الإسلام

على الرغم من أن العرب قبل الإسلام، لم تكن لهم سلطة تشريعية تسن لهم القوانين، إلا أنه يمكن القول بأن فكرة القضاء نبتت عند العرب قبل الإسلام وكانوا يعتمدون في أحكامهم على مصادر مختلفة ونذكر منها الآتي:-

1- الأعراف والتقاليد المستمدة من تجاربهم.

2- الأحتكام إلى العرافين والكهان.

3- الأحتكام بالقرعة.

4- النظر في المظالم ورد حقوق المظلومين، وقد شهد الرسول محمد ρ في صباه مجلساً من هذا النوع، تحالف فيهالقريشيون على نصرة المظلوم من الظالم وهو ذلك الحلف المعروف حلف الفضول.

5- وجد عند العرب قديماً ما يسمى بالحكومة، وهي لا تعني جهاز الحكم كما هو معروف حالياً وإنما كانت بمثابة مجلس قضائي لتقدير الضرر والتعويض عنه وكانوا بنو سهم هم أصحاب الحكومة في قريش، وإليهم كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب الذين يغدون إلى مكة فيما كان يقع بينهم من خصومات.

ولما جاء الإسلام، احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول محمد ρ ، وأعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).

وبذلك يعتبر الرسول محمد ρ أول قاضي في الإسلام. وكان يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحي، كما يستشير أصحابه، ويجتهد في بعض الأحيان، أما طرق الإثبات عند الرسول ρ البينة واليمين وشهادة الشهود وكان ρ يقول في هذا الصدد "البنية على من أدعى واليمين على من أنكر".

ولما أنتشر الإسلام وتوسعت رقعة داخل الجزيرة العربية سمح الرسول ρ لبعض أصحابه بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، ولما ولي الخلافة أبو بكر الصديق τ أسند منصب القضاء إلى عمر بن الخطاب، فمكث عمر سنتين لا يأتيه متخاصمان لشدته وحزمه، ولم يتخذ عمر بن الخطاب لقب قاضي.

ولما ولي عمر بن الخطاب τ الخلافة أوكل مهمة القضاء في المرحلة الأولى للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ولعثمان بن عفان τ ولما توسعت الدولة في زمانه وقامت حروب التحرير والفتوح وأصبحت بعض الناطق بعيدة جداً عن المدينة وانشغال الخليفة وأصحاب رسول الله بأمور نشر الإسلام والأمور السياسية، أصبحت الحاجة ماسة إلى افصل بين السلطتين القضائية والتنفيذية، لأتساع رقعة الإسلام وانتشاره وعدم قدرة الخليفة والولاة في الجمع بين السلطتين، فالخليفة عمر بن الخطاب يعتبر أول من عين القضاة في ولايات الدولة العربية لإسلامية للفصل في الخصومات طبقاً لأحكام القرآن والسنة والاجتهاد وكان الخليفة الفاروق يراعي عند أختيار القاضي، غزارة العلم والتقوى والعدل وأستمر القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذيةن وبعيداً عن المؤثرات السياسية في عصر الدولة الأموية حيث كان القضاة يحكمون بالكتاب والسنة وما يوحيه إليهم اجتهادهم إذ لم تكن المذاهب الفقهية موجودة آنذاك، والتي أخذ القضاة التقيد بها بعد ذلك والتي ظهرت فيما بعد، ولم يكن فرق بين قاض وآخر إلا من ناحية أتساع دائرته.

أما في عصر الدولة العباسية، تطور نظام القضاة نتيجة لظهور المذاهب الفقهية المعروفة في عهدها، فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر حكمه وفق أحد هذه المذاهب، فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة النعمان في الشام والمغرب والأندلس وفق مذهب مالك بن أنس، وفي مصر وفلق مذهب الشافعي وهكذا، وقد نتج عن ذلك ضعف روح الأجتهاد في الأحكام.

هذا ويلاحظ أن الدولة العربية الإسلامية في زمن بني العباس قد تطورت إدارتها فأستحدث منصب قاضي القضاة أو رئيس القضاة، وهو أعلى الوظائف الدينية قدراً ورتبة، فهو قاضي الدولة كلها ومن سواه من القضاة

في الولايات والأقاليم والأمصار نواب عنه فهو الذي يتصرف بالقضاة تعيين وعزلاً ويماثل وزير العدل اليوم، وأنه لتطور إداري مهم ينم على المستوى الذي وصلت إليه الدولة العربية الإسلامية آنذاك.

ولهذا كان يلقب بقاضي القضاة تفريقاً عن عاداه من القضاة والذي يلقب بالقاضي فقط أو قاض بلد كذا.

وأول من لقب بهذا اللقب أي قاضي القضاة في بغداد وهو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب الخراج وكان هذا الرجل حجة في الفقه الحنفي، وتم ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد ولم يلبث هذا النظام أن انتقل إلى القاهرة أيام الفاطميين حيث كان كبيراً القضاة يسمى أيضاً بقاضي القضاة.

وفي الأندلس كان كبير القضاة يسمى أول الأمر بقاض الجند، لأن العرب والمسلمين في الفترة الأولى من فتح الأندلس كانوا تقريباً كلهم جنود، وعندما استقرت الدولة على عهد عبد الرحمن الداخل الأمير الأموي الذي دخل الأندلس هرباً من المشرق الإسلامي بعد سقوط دولة بني أمية واعتلاء الخلافة من قبل العباسيين، وصارت قرطبة هي العاصمة سمي بقاضي الجماعة أي قاض الحضر أو العاصمة وكان مقره الدائم في قرطبة، ويقصد بالجماعة الجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة قرطبة.

وهناك ملاحظة لا بد من الإشارة إليها وهو وجود فرقاً كبيراً بين منصب قاضي القضاة في المشرق ومنصب قاضي الجماعة في الإندلس، فقاضي القضاة في بغداد أو القاهرة هو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الولايات فهم نواب عنه ويتم تعيينهم وعزلهم على يديه وبأمر منه.

أما قاضي الجماعة في الأندلس فإن سلطة تقتصر على العاصمة قرطبة والمناطق المحيطة بها أي ضواحيها فقط، ومن هذا يتضح أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الأندلس أي ولايات أو أقاليم الأندلس، فالقضاة في المناطق الأخرى من بلاد الأندلس، هم مستقلون عن قاض قرطبة وليس نواب عنه، وبمعنى أوضح أن قاضي الجماعة لا يتميز عن بقية القضاة إلا من الناحية الأدبية فقط بحكم كونه قاضياً للعاصمة ومستشاراً وإماماً للصلاة في يوم الجمعة وأيام الأعياد.

وهنا يمكن القول بشكل واضح أن القضاء في المشرق اتسم بطابع المركزية بينما أتبع في الأندلس الإدارة اللامركزية في القضاء، وكانت جلسات القاضي إما في المسجد الجامع أو في أي مسجد من المساجد، لأن المساجد في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على الصلاة فقط، وإنما كانت بمثابة المحكمة للفصل في أمور الناس، وكذلك مدرسة للتعليم، والجمعية الوطنية أو المجلس الوطني الذي يناقش فيه قادة الأمة والجمهور مشاكلهم وقضاياهم وفي أحيان كثير كان المسجد هو مكان بيت المال الذي تحفظ فيه أموال الدولة.

أما في القضايا التي تقع بين المسلمين وغير المسلمين "أهل الذمة" فكان ينظر فيها قضاة مسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام، ومنعاً للحرج الذي قد يقع فيه غير المسلم، كان القاضي يعقد جلسة القضاء وذلك بجلوسه في رحبات المسجد الخارجية كي يستطيع النصراني أو اليهودي أو غيرهما أن يصل إلى القاضي.

أما القضايا التي تقع بين "أهل الذمة"أي الصراعات التي تحصل فيما بينهم، فكان ينظر فيها قضاة منهم يسمون بقضاة العجم ونظراً لكثرة هؤلاء في الأندلس وخصوصاً المسيحيين فقد دخلت كلمة قاضي إلى اللغة الأسبانية

Alcalde وإن كان مدلولها آخذاً استعماله يقع قبل مرور الزمن وقد تغير مفهمها فهي تعني اليوم العمدة أو شيخ القرية.

ويذكر المؤرخ محمد بن حارث الخنشني توفي سنة 360هـ في كتابه الموسوم القضاء بقرطبة، إلى أن معظم قضاة الأندلس كانوا يتكلمون اللغة الأعجمية أو الرومانية أي الأسبانية القديمة، ويناقشون بها المتهمين الأسبان المسيحيين، وهذه ظاهرة اجتماعية هامة ترينا إلى أي حد انتشرت اللغة الأسبانية بين مسلمين الأندلس.

أما من أين يتقاضى القضاة رواتبهم، فهي من الدولة وكانت مرتفعة سواء في المشرق الإسلامي أو المغرب الإسلامي، وذلك لكي يستغني القاضي عن الناس وصيانة كرامته.

هذا وكان يوجد في الإندلس حق الأستئناف فالخصم الذي لا يرضيه حكم القاضي يستطيع أن يتظلم أمام قاضي آخر يسمى صاحب الرد كان ينظر بالقضية مرة ثانية، فإذا وجد فيا مظلمة ردها للقاضي أو رفعها للسلطات كي يصدر فيها حكمه بعد أستشارة مجلس المشورة أو الشورى الذي كان يضم قضاه للفتوى، ويبدو أن ولاية الرد لم تكن موجودة إلا في المغرب والأندلس فقط إذا إن فقهاء المشرق ولا سيما أبا الحسن الماوردي لم يذكر في كتابه الأحكام السلطانية، لقد وجد بالمشرق ما يسمى بديوان المظالم ولك لم تكن له فيما يبدو صفة دائمة.

المصادر

1- محمد بن حارث الخشين/القضاء بقرطبة

2- القاضي أبو يوسف، كتاب الخراج.

3- لفي بروفنشال، الشرقي الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية.

الادارة المالية في الدولة الاسلامية

تعمل السياسة المالية لكل دولة علىتحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها، وقد سارت الدولة العربية الإسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها، فأنشأت بيتاً للمال والذي يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه للمصالح العامة للمسلمين، وهو بهذا يشبه وزارة المالية في عصرنا الحالي وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية.

والمال الوارد إلى بيت المال، إما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى من غير الأرض كأن تكون موارد مالية من الفيء والغنائم والركاز، أو كجزية الرؤوس التي يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم، والعشر الذي يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التي تدخل بلاد الإسلام والمسلمين وموانئهم، ويسمى العشور كما كانت ترد إلى بيت المال التي لم يعلم لها مستحق كاللقطة وتركة منن لا يرث وارث له، والأموال التي يصالح عليها المسلمون أعدائهم ونحو ذلك، وسوف نعطي إيجاز عن كل مورد من الموارد المالية التي ترفد بيت المال بالأموال.

أولاً : **الخراج**

والخراج هو مقدار معين من المال أو المنتجات الزراعية وغيرها، يفرض على الأراضي التي تم فتحها عنوة من قبل المسلمين، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها علىالمحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد ن يعوض المحاربين عن نصيبهم فيها أو يسترضيهم كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب τ ويؤخذ كذلك عن الأراضي التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال.

وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأراضي لا يفرض عليها الخراج وإنما يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها وغلاتها، وهذه الأراضي تسمى العشرية، وقد ذكر الماوردي، هذه الأنواع فقال:

1- الأراضي التي أسلم أهلها وهم باقون على زراعتها وإدامتها بدون حرب، فهذه كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج.

2- الأراضي التي ملكها المسلمون عنوة إذا قسمها الخليفة عليهم فهذه تعتبر ارض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج.

3- الأراضي اليت كانت تؤخذ من المشركين عنوة، وهذا تعتبر غنيمة تقسم بين المقاتلين فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلاتها، وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج.

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من المال أو غلة كما صنع الخليفة عمر بن الخطاب τ في ارض العراق، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض، ويطلق على ذلك المعاملة أو المزارعة، كما عامل النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأراضي العائدة لهم قليلاً كان أو كثيراً وقد مسحت أرض العراق في زمن عمر بن الخطاب τ فبلغت 36.000.000 جريباً، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب وبلغ ماجمع من خراج العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب 18.000.000 درهم، وعليه يكون متوسط جباية الجريب 3.555 درهم فإذا كان الفدان يساوي 315 من الأجربة فتكون ضريبة المتزرع قمحاً 14 درهماً.

وقد أختلف المؤرخون في تقدير الخراج، فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التي فرضت على أهل الذمة، وقصره غيرهم وكل منها يخالف ما جرى به عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج في الولايات، فهم يعنون بالخراج المال الذي يأتي من إحدى ناحيتين:

1- الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الرؤوس.

2- ضرائب الأطيان

ولهذا نجد أن المؤرخون قد اختلفوا في تقدير الخراج ولم يكن الخراج إيراداً ثابتاً للدولة، إذ كانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الري، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل الولايات ضمن الدولة العربية الإسلامية في الإسلام.

وقد تناول الماوردي الكلام عن الخراج فقال "فأما الخراج فهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها، وفيه من نص الكتاب بينة خالفت نص الجزية، فلذلك كان موقوفاً على اجتهاد الأئمة" والماوردي أشار إلى تمييز أرض الخراج عن أرض العشر في الملك والحكم وإلى ذلك.

يقول الماوردي "أما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتنقسم ثلاثة أقسام أحدها ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء، فقد أختلف الفقهاء في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها، فذهب الشافعي على أنها تكون غنيمة كالأموال، تقسم بين المقاتلين إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتوقف على مصالح المسلمين.

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاة والقواد لجباية الخراج، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المصالح العامة، ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف فيما خصص له.

وذكر قاضي القضاة أبو يوسف في كتابه الخراج الصفات التي تتوافر فيمن يتولى جباية الخراج فقال، إنه يجب أن يكون فقيها، عالماً، مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم"

وفي ناقلة القول أن العهد الراشدي للخلفاء الأربعة صحابة رسول الله محمد ρ، ψ عهد عدل وتسامح لم يشدد فيه الولاة في جمع الجزية، وكانت الضرائب على الأرض تقدر على حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول، ولم تكن تدفع نقداً بل كان بعضها يدفع عيناً، وقد عني الولاة بأمر الري لضمان جباية الخراج، فعنوا بمراقبة السدود وإنشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها وكريها (أي تطهيرها)، وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب من الأسباب.

وكان لجباية الخراج نوعان أو نظامان:

1- **نوع أو نظام المقاسمة**

2- نوع أو نظام الألتزام.

في الحالة الأولى ترى الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً. وبلغ من شدة مراقبة الخليفة عمر بن الخطاب لعماله أنه كان يحصي أموالهم قبل توليتهم، فإذا أنتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت المال، إلا إذا أتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة.

أما النظام الثاني أو النوع الثاني فأنه يرجع إلى عهد الرسول محمد ρ، فقد أقطع أناساً من مزينة أو جهينة أرضاً بقصد تعميرها فلم يعمروها، وجاء أخرون فعمروها، فأختصم الجهنيون والمزنيون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ((من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم أخرون فهم أحق بها)).

وأقطع عثمان بن عفان رضي الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز.

ويقول المقريزي، إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون أرض مصر لنفر من خوصهم، ومن خراج مصر تصرف أعطيات الجند وما تتطلبه مرافق الدولة وما بقي يرسل إلى بيت المال وما أقطع من الأراضي يبقى بيد من آل إليه.

وقد ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية، نوعي الإقطاع فقال إنه ضربان، أقطاع أستغلال و أقطاع تمليك، والثاني ينقسم إلى موات وعامر، والثاني ضربان، احدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأراضي في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام، فإن كانت في دار الحرب ولم يثبت المسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام المقطع ليمتلكها.

وقد أوضح السيرجروهمان طريقة تأجير أرض الدولة في العهد العربي الإسلامي، أو قبالة (أي كفالة) فقال ((إن ذلك كان يحصل على طريقة المزاد على يد متولي خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ينادي على الأرض جزءاً أو كورة ((مجموعة)) ويعطى لمن يرسو عليه المزاد لمدة أربع سنوات)) وإلى ذلك يشير المقريزي حيث يقول ((إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي (أي من يريد تأجير الأراضي)، وقد أجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما أنتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الضمان أو الأستئجار وغير ذلك، فإذا أنقض ذلك الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويجعل من عليه من الخراج في إبانة على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة في الخراج، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين)).

ثانياً العشور :

يرجع نظام العشور إلى عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري، أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب (أي بلاد الكفار والذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر. فكتب عمر بن الخطاب (رضي) خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهماً من كل أربعين درهماً، ولا تأخذ منهم فيماً دون المائتين شيئاً، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم.

وقد نص الشرع على أخذ العشر من سلع تجار الكفار التي يقدمون بها من دار الحرب إلى دار السلام إذا شرط ذلك عليهم، وقد أفتى الإمام الشافعين بأن للإمام أن يزيد عن الشعر وأن ينقص منه إلى نصف العشر، وأن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة، ولا يزيد أخذ العشر على مرة من كل قادم في التجارة في السنة الواحدة ولو تكرر قدومه، كانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا أنتقل من بلاده إلى بلاد أخرى.

المصادر

1- الماوردي/الأحكام السلطانية

2- جرجي زيدان/التمدن الإسلامي/.

3- المقريزي/الخطط

4- سعيد بن البطريق، ذيل التاريخ المجموع على التحقيق.

5- Grahman Adlf The History of the Decline and foll of the Roman

النظام الاقتصادي

ومن مصادر بيت المال الأخرى إضافة إلىما ذكرناه في المحاضرة السابقة هناك مصادر أخرى لبيت المال ذات أهمية في رفد الأموال عند الدولةالعربية الإسلامية.

ثالثاً: **الزكاة**

الزكاة والصدقة شيء واحد من أزكى الشيء يزيكه إذا نماه، أو من زكاه تزكية إذا طهره، وإنما سميت بذلك للإشارة إلى أن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه، وأيضاً لأن إخراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة، قال تعالى "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم" سورة البقرة/آية 261.

والزكاة هي كل ما يؤخذ من أموال الأغنياء ويوزع بين فقراء المسلمين، وكان للصدقة ديوان خاص بها في دار الخلافة العربية الإسلامية وله فروع في سائر الولايات الإسلامية، فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع الشعر وهذا يعني (2.5%) عما يمتلكونه من المال، وهذه هي زكاة النقد أو النقدين (أي الذهب والفضة).

أما زكاة السوائم وهي الإبل والغنم ويلتحق بها الماعز وبقية المواش، فكانتتؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق إلى مائة، ثم يبتدئ من 101 إلى 200 بمقدار واحدة في كل مائة، وإلا بل عن كل خمس شاة إلى أربع وعشرين) فإن كانت خمساً وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل).
أما الجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة بنت سنة، فإذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة بنت سنتين، والخيل إذا أعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها، كل ذلك إذا كانت الحيواناتتأكل من الكلأ المباح، فإن علفها صاحبها فلا زكاة فيها، وإذا دخلت في التجارة فتقوم ويدفع عنها زكاة التجارة.
أما زكاة عروض التجارة فهي ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب أو الفضة، وأن يحول عليها الحول.
أما زكاة المعادن والركاز، وهو مال وجد تحت الأرض سواء كان معدناً خلقه الله تعالى بدون أن يضعه أحد فيها أو كان كنزاً دفنه الكفار، فقد قال في ذلك الحسن البصري: ما ان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس، وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر.
وأما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها الشعر إذا كانت خارجة عن أرض تسقى بالمطر أو السيح ونصف العشر إذا كانا خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها، وأن يكونالخارج منهما مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها.
وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين في قوله تعالى "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم" سورة التوبة آية 60.

رابعاً : **الجزية**

وهي من موارد بيت المال المهمة، وهي مبلغ من المال يحدد بدفعه من توافرت فيه شروط خاصة. وهي تشبه الخراج في أن كل منهما جزء من الفيء يجيء في أوقات معينةمن كل سنة، ولكنهما يختلفان في أن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بإسلام الشخص الذي كانت عليه جزية، وفي أنها قد تثبت في نص في القرآن الكريم في قوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" سورة التوبة/ آية 29.
في قول عن زيد أي عن قدرة وهذا يعني في قوله تعالى أن الذين تأخذ عنهم الجزية يمكن أن تجري عليهم أحكام الإسلام أي تسقط عنهم في حالة إسلامهم، عكس الخراج تماماً لا يسقط بإسلام صاحب الملك أو المالك هذا من جانب ومن جانب آخر إنما تثبت الخراج بالأجتهاد.
وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، وهما رعية لدولة واحدة في المسؤولية، كما تكافأ في التمتع بالحقوق وتساوياً في الأنتفاع بالمرافق العامة للدولة العربية الإسلامية لكون ليس في واشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم والماعز...الخ زكاة سواء، فليت الجزية دينا على الذمي يستوفي منه بالوسائل التي تستوفي بها الديون، فمن وجبت عليه الجزية ومات أو أسلم قبل دفعها لم تأخذ من تركته ولم يطالب بها ورثته.

أما من هم الذين تجب عليهم الجزية فهم:

1- الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع.

2- من أغنياء المترهبين في الأديرة وأهل الصوامع.

أما الذين لم تأخذ منهم الجزية أو المعفيين وهم:

1- لا تؤخذ منالمسكين الذي يتصدق عليه.

2- من ليس له القدرة على العمل.

3- من العمى أو المعقد أو المجنون وغيرهم من ذوي العاهات.

4- الرهبان في الأديرة وأهل الصوامع من غير الأغنياء.

ونلاحظ هنا أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كان مسلمين، وأنه أعفى منها الأشخاص الذين يعفيهم من القتال. وفي ذلك يقول أبوالحسن الماوردي "وأسمها مشتق من الخبراء، فيجب على أولي الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا (يستقروا) بها في دار الإسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين: أحدهما الكف عنهم، والثاني الحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين"

ويقدر بعض الفقهاء مقدار الجزية ومنهم أبو حنيفة النعمان ثلاثة أقسام:

1- أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً

2- ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً.

3- فقراء يكسبون ويؤخذ مهم أثنا عشر درهماً.

أما الكيفية التي كانت تتم بها جباية الجزية فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الإسلام بالرفق والأنصاف وجباتها من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة والولاة وتقضي القاعدة الفقهية أو دستور الإسلام في طريقه أخذ الجزية من دافعيها بأنه "لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيلائهم الجزية أي لحملهم على أدائها ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن برفق بهم ويحبون حتى يؤدوا ما عليهم.

خامساً: الفيء والغنيمة

وهذا مصدر آخر من مصادر بيت المال وهما الفيء والغنيمة فإذا ما هو الفيء. هو كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب وهذا يعني (الإيجاف للخيل أي سرعة السير، والركاب للأبل التي يسافر عليها لا واحد لها من لفظها، أي لم يكن هناك أعداد للخيل والإبل لكي يحصلوا عليه بل حصلوا عليه بلا قتال).

وكان النبي محمد ρ خمس الفيء بقسم خمسة أسهم متساوية: كل سم منها لأربابه عملاً بقوله تعالى "ما أفاء الله على رسوله من أهل القربولله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" سورة الحشر/آية 7 .

وبعد انتقال الرسول محمد ρ إلى الرفيق الأعلى رد نصيبه إلى بيت المال وأما أربعة الأخماس الباقية فكانت تقسم بين الجند حتى دون الخليفة عمر بن الخطاب الديوان وقدر أرزاق الجند.

أما الغنيمة:

وهي كل ما أصابها المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال وتشمل على أربعة أقسام، هي:

الأسرى والسبي والأراضي والأموال.

فالأسرى: هم الرجال المقاتلون من الكفار والذين يقعون في الأسر.

والسبي: هم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين، فلا يجوز قتالهم وإنما يقسمون من جملة الغنائم.

والأرض : التي تؤخذ في الحرب عنوة بخرج أهلها عنها لأنها غنيمة كالأموال.

وأما الأموال المنقولة

وهي ما يمكن نقله كالماشية والمال فكانت تقسم بين المقاتلة، وكذلك الحال بالنسبة للإسلامي كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم وكان الرسول محمد ρ يقسمها حسبما يرى.

ولما أختلف الصحابة في تقسيم غنائم معركة بدر الكبرى شرع القرآن الكريم طريقة تقسيمها في قله تعالى "وأعلموا إنما غنمتم من شيء، فإنه لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" سورة الأنفال/آية 41

هذه أهم المصادر المالية لبيت المال في الدولة العربية الإسلامية وكانت تلك المصادر هي التي كونت تلك القوة المادية والمعنوية للدولة ووفرت العدالة بين أبناء الأمة بالأمانة والحرص على مال المسلمين من حقوق كل شيء.

المصادر

1- الماوردي/ الأحكام السلطانية
2- أبو يوسف/ كتاب الخراج.
3- صحيح البخاري.
4- ابن هشام/ السيرة.
5- المقريزي، المواعظ والاعتبار.

العلاقات الخارجية للدولة

لقد بلغت الدولة الإسلامية من القوة والعظمة مكانة لم تبلغها أية دولة في العالم قبلها فأصبحت القوة العظمى الأولى في العصور الوسطى، أن صح التعبير، ولما بلغت هذه الدولة تلك المكانة فلا بد أن تكون لها علاقات دولية مع الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها سواء كانت تلك العلاقات صراع وتصادم أو علاقات حسن جوار وكذا الحال مع الدول البعيدة، فلا بد وأن تكون لنا معرفة حول الموضوع، وعن الكيفية التي تدار بها تلك العلاقات الدولية وعليه.

عندما نهض العرب كنهوض المارد وتكامل حراكهم بظهور الرسول العربي محمد ρ ونزل القرآن الكريم عليه وولادة دين الحق الإسلام، هبو لنشر هذا الدين العظيم في مشارق الأرض ومغاربها حاملين رايات الله وأكبر ملتحمة ومذبحة مع القيم والأخلاق والفضائل العربية التي يحملها أولئك العرب والتي جاء القرآن الكريم وعززها وأعطاها بعدها القومي الإنساني بالإسلام وعقيدة الحق التي نقلت العرب والعالم نقلة نوعية لا مثيل لها في تاريخ البشرية.

كانت أخبار العرب المحررين تسبق سنابك خيولهم بالرحمة والعدل و والانعاف.

ومع هذا ذهل العالم وصعق أهله بالقوة العربية فتحوا وهروا بلدان مختلفة من الكرة الأرضية وخصوصاً في القارات الثلاثة والكبرى المعروفة في ذلك الوقت آسيا وأفريقيا وأوروبا في بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل، أدت إلى خمول وتضعضع سكان العالم، فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران دولتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة، فهابوهم وأخذوا يتقربوا إليهم بالوفود والهدايا إلى المدينة المنورة فدمشق، ثم بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف الدنيا من الهند والصين شرقاً إلى أعالي آسيا وأواسط أوروبا شمالاً إلى أقصى أفريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً، وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور، وعليه سوف نطلع على هذه العلاقات.

ونبدؤها أولاً باستقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيماً يظهرون به عز الإسلام ولا سيما تلك الوفود التي من مناطق لم يصل إليها الإسلام بعد والاحتفال في ذلك مختلف باختلاف الأحوال، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباس برسل جاءوه

من ملك الروم سنة 305هـ فأنه أستقبلهم في دار الشجرة وعين لهم الجيوش، وصف الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكانت جملة العناصر المصفوفة حينئذ 160,000 رجل بين راكب وواقف ووقف الغلمان الحجرية، بالزينة والمناطق المملاة وكانوا أثنين وعشرين ألفا، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف، منهم 4000 خادم أبيض و3000 خادم أسود ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة، وزينت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلقة عليها 38,000 ستراً منها ديباج مذهب 12,500 ستر، وكانت جملة البسط 22,000 بساط، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع، وكان من جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة، فتشاهد الرسل من العظمة ما يطول به الكلام.

ثانياً العلاقة مع الصين

المشهور أن الإسلام لم يذكر ظهوره وأنتشاره غير أصحابه ولم يدون أخباره غير أهله، حتى الروم مع ما كان لهم من نصيب في التحضر والمدنية، لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الإسلام والمسلمين، ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية عن خبر الإسلام وأنتشاره إلى استقلال معاوية ابن أبي سفيان بالخلافة لنفسه وكذلك ذكروا أبو مسلم الخراساني وقيام دولة العباسيين إلى غير ذلك، فقرأوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبي العباس وأبي جعفر وغيرها من رجال الإسلام مكتوبة بالأحرف الصينية، ومما جاء هناك أن أبا جعفر المنصور أرسل سنة 756هـ وفداً إلى إمبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من ((هوى هو)) من مغول الشمال فأختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الأمبراطور، فأنصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب. ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في أثناء سيرة الإمبراطور سو تسونغ قالوا ((ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي أيامه أي من (سنة 785م – 804م) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على تونان (تيبت) ثم صار أهل تونان يتجندون لقتالهم كل سنة، وفي عام (798م) جاء ثلاثة سفراء من العرب إلى بلاط الإمبراطور.......الخ.

ووقفوا في تاريخ الصين أيضاً على نصوص تشير إلى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد القرن الثالث للهجرة النبوية الشريفة،فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها، وإن تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الإمبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وحكامهم وسائر أحوالهم، ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين والعرب والمسلمون من غير العرب.

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية، وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية والتي ذكرت فيها تجارة العرب مع الصين والهند وكذلك العلاقات مع تلك الدولتين ونزول تجار العرب إلى شواطئ تلك البلاد كتاب (سلسلة التواريخ) وهو يشمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب مع شواطئ الخليج العربي إلى بلاد الهند والصين.

ويقال بالأجمال إن في الكتب التاريخية ذكراً لتلك العلاقات التجارية والسياسة بين العباسيين وملوك المشرق من هنود وصين، وإن المهاداة كانت متواصلة بينهما ((أي قبل الهدايا وإرسالها بين الطرفين)) فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني الهجري تحمل الهدايا أو كتب المخابرة وهناك وفود كانت من الصين تأتي إلى بغداد، لأن العرب المسلمين وهذا هو الواقع أقاموا علاقات ود واحترام متبادل مع من يحترمهم ويبادلهم نفس العلاقة وهم أول الشعوب والأمم الذين يقيمون سفارات لهم في الدول الأخرى.

ثالثاً العلاقة مع الأوروبيين

على الرغم من أن علاقات المسلمين مع ملوك أوروبا ودولها وأن أعظم الدول والممالك يومئذ هم الروم الجرمان والإفرنج والأسبان وكانت علاقات المسلمين قوية مع تلك الممالك والدول، واثق من سواها.

أما الروم وهم ملوك القسطنطينية، فكانت الاتصالات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام دولة بني أمية أما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مضادة والحروب كانت سجالاً بين العرب المسلمين والروم البيزنطينيين على الحدود أو في البحار وقد حاصر الأمويون القسطنطينية، غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاد أخرى في أوروبا وأوقعوا الرعب في دول الأفرنج، وكذلك فعل العباسيون، فأن الرشيد أخذ الجزية من أيرينى ملك الروم البيزنطيني.

وأما من ناحية المهاداة فهدية الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا أشهر من أن تذكر، على أن هدايا ملوك الروم إلى دار الخلافة العباسية كانت متواصلة وأكثرها من السيوف والثياب والأطياب والذهب والكلاب منها هدية كان قد بعثها قيصر الروم (ربما أن يكون ميخائيل الثاني) إلى الخليفة العباسي المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور.

وأهدت ثريا بنت الأوياري ((ملكة الأفرنج)) إلى المكتفي بالله سنة 293هـ خمسين سيفاً و50 رمحاً و30 ثوباً منسوجاً بالذهب و20 خادماً صقلبياً و20 جارية و10 كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومغرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها.

وكان الخلفاء أيضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة أو مخابرة، وممن سار في ذلك الوقت القاضي الأشعري المعروف بابن الباقلاني، أنفذه عضد الدولة سنة 371هـ إلى قيصر الروم باسيل الثاني في جواب رسالة فأظهر هذا الرجل أي الباقلاني في بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم.

رابعاً علاقة عرب الأندلس مع الفرنج

على أن العلاقات كانت أكثر وثوقاً بين ملوك أوروبا والعرب المسلمين في الأندلس، لأن قياصرة القسطنطينة كانوا يتقربون من الأمويين في الأندلس لغاية هو محاولة الوقوف معهم ضد العباسيين أعداء الطرفين حتى أن ملك الروم ثيو فيلوس المعاصر لعبد الرحمن الأوسط حاداه سنة 325هـ وكتب إليه يرغبه في ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم أبنا هارون الرشيد، وقد ذكرهما ثيو فيلوس في كتابه باسمي أمهما بابن مراجل وابن ماردة تحقيراً لهما بالأنتساب إلى أمهات من الجواري، فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيي الغزال شاعره واحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما، لكن هذا الود لم يدم طويلاً، فلما تقلد الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث مقاليد الحكم في الأندلس وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الأفرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه، تقدم إليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقيطنطينية

وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ووصل إلى بابه الملوك من الأسبان المتاخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وأمتطوا مركبه.

وتواليت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من كل حدب وصوب وطلب وده جميع الملوك الأوروبيين ولما أراد بناء الزهراء أهداه أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على أختلاف ألوانه وأشكاله شيئاً كثيراً.

المصادر:

1- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

2- ابن عبد ربه/ العقد الفريد.

3- المسعودي/ تاريخ الرسل والملوك ومروج الذهب.

4- سليمان التاجر وأبي زيد حسن، سلسلة التواريخ.

5- البلاذري، فتوح البلدان.

6- ابن الجوزي/ المنتظم.

7- الحموي/ ياقوت / أرشاد الأريب في معرفة الأديب.

7- ياقوت الحموي / معجم البلدان.

أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي :

بدأت الولايات الإيرانية ، في الخروج على سلطان الخلافة ، في بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الإسلام ودفع الجزنية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عمن أسلم ، ونجع عماله في نشر الإسلام . ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة إلى اتخاذ إجراءات شديدة كانت ترمي إلى إثبات الدخول في الإسلام ثبوتاً قاطعاً ، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين في الإسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة على عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك اشرس بن عبد الله السلمى (109 – 111هـ / 727 – 728م) .

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية لقيام حركة مناهضة للأمويين رغم أن رواية الطبري تذكر أن الدعوة الشيعية العباسية بدأت في خراسان منذ أيام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة .

ولكن هناك رواية أخرى للطبري نعرف منها أن أول من لبس السودان في خراسان – وعا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا في سنة 116هـ / 734 هو الحارث بن سريج . وقبل الحرث عرض والى خراسان عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أن يكتبا إلى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه ρ "فإن أبي اجتمعا عليه" وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان إى أسد بن عبد الله القسري "وضمها إلى العراق لتكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد أمير المؤمنين وتباطئ غياثه" .

وظل أسد في الولاية من سنة 117هـ حتى سنة 121 هـ (735 – 738م) وبعودة أسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع فقبض أسد على جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم ، ومثل ببعضهم وحبس بعضهم ، وواصل القتال ضد الحارث بن سريج وبعد موت أسد ولى خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف "بشيخ مضر في خراسان" و "على أيامه عمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية" فقد عمل نصر على رفع الجزية التي كان يدفعها المسلمون إلى غير المسلمين .

ولكن نصر لم ينجح في إ]قاف العداء التقليدي بين العصبية المضرية والعصبية اليمنية . ولما كان نصر من العصبية المضرية على عكس أسد الوالي السابق – فإنه حابى المضرية في بداية أمرته وقلدهم الأعمال فالنص يقول :

"فلم يستعمل أربع سنين إلا مضرياً" .

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتى يتألف اليمينية . ولكن اليمانية ثاروا بزعامة الكرمانى جديع بن علي الأزدي) "الذي أظهر الخلاف لنصر بن سيار" في سنة (126هـ / 744م) . وكان الكرمانى كما تقول الرواية قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبدالله ، ولكن بعد أن تقلد نصر أمرة خراسان ، عزل الكرمانى عن الرياسة وولاها غيره" . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتنم الكرماني الموقف الذي حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق بعد قتل الوليد الثاني ونستشف من الرواية أن الكرمانى كان لا يتورع عن سلوك أى السبل من أجل تحقيق أطماعه فالنص يقول: "لو لم يقدر على السلطان والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصر وتهود" وقد قام نصر باعتقال الكرمانى وحبسه ولكن الكرمانى تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة أنصاره والتفت حوله الأزد .

أما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك واليها منصور بن جمهور . وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله إليه من قبل واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وقد أقر ابن عمر نصراً عن خراسان . فغضب الكرماني لابن جمهور ، وكان نصر قد عرض به في خطبته وأعلن خلافه لنصر .

وفي حاضرة الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) وحدثت فتن وقلاقل في البلاد إلى أن خلص الأمر لمروان بن محمد (سنة 127هـ / 744م) . فأقر نصر بن سيار على خراسان وبذلك أضفى عليه صفة الشرعية وأعلن نصر بيعته للخليفة مروان . ولكن الحارث بن سريج الذى كان قد سبق أن حصل له نصر على الأمان من الخليفة يزيد بن الوليد ، وعاد من بلاد ما وراء النهر – وكان متحالفاً مع الترك إلى خراسان حيث استقر من اتباعه في منطقة مرو – رفض مبايعة مروان وخرج على نصر الذى أرسل إيه "يعوه الى الجماعة وينهاه عن الفرقة وأطماع العدو" . وطلب الحارث من نصر أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وأن يعزل عماله ويقلد عمالاً نزهاء وتمكن داعيته جهم بن صفوان (رأس الجهمية) من لم الجموع حوله .

وفي نفس الوقت كان الكرماني يدعو إلى عزل نصر وتعيين والى آخر عوضه ، فالتقت مصالحهما واتفقا أى الحارث والكرماني – على حرب نصر وقد حاقت الهزيمة بالحارث إلا أن نصراً اضطر بعد تقدم أنصار الكرمانى إلى الانسحاب إلى نيسابور ، ودخل الكرماني والحارث مدينة مرو . ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل

الكرمانى الحارث في سنة 128هـ / 746م وصفت مرو لليمن . إلا أن الكرماني لم يهنأ طويلاً بانتصاره ، فقد بدأ نصر يجمع قواته لإعادة استخلاص مرو من منافسة الكرماني والقضاء عليه .

ولقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة الشيعية العباسية .

الدعوة العباسية :

والحقيقة أن عرب الفتوح الأولى الذين توغلوا في خراسان التي تمثل كل الهضبة الإيرانية حتى بلاد ما وراء النهر ، كانوا منعزلين في هذا المشرق البعيد ، مما جعلهم يتميزون عن عرب الأمصار الأخرى بصفات خاصة . ولم يكن المتزوجين منهم قد عبروا الجبال التي تحد إيران بل كان غير المتزوجين منهم ، هم الذين وصلوا إلى هناك في جماعات وتزوجوا من نساء أهل البلاد . ويقدر فلهوزن أن الحد الأقصى لعدد هؤلاء كان لا يتجاوز المائتي ألف رجل إبان الثورة العباسية .

وكان الإندماج تاماً بين سكان خراسان حتى يصعب التمييز في كتب التالية إلا بصعوبة بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الإيرانية وبين أهل البلاد الذين دخلوا في الإسلام والذين عرفوا بالموالى وكانوا يحتفظون بذكريات حضارتهم القديمة ، وتراث الأسرة السابقة . وكان هؤلاء الموالى يشعرون بالمساواة مع العرب ، وسنرى أنهم عملوا في القرن التالى على أيام العباسيين على إثبات تفوقهم الفكرى في كل العلوم التى عرفها العرب .

وكان الخراسانية ، منذ العصر الأموي ، يحاربون في صفوف الجيش الإسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك ، وكان جميع أهل الإقليم يعيشون في وئام : من العرب الفاتحين إلى الموالى الذين دخلوا في الإسلام بل وأهل البلاد الذين بقوا على ديانتهم المزدكية . وعلى أيام زياد بن أبيه بدأ تهجير أعداد كبيرة من شيعة العلويين من مدينتى العراق الكبيرتين : الكوفة والبصرة ، إلى منطقة بلخ في أقصى خراسان ، على حدود ما وراء النهر . واستمرت سياسة نفى العناصر العلوية إلى الشرق على أيام الحاج بن يوسف . وفي نفس الوقت أوقفت هجرة أهل الشام إلى المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالأمن هناك . ولا شك أن العلويين وشيعتهم وجدوا في الأقليم الإيرانية أرضاً صالحة لنشر أفكارهم عن الإمام المنتظر ، وهو المهدى وذلك أن الموالى من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة إلى حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق مستوى البشر بحيث يكون له التحكم في توزيع الأرزاق فهو الذي ينشر السعادة بين الناس أو التعاسة ، وعن طريقه يكون انتشار الخصب في الأرض أو القحط .

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة وهما مركز الاضطراب العلوى من جهة أخرى سبباً في أن اعتنق كل أهل إيران الآراء المعادية للدولة العربية التي كان الأمويون يحاولون تنظيمها واقرار تراتيبها ، والتي رغم تحولها إلى ملكية وراثية فإنها ظلت محافظة على طابعها العربي أو البدوى .

وهكذا شعر أهل إيران بأنهم أكثر تعلقاً بالمذهب العلوى الذي يطالب بأن يكون الأمر في الدولة الإسلامية لآل البيت من العلويين والذي خلع على أفراد الأسرة العلوية شيئاً فشيئاً صفات فوق مستوى البشر .

كل هذا يفسر النجاح الذى صادفته الدعاية العلوية منذ بدء تنظيمها في العراق ، وارسال دعاتها إلى خراسان . ومنذ مطلع القرن الثانى الهجرى كان دعاة الشيعة يظهرون في خراسان ، ما بين الحين والحين وبشكل منتظم حسب أوامر الكوفة ، ودون أن يعرف لحساب من يعملون .

عهد أبي هاشم إلى محمد بن على :

تكاد تجمع المصادر التاريخية علأن مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد انتقل إليهم من أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (أحد أبناء على رضى الله عنه) . فرواية صاحب "أخبار الدولة العباسية" تقول: "وكان تشيع العباسية أصله من قبل محمد ابن الحنفية وإلى ذلك دعا أبو مسلم .." وتذكر أيضاً أن محمداً بن على أخذ العلم على يدى أبي هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان إذا قام أبو هاشم يركب أخذ له الركاب "فلما مرض أبى هاشم مرضه الذى مات فيه وكان بأرض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عدل إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة ، وعهد له بحقوقه في الإمامة في سنة 98 هـ / 717م ز وألقى إليه بأسراره وقال له : أوصيك بتقوى الله فإنها خير ما تواصى بها العباد ، ومن بعد ذلك فإن هذا الأمر الذى نطلبه ونسعى فيه وطلبه آخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك .

هذا ما تقوله الرواية العباسية ،أما الشيعية فإنهم قالوا : ن أبا هاشم أوصى إلى عبد الله بن معاوية بن عبد لله بن جعفر بن أبى طال وهو الذى نادى به الشيعة في الكوفة إماماً على عهد مروان بن محمد ، وبعد انهزامه أمام المروانية اتجه إلى فارس وأصفهان واصطخر ، وانتهى الأمر بمقتله على يدي الداعية العباسى أبي مسلم الخراسانى كما سبق القول .

تنظيم الدعوة :

يعتبر محمد بن على العباسى أول منظم للدعوه العباسية السرية أما ابنه إبراهيم الإمام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سريعة إلى علنية ولكنه لم يجن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان أبو العباس عبد الله بن محمد العباسى أول خليفة لبنى العباس .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة إلى :

1 – الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة 97هـ / أو سنة 100هـ على اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو . ولم تكن تنظيماتها قد تبلورت في بادئ الأمر وجابهت انتكاسة قوية هزتها مثل حركة خداش والقبض على بعض الدعاة العباسيين .

2 – الدور العلنى الثورى ويبدأ بإرسال الإمام ابراهيم أبا مسلم الخراسانى إلى مرو سنة 128 هـ / 745 – 746 حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة 129 هـ بعد أن اختمرت الحركة السرية العباسية . وينتهي هذا الدور بإعلان أبا العباس عبد الله نفسه خليفة في مسجد الكوفة سنة 132 هـ ./ 749م وعندئذ أعلنت الحركة السرية عن صبغتها العباسية .

ويفهم من النصوص أنه عندما آلت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية (نسبة إلى أبى هاشم) إلى محمد بن على العباسى . الإمام الجديد بدأت مرحلة اكثر تنظيماً من سابقتها فتعرف على حامة أبى هاشم . عرفه عليهم سلمة بن بجير ، وطلب منه أن يثبت أسمائهم ، ليعرفهم ، ويستظهر بهم على أمره ، فكتب محمد بن على العباسى فيهم سجلاً . ومن هؤلاء كما تنص الرواية : سالم بن بجير – حفص ابن سليمان وهو أبو سلمة الخلال حفص الأسير – ميسرة الرجال – موسى بن سريع السراج ، زياد بن درهم الهمدانى ، معن بن يزيد الهمدانى ، المنذر بن سعيد الهمدانى .

وكما تذكر الرواية فإن الاتباع الأوائل كانوا ينتمون إلى قبيلة بنى مسيلمة ومواليها وكذلك من قبيلة همدان (أى من اليمنية) وقال لهم الإمام امسكوا عن الجد فى أمركم حتى يهلك أشج بنى أمية (عمر بن عبد العزيز) ولا تكثروا من أهل الكوفة ، ولا تقبلوا منهم إلا أهل النيات الصحيحة " .

وكان لا يعرف محمد بن على بنسبه واسمه إلا شيعة الكوفة وهم حوالى ثلاثين رجلاً ن فإذا سئلوا عن اسمه قالوا : أمرنا بكتمان اسمه حتى لا يظهر وكانت دعوتهم إلى الرضا من آل محمد .

ثم قرر الإمام عملاً بنصيحة كبار ثقافته نقل مركز النشاط للدعوة إلى خرسان مع الاحتفاظ بالكوفة نقطة ارتباط بين مرو وخراسان والحميمة مقر الإمام .

وأرسل الإمام أبا عكرمة زياد بن درهم السراج إلى خراسان وطلب منه السير على نهج بكير بن ماهان في تأليف الأتباع ، وأوصاه بقوله : وإن دعوت أحداً من العامة فلتكن دعوتك إلى الرضا من آل محمد ، فإذا وثقت الرجل في عقله وبصيرته فاشرح له أمركم ، وقل بحجتك التى لا يعقلها إلا أولو الألباب ، وليكن اسمى مستوراً عن كل أحد إلا عن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به ، وقد وكدت عليه وتوثقت منه وأخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك إلى من توجه من رسلك ، فإن سئلتم عن أسمي فقولوا نحن في تقية وقد أمرنا بكتمان اسم إمامنا ، وإذا قدمت مرو فأحلل فى أهل اليمن وتألف ربيعه ، وتوق مضر ، وخذ بنصيبك من ثقاتهم واستكثر من الأعاجم ، فإنهم أهل دعوتنا وبهم يؤيدها الله .

هذا وقد كان اختيار محمد بن علي العباسى لخراسان كمقر للدعوة موفقاً لأنها تنفرد بموقف خاص ، دون غيرها من أمصار الدولة العربية الإسلامية . يتضح ذلك من وصيته لاتباعه حين تباينت الآراء حول المكان المناسب للدعوة .

"أم الكوفة وسوادها فهناك شيعة على وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كاعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة لنا راسخة .. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سالمة وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ، ولم يقدح فيها فساد ، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر وبعد فكأنى اتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق .

ونظم بكير بن ماهان – الذى قال عنه الإمام : اسمعوا منه واطيعوا وافهموا هو لسانى إليكم وأمينى فيكم فلا تخالفوه ولا تقضوا الأمور إلا برأيه وقد أثرتكم به على نفسى لثقتي به في النصيحة لكم واجتهاده في إظهار نور الله فيكم – اتباعه السبعين فقسمهم إلى اثنا عشر نقيباً يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعى وذلك سنة 118هـ . وأكد على وجوب مناصحته أمامهم فى السر والعلانية ، إلا يطلعوا على أمرهم أحد فخلوا ناحيته ولم يثقوا به .

والنقباء الأثنا عشر هم :

1 – أبو نصر مالك بن الهيثم .

2 – أبو محمد سليمان بن كثير الخزاعي ثم الأسلمى .

3 – أبو منصور طلحة بن زريق مولى طلحة الطلحات .

4 – زياد بن صالح (مولى خزاعة) .

5 – موسى بن كعب (أبو عيينة) .

6 – عيسى بن كعب .

7 – لاهز بن قريظة .

8 – أبو سهل بن مجاشع .

من طئ 9 – أبو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائى .

من شيبان 10 – أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلى .

من بجيلة 11 – أسلم بن سلام .

ومولى بن أسد 12 – أبو على شبل بن طهمان .

وفكرة النقباء الأثنى عشر – ونلاحظ أن أكثريتهم كانوا عرباً – والدعاة السبعين فيها اقتداء بنقباء بنى اسرائيل وبنقباء الرسول ρ بعد بيعة العقبة فالنص يقول "بسم الله الرحمن الرحيم" إن السنة في الأولين والمثل في الآخرين ، وأن الله يقول : "واختار موسى قومة سبعين رجلاً لميقاتنا" ، ثم قال في آية أخرى : "وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً" وأن رسول الله ρ وافاه ليلة العقبة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فبايعوه فجعل منهم اثنى عشر نقيباً .

وهناك (نظراء النقباء) وقد روى أن عددهم أحد وعشرون وهناك الدعاة ودعاة الدعاة .

ويفهم من الرواية أن أهل الدعوة وشيعة الإمام كانوا يرسلون إليه الأموال والحلى حتى يتقوى بها في "إحياء الحق وإماتة الباطل" .

موت محمد بن على وولايته ابنة إبراهيم الإمامة :

إعلان الثورة :

مات محمد بن علي العباسي في سنة 125 هـ بالشراة من أرض الشام وكان قد أوصى لابنه إبراهيم بالإمامة من بعده إذا قال لخاصته : فلكم فيه خلف صدق منى كما أوصى بكير بن ماهان بأن يعهد برياسة الدعوة فى الكوفة إلى أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال .

وتنسب الرواية إلى إبراهيم أنه قام باتخاذ السوار شعاراً للعباسيين وذلك لأن راية الرسول ρ كانت سوداء وكانت راية على ابن أبى طالب سوداء وهو اختيار يتفق مع ما توردة الملاحم والنبؤات على أن لون الرايات المقبلة من الشرق للقضاء على ظلم الأمويين وإنهاء دولتهم .

ومن هذا سميت الدولة العباسية بدولة المسودة .

وأمر إبراهيم بكير بن ماهان بالمضى إلى خراسان وأن يأمر الشيعة بتسويد الثياب والرايات ، وكتب معه كتاباً إلى الشيعة . نعى إليهم فيه أباه ووعظهم ، فبايع الجميع الإمام الجديد ، ثم قفل بكير وبرفقته بعض الشيعة العباسية الذين التقوا بالإمام إبراهيم وتعرفوا عليه وطلبوا منه التعجيل بالثورة وقالوا له : "حتى متى تأكل الطير لحم أهل بيتك وتسفك دماءهم تركناً زيداً مصلوباً بالكناسة وابنه مطرداً في البلاد وقد شملكم الخوف وطالبت عليكم مدة أهل بيت السوء .

ظهور أبو مسلم فى خراسان :

قرر الإمام إبراهيم فى سنة 128 هـ اختيار مولاه أبا مسلم الخراسانى وذلك بعد أن عرض الأمر على سليامن بن كثير وعلى قحطبة فرفضا ليمثله فى خراسان . وكتب معه إلى شيعته كتاباً قال فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لأوليائه وحقت كلمة الله على أعدائه ولا تبديل لكلمات الله ، ولن يخلف الله الميعاد . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين أما بعد فقد وجهت إليكم مجد الدهر عبد الرحمن بن مسلم مولاى فألقوا إليه أزمة أموركم ، وحملوه أعباء الوزر لها والصدر في محاربة عدوكم وعاهدوا الله على الطاعة وكونوا بحبله معتصمين . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" .

وكان تعرف أبى مسلم للمرة الأولى على الدعوة العباسية حينما التقى ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين فى سجن الكوفة وهم فى طريقهم إلى أداء فريضة الحج ، وكان أبو مسلم يخدم هؤلاء العجليين (من بنى معقل) في السجن ، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فضموه إلى دعوتهم واصطحبوه معهم إلى إبراهيم الإمام بعد أن استأذن مولاه عيسى بن إبراهيم السراج وأعجب الإمام أخلاقه ومنطقه ورأيه وعقله وغير اسمه إلى عبد الرحمن وكناه بأبى مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله إلى الكوفة وخراسان حتى سنة 128 هـ حين أشخصه إلى خراسان .

وكان أبو مسلم على معرفة بأحوال خراسان – التى كانت الفتنة قد طالت فيها بين نصر بين سيار وعلى بن الكرمانى ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثير من أصحابهما وجعلت نفوسهم تطلع إلى غير

ما هم فيه وإلى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليمانى من الشيعة اليمانى والربعى الربعى ، والمضرى المضرى حتى كثر من استجار وكفوا بلك عن القتال في العصبية حيث اتلف إليها قبل ذلك بأمر من الإمام إبراهيم وكانت إحدها مع أبى سلمة الخلال الذى التقى بالشيعة وقال لهم قد حضرو أمركم فأعدوا واستعدوا كما تقول رواية صاحب اخبار الدولة العباسية على لسان أبى مسلم "أمرنى الإمام أن أنزل فى أهل اليمن واتألف ربيعه ، ولا أدع نصيبى من صالحى مضر واحذر أكثرهم من اتباع بنى أمية وأجمع إلى العجم واختصهم .

ووصية إبراهيم الإمام لأبى مسلم تتخلص في الاعتماد على قبائل العرب من اليمنية فى خراسان ، وكان هؤلاء يمثلون على أواخر أيام الأمويين حزب المعارضة لعرب الدولة ، وأن يتألف ربيعه ، ويحذر ويشك فى العرب من المضرية وهم عصبية والى خراسان ، نصر بن سيار إلا ما صلح منهم .

والحقيقة ان انقسام العرب على أنفسهم فى خراسان كان السبب فى نجاح أبى مسلم فأثناء الصراع بين نصر بن سيار المضرى والكرماني اليمنى انضم أبو مسلم إلى الكرمانى ، وعندما حذر نصر زعيم اليمنية الكرمانى من خطورة الداعية العباسى وطلب إليه الاتفاق ووافق الكرمانى كان جزاؤه أن قتله نصر .

إعلان الثورة :

لما فشا خبر أبى مسلم أقبلت الشيعة من كل ناحية وقدم الدعاة بمن وافقهم من إخوانهم ، وتكاثر عددهم يوماً بعد يوم وكان أبو مسلم قد نزلا في منطقة مرو ، لأنها أصلح مكان لأعلان الثورة ومن هناك أخذ يرسل النقباء إلى مختلف الأقاليم في طخارستان ومرو الروذ والطالقان وخوارزم ، وحدد أبو مسلم شهر رمضان لإظهار الدعوة ، ولكنه ترك للنقباء حرية التصرف فمن أعجله العدو منهم دون الوقت بالأذى والمكروه ، فقد حل لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف "وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت" .

وترك أبو مسلم مكانه في فنين ونزل فى قرية سفيننج "وبث دعاية فى الناس وأظهر أمره" فسارعت الأعاجم ، وكثير من أهل اليمن وربيعه إلى الدعوة من بين متدين بلك أو طالب بدخل (ثأره) أو موتور يرجو أن يدرك به ثأر ، وأتاه عدة من ذوى البصائر من مضر .

وتقول الرواية أن أبا مسلم بعث إلى نصر وفداً ... وكتب معهم إلى نصر كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه أهل الدعوة ويعلمه أن هذه الرايات السود التى أظهرها هى التى لم يزل يسمع بها ويحذره من أن يكون من صرعاها .

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال هذه المسودة وهى تدعو إلى غير ملتنا ، وقد أظهروا غير سنتنا وليسوا من أهل قبلتنا ، يعبدون السنانير ، ويعبدون الرؤوس علوج وأغنام وعبيد وسقاط العرب والموالى .

وأجابه الناس وظاهروه على حرب أبى مسلم وكتب نصر إلى ابن هبيرة والى العراق يستمده فلما استنبط به الأمور ، كتب إلى مروان الحمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم الامر من قبل أبى مسلم ، وكتب إليه :

أرى خلل الرماد وميض نار	يوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وأن الحرب يبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى	أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فصرى عن رحالك ثم قولى	على الإسلام والعرب السلام

وكتب يصف له أمر أبى مسلم ، وكثرة الدعوة وميل اليمانية وربيعة إليه ، ثم بعث للخليفة رسولا .وظل نصر ينتظر المدد أن يأتيه ، وقد فسد عليه أهل خراسان إلا ثم كان معه من مضر خاصة وكتب نصر إلى ابن هبيرة يستمده فلم يمده فكتب إلى الخليفة مروان ثانية يستنجد به بقوله "كتبت إلى أمير المؤمنين لم يبق منى شيء استعين به على عدو أمير المؤمنين لافى رجالى ولا فى مالى ولا فى مكيدتى ولو كنت أمددتنى بألف فارس من أهل الشام لأكتفيت بهم ، ولقطعت دابر القوم الظالمين إنى حين كتبت إلى أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطانى ، فأنا واقف على باب دارى ، وإن لم تأتنى مواد أمير المؤمنين ووكلنا إلى ابن هبيرة طردت عن باب دارى ، ثم لا رجوع إليها إلى ملتقى الحشر .

ثم أن نصراً كما يقول صاحب أخبار الدولة العباسية "جمع وجوه أصحابه وأهل الرأى والمشورة منهم ولم يجتمعوا على شئ وهنا اضطر نصر إلى الاستنجاد بالخليفة مروان ثانية يحثه على إمداده يستحثه على إمداده ويستنفره بقوله "أما بعد فإنى ومن معى من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو على مجمع الطريق ومحجة الناس العظمى من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق في حائط قد خندقت فيه على نفسى ومن معي ، وعن يمينى وشمالى قرى بنى تميم وسائر أحياء مضر ليس يشوبهم غيرهم إلا قرى على حدهم خاملة فيها خزاعة فيها حل طاغيتهم أبو مسلم ، فنحن حين كتبت إلى أمير المؤمنين فى أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العواصف ونحن من أخواتنا اليمنية وأغنامهم ورعاعهم ، فيما نتوقع من سفههم ، ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث .. وأنا معتصم بطاعة أمير المؤمنين . وقد أملناغياث أمير المؤمنين وورود خيله وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر على غشه وساع فى خلافه فلا يكونن مثلنا يا أمير المؤمنين قول الأول .

لا أعرفنك بعد اليوم تندبنى	وفي حياتى ما زودتني زادى

ثم قال نصر شعراً يحرض فيه العرب على الهاشمية :

أبلغ ربيعه في مرو وأخوتهم	ليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

ما بالكم تنصبون الحرب بينكم	كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
وتتركون عدوا قد أطاف بكم	فإين غاب الحجى والرأى والأدب
ذروا التفرق والأحقاد واجتمعوا	ليوصل الحبل والأصهار والنسب
أن تبعدوا الازدمنا لا نقربها	او تدن نحمدهم يوماً إذا اقتربوا
اتخذلون إذا احتجنا وننصرهم	لبئس والله ما ظنوا وما حسبوا

وظهر أبو مسلم وأعلن اسم الإمام من أعلى المنبر فى صلاة الجمعة وأسفل المنبر علق علمان اسودان كان قد بعث بهما الإمام من الكوفة وأحدهما سمى الظل والآخر السحاب . وكان أبو مسلم وهو يعقد اللواءين يتلو "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير وتأول الظل والسحاب قال : أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسى إلى آخر الدهر .

وكذلك لبس أبو مسلم السواد هو واتباعه ، كما أنه غير فى بعض الشعائر لما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى بالشيعة وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير إذن وإلا أقامه ، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة ، وبالآذن والإقامة .

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه فى منطقة قبائل خزاعة – كما تقول النصوص ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج الى قرية الماخوان وخندق بها. ثم عاد إلى نشاطه ورغم أنه أصبح من المشكوك فى أمرهم من جانب العرب ، إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزعاتهم ، فلم يستمر اتحادهم طويلاً بل ان عرب اليمنية تحالفوا معه عندما أرسل إلى ابن الكرمانى واستماله إلى جانبه . أما عن أنصار أبى مسلم فكانوا خاضعين له تماماً ، كما كان جنده مطيعين لقوادهم أحسن الطاعة .

سقوط مرو :

وبفضل انقسام العرب على أنفسهم وتماسك حزب أبى مسلم ، نجح هذا الأخير في الاستيلاء على مدينة مرو عاصمة الإقليم الواقعة على نهر المرغوب وكان دخولها بفضل ممالاة اليمنية وعلى رأسهم ابن الكرمانى .

ودخل أبو مسلم مرو من باب فنوشير فتلا هذه الآية : "ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها" إلى آخر الآية ، ثم سار إلى دار الإمارة فنزلها وعلى بن الكرمانى معه ، ثم دعوا الناس للبيعة فلم يتخلف عنها أحد من أهل مرو . ثم خرج على بن الكرمانى وأبو مسلم إلى المسجد فصعد على المنبر وجعل أبو مسلم يبايع الناس ، وأقام أبو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة علىأهل مرو ، وهرب نصر من المدينة يوم الجمعة 10 جمادى الأولى سنة 130 هـ وبصحبته أمرأته المرزبانة ، التى اضطر إلى تركها فى الطريق ، واتجه إلى مدينة سرخس ومنها إلى طوس ثم إلى نيسابور .

فتح طوس :

مقتل تميم بن نصر :

ومن مرو أخذ أبو مسلم يدير الحرب ضد نصر . وكان يدير العمليات العسكرية فى جانب المسودة عدد من كبار القادة العرب فأول من قام بمهاجمة القوات الأموية فى خراسان كان قحطبة بن صالح ، وهو من قبيلة طئ العربية . فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم بن نصر بن سيار فى طوس وكان اتباع الضحاك الشيبانى ، من الخوارج قد لحقوا بابن نصر هناك وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر واستباحة عسكره .

ويذكر صاحب "أخبار الدولة العباسية" أن نصر بن سيار قال يرثى ابنة تميماً لما بلغه نبأ مصرعه :

نفى عنى العزاء وكنت جلدا	نكوب فجائع الحدث العظيم
وهم أورث الأحشاء وجدا	لإجلاء الفوارس عن تميم
ومصرعه على قضب الأعادى	يذب عن الجماعة والحريم
وفاء للخليفة وابتذالا	لنفس من أخى ثقة كريم
فإن يك دهرنا أودى مداه	بفارسنا المقاتل فى الصميم
وأن يشمت بنكبتنا عدو	فما أنا بالضعيف ولا السئوم

فتح نيسابور :

أما عن نصر فإنه هرب من نيسابور لى جرجان ، وتمكن بذلك أبو مسلم من دخول مدينة نيسابور في شوال سنة 130 هـ / يونيه 748م . وبعد أن تحقق لأبى مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من زعيمى اليمنية من العرب وهما : على بن الكرمانى وأخوه عثمان إذ قتلهما غدراً .

فتح جرجان (واخذ الرى) :

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالى العراق ، وابن هبيرة ، أرسل إليه هذا جيشاً بجرجان ، ولكن قحطبة خرج إليه وهزم فى ذى الحجة من نفس السنة ، بعد أن فتح جرجان وأوقع الهزيمة بأهل الذين حاولوا الثورة حتى قيل أنه قتل منهم ما يزيد على ثلاثين ألفاً وبسبب تردد والى العراق ابن هبيرة ساء موقف نصر الذى مات وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الرى "وكان مريضاً يحمل حملاً" وبعد وفاة نصر أخذت مدينة الرى وصادر أبو مسلم أملاكهم لأنهم كانوا سفيانية كما تقول النصوص وأحاط الحسن بن قحطبة ببقية جيوش أهل الشام فى نهاوند .وعندما خرج جيش شامى كبير لفك حصارهم بقيادة عامر المرى والى كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة ، فى أواخر سنة 131 هـ / 749م هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب أصفهان . وتقول النصوص "أمر قحطبة بمصحف فنصب على رمح ونادى يا أهل الشام أنا ندعوكم إلى ما فى هذا المصحف . فشتموه وافحشوه فى القول "وأنه

هزم داود بن هبيرة ، وأصابوا عسكره وأخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل ، وما رؤى عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ما فى هذا العسكر كأنه مدينة من البرابط والطنابير والمزامير والخمر ما لا يحصى" .

حصار نهاوند :

واستراح قحطبة بعض الوقت بأصفهان ثم قدم على ابنه الحسن بنهاوند وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنها وند دون أن يفكروا في مصير أخوانهم بخراسان ، هؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية .

مسير قحطبة إلى ابن هبيرة بالعراق :

وخرج قحطبة من نهاوند وتوجه إلى العراق واضطر فى أول الأمر إلى الإنسحاب أمام يزيد بن هبيرة والى الإقليم . الذى خرج للقائه وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجأته فى ذى الحجة سنى 136 هـ : أغسطس 749م واسط . وأثناء اقتال الذى كان يدور ليلاً سقط قحطبة فى النهر الفرات ومات غرقاً . فى ليلة الأربعاء 8 من محرم سنة 132 هـ . ولكن القوم اجتمعوا واجمعوا على الرضا بحميد (الحسن) بن قحطبة فى رواية ابن الأثير فبايعوه وسلموا له الأمر" .

فتح الكوفة :

تقدم الحسن بن قحطبة إلى الكوفة فى الجنود واستولى جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة ويفهم من النصوص أن الكوفة أخذت بسهولة ، إذ كان محمد بن خالد القسرى قد خرج فيها على الأمويين الذين انسحبوا و "سود" أى أعلن دخوله فى دعوة العباسيين وكتب بذلك إلى قحطبة .

ظهور أبى سلمة بالكوفة :

وأرسل أبو سلمة إلى حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيأة وأن يظهروا زينتهم ، ويشهروا سلاحهم وأعلامهم وقوتهم ،ففعل وظهر أبو سلمة وأعلن أمره وكان ظهور أبى سلمة وتوليه للأمور يوم الجمعة 10 من محرم سنة 132 هـ تولى إدارة مقاليد الأمور .

موت إبراهيم الإمم :

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد كان قبل ذلك بقليل قد أمر بالقبض على الإمام إبراهيم الذى أخذ وأنفذ إلى حران وحبس والظاهر أنه قتل هناك وتختلف الروايات فيما يتعلق بنهايته ، إذ يقال أن مروان وجه قوماً فدخلوا السجن ليلاً فغمروا إبراهيم ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فلماأصبحوا وجدوهما ميتين .

وفى رواية أخرى "هدم مروان على إبراهيم بيتاً فقتله" وخرج أبو العباس الذى كان إبراهيم قد أوصى له وعهد إليه بالإمامة إلى الكوفة هو وأخوه أبو جعفر فوصلوها فى ربيع الأول من سنة 132 هـ/ اكتوبر 749م ، حيث أعلنت إمامة أبى العباس .

وقعة الزاب ونهاية مروان بن محمد :

كان مروان بن محمد حتى ذلك الوقت يدافع عن خلافته ، كما أن يزيد بن هبيرة لم يكن قد استسلم بعد وكان لا بد للمسودة من القضاء عليهما .

وكانت الجيوش السياسية التى تعمل فى أعالى دجلة تحت قيادة أبى عون عبد الملك بن يزيد الأزدى الذى عينه قحطبة ، ولكنه بعد سقوط الكوفة أعفى من القيادة التى أعطيت إلى عم الخليفة ، أبى العباس عبد الله بن على بن عباس ، وتقدم مروان بن محمد على رأس جيش قوى للقاء الخرسانية الذى وصلتهم الإمدادات من أبى سلمة الخلال ، ومن أبى العباس ، والتقى بهم على الضفة اليسرى لنهر الزاب ، ودام القتال بين الطرفين تسعة أيام أحرز مروان خلالها بعض الانتصارات ، ولكن الأمر انتهى بوقوع الاضطراب فى جيشه إذ كانت كل عصبية تريد أن تتقدم العصبية الأخرى وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي ، إذ عقد جسراً على النهر عبره رغم معارضة وزرائه فى ذلك وترتب على هذا الخطأ أن انقطع الجسر عند الانهزام "وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل" وذلك فى 11 جمادى الثانى من سنة 132 – 26 يناير 750م .

وفر مروان إلى الموصل بعد هزيمة الزاب ، ولكنه استقبل استقبالاً سيئاً ، فسار إلى حران ، وأقام بها أكثر من عشرين يوماً ، عندما تبعه عبد الله بن على إلى هناك مضى إلى حمص . ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للأمويين وتسقط بين أيدي العباسيين ، مدينة بعد أخرى ، مثل : قنسرين وحمص وبعلبك ولم تدافع إلا دمشق بعض الوقت فدخلت عنوة في 5 رمضان سنة 132 هـ/7 نوفمبر سنة 750م . بعد أن حوصرت وضيق عليها الخناق .

وتابع العباسيون مطاردة مروان ، إذ سار فى أثره صالح بن على من أبى فطرس إلى العريش إلى النيل ثم واصل سيره إلى صعيد مصر . وفى بلدة بوصير من قرى الفيوم حاول مروان الاختفاء فى إحدى الكنائس ولكنهم بايتوه وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول وكبروا ونادوا يالثارات إبراهيم "فظن من بعسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة" .

فقتل مروان فى 17 من ذى الحجة سنة 132 هـ/ 17 أغسطس سنة 750م .. واحتز رأس آخر خلفاء الأمويين ، وأرسل إلى صالح بن على الذى مثل به فقطع لسانه وسيره إلى أبى العباس الذى كان بالكوفة .

استسلام ابن هبيرة فى واسط ومقتله :

بالقضاء على مروان بن محمد لم يبق للأمويين من قوة ولا حول إلا قوات ابن هبيرة التى لجأت بعد انهزامها أمام ابن قحطبة إلى واسط ، المدينة الاستراتيجية التى بناها الحجاج فى مستنقعات ودافعت عن نفسها ما يقرب من العام . بدأ بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة وانتهت بانهزام أهل الشام والتجائهم إلى المدينة وتحصنهم بها وأصبح القتال رمياً وتراشقاً من بعيد .

ورغم الانقسامات بين اليمنية والقيسية ، في صفوف ابن هبيرة ، بعد أن كاتب أبو العباس السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة ، فإن هذا الأخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين إلا عندما علم بموت مروان وفي هذه الأثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسط قد انتقلت من يدي الحسن بن قحطبة إلى أبي جعفر أخي الخليفة وهذا يبين أن الخليفة بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف إلى وضع مقاليد الأمور وخاصة القيادات العسكرية بين يدي أفراد أسرته . وكتب السفاح إلى الحسن بن قحطبة "أن العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً فاسمع له وأطع وأحسن مؤازرته" . وبعد أن علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا الصلح ، وجرت السفراء بين أبي جعفر وابن هبية وطالت المفاوضات بين الطرفين وكتب أبو جعفر كتاب أمان لابن هبيرة ، لبث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى ارتضاه وأرسله إلى أبي جعفر الذي أنفذه أخيه السفاح فأمره بإمضائه السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها، بعد أن اعترض أبو مسلم على نصوصها وكتب إلى السفاح "أن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة" .

وانتهى الأمر بقتل أفراد الحامية المستسلمة واغتيال ابن هبيرة باستسلام واسط ثم القضاء على القوات الأموية النظامية ونهج العباسيون سياسة ترمي إلى استئصال شافة الأمويين واستخدام العنف والقسوة ضد أفراد الأسرة التعسة ، ولم يتورعوا في ذلك عن استعمال الغدر والخيانة .

مذبحة أبي فطرس

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام ، بعدد كبير من أفراد الأسرة الأموية التي تسمى بمذبحة أبي فطرس ، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام ويقال أنه بعد قتلهم غيلة مر بالبسط ففرشت على جثثهم فأكل عليها وهو يسمع أنين بعضهم .

وطارد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين والعراق وبعد مطاردة الأحياء انتهكوا حرمة الأموات فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ونثر تراب جثثهم في الهواء ، ولم يستثن إلا قبل عمر بن عبد العزيز ، ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام وهو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب إلى الأندلس حيث انشأ دولة أموية جديدة كما سنرى فيما بعد "واستصفيت أموال الأمويين وهدمت قصورهم ، وضربت مصانع المياه التي كانوا قد أقاموها حتى لا يبقى لذكرهم أثر .

ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

132 – 136 هـ

بويع أبو العباس عبد الله بن محمد على بن عبد الله بن عباس بالخلافة فى 13 ربيع الأول سنة 132 هـ ، فى الكوفة .

وكان إبراهيم الإمام لما حبس بحران ، وتوقع نهايته ، قد عهد لأخيه أبى العباس "وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، وإلا يكون له بعد بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه إلى الكوفة ..."

وخرج أبو العباس ومعه أقاربه من العباسيين فيهم أخوه أبو جعفر (المنصور) وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه وأعمامه : داود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو على بن عبد الله بن عباس ، وابن عمه داود وابن أخيه عيسى بن موسى حتى قدموا الكوفة فى صفر .

ونستشف من الروايات أن "وزير آل محمد" وهو أبو سلمة الخلال كانت له نوايا خاصة وأنه كان يميل إلى العلويين فأظهر أنه لم يبايع شخصياً إلا إبراهيم الإمام وهذا يفسر كيف أنه أخفى وصول العباسيين إلى الكوفة لمدة تزيد على أربعين يوماً .وحاول فى هذه الفترة أن يتصل بالعلويين فأرسل رسالتين من نسخة واحدة إلى الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وعبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب يدعو كل أحد منهما إلى القدوم إليه ليصرف الدعوة إليه ويأخذ بيعة أهل خراسان له ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وأنكر معرفته بأبى سلمة . أما عبد الله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة الأنقياد وراء الخلال قائلاً له : "ومتى كان أهل خراسان شيعة لك أأنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان أأنت أمرته بلبس السواد؟ ولكن عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسداً منه" .

أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه بعد مقتل إبراهيم الإمام من انتقاض الأمر وفساده .

ولقد فشلت محاولات الخلال . وأخيراً عرف أحد كبار اتباع أبى مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب إليه ومعه عدد من زعماء الخراسانية والقواد وبايعوا أبا العباس ، وسلموا عليه بالخلافة ، وعزوه فى إبراهيم الإمام واضطر أبو سلمة إلى الذهاب ومبايعة أبى العباس .

وفي يوم الجمعة 12 ربيع الأول ، خرج أبو العباس إلى دار الإمارة ومنها ذهب إلى المسجد الجامع بالكوفة حيث أخذ البيعة له ، وبعد الخطبة والصلاة صعد المنبر وخطب قائلاً "الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله ، وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله ρ وقرابته .. جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك

على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه : "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً" وقال تعالى : "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى .. فاعلمهم جل وثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفئ والغنيمة نصيباً تكرمه لنا وفضلاً علينا والله ذو الفضل العظيم وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوهم بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وانقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق ورحض الباطل . أصلح بنا منهم ما كان فاسداً ... فتح الله ذلك منه وبهجة لمحمد ρ . فلما قبضه الله إليه وقام بالأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها .. ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فأنبذوها وتداولوها فجاوروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حينا حتى أسفوا فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا .

يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير .

وأثناء الخطبة تملكته الحمى فاضطر أن يقطع أول خطبة له فوق المنبر . ولكن عمه داود بن على تكلم نيابة عنه ، ومن بين ما قاله فى خطبته "لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا وتشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستنزالهم بكم واستئثارهم بفيئكم صدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ρ وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله ρ . تبا تبا لبنى لبنى حرب بن أمية وبنى مروان أثروا في مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام . ثم قال يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أباح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ... وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم تنتظرون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم واداكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وأعز الإسلام .. وأن لكل أهل بيت مصراً وأنتم مصرنا إلا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ρ إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبى العباس السفاح ثم قال "واعلموا أن هذا المر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام" .

يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها :

إن الدعوة العباسية قامت من أجل إحلال الإسلام الذى فشل بنو مروان فى تطبيق مبادئه .

وأن لبنى العباس الحق فى الخلافة لأنهم أقرباء الرسول ρ من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذى مات بعد موت الرسول .

- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس .

- التأكيد على نقل مركز الثقل السياسى من الشام إلى العراق .

- زيادة الأعطيات (اعطيات الجند) إلى مائة درهم .
- ولكن الخليفة حذرهم من أية حركة قائلاً بأنه الثائر المبير .
- أكد على وضع آل العباس من الإسلام وأهله وأنهم بنو هاشم وأهل البيت .
- فند الخليفة رأى السبئية فى قولهم بأن الخلافة من حق آل على وبين أثر العباسيين فى احقاق الحق وازهاق الباطل .

ندد أبو العباس بسياسة الأمويين وظلمهم الناس وكيف أن العباسيين هم الذين ادلوا دولتهم وأعلن حلول عهد العدل والإصلاح .

وهكذا قامت الأسرة الخلافية الجديدة وهى أسرة العباسيين بالكوفة وأول خلفائها هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس .

والظاهر أن الخليفة كان يشك فى موقف وزيره أبى سلمة الخلال ولذلك نجد أنه لا يقيم فى الكوفة . ولكن انتقل إلى حيث يوجد العسكر العباسى الخراسانى فى حمام أعين ثم بعد ذلك ينتقل إلى الحيرة وينزل فى الهاشمية العاصمة الجديدة ثم أنه بعد ذلك تخلص من أبى سلمة الخلال على يدى بعض اتباع أبى مسلم .

وعلى أيام السفاح تم القضاء على مروان بن محمد – كما سبق القول حدث كل هذا ، وأهل الشام – الذين كانوا يكنون العداء لمروان يقفون موقف المتفرج على نهاية الدولة التى كانوا يدينون لها بكل شئ . هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولوا القيام برد فعل فنقضوا وخلعوا في بعض المدن مثل : حران وقنسرين ودمشق .

وأهم تلك الثورات ثورة قنسرين ، إذ قامت القيسية بها ونادت بأبى محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا إليه وقالوا : هذا السفيانى المنتظر . ولكن عبد الله بن على تمكن من تشتيت شمل الثوار فى أواخر سنة 133 هـ . ووقع أبو محمد بين أيدي العباسيين وهو يفر إلى الحجاز وذلك على أيام المنصور .

وعصر أبو العباس لم يبلغ خمس سنوات ، وعمل السفاح بمعاونه أخيه أبى جعفر على أن يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور فى الدولة ، فعهد إلى إخوته وأبنائه وأبناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم كما بدأ سياسة غريبة تهدف إلى التخلص من كبار الأتباع والعمال الذين يحس بخطورتهم .

الثورات على عهد أبى العباس :

وعلى عهد أبى العباس قامت بعض الثورات فى خراسان ، وفى إقليم ما وراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخراسانية استطاعت أن تقضى عليها بسهولة ، وكذلك استطاعت جيوش الدولة أن تحرز انتصارات فى المشرق وأن تدفع بحدود الدولة نحو أواسط آسية .

ثورة بخارى :

ثورة بخارى هذه خطيرة إذا تزعمها رجل اسمه شريك المهرى من قبيلة مهرة . هذا الرجل كان يؤيد آل البيت فى أول الأمر ، ولكنه نقم على السياسة التى انتهجها أبو مسلم عندما توسع فى استحلال سفك الدماء .

والتف حوله أكثر من 30 ألف رجل من منطقة بخارى ومنطقة خوارزم وأرسل أبو مسلم جيشاً لقتال هذا الثائر على رأسه زياد بن صالح الخزاعى ، وعاون ابن صالح ملك بخارى وأخمدت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال أن المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة أيام ، كما صلب الأسرى على أبوابها .

وظهر على أطراف الدولة خطر جديد ، ذلك أن الصين بدأت تتدخل في شئون ما وراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد أن قضى على ثورة بخارى استطاع أن يحرز نصراً عظيماً على القوات الصينية في وقعة تسمى طراز وتبالغ الروايات العربية فى ذلك النصر فتقول أن المسلمين قتلوا حوالى خمسين ألافاً وأسروا نحو عشرين ألفاً ، وهرب باقى الجيش إلى الصين .

واستمرت الصين فى سياستها التى تهدف إلى مساعدة الحكام الوطنيين ، على الخروج على الحكم العربى . ولكن عامل بلخ الذى عينه أبو مسلم هو أبا داود خالد بن إبراهيم نجح فى قمع ثورة الختل التى فر أميرها إلى بلاد الصين ، وكذلك قتل دهقان كش ونسف .

وهكذا استطاع أبو مسلم أن يحرز نجاحاً كبيراً فى سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح فى سياسته الداخلية . وهذا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعى الهاشمي وأثار الخوف في نفوس العباسيين .

خروج زياد بن صالح :

ففي سنة 135 هـ قامت ثورة فى أرض ما وراء النهر ، بقيادة زياد ابن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدى – وهو الذى كان قد أرسله السفاح إلى زياد بن صالح وأمره أن رأى فرصة أن يثب على أبى مسلم فيقتله .وكان أبو مسلم قد عينهما واليين لام وراء النهر . والظاهر أنهما رفعا راية العصيان بتحريض من السفاح ، ولكنهما لم ينجحا فى ثورتهما تلك فقتل سباع بمدينة أمل . أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جنده وهرب إلى دهقان قرية باركث فقتله وبعث رأسه إلى أبى مسلم .

ولم يكن هذا يعنى انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك أنه ربما قرر أبو العباس السفاح بالاتفاق مع أخيه أبى جعفر التخلص من ذلك المنافس الخطير . ولكن المنية وافت أبا العباس فتوفى فى 13 من ذى الحجة سنة136 هـ / يونيه 754 وهو فى ريعان شبابه فى الأنبار وقد راح ضحية الحمى التى ألمت به ، أوفى وباء الجدرى .

القضاء على أبى سلمة الخلال :

كان أبو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ أبى سلمة فى العراق وتذكر الروايات أنه اقترح على الخليفة التخلص منه وأنه كتب إليه يقول له "قد أحل الله يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير وبدل" ولكن السفاح رد على ذلك بأنه لا يريد أن يبدأ عهده بقتل رجل من شيعته مثل أبى سلمة لجهوده فى نشر الدعوة . كما كلمه أيضاً أبو جعفر (المنصور) أخوه وداود بن على عمه فى ذلك . وكان أبو مسلم قد راسلهما طلب منهما أن يشيرا على السفاح بقتله .

ولكن أبو مسلم كما نستشف من الروايات أرسل جماعة من ثقاته لقتل أبى سلمة وانتهز فرصة انصرافه من عند السفاح من الأنبار وليس معه أحد . "فوثب عليه أصحاب أبى مسلم فقتلوه" واشيع أن أبا سلمة قتله الخوارج . وكان مقتله فى رجب سنة 132 هـ .

خلافة المنصور

136 – 158 هـ

بعد أبى العباس تبوأ عرش الخلافة أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الملقب بالمنصور بالله .

ويعتبر أبو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التى واجهها المنصور هى أحقية ولايته لعهد أبى العباس إذ تذكر الرواية أنه فى سنة 136 هـ أخذ أبو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لأخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد ، ومن بعد أبى جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على وأنه "جعل العهد فى ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته .

رغم كل هذا فإن اعتلاؤه العرش لم يتم دون نزاع فعندما توفى أبو العباس السفاح، كان أخوه أبو جعفر أميراً للحج ، وبصحبته أبو مسلم وقام بأخذ البيعة لأبى جعفر ، عيسى بن موسى ولى العهد الثانى الذي كان والياً للكوفة . وكتب عيسى إلى أبى جعفر يعلمه بموت السفاح والبيعة له ، كما كتب إلى الأمصار يطلب البيعة للخليفة الجديد .

ثورة عبد الله بن على العباسى :

وفى ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن على ، بطل وقعة الزاب والذى كان والياً على بلاد الشام ، وكان قد سار على رأس قواته من الشاميين والخراسانية على الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وصله خبر وفاة أبو العباس وولاية المنصور توقف عن المسير ودعا قواده ورجاله على مبيعاته ، وكان لا بد أن يبرر موقفه هذا ويظهر أحقيته فى المطالبة بالخلافة فقال : أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد لم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده وهذا يعنى أنه كان يرى أن قتال الخليفة الأموى حقاً للخليفة الذى سيحل مكانه وأن انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر معناه نيابته عنه وأنه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره . ووقف إلى جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه

بالفعل . والذى لا شك فيه أن تشجيع أهل الشام عصبية الدولة الأموية – كان من الأسباب التى قوت عبد الله وجرأته على الثورة .

سار عبد الله بن على ونزل حران . وقفل أبو جعفر من الحج ليجد نفسه أمام ثورة عمه ولم يجد مفراً من الاستنجاد بأبى مسلم رغم ما كان يكنه له من الحقد ، رغم ما كان يظهره الخراسانى من تعال وما كان يشعر به فى قرارة نفسه من الأفضال والخدمات الكبيرة التى أداها للدولة حتى أنه غلب على أبى جعفر ، الذى كان أميراً للحج ، "فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار ، والطريق ، وكان الذكر له" .

أمر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن على ، والظاهر أن عبد الله خشى غدر جنده من الخرسانية الذين كانوا يدينون بالطاعة والولاء ، لأبى مسلم لتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين ولم يبق له إلا أهل الشام .

سار أبو مسلم إلى حران وانسحب عبد الله بن على من حران إلى نصيبين وتحصن هناك ، ولم يرد المنصور أن ينفرد أبو مسلم بالقيادة فاستدعى القائد المشهور الحسن بن قحطبة من ارمينية ، وكان والياً عليها وأمره أن يوافى أبو مسلم فلحق به في الموصل . وتقدم أبو مسلم حتى نزل قريباً من عبد الله من ناحية نصيبين . والظاهر أن مراكز أهل الشام كانت حصينة منيعة فلجأ أبو مسلم إلى خطة سليمة لزحزحتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب إلى عبدالله بأنه لم يأت لقتاله وإنما ولى الشام بأمر من الخليفة وأنه متوجه لتقليد ولايته وعندئذ خشى أهل الشام من الخراسانية أصحاب أبى مسلم على ديارهم وطلبوا أن يسيروا إلى بلادهم لحمايتها . وكان عبد الله يعلم أن ما أعلنه أبو مسلم لم يكن إلا خدعة . وأنه لا بد أن يناصبه القتال ولكن أهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو الشام وعندئذ تحول أبو مسلم فنزل فى معسكر عبد الله بن على فى الموضع الحصين . "وغور ما حوله من المياه وألقى فيها الجيف" واضطر عبد الله والشاميون إلى النزول فى موضع عسكر أبى مسلم ، واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت إلى أكثر من خمسة أشهر . وكان أهل الشام أكثر فرساناً ، ورغم حصانة المواقع التى احتلها أبو مسلم ، فإن الشاميين استطاعوا بعد شهر من المناوشات من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسى وتمكنوا من زحزحته عن مواضعه .

وتشير النصوص إلى مهارة أبى مسلم فى تسيير دفة القتال فقد أقام عريش كان يجلس عليه فينظر إلى رجاله فإذا رأى خللاً فى بض صفوفه أرسل الرسل إلى مختلف القواد لاتخاذ الموقف المناسب .

ولم يستطع أهل الشام أن يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذى احرزوه ، وفى شهر جمادى الثانى سنة 137 هـ دارت المعركة الحاسمة يتلخص تكتيك هذه الموقعة فى أن أبا مسلم أمر الحسن بن قحطبة أن يعبئ الميمنة أكثرها إلى الميسرة وأن يترك فى الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ولما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبى مسلم وهنا أمر أبو مسلم أهل القلب والميمنة أن يهجموا على ميسرة أهل الشام . ونجحت هذه الخطة وانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم .

اكتفى أبو مسلم بالانتصار فأعلن الأمان فى الناس وأمر بعدم الانتقام من المنهزمين ولما كتب إلى المنصور يعلمه بالنصر وبالاستيلاء على معسكر عبد الله أرسل المنصور مولاه ليحصى الغنائم . وكان ذلك من

الأسباب التى أثارت غضب أو مسلم ، وعملت على زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة . تقول ارواية أن أبا مسلم قال : أنا أمين فى الدماء خائن فى الأموال .

أما عبد الله بن على وأخوه عبد الصمد بن على الذى كان معه فلجأ عبد الله إلى أخيه سليمان الذى كان والياً على البصرة وتوارى عنده حتى سنة 139 هـ وعندما عزل سليمان وطلب إليه المنصور أن يبعث بعبد الله بعد أن أمنه ولكنه سجن وانتهى الأمر بقتله فيما بعد .

لجأ عبد الصمد إلى موسى بن عيسى ولى العهد فى الكوفة وطلب إليه الأمان وانتهى هو الآخر نهاية شبيهة بعبد الله .

وهكذا تغلب المنصور على أولى الصعاب التى اعترضته بعد خلافته وهى ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله وذلك بفضل رجل الدولة أبى مسلم الخراسانى الذى لم يلبث أن يلاقى مصرعه بدوره على يدي الخليفة .

مقتل أبى مسلم الخراساني :

مما سبق يتضح لنا أن سلطان أبى مسلم فى خراسان كان قد توطد بعد تخلصه من العرب الذين كانوا يتوقون إلى تقلد الأمور فى ولاية خراسان وازدادت سلطة أبو مسلم .

والحقيقة أن النزاعيين أبى جعفر وأبو مسلم يرجع إلى سنة 132 هـ إلى أوائل أيام السفاح وذلك بعد مقتل أبى سلمة الخلا وعندما أرسل السفاح أخاه أبا جعفر إلى أبى مسلم بخراسان ومعه العهد لأبى مسلم بولاية خراسان وبالبيعة للسفاح ولأبى جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراسانى بولى العهد أى بأبى جعفر الذى كان يقول لأخيه اطعنى واقتل أبا مسلم فوالله إن فى رأسه لغدره .

وحاول أبو العباس التقليل من نفوذ أبى مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ما تقول الرواية من أنه أمره باسقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقلل من نفوذه ولكن أبا مسلم ادرك الحيلة وتجلت قوة أبى مسلم فى نفس الوقت عندما أرسل السفاح عمه عيسى بن على والياً بفارس وتقول الرواية أن عمال أبى مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر أن بعضهم أراد قتل عيسى بن على ، وعلى ذلك كان من الطبيعى أن يفكر السفاح وأبو جعفر فى التخلص من "أمين آل محمد" بعد أن تخلصوا من "وزير آل محمد" وذلك حسب السياسة التى رسمها والتى كانت ترمى إلى تأكيد سلطان الهاشميين . ويظن أن السفاح وافق على التخلص من أبى مسلم ولكنه عاد وأجل ذلك لفرصة أخرى . وأخيراً فى نهاية سنة 136 هـ طلب أبو مسلم من السفاح أن يوليه إمرة الحج وأن يكون نائبه يوم عرفة ولكن السفاح جعله تحت أمره أخيه أبى جعفر الذى أخذ إمرة الحج لنفسه وحضر من ولايته ارمينية من أجل ذلك وتأثر أبو مسلم وأسرها لأبى جعفر وعمد إلى الظهور بجانبه . ثم أنه عندما وصله نبأ موت السفاح وهو فى طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعة المنصور إلا بعد أن لفت الأخير نظرة إلى ذلك فى كتاب أرسله إليه . وأثناء قتال عبد الله بن على لاحظ الحسن بن قحطبة أن أبا مسلم يهزأ ويستخف بالكتب التى كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك إلى الوزير أبو أيوب . وأخيراً زاد التوتر عندما أرسل المنصور مولاه ليحصى الغنائم التى استولى عليها فى معسكر أهل الشام .

وأحس المنصور خطورة الرجل وحاول إبعاده عن خراسان معقله وموطن سلطانه ، فعرض عليه أن يوليه بلاد الشام ومصر ، وطلب إليه أن يسير إلى ولايته الجديدة ، وشعر بو مسلم بما يضمره الخليفة فلم يقبل ما عرض عليه . وقرر العودة إلى ولايته خراسان . ولكن المنصور رغبه ورهبه واتصل بنائب أبى مسلم في خراسان الذى هدد أبا مسلم وجعله يخضع لأوامر الخليفة . وبفضل إغراء بعض أصحابه سار أبو مسلم إلى المنصور ليعتذر له عما بدر منه ، وكان المنصور فى ذلك الوقت قد سار من الأنبار إلى المدائن "لينظر مكان العاصمة الجديدة" وقابل رجال المنصور أبا مسلم قبولاً حسناً ، واظهروا له آيات الإجلال وطمأنوه ثم دخل أبو مسلم على المنصور ، فأقبل عليه الخليفة يعاتبه ويعدد له هفوته وسقطاته . واعتذر أبو مسلم عن ذلك ببلائه وما كان منه ، وما قام به فكان رد المنصور . "يا ابن الخبيثة والله لو كانت أمه مكانك لأجزأت إنما عملت فى دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً" . وأمر به فقتل تحت ناظريه فى 25 شعبان سنة 137 هـ .

وتقول النصوص أن جعفر بن حنظلة لما نظر إلى أبى مسلم مقتولاً قال للمنصور يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم خلافتك" .

وبعد مقتل المنصور لأبى مسلم خطب الناس وحذرهم من الخروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية وبرر موقفه من الرجل الذى أبلى فى سبيلهم أحسن البلاد بقوله ، ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه" .

الموقف فى خراسان عقب مقتل أبى مسلم :

ثورة سنباذ :

لم يمر موت أبى مسلم بسلام وذلك أنه قامت بخراسان ثورة تطالب بدم أبى مسلم هذه الحركة تزعمها رجل من إحدى قرى مدينة نيسابور أسمه "سنباذ" واستجاب لدعوة هذا الرجل التى قالت بعودة أبى مسلم "وأنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملاء الأرض عدلاً" كثير من الناس .

واستطاع سنباذ أن يستولى على نيسابور وقومس والرى . وأتى بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همذان والرى . وأتى بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همذان والرى وانتهى الأمر بقتله .

ولكن هذا لا يعنى خضوع خراسان إذ ستظل البلاد أرضاً خصبة صالحة لقيام الحركات المعادية للدولة إذ تقول الرواية أنه فى سنة 141 هـ قام الراوندية من أهل خراسان ممن يدينون بأفكار أبى مسلم ويعتقدون بتناسخ الأرواح . ونادوا بألوهية المنصور وساروا من خراسان إلى الهاشمية وحاول الخليفة أن يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق فى ذلك مما اضطره إلى التشدد معهم واستعمال العنف والقوة فحبس زعماءهم ولكن

الأمر تطور إلى أن قاموا بثورة هددت المنصور نفسه إذ كسروا السجن وأخرجوا أصحابهم واتجهوا نحو الخليفة الذى أظهر شجاعة نادرة فى قتلهم والتنكيل بهم .

وسيظل حزب أبى مسلم هذا قائماً وسيضم إليه كثير من أهل البلاد واتخذ هذا الحزب المناوئ للدولة شعاراً مضاد لشعار الدولة ألا وهو اللون الأبيض وعلى ذلك أصبحوا يسمون بالمبيضة .

هذا عن ثورات المشرق ذات الأفكار الخارجية .

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل : ثورة الخوارج فى الجزيرة تلك الثورة التى أخمدتها الدولة .

والثورة التى قام بها القائد – الذى هزم سبناذ فى سنة 138هـ وهو جمهور بن مرار العجلى . هذا الرجل بعد أن هزم سنباذ واستولى على خزائنه ، رفع راية العصيان ، ولكن انتهى الأمر بهزيمة جمهور ، ومقتل الكثير من أصحابه . وهرب جمهور إلى اذربيجان ولكن أصحابه قتلوه وحملوا رأسه إلى المنصور .

ثورة عبد الجبار بخراسان :

فى سنة 141 هـ قام والى خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى بثورة وسير إليه الخليفة ابنه ولى عهده المهدى الذي تمكن من القضاء على الثورة بسهولة .ولكن المنصور حرص على ألا يضيع نفقات الحملة التى كان قد جهد فى تجهيزها فوجهها إلى بلاد طبرستان .

وفى سنة 142 هـ قام والى السند عيينة بن موسى بن كعب ، الذى كان بعيداً فى أقصى المشرق بالثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضى عليه ، كما أنها أقرت الأمور وقضت على الثورة التى قامت فى بلاد الديلم وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها .

موقف العلويين :

أن العباسيين كما نعرف – عندما قاموا بثورتهم إنما قاموا بها باسم آل البيت وانتقاماً وثارا لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس على العلويين خاصة في بلاد الحجاز . وحين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذراً واستند فى ادعائه بالخلافة إلى وصية أبى هاشم عبد الله ، كما كان شعار الدعوة إلى "الرضا من آل محمد" واستطاع ابنه إبراهيم الإمام الذى خلفه فى زعامة الدعوة أن يوجه جهوده إلى خراسان حيث توجد القبائل العربية المتذمرة من الإدارة الأموية . وكللت جهوده بالنجاح إلا أنه قتل قبل وصول الشيعة العباسية إلى العراق واحتلالها الكوفة .

وقد بايع زعماء الدعوة أبا العباس عبد الله بن محمد خليفة للدولة العباسية وما أن تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتى نظروا إلى العلويين نظرة ريبة باعتبارهم المنافسين لهم على الخلافة ويشكلون مصدر خطر على الدولة الجديدة . أما الشيعة العلويين فقد نظروا إلى العباسيين كمغتصبين للسلطة من أصحابها الشرعيين .

وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعاً بين الهاشميين أنفسهم . بين العباسيين والعلويين .

على أن العلويين لم يكونوا متحدين أو متفقين على زعامة واحدة تظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين . ثم أن كثرة القيادات العلوية يعنى بالتالى أن ولاء الشيعة فى تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوى معين .

قامت حركة العلويين ضد أسرة بنى العباس فى المدينة، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة ، وكان المنصور ، يعتقد أن للعلويين سلطاناً كبيراً هناك ولذلك فهو شديد الحرص على قمع حركتهم وعلى بسط سلطانه على الحرمين بصفته الإمام . واجتهد المنصور فى طلب مديري الثورة وهما : محمد بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن الذى يلقب "بالنفس الزكية" (وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه كما يقول المسعودى) وأخوه إبراهيم . وكانت الدعوة للنفس الزكية والسبب في مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن بالخلافة أنه كان يرى أحقيته فى الملك وذلك من قبل أن يلى المنصور وربما قبل أخيه أبى العباس . وتقول الروايات أن أبا مسلم كان قد راسل عبد الله بن الحسن أبو محمد هذا وأنه عرض عليه الخلافة وان عبد الله قبلاه . وكان يراسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول فى العودة لربما انتقلت الإمامة فعلاً إلى الفرع العلوى .

وتقول الرواية أن عبدالله عندما عرض عليه هذا الأمر قال إنما يريد القوم ابنى محمد لأنه مهدى هذه الأمة .

وكان محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم قد تخلفا عن الحضور مع من حضر عنده من بنى هاشم مع من حج على أيام السفاح . والظاهر أن محمد أدعى أن المنصور كان قد بايعه فى مكة فى أواخر أيام مروان بن محمد وعلى هذا الأساس قام هو بالدعوة لنفسه . وهناك تفصيلات عن مطالبة المنصور لمحمد ولأخيه إبراهيم منذ سنة 136 هـ إلى سنة 140 هـ حينما أعلن الثورة .

فى هذه الفترة تجشم العلوى الكثير من المشاق واضطر إلى التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة كما أرسل محمد أخوته وأبناءه فى سائر الأمصار والبلدان للدعوة له ، فأرسل ابنه علياً إلى مصر يدعو إليه ولكنه قتل بها .

وحاول العلويين أن يدبروا مؤامرة لقتل المنصور فى موسم الحج فى سنة 140 هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض أصحاب محمد الذى كان قد عاد إلى المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها . وعزل المنصور هذا الوالى وعين مكانه محمد ابن خالد بن عبد الله القسرى وأمد بالأموال وفوض إليه سلطات واسعة فى كشف "تفتيش" المدينة ولكنه لم ينجح فى مهمته . فعين المنصور عاملاً آخر مكانه اسمه رياح بن عثمان بن حيان المرى وذلك فى سنة 144 هـ وجد الوالى الجديد فى طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ إلى سجن كل العلويين من أبناء الحسن من الفرع الحسنى وليس من الفرع الحسينى فقيدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة فى حضرة المنصور ، بل قتل البعض . ويسير بعدد منهم إلى الكوفة حيث حبسوا . وإزاء هذه الاجراءات التعسفية اضطر محمد أن يضع حداً لهذه المأساة وذلك بأن أعلن الثورة فى سنة 145 هـ وعلم

الوالى بما يدبره محمد فحاول تلافى الثورة وحمل أهل المدينة المسئولية الجماعية . وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقيه مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى . من ذلك أن مالك بن أنس حلل الناس من البيعة ومن يمين الولاء للمنصور فقال لهم "إنما بايعتهم مكرهين وليس على مكره يمين ولذلك لم يفلح التهديد وتشاور العلويون وكسروا السجن وحرروا أقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا إلى دار الإمارة واستولوا عليها وسروا الوالى .

وبعد أن استولى محمد على المدينة بدأ فى تنظيمها الإدارى فاستعمل والياً وقاضياً وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط ، وكذلك أنشأ ديواناً للعطاء وسجل فى الديوان أسماء أعوانه وأتباعه .

وبدأ محمد يرسل الولاة إلى الأقاليم المختلفة ، لدولته الناشئة ، فأرسل والياً إلى مكة هزم واليها العباسى وبعث بآخر إلى اليمن ، وبثالث إلى بلاد الشام . ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينجح فى مهمته .

ويمكننا أن ننظر إلى اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته على أنه عمل لا يدل على بعد النظر السياسى ، والظاهر أن محمد نفسه كان يعرف ذلك إذ تقول الرواية أنه قال فى خطبته فى المسجد : "أن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار" وقال : إنى والله بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكنى اخترتكم لنفسى هذا يعني أن المسألة فى نظرة كانت مسألة تقليد وسنة لا تقوم على اعتبارات اقتصادية أو بشرية وهذا لا يكفى بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه فى الفترة الأولى فى بداية الإسلام .

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل ما يمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد فى المدينة فإنه لجأ إلى استعمال السياسة والمداراة وكتب إلى محمد يطلب إليه العودة إلى الطاعة ويعطيه الأمان المطلق له ولأهله ولكل من بايعه مع الوعد بالرزق والعطاء الجزيل كما أنه سوغه ما أصاب من دم أو مال . ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال .

وهذه المراسلات التى دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبين الأسانيد الشرعية والجدل الفقهى الذى اكن يستند إليه كل من الفريقين فمحمد يقول : "فإن الحق حقنا وإنما أدعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا" ، كما يقول "أن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده إحياء؟ ثم يقول: "وأنا بنوام رسول الله فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الإسلام" .

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور أن دخل فى طاعته وأجاب دعوته على نفسه وماله وعلى كل أمر أحدثت إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمنى من ذلك .

وهذا الشرط الأخير يدل على صلابة في الرأى فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل فى نفس الوقت على عدم بعد النظر السياسى . كما أنه يلاحظ أن أمان المنصور لا يعتدي به ويذكر بالأمان الذى أعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن على والأمان الذى أعطى لأبى مسلم .

ولم يكن من العسير على الخليفة العباسى أن يفند ادعاءات العلوى فهو يلفت نظره إلى أنه فخر بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل النساء كالعمومة لأن الله جعل العم أبا . يحتج أن العباس من أعمام

النبى ﷺ أسلم تبعاً لما تقوله الآية : "وانذر عشيرتك الأقربين" بينما لم يسلم أبو طالب ثم هو يفد حقوق على بن أبى طالب فى الخلافة ويدفع بعدم كفاءته فإنه رغم سابقته فى الإسلام دعا النبى عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم أنه لم ينتخب يوم السقيفة . ولما كان فى الستة الذين عينهم عمر تركوه كلهم دفعاً ولم يروا حقاً له فيها .

وبعد أن يروى له قصة جهاد العلويين وفشلهم على أيام على الذى اجتمع الحكمان على خلعه وحسن الذى باعها من معاوية وحسين الذى قتل ثم تقتيل الأمويين لهم . ويقول أن العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وادركوا بدمائهم وأنه لا يجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم .

هذا عن دفع العلويين وتفنيد حججهم ثم هو بعد ذلك يبين ادعاءات العباسيين فى مطالبتهم بوارثة خلافة النبى فيقول أن العباس كانت له سقاية الحج . وولاية زمزم فى الجاهلية والإسلام ثم يذكر حقوق العباس التى لا تنازع فى هذا الميراث وهو أنه لم يبق من بنى عبد المطلب بعد النبى غيره بمعنى أنه يريد أن يجعل الخلافة تركه يرثها أقرب الناس إلى النبى وهذه هى وجهة نظر أقارب النبى والشيعة . وهى فى الحقيقة بعيدة عن السنة وعن روح الإسلام .

تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان على القوة أن تقرر لمن تكون الخلافة .وندب المنصور عيسى بن موسى ولى العهد لمحاربة العلوى وأرسل معه ابنه محمد واقترب عيسى من المدينة ، واستشار محمد النفس الزكية اتباعه فأشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه أخذ برأى القائلين بالمقام ثم أنهم بتفكيرهم المثالى التقليدي الساذج فكروا كما فعل النبى فى حفر خندق يحميهم من المهاجمين . هذا مع أن بعضهم لم يغب عنه ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

ولم يكن تأييد أهل المدينة لمحمد قوياً ، كما خرج إناس من أهل المدينة بذراريهم وأهليهم إلى الأعراض والجبال وبقى محمد فى شرذمة يسيره وأمر المنصور نائبه ألا يقاتل أهل المدينة إلا فيما ندر وأن يتسامح معهم ، ولكنه ألح عليه فى القبض على محمد وعدم تمكينه من الهرب وأن يعلن مسئولية جميع القبائل إذا تمكن النفس الزكية من الفرار . وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ معهم بعض الاجراءات العنيفة ولكنه سمع فى آخر الأمر لمن يريد الخروج منهم أن يخرج . وحاصر عيسى المدينة وسد منافذاه وتمكن جنده من الوصول إلى الخندق فردموه وتفرق معظم اتباع محمد النفس الزكية الذى سقط قتيلاً بعد قتال سريع مجيد وذلك فى منتصف رمضان سنة 145 هـ كانون أول "ديسمبر" 762م .

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل فى المدينة لا اضطراب السودان فى البلد الذين استولوا على بعض أمتعة الوالى الجديد ولكن أمرهم انتهى الى الهدوء .

وهكذا قضى المنصور على محمد النفس الزكية ولكن بقى أخوه إبراهيم الذى خرج فى البصرة والتى كانت ثورته أشد خطراً على المنصور .

ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخى محمد بالبصرة :

كان إبراهيم يدعو – كما سبق القول – لأخيه محمد ، وأغلب الظن أن الأخوين كانا قد اتفقا على أن يعملا منفصلين ، وذلك حتى تتم المباغتة للدولة وحتى إذا ما انهزم أحدهما نجا الآخر ولو عرف إبراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بجيوشه ضد المنصور وقت أن كان المنصور فى ضعف نتيجة لانتشار قواته فى أطراف الدولة لربما انتهت ثورته فى البصرة بالنجاح .

وكما تقول الروايات اتخذ إبراهيم المشرق مجالاً لنشاطه وذلك فى فارس وكرمان والأهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره بها .

وبدأ إبراهيم حركته فى البصرة فى شهر رمضان سنة 145 هـ بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له إذ تقول رواية خليفة بن خياط ، التي ترجع إلى شهود عيان للأحداث أن الولى سفيان بن معوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الإمارة إلى إبراهيم من غير قتال ثم قوى أمره بما استولى عليه من دواب الجند وما أخذه من الأموال بعد الاستيلاء على دار الإمارة ، واستطاعت طلائع قواته أن حرز بعض النصر على القوات العباسية فاستولت على الأهواز بعد أن ألحقت الهزيمة بواليها ، كما نجحت فى دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط ، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز فى ذلك الوقت .

ولم يكن لدى المنصور ، إلا قلة من العسكر ، إذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفى خراسان وفى افريقية التى كانت مضطربة أيضاً . وأحس المنصور بحرج موقفه فأظهر الزهد والتنسك والتقشف . ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعى عيسى بن موسى من المدينة وطلب بعض جيوشه التى كانت بالرى وكتب إلى المهدى ابنه يأمره بارسال القوات لاستعادة الأهواز ووجه عيسى بن موسى إلى قتال إبراهيم وطلب أهل الكوفة من إبراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول أنه كان مثالياً فخشى أن خرج أهل الكوفة إليه أن تفتك خيل المنصور بنسائهم وأطفالهم .

وأخيراً خرج إبراهيم من البصرة للقاء عيسى ونزل فى موضع يعرف باسم باخمراء "على بعد 16 فرسخ من الكوفة" وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثاليين ، وكما حدث فى المدينة رفضوا أن يقاتلوا فرقاً حتى إذا ما انهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال وأصروا على أن يقاتلوا صفا مثل أهل الإسلام رغم ما قيل لهم من أن الصف إذا انهزم تداعى سائره واقتتل الناس قتالاً شديداً ، وانتصر أصحاب إبراهيم فى البداية ولكن الأمر انتهى بهزيمتهم وبمقتل إبراهيم فى 25 من ذى القعدة سنة 145 هـ .

وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الأمر للعباسيين .

بناء مدينة بغداد :

انصرف اهتمام المنصور إلى تشييد حاضرة جديدة للدولة ، وكان قد شرع فى ذلك ، عقب توليه الخلافة مباشرة . فتقول النصوص أنه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة . وكان السفاح قد استقر فى الأنبار فى الهاشمية وهى التى استقر فيها المنصور فى أول عهده – ولما كانت الهاشمية على الضفة اليسرى

للفرات فإنها كانت قريبة من الكوفة . والكوفة كانت مركز العلويين وهى التى سببت الكثير من القلاقل للدولة الأموية ربما كان هذا هو السبب فى عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات على أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة فى مكان قفر خال من السكان بل أن الكتاب يذكرون عدداً من الأماكن العامرة بالقرب منها ويذكرون من بين هذه الأماكن بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

واسم بغداد يعنى "عطية الله" وتقول النصوص أيضاً أن المنصور عندما بناها سماها "مدينة السلام" وكان يطلق على المدينة أيضاً اسم المنصورية وذلك نسبة إلى بانيها وكذلك عرفت باسم الزوراء .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موفقاً وذلك أن ازدهار المنطقة يرجع إلى مركزها الممتاز من نواحى كثيرة . فالأرض فى هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة الفرات فى ذلك الموضع الذى تضيق به المسافة بين النهرين ، فكان يمكن تهيئة وسائل الرى فيها بسهولة عن طريق القنوات التى تصل بين النهرين والتى كانت صالحة للملاحة . ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة فى موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية أنه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع : "أنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل إليك . ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط الموصل والسواد وأنت قريب من البر والبحر والجبل .

ووضع المنصور بيده أول لبنة فى بناء المدينة فى سنة 145 هـ وقال "بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله" .

وبعد تخطيط المدينة ، وبلوغ السور مقدار قامة ، قامت الثورة العلوية فى المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه إليها وترك البناء حتى تم له القضاء على النفس الزكية وأخيه إبراهيم .

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصناع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم من : الأستاذ إلى الروزكارى . وأشرف على البناء وحساب النفقات قوم من ذوى الفضل والعدالة والفقه وذوى الأمانة والمعروفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى .

وقسمت المدينة إلى أربعة مناطق تسمى أرباع وذلك تحت إشراف أربعة من القواد يسهرون على العمل الذى استمر طوال أربع سنوات . وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع فى شكل دائرى . فالنص يقول "وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض" وبدء ببناء قصر الخليفة فى وسطها ، أقرب وإلى جانب القصر بنى المسجد الجامع . ويفهم من النصوص أن مدينة المدائن القديمة أمدت بغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التى قامت عليها وحول نواة المدينة أى حول القصر والجامع تجمعت بغداد فى شكل دائرى وقسمت إلى أحياء منفصلة تخترق هذه الأحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها 40 ذراعاً واتسعت المدينة وعملت فيها مجارى المياه ، وأقيمت فوقها القناطر وانشئت الصهاريج ، وحصنت المدينة تحصيناً قوياً حتى تكون الإقامة فيها مأمونة ثم أحيطت بسورين أحدهما من الداخل والآخر خارجى ، وكان السور الداخلى أعلى من السور الخارجى . وكانت المنطقة بين السورين تسمى الفصيل .

وجعل للمدينة أربعة أبواب المسافة بين كل باب من أبوابها والباب الذى يليه تقدر بميل . ومن هذه الأبواب باب خراسان وكان يسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان وهو فى الشرق وباب الكوفة الذى يسمى أيضاً باب الكرخ اتجاه الكوفة وفى اتجاه الحجاز وفى الغرب باب الشام ، وفى اتجاه الجنوب باب البصرة ، وهو يوصل إلى منطقة الأهواز وفارس وخوزستان . ويقال أن المنصور لم يصنع للمدينة أبواباً جديدة ولكنه استجلب لها الأبواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذى صنعه المنصور . وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التى تموج بالسكان ، وبنى بعد الإنتهاء من المدينة المسورة وخارج أسوارها الشرقية قصراً ثانياً هو قصر الخلد . وحدث شغب بين أهل السوق فاضطر الخليفة أن يخرج أهل الأسواق من المدينة وأن يسكنهم فى منطقة الكرخ فى الجنوب . وبنى أيضاً المنصور الجزء الشرقى من بغداد وأنشأ فى هذا المكان الجديد وشمال القصر الذى خصص ليكون معسكراً لولى العهد المهدى قصر "الرصافة" ووزعت الأراضى المحيطة بالمدينة كاقطاعات لأقارب المنصور ولمواليه ولكبار رجال الحاشية

ومن هذا الوصف يمكن أن نرجع أن المنصور عندما بنى مدينته كان يهدف إلى بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيداً عن مدينة الكوفة بمعنى أن نشأة بغداد كانت أشبه ما تكون بنشأة المدن التى بنيت فى صدر الإسلام مثل : البصرة والفسطاط والقيروان التى أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربى فى تلك الأقاليم .

بعض مظاهر نظر الدولة :

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الأمويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الإمام أولاً وقبل كل شئ أولاً وقبل كل شئ وكلمة الإمام هنا لها معنى دينياً أكثر من كلمة الخليفة أو كلمة أمير المؤمنين فالإمام هنا مشتقة من إمامة الصلاة .

وعمل العباسيون على تأكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون البردة التى كان يلبسها الرسول هذا فى الوقت الذى عهدوا فيه بجزء كبير من سلطانهم الزمنى إلى الوزير ، ووظيفة الوزير تعتبر تجديداً عباسياً فيما يتعلق بإدارة الدولة وذلك أن اللقب لم يعرف عند الأمويين قبل ذلك . كان اللقب عند الأمويين هو لقب الكاتب .

وأحاط الخليفة العباسى نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة .

أما عن البلاط العباسى ، فكان يظهر فيه إلى جانب أفراد الأسرة وأل النبي ، وهؤلاء كانوا يكونوا طبقة الأعيان ، إلى جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالى ، كما كان هناك القراء والفقهاء والأطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان . كل هذا يعنى أن خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل أصبح وريث ملوك فارس .

ولم تعد الوظائف الكبيرة فى الدولة وفقاً على النبلاء بل أصبحت تمنح وكذلك أصبحت الملابس الرسمية التى تعرف بالخلع هى السمة المميزة لأصحاب الرتب الكبيرة ، وكذلك القلانس الطويلة التى أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .

وإذا كان الأمويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذى ينظم مقابلات الخليفة فإن الخليفة العباسى أصبح بعيداً كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عدداً مع مرور الوقت .

وإلى المنصور يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ على النظام الساسانى البيزنطي الذى كان معمولاً به على أيام الأمويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح على كل ولاية عامل أو وال وكان لأفراد الأسرة نصيب كبير فى هذه الولايات .

البريد :

وبفضل نظام البريد الذى عرفه الأمويون والذى توسع فيه المنصور استطاع الخليفة أن يفرض رقابة شديدة على إدارة الولايات المختلفة .

وكان على أصحاب البريد أن يقوموا بكل الاستعلامات رغم أن عملهم كان يتركز في إمداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم فى أعمالهم ، وكانت تقارير أصحاب البريد لها أهمية خاص فعن طريق هذه التقارير كانت تعرف حالة المحاصيل فتتخذ الاجراءات المناسبة فى الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جدب . وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذى استقى منه الجيل التالى علم الجغرافية الذى ازدهر عند العرب .

وتقول النصوص أن المنصور قال : "ما احوجنى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم هم أركان الدولة ولا يصح الملك إلا بهم . أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى وصاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى ثم عض على أصبعه السبابة ثلاثة مرات يقول فى كل مرة أه قيل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

الفقه :

ضم المنصور إلى بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه ، وكان تقريب الفقهاء يعنى أن الدولة المثالية التى تعتنى بنشر العدل والشرع أصبحت حقيقة واقعة .

وفى ذلك الوقت كان مؤسساً المذهبين الكبيرين ألا وهما : المذهب الحنفى والمذهب المالكى على قيد الحياة كانا يميلان إلى العلويين يقال أن أبا حنيفة كان يميل إلى ابراهيم بن عبدالله عندما قام بثورته فى البصرة .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالى هذا ولو أن أصحابه وتلاميذه سيضعون له نسباً يرجع إلى ملوك آل ساسان .

وعاش أبو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير ، وتوفى أبو حنيفة فى سنة 150 هـ / 767م فى بغداد . كان قد قام بإلقاء الدروس فى الكوفة وكانت له آراؤه الفقهية وفتاويه . وتتميز مدرسة أبو حنيفة فى التوسع فى استعمال "الرأى" وكذلك القياس .

أما عن مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكى بالمدينة فقد عرف بميله للعلويين أيضاً ، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب وذلك بعد أن فشلت ثورة النفس الزكية .ولكن الخلفاء سيقدرون مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند أدائه فريضة الحج وذلك قبل موته بقليل . وبينما كان اتباع مالك ينشرون مذهبهم فى بلاد العرب خاصة وفى الأندلس ، دخل الحنفيون فى خدمة الدولة وعملوا على نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف "أحد تلاميذ أبو حنيفة" منصب قاضى القضاة ، فأصبح المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى .

ومدرسة مالك بن أنس مبنية على الأحاديث وذلك بسبب وجوده فى مدينة الرسول وهو يهتم بالمتن أكثر من اهتمامه بالإسناد وهو علاوة على اتخاذه القرآن والسنة كأصلين للتشريع يضيف إليهما ما تعارف عليه أهل المدينة أى أنه يرى أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة .

فتنة الموصل سنة 158 هـ :

وبتأسيس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور اهتم اهتماماً كبيراً بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل على تعقب الخارجين والقضاء عليهم فإن هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات فى كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة 158 هـ والقلاقل التى أثارها الأكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك على الموصل فقهر خالد المفسدين وكانت له هيبة فى نفوس الناس .

ثورة أستاذ سيس :

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم استاذ سيس وذلك فى سنة 150 هـ ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها فى ذلك مثل الثورات المذهبية التى قامت بإيران . فيقال أن هذا الرجل كثير من الاتباع "وغلب على عامة خراسان" .واستطاع أن يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية ، ولكن أمره انتهى بالهزيمة بعد أن سبب للدولة متاعب شديدة .

السياسة الخارجية :

الحرب ضد بيزنطة :

أما عن السياسة الخارجية فإنها كانت تتخلص فى الصراع الذى أصبح تقليداً بين الإسلام وبين الدولة البيزنطية ،ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت على أربع قرون هى التى بدأت بالتوسع الإسلامي وانتهت سنة 1195م بالحروب الصليبية . ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع أحد طرفيها أن يحرز أثناءها انتصاراً حاسماً وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصراً من القوة على أيام الأباطرة الأيسوريين وكان هذا من أسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن اتت مسألة النزاع الداخلى في بيزنطة من أجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التى تلتها فاضعفت من قوةبيزنطة هكذا كانت الفرصة مواتية للمنصور فى سنة 149 هـ لكى يوجهه جوماً ضد البيزنطيين .

والحقيقة أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماماً من جانب الخلافة كما أن الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الأفرنج على هذه الحرب اسم "حرب العظمة" فهو يرى أن هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الإسلام كان عليه أن يشعر دولة الكفار بسطوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الإسلامية بتلك الحملات التى تعرف باسم "الصوائف والشواتى" وهو يرى أن المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الإسلام كانت توجب قيام اتاق ودى بين الطرفين .

وعلى أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة فى المنطقة المحاذية لجبال طوروس فى الشرق وهى المنطقة التى عرفت عند الكاب باسم "العواصم" أو "الثغور" ومعناها الحد الذى يفصل بين دولة الإسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ فى الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع ، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جددها العرب وأعادوا بناءها وحولوها إلى حصون وأهم هذه الحصون أذنة طرطوس والمصيصة وسميساط وملطية ، ومرج دابق ، وخلف هذه القلاع كانت تمتد أقاليم آسية الصغرى وهى أرض الروم وهذه الأرض كانت هدف القوات الإسلامية خلال الصوائف والشواتى ترهب بها الأعداء وترجع بالسبى والمغانم أما عن الهدف الحقيقى للجيوش الإسلامية فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية . ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء على القسطنطينية .

والذى يلاحظ هو أن الصوائف لم تكن تذهب على أيام المنصور إلى بيزنطة إلا إذا كان العسكر غير منشغلين فى اخماد ثورة . تقول الرواية فى سنة 137 هـ " لم يكن للناس فى هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ" .

ولهذا السبب نجد أن فى السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من أخذ ملطية ويهدم أسوارها ولكن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوها وأعادوا بناءها وعمروها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة فى سنة 139 هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلى ذلك فلم تعد الغارات إلا فى سنة 146 هـ بعد أن انتهى المنصور من حرب العلويين .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدى :

اضطر عيسى فى سنة 147 هـ أن يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور استعمل فيه الكثير من الأساليب العنيفة وأخذ المنصور البيعة لابنه المهدى بدلاً من عيسى الذى أصبح يلى

المهدى فى ولاية العهد – وتقول الرواية أن عيسى قال "أنا ذا أشهد أن نسائى طوالق ومماليكى أحرار وما أملك فى سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين" .

ويقال أن الناس تندروا بعد ذلك بقولهم : "هذا الذى كان غداً فصار بعد غد" .

وفاة المنصور :

وفى شهر ذى الحجة من سنة 158 هـ توفى المنصور وكان فى طريقه إلى الحج بالقرب من مكة .

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف فقد كان يشغل صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل ، والنظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية .. فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته فإذا صلى العشاء الأخيرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف .. وشاور سماره فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، وإذا مضى الثلث الثانى قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى أيوانه .

خلافة المهدى

158 – 169 هـ

مات المنصور – كما سبق القول – بالقرب من مكة وهو فى طريقه لأداء الحج ، واحتفل بتأبينه وأخذ البيعة لأبنه .

ويفهم من النصوص أن الذى أخذ البيعة للمهدى هو ابنه موسى "الهادى" وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة ، وبعض عمومه الهادى بل وتذكر الرواية أن عيسى بن موسى ، ولى العهد الثانى ، كان حاضراً بدوره كان متردداً ، والنص يقول : "أبى من البيعة" ولكنه بايع .

ووصل نبأ وفاة المنصور إلى المهدى الذى كان ببغداد فى منتصف شهر ذى الحجة وأرسلت إليه اشارات الملك وهى : بردة النبى ، والقضيب وخاتم الخلافة .

وفى بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهى "بيعة العامة" وأولى المشاكل التى اعترضت المهدى هى ولاية العهد ، فقد كان عيسى بن موسى هو ولى العهد الثانى . ومر عيسى بن موسى بنفس المحنة التى عرفها فى عهد المنصور ن فقد التعرض للاضطهاد والتهديد والترغيب ومحاولة اقناعه عن طريق الفقهاء والقضاة خلع نفسه فى أوائل سنة 160 هـ ، وبايع للمهدى ، كما بايع ابنه موسى الهادى بولاية العهد . ثم جلس المهدى فى الغد ، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ، ومخرج إلى الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادى فأسرع الناس لمبيعاته .

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات أنه قام بأعمال عنيفة ضدهم وكان المهدى كما تقول الرواية محبباً إلى الخاص والعام . لأنه افتتح أمره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وانصف المظلوم . إلا أن المهدى كما يفهم من النصوص استثنى بعض العلويين من التمتع بالعفو ، وهو الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على مما اضطره إلى الهرب من سجنه واقلق ذلك الخليفة ولكن الأمر انتهى بطلب العلوى الأمان من الخليفة فأمنه المهدى ووصله .

وأطلق المهدى كما تقول الرواية ابنى داود بن طهمان ، الذى اكن يناصر إبراهيم فى البصرة وقرب ابنة يعقوب – بن داود – تقريباً شديداً واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين "فجمعهم وولاهم أمور الخلافة فى الشرق والغرب" وكان ذلك من الأسباب التى دفعت الشاعر بشار بن برد إلى أن يقول بيتيه المشهورين :

بنى أمية هبوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خليفة الله بين الناى والعود

والظاهر أن الخليفة أدرك خطورة أمر ترك مقاليد أمور الدولة إلى وزيره فتخلص منه ، سجنه ، وذهب بصره فى السجن ، وبقى محبوساً حتى عهد هارون الرشيد ، إذ شفع إليه فيه يحيى بن خالد بن برمك ، فأمر الرشيد بإخراجه من سجنه ، وأحسن إليه ورد إليه ماله ، وأختار يعقوب الإقامة فى مكة فأقام بها حتى مات فى سنة 187 هـ .

موقف الخوارج :

كان الخوارج يلجأون كعادتهم إلى القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان فى سنة 160 هـ تزعمها رجل يعرب باسم يوسف بن إبراهيم ويلقب "بالبرم" وقد قيل أنه كان حرورياً واستطاع التغلب على بوشنج ومرو الروذ والجوزجان ، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء على الثوار والقبض على يوسف هذا الذى سيق إلى الرصافة حيث قطعت يداه بها ورجلاه وقتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر .

وفى أواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحى الموصل ، ينفرد بذكر تفصيلات دقيقة عنها خليفة بن خياط فى تاريخه ، كما ينفرد بإيراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي عبد السلام اليشكرى والخليفة المهدى وقد سببت حركة اليشكرى – الذى استولى على معظم ديار ربيعة – الكثير من المتاعب للدولة ، وذلك قبل أن يقضى عليها ويقتل زعيمها .

الحركات المذهبية :

حركة المقنع :

أما عن الحركات المذهبية التى اشتهرت بها خراسان منذ مقتل أبى مسلم فإنها انتجت على أيام المهدى ثورة كبيرة قام بها رجل يعرفه الكتاب بلقب "المقنع" وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ ، واسم هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ ، واعتنق هاشم فكرة التناسخ والحلول فقال : "أن الله خلق أدم فتحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح وهلم جرا إلى أبى مسلم الخراسانى ثم تحول إلى هاشم ، وكان هذا يعنى أن روح الله قد تقمصته وعلى ذلك يقول بعض الكتاب أنه ادعى الألوهية . وبدأت الدعوة التى قام بها المقنع فى منطقة كش ونسف – من أرض ما وراء النهر – والتف حوله جمع كثير وأيده أعداء الدولة من أتباع مذهب أبى مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخارى والصغد ، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية فى خراسان "ثورة البرم" وكذلك أعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقنع من السيطرة على الإقليم فى وقت قليل ، كما استطاع أن يحقق عدداً م الانتصارات على قوات الخلافة التى سارت ضده .وكان الرجل يظهر أمام الناس مرتدياً قناعاً ، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتى يبهر الأبصار عن طريق إشراق الأنوار الإلهية كما كان يدعى . وتقول النصوص أن أتباعه كانوا يسجدون له ، ولهذا السبب عرف بالمقنع وربما كان السبب فى ارتدائه ذلك القناع هو محاولته إخفاء تشويه وجهه .إذ تقول الرواية "أنه كان أعور" .

وبعد عدة حملات كللت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار فى منطقة بخارى بعد أن ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالى أربعة أشهر ولكن المنهزمين لم يستسلموا إذ لحقوا بالقوات الرئيسية

للمقنع وطالبت المناوشات طوال سنة 160 هـ دون جدوى فى السنة التالية وهى سنة 161 هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو الثائر ، وشددت عليه الحصار حتى اضطر كثير من اتباعه إلى الاستسلام وذلك بعد أخذ الأمان سراً منه وبقى المقنع فى قلة من أصحابه زهاء الفين ، وعندما أيقن بالهلاك اضطر إلى إلقاء نفسه هو وأهله ونسائه وخواصه فى النار وذلك بعد أن أحرق كل ما فى قلعته . ومن دابة وثوب غير ذلك ، وتقول الرواية أنه قال : من أحب أن يرتفع معى إلى السماء فليلق نفسه معى فى هذه النار .

ورغم القضاء على الفتنة ، وقتل أمير بخارى ، فإن ذلك المذهب ظل باقياً فى كش وبعض قرى بخارى ونهاية هاشم الغريبة هذه كانت سبباً في افتنان من بقى من أصحابه كما تقول النصوص .

وتقول النصوص أن المهدى "جد فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم" كما تقول الرواية أنه قال لولى عهد الهادى وقد قدم إليه زنديقاً فقتله وأمر بصلبه يا بنى إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة يعنى أصحاب مانى – فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والأغتسال بالبول وسرقة الأطفال من المهد لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها إلى الله .

وحوالى ذلك الوقت عهد المهدى بالتفتيش على الزنادقة إلى موظف خاص يعرف باسم المتولى لأمر الزنادقة أو صاحب الزنادقة .

وتذكر الرواية أن أول من تقلد هنا لمنصب الجديد هو عمر الكلواذانى الذى توفى 168 هـ ، فولى مكانة محمد بن عيسى ابن حمدوية الذى كان عنيفاً "فقتل من الزنادقة خلقاً كثيراً" .

ولا شك فى أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هدفين فى وقت واحد أول هذين الهدفين هو التخلص من الأعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب . وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره يرميه بالزندقة وتذكر الرواية أن المهدى عندما تجهز لغزو الروم فى سنة 163 هـ ، أرسل وهو بحلب – فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين .

ونهج خلفاء المهدى نفس السياسة فوجهوا تهمة الزندقة إلى كل من أرادوا التخلص منه بل وإلى كل أصحاب الآراء التى لا ترضى الخليفة .

أما عهد المهدى فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فأكرمهم وأغدق عليهم . ويرجع الفضل إلى المهدى فى إنشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد . وعلى أيام المهدى غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند ، وبفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصنعة واهتم المهدى اهتماماً خاصة كما تقول النصوص بالحرمين ، فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق إلى مكة ، وأمر بناء المصانع "الصهاريج" لخزن المياه ، وحفر الآبار ، وقلد هذا العمل لموظف خاص أطلق عليه "صاحب الصانع" . كما أمر المهدى كما تقول الرواية فى سنة 167 هـ بإقامة البريد بين مكة والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "ولم

يكن هناك بريد قبل ذلك" وعلى أيامه جددت كسوة الكعبة ، كما أمر بالزيادة فى المسجد الحرام ومسجد النبى (سنة 167 هـ) فدخلت فيه دور كثيرة .

وعلى عهده أيضاً تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخندقها ، كما زاد فى مسجدى البصرة والموصل .

وتنسب إليه النصوص أنه وضع فى سنة 162 هـ ديوان الأزمة كما "أجرى على المجذمين وأهل السجون الأرزاق فى جميع الآفاق"

السياسة نحو بيزنطة :

وكانت سياسة المهدى إزاء بيزنطة ، نفس السياسة التقليدية للدولة العربية الإسلامية ، وينسب للمهدى تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .

ففى سنة 163 هـ تذكر الرواية أن المهدى تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الأجناد من خراسان وغيرها ، وخرج على رأس قوات كبيرة ، وكان بصحبته ابنه هارون "الرشيد" بينما استخلف على بغداد ابنه موسى "الهادى" ، وسار إلى الموصل والجزيرة ومن هناك عبر الفرات إلى حلب ، ثم رافق ابنه هارون حتى جاز الدرب "أى الممر" المؤدى إلى أرض الروم ، وهناك ودعه وعاد ادراجه ليزور بيت المقدس .

وسار الرشيد بأرض لعدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد منهم عيسى بن موسى والحسن بن قحطبة ، كما كانت أمانة الحملة من أمور العساكر والنفقات والكتابة موكولة إلى يحيى بن خالد الذى كان كاتب الرشيد وأغلب الظن أن هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك أنها تمكنت من تفع أحد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من شهر ، وفى سنة 164 هـ أى السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم البطريق ميخائيل وتحدى الصائفة الإسلامية التى اضطرت إلى الانسحاب وعادت مما أثار سخط المهدى على قائد الصائفة حتى أنه رغب فى قتله .

وترتب على ذلك أنه فى سنة 165 هـ سير المهدى ابنه هارون "الرشيد: على رأس حملة عظيمة بلغت حوالى 95 ألف رجل كما تقول الرواية والظاهر أنها لاقت نجاحاً إذ أن القائد البيزنطى اضطر إلى الانسحاب امام هارون الذى توغل هو والخراسانية فى أرض الروم إلى أن وصلوا إلى خليج البوسفور . وخافت ايرين "امرأة اليون كما يقول ابن الأثير" الوصية على ابنها قسطنطين السادس واضطرت إلى عقد الصلح أو الهدنة لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الجزية السنوية ، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول أجلها وذلك فى أواخر سنة 168 هـ أى قبل وفاة المهدى .

أما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدى أهتم بالمشرق حتى بلاد الهند وذلك أنه أرسل حملة بحرية إلى هذه البلاد 169 هـ وكانت هذه الحملة تحوى كثيراً من الجند النظامى والمتطوعة ، وهاجمت هذه الحملة إحدى المدن الساحلية الهندية ، وخربت معبد المدينة البوذى "البد" وأخذت المدينة ، وعاد المسلمون محملين بالأسرى والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية اليمة قرب ساحل فارس إذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب .

موت المهدى :

وفي سنة 169 هـ مات المهدى ، بعد خلافة دامت عشر سنين ، وترك الخلافة لأبنه موسى الذى تلقب بالهادى .

خلافة الهادى

169 – 170 هـ

بويع لموسى"الهادى" بالخلافة ، فى بغداد فى نفس اليوم الذى مات فيه المهدى وكان مقيماً بجرجان ، يحارب أهل طبرستان وكتب الرشيد إلى الآفاق بوفاة المهدى وأخذ البيعة للهادى ونستشف من الروايات قيام نزاع خفى بين ابنى المهدى وهما : موسى "الهادى" الذى تنازل له عيسى بن موسى "الذى مات سنة 167 هـ" عن ولاية العهد، وهارون الرشيد ، الذى أخذت له البيعة كولى ثان للعهد فى سنة 166 هـ والذى كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدى وأغلب الظن أنه مما ساعد على دقة الموقف أن المهدى أشرك الأخوين فى الحكم على يامه فعهد بمشرق الدولة إلى ولى العهد موسى كما عهد بمغربها إلى ولى العهد الثانى هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص . ففى سنة 163 هـ ولى المهدى هارون الرشيد المغرب كله من الأنبار حتى افريقية ، واضاف إلى ذلك اذربيجان وأرمينية وجعل لهارون كاتب على الخراج هو ثابت بن موسى ، وعلى ديوان رسائله يحيى بن خالد بن برمك . وزاد فى حرج الموقف أن المهدى كما تقول الروايات مال فى آخر أيامه إلى عزل ابنه موسى الهادى البيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه ، ويقال أن المهدى مات وهو خارج للهادى وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد أن بعث إليه فى القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادى ولهذا تحاول بعض الروايات أن تفسر موت المهدى فتقول أنه لم يمت ميتة طبيعية وأنه مات فى حالة صيد أو مات مسموماً .

ولن تطول خلافة الهادى أكثر من سنة وثلاثة أشهر أرقته "شغلته" فيها مسألة ولاية العهد ، وذلك أن الهادى شعر بخطر أخيه هارون الذى كانت تؤيده أمه "الخيزران" وكانت تتدخل فى شئون الحكم . فعمل على الحد من سلطانها كما حاول أن يحمل الرشيد على التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات متشددة ضد أخيه ، وسلبه امتيازاته كولى للعهد فالنص يقول : "أمر الهادى أن لا يسار بين يدي هارون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه"

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعداً للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر وربما تم لك لولا صغر سن ابن الهادى ونصح يحيى بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب أخيه الخليفة ، وعرف الهادى تأثير يحيى على الرشيد ، فبعث إليه وتهدده ورماه بالكفر ، ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت ، ونصحه بألا يحمل الناس على نكث الإيمان أى حنث الإيمان أى تحللهم من البيعة وبين له أن ابنه جعفر لم يزل صغيراً وسأله "أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر – وهو لم يبلغ الحنث – أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم" ثم رغبه فى أن يكون ابنه ولى العهد الثانى .

ثورة الحسين بن على بالمدينة :

أما عن العلويين ، فإنهم قاموا بالثورة فى المدينة ومكة وستفشل هذه الثورة فى الحجاز كما فشلت سابقتها من قبل ، ولكنها ستنجح فى بلاد المغرب الأقصى وتزعم هذه الثورة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو أن والى المدينة وهو حفيد عمر ابن الخطاب اسمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب – أقام الحد على أحد العلويين الذى يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوى وهو الحسين بن على على عقاب المتهمين وقال للوالى أن أهل العراق لا يرون به بأساً ، وكفل الحسين ابن على الثائر أبا الزفت "أى ضمنه" ولكن أبا الزفت تغيب عن العرض الذى كان يجب عليه أن يحضره وكان فى هذا حرج للضامن ، الذى لم يجد سوى الثورة رداً على إهانات الوالى وجاء العلويين صباحاً إلى المسجد فبايعوا الحسين على "كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد" وتمكن الثوار من هزيمة الوالى ونهبوا بيت المال ، إلا أن أهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد أحد عشر يوماً . وذهب الحسين إلى مكة وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد أن أعلن تحريرهم . وكان فى مكة كثير من العباسيين ، وكان معهم الموالى والسلاح فاجتمع العباسيون "بذى طوى" وقادهم محمد بن سليمان بن على والى البصرة وقاتلوا العلويين وتمكنوا من الحاق الهزيمة بهم ، وقتل المطالب بالخلافة وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالحاج ، ويمكن أحد العلويين وهو ادريس بن عبد الله من الهرب إلى مصر وهناك حمله صاحب البريد الذى كان يتشيع إلى بلاد المغرب حيث وصل إلى مدينة "وليلى" فى منطقة طنجة وهناك استجاب له بربر أوربة وكون دولة الأدراسة وبنى مدينة فاس التى ستصبح عاصمة المغرب الأقصى .

الخوارج :

أما عن الخوارج فإنهم ثاروا بالجزيرة وهزموا الوالى قرب الموصل ولم يقض عليهم إلا بعد أن قتل زعيمهم غيلة .

الزنادقة :

أما عن الزنادقة فتقول الرواية أن المهدى أوصى الهادى بمحاربتهم دون شفقة وأنه كان قد أمر بإعداد ألف جذع لصلبهم ولكن الموت لم يمهله إذ خرج إلى الموصل وعاد منها شديد المرض ، والظاهر أنه لم يمت ميتة طبيعية بسبب معاودته التفكير فى خلع أخيه هارون من ولاية العهد . وهناك روايات يستشف منها أن الخيزران هى التى دبرت موته . **الصراع بين الأمين والمأمون**

المقدمات :

بموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية أن تنقسم إلى قسمين ينازع كل منهما الآخر : الجزء الغربى حيث مدينة الخفاء ، بغداد ، وعلى رأسه الأمين والجزء الشرقى أى خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو . ويعود الفضل فى هذا التقسيم إلى الشريد كما رأينا بل ولربما تحقق الانفصال فعلاً بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو أن كلا من الإبنين احترم وصية أبيه . والظاهر أن هذا الانفصال كان لا بد منه إذ أن المشرق الإيرانى كانت له أمانيه وآماله السياسية التى يعمل على تحقيقها ، والتى ظهرت جلياً بقيام الدولة العباسية نفسها . وسنرى فعلاً أن المشرق الإيرانى سيحقق استقلاله فعلاً – إن لم يكن شكلاً على عهد الطاهرين وعلى أيام المأمون .

ويفهم من لك أن مسألة الصراع بين أبناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من أجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعوبى أو العصبى بين العرب والفرس . وعلى ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأى كبير فى سير الحوادث هذا على أن ظفر المأمون ، وغلبته على الأمين ، إن هو إلا انتصار للمشرق الإيرانى على المغرب العربى يعيد إلى الأذهان قيام أمر العباسيين على اكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم على العالم العربى الشامى ، أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الإيرانى الأصل . الحديث ، الإسلام "منذ خمس سنوات" فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى كان يقول للتميمى نقيمك مقام موسى بن كعب وللربعى نقيمك مقام أبى داود ، وخالد بن إبراهيم نقيمك مقام قحطبة .

بدأ الاختلاف بين الأمين الذى له الخلافة وبين المأمون عندما رفض الأمين – بصفته صاحب السلطان – الاعتراف بما أوصى به الرشيد ، من أن يؤول عسكره وكل ما فيه من الأموال والأمتعة والعدد إلى المأمون . وعمل على أن يعود هذا الجيش بكل أثقاله إليه ، بفضل ابن الربيع الذى حضر وفاة الرشيد ، وغيره من القواد الذين أرسل إليهم بتعليماته . ولكى يخفف من روع المأمون كتب أيضاً يهون عليه من الأمر . ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما ، وكذلك لأخيهما القاسم "المؤتمن" .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند إلى الانفضاض من حول المأمون والعودة إلى بغداد . فعلا أجابه كثير منهم رغم ما قام به قواد المأمون على رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحنث "قال ابن الربيع إنما أنا واحد من الجند" نتج عن ذلك أن اشفق المأمون من حرج الموقف ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها ، والتى تتلخص أولاً فى الاعتصام بخراسان ، إذ أن الخراسانية أخواله "المأمون" وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التى له فى أعناقهم ، ثانياً انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء إلى الحق والعمل به وإحياء السنن . ثم الاهتمام شخصياً بأمور الدولة ورد المظالم واظهار التقشف والزهد . وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق ، وذلك أنه وضع أو خفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد "قالوا ابن اختنا وابن عم نبينا" . كما أنه لاين الأمين فى نفس الوقت الذى عمل فيه على توطيد مركزه فى ولايته الشرقية ، بأن كتب إليه وعظمة وأهداه الهدايا .

أما عن الأمين فإنه من جبهته لم يرض عن موقف أخيه ، وعمل على إعادة الوحدة للدولة وعلى أن يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدأ ذلك على حساب الأخ الثالث ، وهو القاسم "المؤتمن" الذى كان يلى الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته وأقره على قنسرين والعواصم فقط وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى السنة التالية 194 هـ "810م" خطا الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون وما يمكن أن نسميه بتمهيد للإغارة على حقوقه فى وراثة العرش والخلافة . إذ أمر الأمين بإغراء وزيره الفضل بن الربيع بالدعاء لابنه موسى . الذى كان طفلاً صغيراً فى خطبة الجمعة إلى جانب الدعاء لأخيه .

وكان من الطبيعى أن لا يسكت المأمون – تحت ضغط وزيره الفضل ابن سهل هو أيضاً – على هذا العمل غير الودى وأجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد ، وقطع كل علاقة به "اسقط اسمه فى الطرز ومن النقود وقطع عنه البريد" . وزاد ذلك من تأزم الموقف ، إذ كشف الأمين عن نواياه وأرسل بعثة إلى المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه فى الوراثة "تقديم موسى بن الأمين عليه" وربما فى ولايته للمشرق (صب إليه أن ينزل عن بعض كور خراسان وأن يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالأخبار) .

وكان من الطبيعى أن يرفض المأمون إجابة مطلب الخليفة كما لم يوافق حزبه اطلاقاً على خروجه من خراسان ، هذا رغم أن الموقف السياسى للأطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر . فإذا كان رافع بن الليث قد مال إلى الاستسلام والطاعة فإن غيره كان قد أعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية الارلوق "على سيحون" وخاقان التبت ، وملك كابل الذى كان يستعد للإغارة على خراسان ، وملك اترار "مركز الغزو" الذى منع الضريبة .

واستطاع ابن سهل أن يدبر الأمور تدبيراً حسناً ، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة وذلك أنه بدا بأن استمال أحد أفراد بعثة الأمين وهو العباس بن موسى بن عيسى "حفيد عيسى بن موسى الذى خلع على عهدى المنصور والمهدى" – وعدة إمرة الموسم ومواضع من مصر – فاكن يكتب إليهم بالأخبار من بغداد ثم أنه شدد الحراسة على حدود خراسان ومنع العبور إلى ولاياته إلا للأشخاص المعروفين ، أما فيما يتعلق بملوك الأطراف من الوطنيين فإن الفضل نصح المأمون بإرسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما على

بلادهما ، ويعدهما بالمساعدة ضد أعدائهما وأن يرسل هدايا إلى ملك كابل وأن يعفى أمير اترار من جزية عام ، وفعلاً نجحت هذه الاجراءات فى استتاب الأمن والسلام فى هذه النواحى .

خلع المأمون :

حاول الأمين انفاذ الرسل لإقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا عند الرى من حرية الاتصال بأهل البلاد : حفظوا فى حال سفرهم وإقامتهم من أن يخبروا أو "يستخبروا" عندئذ رأى الأمين أن القطيعة قد تمت وعمل على أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال أساليب العنف . وفى أوائل سنة 195 هـ أعلن خلع المأمون من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه موسى بدلاً منه ولقبه "الناطق بالحق" وجعل له ديواناً من شرطة وحرس ورسائل وعهد بغدارة شئونه وتأديبه إلى على بن عيسى بن ماهان والى خراسان السابق ثم عهد لابنه الآخر عبد الله ولقبه "القائم بالحق" كما علن عدم صلاحية النقود التى ضربها المأمون والتى لا تحمل اسم خليفة بغداد للتداول .

واتبع الأمين ذلك بأن أرسل إلى الكعبة وأتى بكتابى العهد اللذين كتبهما الرشيد ومزقهما . وخرج من حيز الكلام إلى حيز العمل وكلف على بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولى العهد الجديد بالسير إلى خراسان للقبض على ولى العهد المخلوع وتنفيذ ما اتخذه من اجراءات ضده .

ولا شك فى أن اختيار ابن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختياراً موفقاً فالرجل معروف بسوء السيرة فى خراسان لجشعه فى ابتزاز الأموال حتى اضطر الرشيد إلى عزله بعد أن جمع ثروة طائلة وبعد أن كان يقاسمه فى استغلاله للبلاد ، والظاهر أن الأهواء الشخصية قامت بدورها فى هذا الاختيار ، فأبن ماهان كان يطمع فى العودة إلى منصبه القديم المغرى . وربما أراد الأمين أن يكيد لأهل خراسان فولاه هذا الأمر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حداً قيل معه أنه عينا للفضل ابن سهل هو الذى أشار بانفاذه حتى يقاومه أهل خراسان .

بداية الصراع :

سار على بن عيسى على رأس 50 ألف رجل ، وخرج الأمين ووجوه أهل دولته لوداعه . واتجه جيش بغداد نحو الرى حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال وحاول على ابن عيسى أن يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين وإثارتهم ، هذا ولو أننا لا نعرف إلى أى حد نجحت هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوك أجابوه إلى قطع طريق خراسان . ولكن المحقق أن ابن ماهان استهان بأمر طاهر ، إذ تقول النصوص بأنه لما طلب إليه أصحابه بث العيون وعمل خندق ، قال : "مثل طاهر لا يستعد له" وخرج طاهر من مدينة الرى فى جيش قليل العدد (نسبياً 4 آلاف) حيث عسكر على بعد قليل منها "5 فراسخ" كما حرض جنده على القتال خالعاً الأمين داعياً بالخلافة للمأمون .وكان الغرض هو إعطاء موقف جيشه صفة شرعية حتى لا يخيل للجند أنهم يقفون موقف الخارجين على صاحب الأمر . واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقف الواحد منهما أمام الآخر .

وبدأ طاهر بمظاهرة سياسية بأن حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها على رمح ، ودعا على بن عيسى إلى تقوى الله فى البيعة التى أخذها ولما خرج أحد أصحاب ابن ماهان علي بالسيف أظهر شجاعة فائقة ، إذ حمل عليه وأخذ منه السيف بيديه وصرعه ولهذا سمى طاهر ذو اليمينين .

وفى هذه الأثناء حدثت مفاجأة سيئة بالنسبة لطاهر ، وذلك أن أهل الرى اغلقوا باب المدينة دون عسكره ، ولكن يظهر أنه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيداً عن المدينة فأمر أصحابه بالاشتغال بمن أمامهم فقط . وبدأ القتال فى صالح على بن عيسى فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة ، وعرجت ميسرته على ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهر أظهر كفاءة عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف فى عضده ، فأمر أصحابه بالقيام بهجوم خاطف "حملة خارجية" على قلب على ابن عيسى . وبفضل ذلك الهجوم القوى تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناحا ابن ماهان ، وكثر القتل فى أصحابه وسقط هو قتيلاً بضربه سهم فى الميدان . ولم ينقذ المنهزمين إلا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم إلى معسكر طاهر بعد أن أمنهم .

الزحف على بغداد :

كانت هذه الوقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الرى إلى بغداد تعيدي إلى الذهن الحملة المظفرة التى قام بها قحطبة بن صالح من خراسان إلى العراق . وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين عبد الرحمن بن جبلة الذى ولى همذان ، والذى كان يأمل أن يلى كل ما يفتحه من أرض خراسان . هزمه طاهر مرتين ، حاصر مدينة همذان حتى ضجر أهل المدينة ، فطلب عبد الرحمن الأمان وخرج عن المدينة ، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر إذ شن عليه هجوماً شديداً يائساً انتهى بقتله وهزيمة أصحابه كان هذا الرجل متعصباً للأمين ضد المأمون فى أول الأمر فقال لا يرى أمير المؤمنين وجهة أبداً ، وبعد الاستيلاء على همذان عمل طاهر على تأمين ظهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين ، ولم ينتظر قائد الأمين وجيشه الكثيف وصول طاهر إذ أنه رأى الجلاء عن البلاد ، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك .

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتى وصل إلى قرب حلوان ، حيث عسكر هناك وكان للانتصارين اللذين أحرزهما طاهر أثرهما الكبير فى إضعاف الروح المعنوية لدى قواد وجيوش الأمين . فبعد أن بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربى متعصب للعرب ، هو أسد بن يزيد ابن مزيد ، وبعد أن حرضه من أجل المحافظة على قوة الشعب العربى فشل فى تسييره إذ كان للقائد العربى مطالب مالية لم يقابلها بالرفض فقط بل أمر بحبسه كذلك وأخيراً نجح فى تسيير عم أسد وهو أحمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ولكنهما لم يتقدما إلى أبعد من خانقين ، واكتفى طاهر بأن ظل فى مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون لم يزل يحتال حتى وقع الاختلاف فى معسكر أعدائه وقاتل بعضهم بعضاً حتى اضطر قائداً بغداد إلى ارجوع عن خانقين دون ملاقاة طاهر الذى تقدم ونزل حلوان نفسها .

الاضطراب فى الشام :

في هذا الوقت بينما كانت الأمور مستقرة في خراسان ، وبينما كان أمر المأمون في تحسن مستمر بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب وسارت الأمور على غير ما يشتهي الأمين حتى أنه وقع أسيراً بين أيدي الثوار ، وفقد خلافته لفترة ما . والغريب في هذا الشأن أن بلاد الشام ، وهي مركز الدولة العربية السابقة ومعقد آمال الشعب العربي وأمانيه في هذا الصراع العنصري كانت نهب الفتن والقلاقل من البداية .

ففي سنة 194 هـ ثارت حمص على عامل الأمين فعزله ، ولكنه ولى أخراً مكان انتقم من أهلها حتى طلبوا الأمان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر إلى الانتقام من جديد . وفي السنة التالية سنة 195 هـ واثناء انهزام جيوش الأمين أمام طاهر ظن أهل الشام أن أمر العباسيين ودولة الفرس إلى بوار فثارت دمشق ودعت إلى عودة الأمويين "السفياني المنتظر" أعلنت أحمد حفدة معاوية ويدعى أبو العميطر "علي بن عبد الله بن خالد" وكان علوي الأم "نفيسة بنت عبد الله" مشتغلاً بالعلم ، ويبغ من العمر 90 عاماً خليفة "ذي الحجة" وتمكن أبو العميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة أحد موالي بني أمية وعندما سير الأمين لحربه الحسين بن علي بن عيسى ابن ماهان لم يسر هذا الأخير إلى دمشق بل اكتفى بالانتظار بالرقة .

وأحسن السفياني السيرة أول الأمر ولكنه لم يكن ليستطيع القاء على الخصومات القديمة بين العصبيات العربية من كلب وقيس أو التوفيق بينهما ففي أول الأمر اتخذ أكثر أصحابه من كلب ولكنه عاد وخاصمهم واتفق مع قيس ولكن الزعيم الكلابي محمد بن صالح ابن بيهس أوقع به هزيمة منكرة وحاصره في دمشق وقتل ابنه وأرسل رأسه للأمين . وحدث أن مرض ابن بيهس فعمل على الكيد للسفياني فبايع أموياً آخر بالخلافة "مسلمة بن يعقوب" ونجحت خطته ، وتمكن الأموي الجديد من القبض على السفياني وقرب القيسية فلما عوفي ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها إليه القيسية وهرب الأموي والسفياني بعد أن دامت الفتنة حوالي 3 سنوات "محرم سنة 198 هـ) وظل ابن بيهس بدمشق حتى وصل إليها عبد الله بن طاهر .

وكان عبد الملك بن صالح ، الذي أخرجه الأمين من السجن عند ولايته قد حاول أن يجد علاجاً لنكبة الشام فطلب إلى الأمين أن يوليه إياها ومناه بأنه يمكنه ن يجيش أهل الشام لنجدته . ولكن فشل عبد الملك في مهمته إذ قامت الفتنة بين الخراسانيين وأهل الشام بينما كان هو مريضاً ، وانتهت الفتنة بانهزام العرب ، فمات الرجل سنة 196 هـ متأسفاً لنكبتهم وضياع أمله فيهم .

ويئس كذلك الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي كان أرسله الأمين إلى الشام من تقويم الحالة بعد موت عبد الملك فعاد إلى بغداد ولما أراد الأمين أن يحاسبه عما فعل رفع راية العصيان وهزم جند الخليفة وأعلن خلعه (11 رجب) وأخذ البيعة للمأمون . ولم ينقض يومان حتى كان الخليفة أسيراً هو وأمه زبيدة ، وتم ذلك بتدبير العباس من موسى بن عيسى الذي كان قد استماله الفضل بن سهل كما رأينا ولكن الحسين لم يستطع السيطرة على الموقف فثار به الجند وأطلق الأمين وأعيد إلى كرسي الخلافة ، وبذلك قدر للنزاع بين الأخوين أن يستمر مدة أطول .

وفي هذه الأثناء وقعت بغداد فريسة للفوضى وبلغ من حرج مركز الأمين أنه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عنه وأكثر من هذا أنه لم يجد قائداً غيره للقيام بحرب المأمون فوجهه لذلك . ولكن الحسين

كان قد فقد الثقة فى موقف الأمين فحاول الهرب إلا أنه أخذ وقتل وظهر الفشل فى حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع ، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واختفائه بعد مقتل الحسين .

ظهر بجلاء إذن أن موقف بغداد ميئوس منه وكان من الطبيعى أن تتقدم جيوش خراسان بسهولة وألا يصادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الاستيلاء على الأهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقى حتفه كما أن طاهر أصيب فى هذه المعركة بجراح بليغة "فقطعت يده" وباستيلائه على الأهواز تمكن من السيطرة على المنامة والبحرين وعمان "على الخليج الفارسى من شبه جزيرة العرب" أرسل إليها عمالاً يلونها من طرفه واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتى اتى واسط التى استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنه أرسل أحد قواده إلى الكوفة وكانت قد خلعت الأمين واعترفت بخلافة المأمون "كان عليها العباس بن موسى صيعة ابن سهل ، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها" .

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء على كل الأراضى الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والى البصرة خضوعه له ، وأعقبه والى الموصل . وبهذا أصبحت بغداد شبه محاصرة وانقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية ، وتم خروج كل بلاد العرب جميعاً من سلطان الأمين ، بدخول مكة والمدينة فى طاعة المأمون . ورغم أن موقف الأمين كان لا يبشر بأى أمل إلا أنه ظل جامداً فى تصرفاته لا يريد سوى التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة "لم يصبح لاه اتصال إلا ببلاد الشام المضطربة" فهو لا يريد الخروج منها – كما نصحه بعض الناس – ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة أعدائه فى سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه إذا كان هناك ما يمكن انقاذه .

فى هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون ، وصارت تقترب من بغداد شيئا فشيئاً ، وكانت كلما قربت اضطربت أمر الجيوش البغدادية وانسحب أفرادها . هذا ما حدث بالمدائن "على بعد 4كم من بغداد" حيث نزل طاهر "بصرصر" وما حدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين . كل هذا والأمين لا يفقد الأمل ، بل وربما اعتقد فى مقدرة بغداد وحدها على استعادة دولتاه المفقودة ففى محاولة أخيرة عمل على استمالة جيوش طاهر ببذل الأموال والتلويح ببريق الذهب ، ودس بينهم الجواسيس ونجحت التجربة جزئياً غذ شغب بعض الجند على طاهر وانضم فريق منهم إلى جانب الأمين "حوالى 5 آلاف" ولكن النجاح لم يذهب إلى أبعد من ذلك إذ تمكن طاهر بسرعة من السيطرة على رجاله وهزم جيش بغداد الذى اقترب من مواقعه فلجأ إلى داخل المدينة التى أصبحت مطوقة تماماً من جميع الجهات وأفلت زمام القواد – الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاح من يدى الأمين وعمت العاصمة الفوضى ، فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب .

رغم حالة الفوضى التى عمت بغداد لم يكن من السهل أخذ المدينة التى بناها المنصور لتكون أولاً وقبل كل شئ معسكراً لجنوده وملجأ يستقر فيه فى أمان من مفاجأة الأعداء . فللمدينة سوارها الضخمان ، والخندق الممتد بينهما ، ثم هى مقسمة بعد ذلك إلى أحياء "أرباع" شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية ، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص . بعد ذلك هناك الأحياء والأسواق خارج الأسوار وهى مكتظة بالمبانى والسكان ويمكن الاعتصام بها .

عرف طاهر ذلك وعمل على ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم . فقسم دائرة الحصار إلى أربع مناطق وعهد بكل منطقة إلى قائد . ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية "وراء دجلة" بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الأنبار "باب الكوفة" .

وصمم الأمين من جهته على المقاومة المستميتة دون النظر إلى العواقب مضحياً بمدينة الخلفاء العالمية . فلما أحوجه المال ضرب آنية الذهب والفضة ونفقها في أصحابه ولما خرجت عليه أحياء المدينة أمر بإحراقها رمياً بالنفط والنيران وبالمجانيق .ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضاً بالنسبة للأحياء التى ظلت تقاومه وسماها دار النكث "أهل الأرباض ومدينة المنصور وأسواق الكرخ والخلد ، لامتلائها بالعامة والغوغاء" كما أنه لجأ إلى أرهاب الأعيان الذين لم يخرجوا إليه من الهاشميين وكبار القواد فى أموالهم وأملاكهم فصار مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتى انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما استأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق ، من أعداء النظام والأمن ينهبون ويسلبون ويقاومون جنود طاهر ، ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أو كانوا يحملون أسلحة بدائية مثل المخالى فيها الصخر والحجارة ، ومعها المقاليع فإنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما ، بل وأكثر من هذا تمكنوا ثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم فى بعض الأحيان خسائر فادحة وأن يحرزوا بعض الانتصارات أيضاً . واتخذ طاهر إزاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء "ما بين دجلة ودار الرقيق ، وباب الشام ، وباب الكوفة إلى الصراه وربض حميد ونهر كرخايا" حتى عم الخراب واضطر الكثير من أهل المدينة إلى الجلاء عنها . وبعد ذلك عمد إلى منع الأقوات عن المدينة "صرف السفن التى يحمل فيها القوت إلى الفرات" فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الأمين :

وأخيراً تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل على حصار مدينة المنصور المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الأمين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد أن فارقه كثير من جنده وجواريه ، وأحاط قصورها "قصر زبيدة وقصر الخلد" بالمجانيق . ورغم هذا الضيق الشديد الذى وقع فيه الأمين فإنه لم يتخل عن عاداته من الانصراف إلى الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى – وربما وجد فى ذلك بعض التخفيف من محنته ، وكان هذا إيذانا بالنهاية ، إذ لم يعد أمامه سوى الاختيار بين أحد شيئين : أمام القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقى لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الأمان . ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزماً كلما ازدادت الصعاب شدة ، فإنه ركن إلى طلب الأمان . وكل ما فعله أنه لم يرض أن يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين .

وكان من الطبيعى أن يثير ذلك طاهراً صاحب الحصار . وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك ، إذ اتفق على أن يدفع الأمين شعار الخلافة والخاتم والقضيب والبردة – إلى طاهر واتى هرثمة بحراقة فى دجلة ونقل الأمين إليها "وحده" ولكن طاهراً لم يكن ليرض أن يفوته شرف استسلام الخليفة . فدبر اغراق الحراقة بأيدى أصحابه تدبيراً سافراً . وتنتهى قصة الأمين نهاية مأساة روائية "تراجيدية" بأن يؤسر وهو شبه عريان ،

ويحبس فى إحدى الدور . وفى ظلام منتصف الليل الذى تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه "فى يوم الأحد 23 محرم 198 هـ" ويسيروا برأسه إلى طاهر الذى يرسلها بدوره إلى المأمون صاحب العرش دون منافس .

استسلمت بغداد بعد إذن وفى يوم الجمعة التالى "28 من المحرم" دخل طاهر بغداد وصلى الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الأحوال ويستتب الأمن وتستقر الأمور بعد موت الأمين وخلوص الأمر للمأمون وهذا ما لم يحدث . فالمسألة كانت أكثر من ذلك تعقيداً ، إذ معنى انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق . وفعلاً لن يدخل المأمون بغداد إلا بعد ست (6) سنوات قضاها فى عاصمة ولايته الشرقية . وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية ألواناً من الاضطراب وصنوفاً من الفتن والثورات وذلك حتى يعود الخليفة من جديد إلى عاصمة بغداد .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طلبوا بارزاقهم ونادوا بموسى بن الأمين ، وظن طاهر أن فى الأمر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم على التنكيل بأهل الأرباض . ولولا تدخل الأعيان واعتذارهم إليه . وعندئذ حمل طاهر ولدى الأمين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما إلى المأمون بخراسان .

الفصل العاشر

خلافة المأمون

خلافة المأمون

198 – 218 هـ

813 – 833 م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق إلى الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلى عن كل فتوحاته ، من كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل أخى الوزير الخطير الفضل ، الذى استعمله المأمون – بايحاء الوزير من غير شك . ولم يفعل طاهر سوى مدافعته بتسليم الخراج حتى وفى الجند أرزاقهم ، وبعد ذلك كان على طاهر أن يسير حسب أوامر الحسن بن سهل إلى الرقة على رأس قوات غير كافية لحرب أحد ثوار الشام من رجال الأمين ، وهو ابن شبث "نصر بن سيار" الذى غلب على نواحى حلب وما جاورها من الجهات ، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي يبغى التغلب عليه وفى نفس الوقت ولى طاهر الولايات المضطربة ، والتى لم تكن قد دخلت فى الطاعة بعد ، وهى الموصل والجزيرة والشام والمغرب . أما عن هرثمة بن أعين فسيكون مصيره الموت بعد قليل .

العلويون وثورة أبى السرايا :

انتهز أعداء الدولة عدم الاستقرار هذا وعملوا على الاستفادة من الاضطراب والصيد فى الماء العكر ، كما يقال ، فظن العلويون ودعاتهم أن الخلافة العباسية قد ضعضعها الصراع وأن الفرصة مواتية لقيام دولتهم المنتظرة وفى 10 من جمادى الثانية سنة 198 هـ أعلنوا إمامة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة ، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة .

وربما كانت الظروف التى قامت أثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو إلى التفكير فى موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة ، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر على الأقل على سير الحوادث فى ذلك الاتجاه . فتنحية طاهر عما كان إليه نم الأعمال اتى افتتحها ، والعهد بها إلى الحسن بن سهل أخى وزير المأمون القوى الذى أصبح يدعى ذا الرئاستين ، كان من شأنه أن دارت الشائعات بأن الوزير غلب على المأمون ، وكان من الطبيعى أن يثير ذلك بنى هاشم ووجوه الناس وأن يهيج الفتن . هذا عن طاهر ، أما فيما يتعلق بهرثمة فإن الرجل الذى قام بأمر حرب العلوى أى بقيادة جيوشه هو أبو السرايا الذى كان مخاطر أشبه ما يكون بزعماء العصابات والذى كان يعمل تحت قيادة هرثمة أثناء الصراع بين الأمين والمأمون . فلما استتب الأمن عاد الرجل إلى سيرته الأولى . هنا يمكن التساؤل عما إذا كانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائياً بهذا

المغامر ؟ وهل لم يكن من صالح هرثمة أن تقوم أمام منافسة طاهر بعض المصاعب ؟ ومن الصعب أن نجد أجوبة لهذه الأسئلة .

على كل حال التقى أبو السرايا بابن طباطبا وأصبح قائده . وعندما وجه الحسن بن سهل إليهما جيشاً تمكنا من هزيمة هذا الجيش في آخر جمادى الثانى ولكن فى الشهر التالى يموت ابن طباطبا . والظاهر أن أبا السرايا الذى كان يريد أن يكون صاحب الأمر الفعلى تخلص منه فسمه وقام مكانه غلاماً علوياً "محمد بن زيد" فتحقق له ما كان يبغى وعندما أرسل الحسن بن سهل جيشاً ثانياً تمكن أبو السرايا من القضاء عليه قضاء تماماً .

وعندئذ أحس الطالبيون بقوتهم فانتشروا فى البلاد يبشرون بدولتهم ودعوا نصر بن شبث بالشام إلى بيتهم فرفض ، "وقال : إنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم" وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة وسير قواته إلى البصرة وواسط ونواحيهما ، بل وأكثر من هذا ظن أن أطراف الدولة قد دانت له أو على وشك أن تدين ، فأرسل العمال والولاة إلى مختلف الجهات : إلى البصرة والى مكة حيث فسد موسم الحج هذا العام والى اليمن وفارس والأهواز وقد غلب رجاله على البصرة والأهواز والمدائن واليمن ، كما انسحبت أمام قائده جيوش الحسن بن سهل التى كانت بواسطة إلى بغداد ، حتى طمع فى دخول بغداد نفسها .

وعندما استفحل الخطر ، اضطر الحسن بن سهل إلى استدعاء هرثمة الذى كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن . ورضى هرثمة بعد امتناع الذهاب لحرب أبى السرايا ، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب المدائن فارتد أبو السرايا والطالبيون إلى الكوفة حيث قاموا بأعمال انتقامية ضد من بها من بنى العباس ، فهدموا دورهم وانتهبوا وخربوا ضياعهم . ولكن لم يلبث أبو السرايا أن خرج منها ودخلها هرثمة "فى 16 من المحرم سنة 200 هـ" وانتهى الأمر بالقبض على أبى السرايا وقتله وتسيير رأسه إلى المأمون .

فى هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا بأعمال انتقامية شنيعة ، كما اساءوا السيرة . فكما حدث فى الكوفة حدث فى البصرة حتى سمى زيد بن جعفر بزيد النار ، لكثرة ما أحرق بالبصرة فى دور العباسيين . وفى اليمن أطلق على إبراهيم بن موسى جعفر "الجزار" لكثرة من قتل باليمن وسبى وأخذ من الأموال . وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة . فقام الأفطس "الحسين بن الحسن" عامل أبى السرايا بالاستيلاء ، على ودائع بنى العباس هناك وأخذ أموال الناس ومال أصحابه على شبابيك الكعبة وأخذوا ما كان عليها من أساطين الذهب اليسيرة وما كان بخزانتها من المال .ولما بلغه موت أبى السرايا الح على محمد بن جعفر العجوز فى قبول الخلافة وأجبروا الناس – لمى بيعته . وأخيراً تمادى الطالبيون فى غيرهم وانتهكوا الأعراض .

وأخيراً تمكنت جنود هرثمة مع جنود والى اليمن المطرود من هزيمتهم واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الأرض ، وخلع نفسه فسير به إلى المأمون بمرو سنة 201 هـ هكذا قضى تماماً على الفتنة العلوية التى ربما كان له ضلع فى إثرتها نكاية فى ابنى سهل اللذين غلبا على الخليفة أو هنا ما سيتهمه به أعداؤه فيغضب عليه المأمون ويموت بعد أيام فى حبس الفضل .

الاضطرابات فى بغداد :

أما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة والقيت تبعة عدم مجئ الخليفة إلى العاصمة على ابن سهل وانتهز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت ، ثاروا ضد الحسن بن سهل وتمكنوا من طرده هو وعماله "ونادوا باسحق بن موسى الهادى نائباً للمأمون على بغداد" وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف ، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة . وخرج قائد الحسن بن سهل عن بغداد . وسار الحسن نفسه من المدائن إلى واسط فى أوائل سنة 201 هـ . وفكر الهاشميون وأهل بغداد من الغاضبين على الحسن بن سهل فى مبايعة منصور بن المهدى وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مخلصاً للمأمون فأبى . وأخيراً رضى أن يضبط الأمور باسم المأمون أى أن يكون نائباً له ببغداد والعراق كانوا يقولون لا نرضى بالمجوسى ابن المجوسى .

المطوعة فى بغداد :

إزاء اضطراب بغداد هذا ، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والنهب والمفاسد ، من قطع الطريق إلى أخذ النساء أو الصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الأمور ، قامت حركة شعبية تهدف إلى نشر الأمن والطمأنينة وحسن المعاملة بين الناس ، واتخذ القائمون بهذه الحركة المبدأ الإسلامى الشهير : وهو "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" شعاراً لهم . معنى ذلك أن الحركة كانت فى أول أمرها عبارة عن دعوة إلى التقوى ولزوم أوامر الدين . هذه الدعوة ستعطى أعمال الجماعة عندما تضرب على أيدي الفساد صفة شرعية ، إذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الأمر الشرعى .

وأول ما فكر فى تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش . دعا هذا الرجل جيرانه وأهل محلته إلى معاونته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفعلاً قاتل الفساق وتمكن من هزيمتهم . كل هذا فى حدود الاعتراف بسلطان ولى الأمر . قام بعد ذلك رجل آخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفاً فى عنقه ودعا الناس لمناصرته فى دعوته ، ولكن لما كان كثير من أصحاب هذين الداعين من عامة الناس وغوغائهم فإن منصور بن المهدى الذى دخل بغداد قاومهما وهزم أصحابهما . وفى هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل وأهل بغداد من أجل تأمينهم على أن يعطى لهم وللجند من الثوار الأرزاق ، وفعلاً تم الاتفاق على ذلك وعاد الحسن بن سهل إلى بغداد "13 شوال سنة 201 هـ" إلا أن سهل ابن سلامة ظل على ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

العهد للعلويين :

في غمرة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون أن الفضل فى ما وصلت إليه الدولة من حالة الاضطراب التى تكاد تؤدى بالأسرة العباسية ، بل بالأسرة النبوية جميعاً ، يعود الى مشكلة وراثة العرش ، التى لم يستطع أسلافه ايجاد حل مرض لها ، وفكر هو فى ايجاد حل لهذه المسألة . وربما كان المأمون خيالياً بعض الشئ . فيما فكر فيه ، وربما كان فيلسوفاً يريد أن يصل إلى أصل الداء . فعلى حين غرة أعلن العلوى على بن موسى الرضا والياً للعهد بعده ، وكان قد خلع أخاه المؤتمن قبل ذلك سنة 198 هـ .

ويمكن النظر إلى هذا الإجراء من وجهين :

1 – على أنه عمل سياسي صرف يرمي إلى ارضاء العلويين واتباعهم ومن يعطف عليهم في أنحاء الدولة المختلفة ، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا ، ورغم سياسة القمع التي كانت الأسرة العلوية هدفاً لها لم تزل الأسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم ، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لأنفسهم . عن طريق الشدة القاسية كراهية الشعب التي كانت نحساً وشؤماً على الأمويين .

2 – على أن المسألة أعمق من هذا ، وأنها تتصل بشرعية ولي الأمر وأحقية الفرع العلوي من أسرة النبي هو الآخر في الاشتراك في الحكم اشتراكاً فعلياً وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذي يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات أخرى . ويمكن التفكير في أن المأمون كان متأثراً في ذلك بآراء وزيره الفضل بن سهل .

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه أن المأمون زوج العلوي ابنته أم حبيب وزوج ابن ارضا وهو محمد ابنة أخرى وهي أم الفضل ، وفي هذا معنى تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوي ، ثم أنه غير اللون الأسود لون العباسيين للرايات والخلع ، وأحل محله اللون الأخضر شعار العلويين "معنى ذلك حلا لمشكلة العلوية وقيام دولتهم المنتظرة وربما أيدها أيضاً تصرفات المأمون إزاء العلويين بعد وفاة الرضا .

نتائج بيعة الرضا :

ولكن هذا العمل السياسي الغريب بعكس ما كان يتوقع له في العراق ، فبدلاً من ن يؤدي إلى الهدوء أثار الغضب ، إذ احتج جميع العباسيين على اعتزال أو تنحي رئيسهم "قالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس" وفي بغداد رفضوا أداء البيعة للأمير العلوي وفكروا في خلع المأمون نفسه "كان أشدهم فيه منصور وإبرهيم أبناء المهدي" وفعلاً تنازعوا هذا الأمر أثناء خطبة الجمعة "27 ذي الحجة" . وتفرق الناس دون صلاة بعد أن نودي بعم المأمون .وهو المغني الموسيقي الهاوي إبراهيم بن المهدي ، خليفة ولقبوه "بالمبارك" .

وتمكن إبراهيم من الاستيلاء على الكوفة مركز العلويين إذ أن هؤلاء من جانبهم لم يرضوا عن البيعة لعلي بن موسى للرضا بعد المأمون إلا أن تكون البيعة لرضا فقط . واستولى كذلك على السواد جميعه ، ثم أخذ قصر ابن هبيرة بفضل اختلاف بعض القواد الحسن ابن سهل "10 ربيع" وسير إبراهيم جنوده إلى واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ولكنهم انهزموا . وفي بغداد نفسها قبض إبراهيم على سهل بن سلامة الذي كان يدعو على رأس رجاله إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "كان قائده عيسى بن محمد بن أبي خالد يسميهم الفساق" فعاقبه وحبسه . وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لا تستطيع أن تعيش بدون خليفة ، كما رأى عدم جدوى ولاية العلوي للعهد فقرر أن يعمل شخصيا . والظاهر أن وزيره أمده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن صهره الطالبي هو الذي أوضح له الأمر "ابنا سهل أخفى عنه بيعة إبراهيم" .

وكان هناك خطر جديد يهدده في المشرق فالحركات المذهبية التي بدأت بتعاليم أبي مسلم ، والتي تابعه فيها المقنع عن تناسخ الأرواح والحلول الإلهي كانت قد انتشرت في اذربيجان بفضل من يسمى بابك الذي اكتسب كثير من الأتباع ، والذي ربما بلغت قوته إلى حد فصل الولايات الإيرانية عن الغرب لو قدر

لحركته أن تتسع إلى أكثر من ذلك . فهم المأمون إذن خطورة الموقف وترك مرو وسار إلى بغداد . ولحسن حظه تمكن من الخروج من المأزق الذى دبره هو نفسه . ففى الطريق تحدث مأس اشتهر بها التاريخ العباسى إذ يغتال الفضل بن سهل ، ذو الرئاستين بسرخس – بتدبير من الخليفة على ما تدل الظواهر . واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده والتبرك بالصلاة عليه . وفى طوس مات صهره العلوى مصاباً بسوء هضم كما يقال "أكل عنباً وكان يحب العنب" ، ولكن من المحتمل أنه مات مسموماً "ابن الأثير لا يعتقد فى ذلك" ، ودفن إلى جانب قبر هارون ولما كان العلويون سيعتبرونه شهيداً فى القريب العاجل ، بنيت حول قبره مدينة طوس القديمة ، والتى تمثل الآن أكبر عتبات الشيعة المقدسة إلى جانب كربلاء .

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط وكان غريباً بالنسبة للعراقيين فإنه سيجن بعد قليل ، كما يقال ويسجن بهذه الحجة وبناء على ذلك فإن أهل بغداد بدأوا يهجرون المطالب بالخلافة "إبراهيم بن المهدى" الذى اضطر إلى الاختفاء بعد أن تسلل قواده إلى قواد المأمون وفشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه " فى 16 ذى الحجة سنة 203 هـ" كما اختفى الفضل بن الربيع أيضاً ثم أنه تحول إلى قائد المأمون وسمحوا للمأمون بدخول بغداد .

عودة المأمون إلى بغداد :

دخل المأمون بغداد فى صفر سنة 204 هـ / اغسطس 819 م وبصحبته طاهر بن الحسين الذى كان المأمون قد استدعاه من الرقة "للقدوم عليه بالنهروان" وكان المأمون يتخذ لون العلويين الأخضر شعاراً له ،لكنه لن يلبث أن يغيره إلى لون العباسيين الأسود . "حسب نصيحة طاهر الذى أصبح رئيس شرطة بغداد ، وعامل خراج السواد" .عمل المأمون على تهدئة العراقيين بأن خفف العباء المالية عن أهل السواد بعض الشئ "وهى نفس السياسة المالية التى اتخذها عندما أعتصم بخراسان أول امره فقد أمر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين وكانوا يقاسمون على النصف" .

طاهر إلى خراسان :

وفى السنة التالية سنة 205 هـ سار طاهر إلى خراسان بأمر الخليفة الذى ولاه على المشرق من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق . إذ كانت الأحوال تنذر بالاضطراب والفتنة هناك . وبعد قليل من الوقت أصبح السيد الذى لا ينازع للولاية جميعاً . وولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه ، وذلك أن صديقه أحمد بن أبى خالد "الوزير" أثار شكوك المأمون حول مقدرة والى خراسان غسان ابن عباس "ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر" ، فقال : "أخاف أن تخرج فيه خارجة من الترك فتهلكه" وربما كان أحمد ابن أبى خالد مغرضاً . فعندما توجه إلى خراسان فى أيام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة 3 آلاف درهم وعروضاً بألفى ألف درهم ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد 500 ألف درهم . وبعد مسير طاهر إلى المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذى خلفه فى قتال نصر بن شبث بالرقة محله ببغداد كصاحب الشرطة كما ولاه المأمون من لرقة إلى مصر وكذلك الجزيرة .

وبعد قليل سيشعر طاهر بقوته حتى أنه فى "سنة 207 هـ / 822م" سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة . ورغم أن هذا الإهمال أو السكوت كان معناه العصيان المكشوف أو اعلان الاستقلال عن الخلافة ومع أن الشكوك قالت عن طاهر الذى توفى عقب ذلك مباشرة أنه مات مسموماً بتدبير من الخليفة ، إلا أن المأمون عين ابن طلحة والياً لخراسان وسيظل أحفاد طاهر محتفظين بهذا المركز حوالى قرن – بينما شغل أفراد الأسرة وظائف مهمة فى الغرب منها شرطة بغداد . وهكذا فقدت الدولة حقيقة ولايتها الشرقية المتطرفة . كما سبق أن فقدت الولاية الغربية (ولاية الأغالبة) .

حلب والموصل :

ورغم عودة المأمون إلى بغداد فإن الولايات المختلفة كانت قد تعودت على الاضطراب ، وسيؤدى عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بإدارة الولايات الغربية . وفى منطقة حلب حيث كان نصر بن شبث وهو تابع الأمين المخلص والمتعصب للعرب قد رفض طاعة المأمون وغلب على الجهة ، فإن اطهر قام بمحاربته ،ولكنه لم يستطع قهره إلا سنة 209 هـ / 825م وسير بابن شبث إلى بغداد .

وانتهز أحد العباسيين من أتباع إبراهيم بن المهدى وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب فى العاصمة ، ولكن كشف أمره وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس "وهو أول عباسى صلب فى الإسلام" وفى نفس هذه السنة "210 هـ" قبض على إبراهيم بن المهدى نفسه "وكان متنقباً فى زى امرأة ، ولكنه تمكن من نيل صفح المأمون وعفوه .

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها . إذ قامت الحرب بين واليها السيد بن أنس وبين على بن صدقة المعروف بزريق . والى أرمينية واذربيجان وانتهت بقتل ابن أنس سنة 211 هـ . وفى السنة التالية أرسل المأمون أحد قواده "محمد بن حميد الطوسى" لحرب بابك وأمره فى نفس الوقت أن يصلح أمر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة "وأصبح هو والياً للموصل" .

الحالة فى مصر :

أما عن مصر فإنها عرفت الاضطراب هى أيضاً على عهد المأمون ، وكان على عبد الله بن طاهر إقامة الأمن واتباب النظام بها . إذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الأخوين : فأنضم القيسيون للأمين وأخذ الكلبيون جانب المأمون ، وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد ولكن مصر ظلت مضطربة حتى اضطر المأمون نفسه إلى القدوم ليها سنة216 هـ . ففى سنة 210 هـ وبعد أن تخلص عبد الله بن طاهر من نصر بن شبث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سرى . تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذى أرسله عبد الله بن طاهر . ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سرى ودخل المدينة واعتصم بها . ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتى استسلم وحمل إلى بغداد . ولكن حدث فى نفس الوقت أن غزا من الأندلسيين "15 ألف رجل" الذين نفاهم الحكم صاحب الأندلس الأموى الاسكندرية واستولى عليها واثاروا الاضطراب من جديد . ولكن عبد الله تمكن بعد قليل من ارغامهم على الانسحاب إلى جزيرة كريت وتسيير دولاب الإدارة من جديد "هذا الحادث يدل على ما يشبه الوحدة الإسلامية

فى البحر المتوسط أيام الاضمحلال البيزنطى – سيظل الاندلسيون بكريت حتى يطردهم البيزنطيون منها سة 961م" .

وعاد عبد الله بن طاهر إلى بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين . وبعد موت أخيه طلحة سنة 213 هـ تمكن من وضع يده على ممتلكات الطاهريين الوراثية فى خراسان "قيل أنه ولى خراسان بعد أبيه ولكنه كان قد عهد بها إلى أخيه طلحة" وقام ولى العهد أبو أسحق المعتصم بإمرة مصر ولكنه أظهر عدم كفاءة إذ وثبت العصبيات العربية من قيسية ويمنية بواليه وقتلوه "ربيع أول سنة 214 هـ" فاضطر إلى السير بنفسه وقتال الثوار وقمعهم بالقوة . ولكن الاضطرابات عادت من جديد "واشترك القبط فى الثورة" حتى اضطر المأمون نفسه إلى المسير من دمشق إلى مصر فى أواخر سنة 216 هـ كما قدم القائد التركى الأفشين اليها من بقرة . وأقام المأمون بمصر سنة 217 هـ حتى هدأت الأحوال "إذ ظفر الأفشين بأهل الفرما وقتل عبدوس الفهرى الذى كان قد وثب بعمال المعتصم" وقيل أن المأمون هو الذى أمر بحفر الثلمة التى فى الهرم الأكبر .

وعن اليمن ، فقد قامت بها ثورة علوية ، فرغم المعاملة الخاصة التى حابى المأمون بها الطالبين ، دعا عبدا لرحمن بن أحمد العلوى لنفسه بالخلافة هناك سنة 207 هـ "للرضا من آل محمد" منتهزاً تذمر أهل البلاد من العمال . ولكن ما أن وجه المأمون أحد قواده "دينار ابن عبد الله" إلى هناك وخير الطالبى بين أمان الخليفة والحرب حتى أعلن الثائر الطاعة فاقتيد إلى المأمون .

وكان لهذه الثورة أثرها فى نفس المأمون فأمر بمنع الطالبين من الدخول عليه ، كما منعهم من ارتداء لونهم الأخضر ومرهم بلبس السواد ، وبدأ يكون حذراً بعض الشئ فى معاملته له ، حريصاً على تعقب أبناء . فهو عندما تصله شائعات أنكرها عن ميل عبدا لله بن طاهر إلى العلويين لا يتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتى يتأكد من صحة رأيه فى ابن طاهر .

ولكن لم يكن هذا تغييراً جوهرياً فى سياسته إزائهم فهو دائم العطف عليهم والمحاباة لهم يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً ، كما تقول النصوص فهو فى نفس السنة 211 هـ ينادى بالحط من شأن معاوية – عدو على اللدود – ويلعن من ذكره بخير أو فضله على أحد من أصحاب النبى . وفى السنة التالية 212 هـ يعلن تفضيل على بن أبى طالب على جميع الصحابة . وكما أنه قبل أن يموت فى وصيته لأخيه المعتصم على أحسان صحبة بنى عمله أولاد أمير المؤمنين على والتجاوز على مسيئهم .

بداية بابك الخرمى :

هذه الاضطرابات التى حلت بمختلف الولايات لم يكن لاه خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التى ترأسها بابك بأذربيجان . هذه الحركة التى ظهرت سنة 192 هفى أواخر ايام الرشيد ، بدأها رجل يسمى جاويدان بن سهل وستظل تقوى وتشتد طيلة عهدى الأمين والمأمون حتى تصبح خطراً داهماً على عهد المعتصم الذى سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب على الثوار . ولا شك فى أن الانقسام الذى اضعف الدولة أيام الأمين والمأمون حتى تصبح خطراً داهماً على عهد المعتصم الذى سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب على الثوار .

ولا شك فى أن الانقسام الذى أضعف الدولة أيام الأمين والاضطرابات التى تلت موته كان من الأسباب التى مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التى كانت تواجهها لهم الحكومة المركزية والحقيقة أنه لو قدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضى على الحركة فى مهدها . إذ أنه فى نفس السنة التى بدأت فيها الحركة "192 هـ" وجه إليهم قائد على س 10 آلاف رجل فنكل بهم . وكان الرشيد حازماً إزاء الثوار فأمر بقتل أسراهم وبيع سباياهم وظلت الحركة ضعيفة حتى سنة 201 هـ حين ظهر على رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمى الذى أظهر إلى جانب كونه داعياً سياسياً ودينياً كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش .

ففى سنة 204 هـ كانت الحرب سجالا بينه وبين قائد الخلافة يين بن معاذ . وفى سنة 206 هـ هزم عيسى بن محمد بن أبى خالد ، وفى سنة 209 هـ ولى المأمون زريق وهو على بن صدقة على أرمينية واذربيجان وأمره بحرب بابك ، ولكن هذا اكتفى بأن أثار الاضطراب فى الموصل والجزيرة كما رأينا وأرسل المأمون قائداً آخراً (هو محمد بن حميد) فتك بزريق وتوجه إلى اذربيجان لملاقاة بابك ، وتوغل ابن حميد فى البلاد الجبلية نحو معاقل الثوار متخذاً الحيطة فى سلوك الدروب والمفاوز وحراستها ، ولكن فاجأته قوات بابك فى مضايق الجبال من كل وجه انهزم الجيش وقتل ابن حميد وظل الثائر معتصماً بجبال اذربيجان حتى وفاة المأمون سنة 218 هـ .

إلى جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه عرف مركز الدولة حركة دينية أشبه ما تكون بحركة الزنادقة على عهد المهدى . وهى التي نسميها بمحنة خلق القرآن . إذ اهتم المأمون بالمسائل الدينية . تدخل فى الجدل بين المعتزلة وأهل السنة . ومع أن العامة لم تهتم كثيراً بمسألة القضاء والقدر إلا أنها اهتمت اهتماماً بالغاً بمشكلة خلق القرآن ، عذ اعتنق المأمون رأى المعتزلة فى أن القرآن مخلوق وأظهر ذلك سنة 212 هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والأئمة على إعلان "خلق القرآن" واتخذ اجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب إلى أبعد من ذلك فعاقبه .

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجاً كما هى العادة . فالخليفة إلى جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبه ورغبته فى شغل رعيته بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية أيضاً ، كان يعمل على أن تكون هذه المشكلة الدينية وسيلة لأن يتخلص "من أعدائه السياسيين ممن لا يدينون بهذه الفكرة" وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد فى سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها اهتماماً جدياً فى أواخر أيامه أثناء وجوده سنة 218 هـ فى ثغور الروم ، تماماً كما حدث أيام المهدى من اهتمامه بأمر الزنادقة أثناء توجهه لحرب الروم ، فهو يكتب إلى بغداد فى امتحان الفقهاء والقضاة وطلب انفاذ بعضهم إليه ليمتحنهم شخصياً .

ومن المهم متابعة استجوابات هؤلاء الأشخاص المهرة الذين يبحثون عن أجوبة لا تجرح ضمائرهم ولا تضر بمبادئهم فعندما سئل بشر بن الوليد عن رأيه فى القرآن قال : قد عرف مقالتى أمير المؤمنين غير مرة" فلما قيل له قد تجدد كتاب أمير المؤمنين قال : اقول القرآن كلام الله ، وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا وإنما المطلوب معرفة ما إذا كان القرآن مخلوقاً قال ": الله خلق كل شئ "قيل له" فما القرآن شئ فقال "نعم" قيل له "فمخلوق هو" قال "ليس بخالق" .

ولما سئل أحمد بن حنبل ، ما تقوله فى القرآن قال كلام الله قيل له "مخلوق هو" كلام الله ما ازيد عليها ، فامتحن .

وكتب اسحاق بن إبراهيم "الممتحن – خليفة المأمون ببغداد" مقالات القوم واحداً واحداً وأرسلها إلى المأمون فأجاب بأن ذممهم . ولكنه كتب إليه أن يمتحن بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى "المدعى الخلافة ببغداد سابقاً" وأمره أن يضرب عنقهما إن لم يجيبا ، أما عن سواهما فيحملون إلى معسكره موثقين بالحديد .وفعلاً شد أحمد بن حنبل فى الحديد ومعه أخوه "محمد بن نوح" ووجها إلى طرسوس فى انتظار عودة المأمون من أرض بيزنطة إلا أن خبر موت المأمون وصلهم وهم بالرقة ، فعادوا إلى بغداد .

الحرب مع الروم :

أما عن سياسة المأمون إزاء بيزنطة فرغم أنه لم يكن معتاداً قيادة الحملات العسكرية شخصياً إلا أنه اضطر فى آخر أيامه إلى القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية . فبعد انقطاع الغارات الإسلامية بمناسبة الصراع بين الأمين والمأمون ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك الذى ظل دائماً يرفع راية العصيان باذربيجان والذى ازداد خطره أخيراً سبباً فى أن يقوم بغارة كبيرة على آسيا الصغرى سنة 215 هـ – 830 م وخلال 3 سنوات متتابعة استمر الخليفة فى الاشتراك فى الصوائف .

ففى أول سنة 215 هـ توجه على رأس حملة كبيرة إلى ثغور الروم واستصحب معه ابنه العباس ، كما استدعى اخاه المعتصم من مصر ، والتقى به هذا الأخير قرب الموصل ، ومن الموصل اتجه إلى منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس . ومن طرسوس دخل إلى الأراضى البيزنطية فى جمادى الأولى هذه الغارة عمت كثيراً من نواحى آسيا الصغرى ، فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر وفتح المأمون حصن ماجدة بالأمان ثم حصن قرة عنوة وهدمه . ووجه القائد التركى اشناس إلى حصن سندس ووجه قائدين آخرين إلى حصن سنان ، فخضع قائد الحصنين لشروط المسلمين . وعندما حل الشتاء عاد المأمون إلى الشام "دمشق" .

ولما تحسنت الأحوال الجوية فى السنة التالية 216 هـ رجع المأمون إلى أرض الأعداء وكان الأمبراطور قد قام بأعمال انتقامية ضد طرسوس والمصيصة وتمكن المسلمون من الاستيلاء على عدد كبير من الحصون "30 حصناً افتتحها المعتصم" لا سيما هرقلة التى خرج أهلها عندها بعد أن أخذوا الأمان وكذلك مطمورة . واستمرت الصائفة 4 أشهر "جمادى الأولى – 14 شعبان" ثم عاد المأمون من جديد إلى الشام .

وفى سنة 217 هـ حاصر الخليفة أكبر الحصون البيزنطية على الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال الصائفة تقريباً "100 يوم" ثم رحل عنه تاركاً أحد قواده "عجيف" على حصاره واضطر الباسليوس تيوفيل إلى طلب السلم بعد سقوط الحصن صلحاً "أرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك" .

وفى سنة 218 هـ سيعود المأمون إلى أرض ثغور الروم ويوجه ابنة العباس إلى طوانه ليحصنها بالحاميات ، وتم بناء الحصن فعلاً وأرسل إلى البلدان فى طلب المقاتلة للحصن وأجرى لهم العطاء السخى "الفارس 100 درهم والراجل 40 درهما" ولو أن هذا لم يتم ففى هذه الأثناء مرض المأمون مرضه الذى مات فيه إذ فاجأته المنية قرب طرسوس حيث دفن .

المدارس التاريخية في العصر العباسي

استأثر الاهتمام الإسلامي بهذه المدرسة والسبب في ذلك يعود إلى أن المدينة كانت عاصمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، ومركز تجمع الصحابة والبلد الأساس للدين الجديد صاحب الدولة وضروب التحرير والفتوح ، وحين احتاج المسلمون في أنحاء الدولة العربية الإسلامية إلى معرفة أوسع بالدين وصاحب الرسالة والأحكام والحديث والسنن والتفسير وأحاديث الدعوة الإسلامية الأولى وتفاصيل عن الهجرة والمغازي توجهوا أول ما توجهوا إلى من يغنون به تلك المعرفة وتصدى لإيضاح ذلك بالمقابل ، أبناء الصحابة أنفسهم وبشكل خاص المجموعة الأولى منهم.

وقبل أن نتكلم عن هؤلاء لا بد من معرفة من هو مؤسس هذه المدرسة والتي لعبت في المصادر التاريخية فحسب بل بقية فروع العلم آنذاك ، أنه عبد الله بن عباس ولد عبد الله بن العباس قبل وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بثلاثة عشر سنة وتوفي في الطائف سنة 78 هجرية وكان أبرز فقهاء المدينة ، وأوسعهم إطلاعاً وعلماً وكان يسمى البحر لا لكثرة علمه في الفقه فحسب ولكن لكثيرة ما لديه من الأخبار الماضية والنسب أيضاً ، إضافة إلى كونه كان له باع طويل في الشعر واللغة وتفسير القرآن والحساب والفرائض ، روى ابن سعد في الطبقات عن أبي رباح أحد تلاميذه بقوله "كان أناس يأتون ابن عباس للشعر وناس للأنساب وناس لأيام العرب ووقائعها فما منهم من صنف إلا يقبل عليه بما يشاء" ولعبد الله بن العباس مكانة في الرواية التاريخية وذلك واضح فيما روى عنه محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، حيث ورد اسمه 286 مرة فيه أي في تاريخ الطبري. ولا تكاد تقرأ فصلاً من فصول الطبري إلا الجزء الخامس خاصة إلا وجدنا فيه قولاً أو أكثر لابن عباس في العرب البائدة أو الإسرائيليات أو المغازي وكثير من المؤرخين الآخرين أخذوا قليلاً أو كثيراً من هذه الأمور عنه ولعلهم تزيدوا في الكثير من أقواله حتى لنجد الكثير من التناقض بين الروايات المروية عنه ، انظر شاكر مصطفى / تاريخ العرب ص150.

أما من ناحية الكتب فلم يترك لنا عبد الله بن عباس كتباً ، إلا أنه ترك أقوله و معلوماته مكتوبة لدى بعض مواليه وبعض من تلامذته ، ويذكر أنه كان لدى كريب بن أبي مسلم مولى ابن عباس حمل بعير أو عدل بعير من كتبه وأقواله المكتوبة فكان علي بن عبد الله بن العباس إذا أراد الكتاب كتب إليه أبعث إلي بصحيفة كذا وكذا قال "فينسخها فيبعث إليه بأحداهما" وهذا يعني أن ابن عباس قد ترك صحفاً "أي مصادر" لورثته بعد وفاته ، وكانت من الكثرة بحيث يبلغ حجمها حمل بعير.

وأما تلامذة عبد الله ابن عباس فكان عندهم بدورهم ما يقومون بروايته ومن هؤلاء التلامذة عروة بن الزبير ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منبة وسعيد بن جبير وأنس ابن مالك ، وسعيد بين المسيب وغيرهم وعن هؤلاء التلاميذ أخذ الكثير مما نعرف من الأخبار بين أخبارهم والسير أمثال ابن أبي خيثمة وابن السائب الكلبي.

أما المجموعة الأولى من رواة مادة المصادر التاريخية من أبناء الصحابة منهم:

1- سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي ، ولد في المدينة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يلتقي الرسول ورغم ذلك بعشرة البعض من الصحابة ، "ولعله من أوائل من دون أشياء عن حياة الرسول ، وربما بدأ هذا العمل أبوه سعد ثم جاء سعيد فعدله وقد كانت النسخة الأصلية من تصنيفه موجودة عند حفيدة سعيد بن عمرو بن سعيد ، في أوائل العصر العباس" انظر شاكر مصطفى / التاريخ العربي ص 151.

أما معلوماتنا عن وفاة سعيد بن سعد بن عبادة فهي غير دقيقة لكن ابنه شرحبيل بن سعد وهو كتب في المغازي توفي سنة 123 هجرية 740 ميلادية وقد ناهز المائة عام.

2- سهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري ولد سنة 3 للهجرة النبوية الشريفة المصادف 625 للميلاد وتوفي في عهد معاوية ابن أبي سفيان وهو أيضاً كتب شيئاً عن حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومغازيه بقي في حوزة حفيدة محمد بن يحيى بن سهل والذي روى عنه الواقدي كثيراً من الرواية وكان محمد هذا عندما يكتب أو يروي يقول "وجدت كتاب أبائي" "وقد بقيت شذرات عديدة من هذا الكتاب لدى البلاذري في أنساب الأشراف وابن سعد في الطبقات وكذلك الطبري.

3- سعد بن المسيب المخزومي ، ولد سنة 13هجرية 634 ميلادية وتوفي في المدينة المنورة سنة 94 هجرية 713 ميلادية وهو نساية ومؤرخ فقيه محدث له مشاركة واسعة في الأدب والحديث والفقه وكان الزهري من تلامذته وقد كتب سعيد شيئاً عن حياة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وعن الفتوح فقد استخدمه الطبري في تاريخه.

4- شرحبيل بن سعد مولى بني خطمة ولد في أواخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه رغم أنه منهم في دقة ولا يعتمده المؤرخون الكبار مثل ابن اسحاق والواقدي أو ابن سعد ، ورغم ذلك أنه أعطى قوائم بأسماء الصحابة في المعارك الكبرى ، وكانت ترتبط هذه القوائم في عهده القيم الاجتماعية في المجتمع العربي الإسلامي هذا من جهة وجهة ثانية تعتبر تلك المعلومات التي قدمها عن دور الصحابة في المعارك الكبرى التي خاضوها من أجل الإسلام ونشر راية الحق بين الناس جميعاً تعتبر مصدر تاريخي مهم جداً.

5- أبو فضالة عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري ، قد وصفه ابن اسحق بأنه أحد كبار علماء الأنصار روى عن أبيه وكتب كتاباً في المغازي لعله لم يتوسع فيه وقد روى عنه ابن اسحاق ونقل عنه الطبري.

6- القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق "حفيد أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولد حوالي سنة 37 هجرية 657 ميلادية توفي سنة 107 هجرية 725 ميلادية وكان من كبار العلماء في عصره وعلى ما يبدو أنه كتب في المغازي أيضاً وأخبار الخلفاء كتاباً أو أكثر من كتاب وقد حفظ لنا الطبري مقتبسات عديد منه وكذلك نجد بعض من هذه المقتبسات عند البلاذري والواقدي.

في الوقت الذي هذه الجماعة تهتم برواية وكتابة مصادره وتدوينه ، كانت هناك جماعة أخرى تهتم بتوضيح ما ورد في القرآن من قصص المواعظ ولما كان ذلك القصص متصلاً بالأنبياء الأول فقد كان المجال واسعاً لمن يعرف علوم أهل الكتاب في هذا الباب كي يتقدم للتفسير ومن هذا الباب دخلت الإسرائيليات إلى السيرة والتفسير.

7- وهب بن منبة ، بغض النظر عن الملاحظات التي وردت حول كتابه وروايته للمعلومات التاريخية والضعف الذي ينتاب رواية وكتاباته ، إلا أنه له دور أو محاولة جادة في كتابة تاريخ عالمي في كتابه "المبتدأ" وهي أول محاولة في الدولة العربية الإسلامية من هذا النوع وذلك من خلال تاريخ الأنبياء والرسالات كما كتب كتاب "الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم" ورغم الأسلوب القصصي الذي ساق به رواياته دون سند وما تضمنت تلك الروايات من مادة أسطورية لا سيما عن تاريخ اليمن ، وكذلك ما كان عنده من قصص شعبي يهودي ، ومن شعر موضوع أدخل الشك في كتبه ، في دقتها وصدقها فلم يأخذ العلماء أحاديثه مأخذ الجد واعتبر نموذج "الأخباري" ، ولكن رغم ذلك لم يمنعه من أني يكون ذا أثر في مدرسة المدينة التاريخية ولم يمنع الإسرائيليات التي جاء بها من أن تدخل السيرة والتفسير ومن أن تختلط بتاريخ العرب قبل الإسلام ، ورغم كل ذلك أخذ عنه ابن إسحاق كما أخذ عنه آخرون مثل ابن قتيبة والمسعودي والمقدسي والطبري والكسائي وثعلب.

وقد تلا المجموعة الأولى جيل ثاني برز منه مجموعة من المؤرخين والرواة أصحاب السير والمغازي ومن هؤلاء مجموعة سوف نتحدث عن بعضها في هذه المحاضرة وهم:

1- عبد الله بن أبي بكر بن أبي حزم ، وهو من عائلة ذات سلالة عريقة في الإسلام ، جده الأعلى عمرو بن حزم كان والياً على اليمن في زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وجدة محمد قتل دفاعاً عن المدينة المنورة في وقاعة الحرة وأبو بكر كان قاضي المدينة المنورة ثم ولي عليها لمرتين سنة 96 للهجرة و 118 للهجرة.

أما عبد الله هذا فقد شغل نفسه في الحديث والسيرة ، وقد رويت عنه أخبار تتصل بالمرحلة الأولى من حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأعوامه الأولى وبالغزوات كما كانت له عناية بالوفود التي وفدت من قبائل العربي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أخبار الردة ، وروي أيضاً عن

الأيام الأخيرة للخليفة عثمان بن عفان وكان يسند أخباره إلى رواتها أحياناً ، وكان كغيره من الرواة يمزج بين الشعر والخبر ولعل من أهم ما جاء به عبد الله ما يلي:

أ- "لم يقنع بجمع الأخبار التي وصل إليها بل حاول أيضاً في ذلك الزمن المبكر ، أن يبتكر الترتيب السنوي للحوادث ، مجمع قائمة لغزوات النبي مرتبة الترتيب السنوي وقد استعارها ابن اسحق في سيرته ، ونقلها الطبري ، وهذا ما يجعله من أوائل إن لم يكن أول وضاع للمنهج الحولي في التاريخ الإسلامي منذ مطالع القرن الثاني" ، انظر شاكر مصطفى / التاريخ العربي / ص 156.

ب- عناية بالوثائق المدونة إلى جانب الأخبار مثال ذلك الرسالة التي كتبها النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى ملوك حمير ، وكذلك الوثيقة التي أعطاها النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى جده الأعلى عمر بن حزم لكي يأخذها معه حين بعثه الرسول إلى أهالي نجران لكي يفقهم في الدين الإسلامي.

2- عاصم بن عمر بن قتادة ، وهو من الأنصار وقد حارب جده قتادة مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في معركة بدر الكبرى وكان حامل لواء القبيلة بني ظفر في حنين ، وكان والده من رواة الحديث ، رحل عاصم إلى دمشق على عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقص حاجته وطلب منه أن يجلس في مسجد دمشق يحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل ثم رجع للمدينة المنورة ، أما معرفة بالسيرة والمغازي فهي مشورة وفي ذلك يعد من الرواة الثقات ، فظل في مدينة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، يروي معارفه في الحديث والمغازي قرابة عشرية سنة حتى جاء أجله.

وهو في الرواية والسند وذكر الشعر لا يختلف بهذه الطريقة عن صاحبه عبد الله بن أبي بكر.

3- أبو روح يزيد بن رومان الأسدي المدني ، وهو من الموالي وكان التابعين المتأخرين توفي سنة 13 هجرية 747 ميلادية وقد روى عن عروة كما روى عن معاصرة الزهرية وتلمذ عليه ابن اسحاق والإمام مالك ابن أنس ، وقد ألف في المغازي كتاباً وصل إلى الواقدي فاقتبس عنه كما نجد منه مقتطفات لدى ابن سعد والطبري.

4- أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأسدي وهو كذلك ربيب الزبيريين توفي سنة 137 هجرية 752 ميلادية تتلمذ على عروة ابن الزبير كذلك ، كما كان من تلامذة الزهري وبعض مؤرخي مصر مثل ابن لهيعة و الليث ابن سعد وقد وجدنا عند ابن حجر في كتابه الأصابة في معرفة الصحابة ما يقارب ثمانية وأربعون قطعة من كتابه في المغازي ، كما نجد بعض القطع لدى ابن سعد في طبقاته والبلاذري في تاريخه أنساب الأشراف وكذلك لدى الطبري وهذا ما يسهل من إمكانية دراسة هذا المؤرخ دراسة دقيقة.

المصادر التاريخية في العصر العباسي

إذا نحن استعرضنا مؤلفات الأخباريين الأوائل ومواعيد تأليفها وما تحتوي من المادة ومن المصادر واستعرض عنوان تلك المؤلفات في كتاب الفهرست لابن النديم مثلاً ما بقي منها قد يسمح لنا أن نلخص تلك المادة في النقاط التالية:

1- السيرة والمغازي.
2- أحداث التاريخ العربي الإسلامي منذ وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى عهودهم لا الأخبار السياسية فقط ، ولكن الحضارية أيضاً (من خطط ونظم مالية واقتصادية وولاة ونقود ورجال علم وفرق ومن غناء وجواز وفيات) وتوسعوا خاصة في أخبار الأدب والشعر.
3- أخبار العرب ما قبل الإسلام وخاصة من الأنساب والأيام والمرويات الأدبية ، وينسوا الأمور الحضارية من أديان وأحلاف ومفاخرات وأسواق.
4- أخبار العرب قبل الإسلام وخاصة اليمن والحيرة.
5- تاريخ الأنبياء السابقين والأديان.
6- تاريخ الفرس وملوكهم وأخبارهم ونظمهم.
7- بعض تاريخ الروم والأمم الأخرى (من هنود وحبش وقبط وغيرهم).

ولم يحتاج العرب المسلمين إلى هذه المادة التاريخية كلها في وقت معاً ، وهذا يعني أنها لم تدون كلها في وقت واحد ، ولعل ترتيبها الذي أعطيناها إياه في هذا التعداد والذي تمت الإشارة له سابقاً يكشف تقريباً ترتيب تدوينها ، والذي يعكس في الواقع ظهور الحاجة إليها ، الفرق الوحيد هو أن تدوين تاريخ الأنبياء رافق تدوين التاريخي العربي لما قبل الإسلام ، فقد اهتم المسلمون العرب أولاً بالسيرة النبوية وتفسير القصص القرآني وأشاراته فكتبت السيرة منذ النصف الثاني من القرن الأول وكتب بعض أمور العرب ما قبل الإسلام ، كما نقلت بعض الإسرائيليات وأخبار الأنبياء وترتبت على الردة وحروب التحرير والفتوح أمور هامة في التشريع والحياة الإسلامية فرويت ودونت أخبار الردة والفتوح والتحرير في الوقت الذي ظهرت فيه الخلافات الشديدة حول الإمامة ورأس الدولة العربية الإسلامية فتتبع الناس وقائع الخلاف وآراءه وما نجم عن ذلك من وقائع حربية وجدل سياسي ودونوها ، ثم احتاجوا ، منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، إلى معرفة خبرات الأمم الأخرى فتطوع الفرس لتقديم تلك الخبرات ، وأخيراً في مطلع القرن الثالث الهجري بحث العرب المسلمين أنفسهم عن أخبار الرومان والروم وباقي الأمم إحقاقاً للتوازن في التاريخ العام القديم ونقلوا ذلك إلى التواريخ العربية.

أما مصادر تلك المعلومات فكان ذلك من السهل أن نعرف ينابيع المعلومات في السيرة والمغازي وقد أخذت هذه المعلومات عن الصحابة والتابعين.

أما أحداث التاريخ الإسلامي فقد تم أخذها عن شهودها ورواة أخبارها أولاً لأول فاءت تأريخ الأمور السابقة للإسلام كان يشكل مشكلة هامة في التدوين التاريخي ، فليس في اللغة العربية من تراث مكتوب تقرأ به تلك الأمور ولا كان في تواريخ الأمم الأخرى وهي مكتوبة بلغات غريبة فارسية ويونانية وسريانية من القيمة الفكرية والسياسية بالنسبة للعرب المسلمين ، ما يدفع إلى معرفتها والتبحر والتوسع فيها ، ظلت معرفتها إما قاصرة على أصحابها من السكان الأصليين في مصر والشام ووادي الرافدين وبلاد فارس ومكتوبة بلغاتهم السابقة نفسها وإما ترفاً فكرياً لا يطلبه ويبحث عنه إلا أصحاب التوق العلمي لمجرد استكمال المعرفة.

وقد حلت هذه المشكلة بالنسبة لكل موضوع منها على حدة ، فأما أخبار العرب ما قبل الإسلام بمجملها فقد أخذت مباشرة من العارفين بها وبأمورها وخاصة فيما يتعلق منها بتفسير إشارات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقد وجد من هؤلاء الرواة جماعة كبيرة منذ عهد الراشدي وعصر الأمويين في فترة الأولى وقد يكون معظم من يهتم بالنسب ومع ذلك كانوا قد حملوا معه الأخبار المختلفة ومنهم دغفل السروسي الذهلي النسابة والذي أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان ووفد عليه والنسابة البكري النصراني وقد أخذ عنه رؤية بن العجاج ولسان الحمرة أبو كلاب ، وقاء بن الأشعر ، وعلاقة بن كريم الكلابي على أيام يزيد بن معاوية وكان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها ، وهو أحد من أخذت عنه المأثر وصحار العيدي الخارجي والشرقي بن القطامي أحد النسابين الرواة للأخبار والأنساب والدووابن وصالح بن عمران المعروف بالصفدي وكان عارفاً بأخبار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وله كتب ومجالد بن سعيد الهمداني الذي روى عنه الهيثم بن عدي الكثير لأنه كان رواية للأخبار ، وقد توفي سنة 144 هجرية وسعد القصير مولى بني أمية الذي أخذ عنه العتيق أخبار أهله ومن قيمهم وشعرهم ويزيد ابن داب العالم بأخبار العرب وأشعارها وولداه عيسى ويحيى ، وكان الغالب على آل داب جميعاً الأخبار وزهير بن ميمون الهمداني القرقبي المتوفي سنة 155 هجرية ، وكان عالماً بالأنساب والأخبار وأيام الناس وأبو محمد جناد بن واصل الكوفي مولى بني أسد ، وكان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها.

وثمة ما يشير في مجموعة من الأخبار إلى أن ما حمله هؤلاء الرواة وأمثالهم من المعلومات كانت تسجل من قبلهم بشكل شخصي وذاتي ومنذ أواخر العصر الراشدي في بعض الصحف ، وهناك من يشير إلى وجود صحف محفوظة لدى كل قبيلة تضم أنسابها الخاصة ، وقد تعاون مع التاريخ على جمع أخبار العرب ما قبل الإسلام علوم القرآن والحديث والشعر واللغة والأدب وما أثر وسجل منها.

أما في الجزء الجنوب الغربي من جزيرة العرب "اليمن" كانت المصادر الأولى عن هذا الجزء من بلاد العرب بمجموعها ذات طابع أسطوري ، يا أننا نجد أن حوادث القرن السادس الميلادي وهي قريبة نسبياً مرتبكة فبد من أن تصل إلينا روايات متينة نجد الرواة مثل وهب بن منبه توفي سنة 110هـ/728م ويقال سنة 114 هجرية أي سنة 732 ميلادية وكذلك أبوه منبه الذي كان يسكن في خرسان "حرات" وكذلك عبيد بن شرية يورد قصص خيالية لتاريخ اليمن هي في واقع الحال مزيج من القصص الشعبي والإسرائيليات ، وحاولوا بذلك تمجيد

عرب اليمن بأنهم نسبوا إليهم أمجاداً كثيرة في الحرب والصنعة واللغة والآداب ، وحتى في الدين ، وذلك لكي يدللوا في هذا أنهم سبقوا أخوانهم العرب في شمال الجزيرة العربية في هذا أو في أمجادهم ، وأنهم لا يقلون عنهم في ذلك.

وقد أورد هؤلاء أخبارهم ومآثرهم بأسلوب يشبه القصص أي أيام العرب مع نسبة متقدمة في جانب الشعر وذلك لكي يكون تأثير القصة قوي ، وقد ذكر بعض الرواة عن أخبار العرب في الحيرة في العراق وقالوا أنهم وجدوا أثر سجلات وكتب فيها وكذلك في اليمن وذكر من استخدم بعض الأخبار الأول مثل هشام بن الكلبي حيث قال يوجد سجلات من هذا القبيل في اليمن والحيرة.

أما ابن النديم في فهرسة فقد ذكر أن عبيد بن شرية نقل رواياته عن عدد من الرواة اليمانيين ويذكر منهم ، الكيس النمري ، واللسين الجرحي ، وعبدود وزيد بن الكيس ، والذي يقلب بالجرهمي ، وكذلك علاقة بن كريم الكلابي من بني عامر بن كلاب ، وكان على أيام يزيد بن معاوية الأموي.

ولما كان هؤلاء الرواة ممن يروون الأخبار بشكل شفهي فلعلتهم كانوا في ذلك يعتمدون على شيء مكتوب ، وقد أثبت لنا بعض الأدلة التي تشير على وجود ذكر ووثائق ملكية وسجلات للدولة الحميدية وصحف مكتوبة في اليمن ظلت معروفة محفوظة لدى الأسر البارزة والناس حتى جاء زمن الهمذاني الذي أشار إليها ونقل عنها في كتابه الأكاليل على أغلب ما سجل من تاريخ اليمن القديم على لسان الرواة لكنه على الأعم الأغلب كما ذكرنا سابقاً أسطورياً ومن نوع القصص الشعبي.

ومما لا شك فيه أن هناك كثيرون من أولئك الرواة القصاصين ، حيث لم معرفة تاريخ اليمن الحقيقي ممن عاشوا في عصر الراشدين وعصر بني أمية في الفترة الأولى من حكم الأمويين ، ولا هنا أن نقول أن بعض هؤلاء أصحاب القصص لديهم صحف مكتوبة بالخط السند الشائع في اليمن في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، لكن حلول الرواة القصصيين والتي ينقلون قصصهم ورواياتهم شفاهناً حلوا محل العارفين بتاريخ اليمن المكتوب إن صح القول ، قد أضاع على التاريخ العربي فرصة ذهبية لا تعوض كان بإمكانها أن تساعد بشكل كبير جداً في فهم وإيضاح وإغناء النقوش الأثرية التي نستعملها اليوم ونستنطقها عن ذلك التاريخ لعرب اليمن ما قبل الإسلام ذلك التاريخ المجيد والذي

أما مصادرنا عن تاريخ الأنبياء والرسل فقد ورد بعضه في القرآن الكريم ، وأما تفاصيله والتوسع فيه وفي أخبار الأديان الأخرى مثل اليهودية والمسيحية والصابئة وغيرهم وقد توسع بشكل خاص في موضوع الديانتين اليهودية والنصرانية أو المسيحية ، الأمر الذي دفع على الاعتماد على أصحاب تلك الديانات ، وبشكل خاص ممن أسلم من هؤلاء وكان على شيء من العلم والمعرفة والإطلاع على

بعض المعلومات عن دينه السابق ، وقد أخذ الأخباريون والمؤرخون العرب المسلمون من تلك الأخبار والروايات ما تفيد وتوافق مع العقيدة الدينية الإسلامية بشكل خاص.

وعلى الأعم الأغلب كانت البدايات بدايات تفسيرية ثم أخذ يتوسعون فيها وفي بعض الأحيان كانوا يأخذون عن الكتب المقدسة بشكل مباشر أو عن شروح تلك الكتب ، ومن أقدم من نقلت عنهم تلك المعلومات والأخبار هم:

1- كعب الأحبار.
2- عبد الله بن سلام.

ومن ثم بعد ذلك عن:

1- محمد بن كعب القرظي.
2- وهب ابن منبة.

ولا بد من الإشارة أو القول بشكل واضح إلى أن أخبار الأنبياء والأديان السماوية التي سبقت الإسلام كانت معروفة عند العرب في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وكانت مسطورة عند أصحاب تلك الأديان وهي أساطير الأولين والتي اتهم الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم زوراً وبهتاناً بالنقل عنها ، كما كان في مكة نفسها ، يثرب وخيبر ونجران وصنعاء والطائف وغيرها لذا أننا نجد من غمز من هذه الزاوية من المشركين حول صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أنها توحى إليها وادعوا أنه إنما يأخذها عن بعض أصحاب الأديان الأخرى وبشكل خاص من المسيحيين الغرباء في مكلة ولذلك كان الرد عنيف عليهم عندما قالوا يعلمه بحيرة الراهب أو صهيب الرومي ، حيث كان يشكل تحدي لهم وذلك في قوله تعالى "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" سورة النحل /آية 103.

على أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يعرف على ما يبدو الكثير من الأخبار الدينية التاريخية ، يروي أبو شامة في كتاب الروضتين نقلاً عن السنن لأبي دلول يقول ".... وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى نصبح ما يقوم إلا إلى عظم صلاة".

وهذا دليل على معرفة العرب بقصص وأخبار المنطقة والأمم الأخرى ، وهذا شيء مهم لصحة المصادر التاريخية لأي موضوع من المواضيع المراد معرفة تاريخها.

الخلاصة: أرجو أن أكون قد قدمت لكم كافة المعلومات اللازمة التي تفيدكم في فهم هذا الموضوع.

المصادر:

1- الفهرست لابن النديم.
2- عبد العزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب.
3- أبو شامة / كتاب الروضتين.
4- شاكر مصطفى شاكر / التاريخ العربي والمؤرخين.
5- الطبري/ تاريخ الرسل والملوك.
6- فهمي جدعان / المحنة .

وهنا نطلع على ملاحظة مهمة وهي أن هناك خبر هام من ناحية المعارف التاريخية للعرب قبل الإسلام "أو يذكرون أن قريشاً أرادت التثبيت من صدق رسالة الرسول فأرسلت النظر بن الحارث وهو العالم لديها بعلم الفرس وكتب أهل الكتاب مع عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم إن وردت صفاته في كتبهم (.... فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء) فذهب الرجلان ثم عادا بأسئلة سألاها للرسول وضعها الأحبار لامتحانه ، واثنان من الأسئلة الثلاثة تاريخيان يتعلقان بمعلومات من التاريخ : سألوه عن أهل الكهف وعن رجل طواف الدنيا وفتح العالم وعن الروح. وقد أجاب ذلك جاء في القرآن الكريم عن أهل الكهف "نحن نقص عليك نبأهم بالحق أنهم فتية آمنوا" وعن الرجل الطواف "ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً" وأما الروح فجاء "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي"... وامتحان النبوة بمعلومات من التاريخ يعني قيمة هذه المعلومات فكرياً ودينياً في ذلك الوقت ، ولا شك أنه مع الأخبار التوراتيه والإسرائيليات كانت إذن هناك بعض المعلومات التاريخية أو المعارف المختلطة بها في عصر الرسالة وإشارات القرآن الكريم واضحة في ذلك" انظر ، شاكر مصطفى / التاريخ العربي والمؤرخون ، ص 106.

ونرى أن هذه المعارف أخذت تزيد وتتراكم وتذع حتى بلغت درجة عالية من التراكم في عهد الراشدين ، ثم العهد الأموي بسبب تلك الإشارات خاصة ولما كانت معلومات أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين واسعة في هذه القصص فقد ظهرت جماعة منهم "تتصدى – بعد إسلامها لنشر تلك المعارف والذي يطلق عليهم ابن اسحاق أهل العلم الأول ويذكرون عن وهب بن منبه أنه قرأ من كتب الأنبياء "كتباً يختلف عددها في الروايات بين ثلاثين وبضعة وسبعين أو أثنين وتسعين كتاباً" شاكر مصطفى / المؤرخون العرب ، ص107.

وهذا يعني أن هذه الكتب قد توفرت في البلاد العربية مثل جزيرة العرب والشام والعراق ، في القرن الأول من الهجرة النبوية الشريفة ، ولو أنها على ما يبدو في الأعم كانت بالسريانية والعبرانية ، وأن الكثير من المعلومات في هذه الكتب ، قد دخلت في كتب التاريخ العربي الإسلامي ، وكذلك في علوم الدين تحت اسم خاص بها وهو الإسرائيليات ويظهر ذلك واضحاً مما وجد في أوراق البردى الإسلاميين من أن ترجمة هذه الأمور والنصوص إلى اللغة العربية قد تمت في أواخر القرن الأول الهجري أي أوائل القرن الثامن الميلادي.

وهناك ملاحظة هامة لا بد من معرفتها وهي موضوع دخول تاريخ الأنبياء والأديان والإسرائيليات إلى التاريخ العربي الإسلامي وذلك لكون الإخباريين أخذوها في القرن الأول الهجري والثاني الهجري عن أهل الكتاب ترجمة أو رواياتاً ومن ثم كان أولئك أهم الرواة لهذه الأمور بعد كعب الأحبار وهما وهب بن منبه ومحمد بن كعب القرظي ، ولذلك قد دخلت كثير من الإسرائيليات وقضايا اليهود إلى الثقافة العربية الإسلامية عن هذه الطرق.

وإذا كانت ثمة أدلة على أن الكتاب المقدس ترجم في العصر الأموي إلى اللغة العربية فإنه ليس مجال للشك في أن ترجم في عهد الرشيد العباسي عن أهل الكتاب ، فقد ذكرت المصادر عن المترجم أحمد بن عبد الله بن سلام مولى هارون الرشيد أنه ترجم كما قال عن العبرانية واليونانية والسريانية أخبار الصحف والتوراة والإنجيل والأنبياء ، وأن الذي نقل كان في معظمه أولاً بالرواية المنقولة عن أهل الذمة والذين ما لبثوا أن ظهر منهم في القرن الثالث والرابع الهجريين مؤرخون كتبوا باللغة العربية مواضيع عن التاريخ اليهودي أو المسيحي أو ترجموا الكتب المقدسة إلى اللغة العربية كما هي ، ولهذا أشار ابن النديم إلى كتاب ديوان الأيام وقبة سير الملوك من اليهود وأخبارهم إلى كتاب العبور وهو التاريخ كما أشار إلى ذلك ، وقد ذكر حمزة الأصفهاني كتابي تاريخ لمؤلفين يهوديين مجهولين وإلى كتاب آخر منسوب إلى فنحاس بن باطا العبراني ، وكذلك قد أشار أبو الفداء بين مصادره إلى كتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان لأبي عيسى المغربي أحمد بن علي المنجم من القرن الرابع الهجري.

هذا وهناك عدداً من المؤرخين ذهبوا إلى التوراة بشكل مباشر ليأخذ عنها وذلك لتوضيح أو تأكيد أو إيجاد بعض القصص والروايات لأغراض شتى ، أما النصارى فهم بدورهم كتبوا بعض التواريخ والتي ركزوا فيها على أمور خاصة منها تاريخ الروم ، وتاريخ الكنيسة ، والبطارقة ، وذلك لكونهم كانوا يعتبرون أنفسهم ما يزالون تابعين من الناحية الروحية للإمبراطورية البيزنطية ، وعن هذا الطريق أخذ عنهم لا التاريخ المسيحي فقط ولكن التاريخ الرومي وأيضاً إلى التاريخ العربي الإسلامي.

أما مادة التاريخ الفارسي فإن عناصر منه على الأقل كانت معروفة في مكة في أيام البعثة النبوية الشريفة حديث يذكرون عن النظر بن الحارث بن كلدة البشكري أنه قدم إلى الحرية وتعلم بها كلام من أحاديث ملوك فارس وكلام من أحاديث رستم واسبنديار فكان إذ جلس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، خلفه فيه ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى ، وكان يتهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أنه يأخذ عن أساطير الأولين فيما يقول صلى الله عليه وسلم.

وكان القريشيون يتابعون باهتمام ويصلون فيه إلى درجة الرهان حروب الفرس والروم ولمن تكون الغلبة في هذه الحروب ، كما أن تاريخ الفرس معروفاً في اليمن ، فإن الحملة الفارسية التي وصلت مع سيف بن ذي يزن توطنت في البلاد وولد لها "الأبناء" وليس هناك من شك أن هؤلاء حملوا بعض ثقافتهم وأخبارهم وتاريخهم إلى اليمن.

أما في العراق وفي الحيرة تحديداً فقد كان العرب يخالطون الفرس مخالطة سياسية وتجارية بل وحتى اجتماعية واسعة للدرجة التي جعلت منهم يعرفون الكثير عن الماضي للفرس ومن الوقائع والأحداث التاريخية لهم ولحكامهم الساسانيين.

وهناك نقطة مهمة وهي أن العرب في عهد الخلفاء الراشدين لم يهتموا بمعرفة أو بتدوين ذلك في التاريخ أي التاريخ الفارسي والذي ألفوه ووجوده واستمراريته خلال الفتح العربي لبلاد فارس ، وعلينا أن ننتظر حتى مطالع القرن الثاني الهجري لكي يبدي هشام ابن عبد الملك اهتماماً واضحاً بالتاريخ الفارسي ولكي يأمر بكتابة مؤلف له فيه ذهب ملون ، مصور ، وعلى ورق كبير وفخم لكي ينقل فيه ما في كتاب الفرس من تاريخ الملوك وأحوالهم ، وكلن هذا الاهتمام الرسمي للدول في هذا الجانب والذي مثله اهتمام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، لم يلق إقبالاً ورواجاً كبير من عامة الناس في الدولة العربية الإسلامية اللهم إلى من بعض ممن أسلم من الفرس أو من لم يسلم منهم آنذاك وبعض هذا الاهتمام كان لسبب شعوبي وخصوصاً في الفترة الأخيرة من العصر الأموي ومطالع العصر العباسي والمقصدية هنا النصف الأول من القرن الأول الهجري ، حيث تم ترجمة كتب عديدة عن اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ومن بينها التاريخ الفارسي ، والتي كان أبرزها خداي نامغ ، والتي كتبها ابن المقفع ، ثم كتب الكثير من الرسائل في مواضيع تاريخ الفرس مثل سيرة أزدشير ، وسيرة أنو شروان لمؤلفها أبان اللاحقي ، وكتاب أخبار الفرس ، للهيثم بن عدي ، وكذلك أخبار الفرس وأنسابها لأبي الحسين النسابة.

وعلى الرغم من المؤرخين قد استقبلوا هذه المعلومات باهتمام وقاموا بإدخالها في تواريخهم العامة ، إلا أن اهتمام الناس كان باتجاه آخر أكثر من الاهتمام بالتواريخ وهو الاهتمام بالأدب السياسي للفرس وتناوله لا في كليلة ودمنة فحسب ولكن في كثير من الكتب الأخرى التي شاعت حكمها وأمثالها في كتب العصر وبعده.

أما تاريخ الروم فقد كان آخر المعارف والمصادر التاريخية دخولاً إلى التاريخ العربي الإسلامي وكان طلبه أو الذهاب إليه من قبل المؤرخين لمجرد المعرفة وفي إطار جو الترجمة وتمازج الثقافات خلال القرن الثالث للهجرة ، وعندما تعود إلى ابن النديم حول هذا الموضوع فإننا لا نجد سوى الإشارة إلى ثلاثة كتب حول الموضوع وهذا لا يعني عدم وجود غيرها لكن يعني ندرتها ويمكن أن نقول أن ابن النديم قد فاته عدد آخر من الكتب على ما يبدو ويمكننا أن نعرض بعض هذه الكتب من مصادر أخرى مثل أبو الفرج الأصفهاني والمسعودي وغيرهما آخرون.

أما الكتب التي تم الأخذ عنها تاريخ الروم فهي:

- كتاب الألوف لأبي معشر جعفر بن قدامة توفي سنة 272 هجرية ، وقد اشتهر بضلوعه في علم الفلك والنجوم ، لكن ابن صاعد الأندلسي يذكر عنه أنه كان أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر العجم ،

وأشار إلى ذلك الكتاب أي الألوف المستشرق بروكلمان حيث قال أن في مكتبة باريس الأهلية نسخة خطية من كتاب الأدوار والألوف. وإذا كان ابن النديم قد ذكره أي الكتاب بين كتب النجوم فإنه كان فيه الكثير من تاريخ الروم وغير ذلك ، وكان حمزة المسعودي قد أخذ عنه.

- أما وكيع القاضي وكتابه تاريخ الملوك ، فقد نقله عن ترجمة شفهية لتاريخ ملك من ملوك الروم ، وقد رتب أو تحدث عن التواريخ من ابتداء ملك قسطنطين إلى السنة الواحدة والثلاثمئة من الهجرة.
- أما أخبار اليونانيين من تأليف حبيبي بن بهريز مطران تينوي "الموصل" في أيام الخليفة المأمون العباسي ، مطلع القرن الثالث الهجري ، وهناك أيضاً كتب قبس الماروني وابن الفراش المصري "ابن البطريق" ومحبوب المنبجي وكذلك أثنابوس الراهب المصري ويعقوب الكسركري وأبي زكريا النصراني ، وهناك أيضاً عدا هؤلاء آخرون مثل تاريخ يحيى بن عدي الفراماطيقي النحوي وإن كان في السريانية وكذلك تاريخ هرون بن عزوز وحنين ابن أسحق وإسحق بن حنين وقسطا بن لوقا وغيرهم كثيرين.
- أما تواريخ الأمم الأخرى فلم يتم أخذها مباشرة من تواريخ خاصة بها وإنما أخذ في الأعم الأغلب بشكل غير مباشر على شكل معلومات عامة من خلال كتب الروم والإسرائيليات والزيجات الفلكية أحياناً كثيرة.

المصادر:

1- شاكر مصطفى / التاريخ العربي والمؤرخون.

2- حمزة الأصفهاني/ تاريخ سنن ملوك الأرض.

3- المسعودي/ التنبيه والإشراق.

4- كارل بروكلمان / تاريخ الأدب.

5- ابن هشام / السيرة.

6- حسن /تاريخ الاسلام .

7- الخضري / المحاضرات ،

المؤرخون في العصر العباسي

إن أول بداية لدراسة المغازي للرسول محمد صلى الله عليه وسلم عند العرب المسلمين بدأت في المدينة المنورة وكانت ضمن دراسة الحديث ، ومع أن المحدثين أستمروا على اهتمامهم بالمغازي ، إلا أن قسم أو بعض منهم أخذ منحى آخر وهو الاهتمام والعناية بدارسة حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، بشكل يتعدى الاقتصار على نواحي التشريع ، علماً أن رواد كتابة المغازي ودراستها وتأريخها كانوا من المحدثين ، ونجد هذا مؤيداً من خلال النظرة التي نظر بها العلماء إلى مؤلفي المغازي تؤكد هذا الرأي ، وهذا ما يفسر أهمية الأسناد أو سلسلة الرواة في تقدير قيم المغازي ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة ، وهذا الاتجاه ولد في فترة مبكرة نظرة ناقدة إلى الرواة أو مصادر المعلومات وأدخل عنصر البحث والتحري في جميع الروايات ، وكون أساساً متيناً للمصادر التاريخية ودراستها ومن ناحية أخرى تنوقلت الأخبار والقصص عن المغازي وتوسيع فيها القصص وجعل منه العرب المسلمين أدباً شعبياً لهم ، وعلى الرغم أن بعض هذه الأخبار والقصص وجد طريقة للتاليف والكتابة في بعض كتب السيرة فيما بعد ، إلا أن النظرة إلى الروايات وطرق نقدها بقيت في الأساس تسير على طريقة أهل الحديث وأن الدراسات الأولى لحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سميت بالمغازي وهي تعني من الناحية اللغوية غزوات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وحروبه ، ولكنها في حقيقة الأمر كانت قد تناولت عصر الرسالة بكامله ولقد قام بعض أبناء الصحابة البارزين بهذا الدور من التأليف والكتابة في المغازي وحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن هؤلاء:

إبان بن عثمان بن عثمان رضي الله عنه توفي سنة 98 هجرية 716 ميلادية فهو محدث له ميل لدراسة كتب المغازي ، وعلى الرغم من أن أحد تلاميذه كتب مغازية ، إلا أنها تنصف بأنها من الحديث ولم يذكره كمؤرخ إلا بإشارة بسيطة من قبل اليعقوبي ، فإننا لم نجد من بين المؤرخين من روى أن نقل عنه ، فحين يروى عنه في كتب الحديث وعلما يبد أن أبان بن عثمان يمثل مرحلة انتقال

لكن عروة بن الزبير توفي سنة 94 هجرية 712 ميلادية وهو فقيه ومحدث مشهور كان مؤسس مدرسة المغازي ، إذ أنه أول من ألف كتاباً في المغازي.

حيث وصلت إلينا إشارات ومقتبسات وردت عن بعض المؤرخين مثل الطبري والواقدي وابن اسحاق وابن سيد الناس وابن كثير ، وهذه الإشارات والمقتبسات هي أقدم ما وصل إلينا من تاريخ المغازي ، حيث أنها تتناول جوانب مختلفة من حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل بدء نزول الوحي ، وبعض سرايا وغزوات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والملاحظ عن عروة أنه لم يدخل تفاصيل القتال في المغازي في رواياته ، وقد كتب عروة بعض رواياته ، لكن بعض كتاباته التاريخية هي أجوبة مكتوبة عن أسئلة وجهت إليه من قبل الدولة الأموية ، وقد استعمل عروة الإسناد بشكل يعكس في ذلك نظرة عصره ، ويبدو أنه اعتمد على الأحاديث المكتوبة ، ولكنه قام بتقديم رواية أو قصة رائعة متسلسلة دون أن يذكر الإسناد ، وذلك لكون النظر إلى الإسناد في زمنه كانت ميزته ، حيث لم تكون القواعد والضوابط الدقيقة للإسناد قد ظهرت.

أما أسلوب عروة في التأليف فهو بسيط بعيد عن الإنشاء ، في حين أن نظرته واقعية وصريحة وخالية من المبالغات ، وقد مكنته منزلته الاجتماعية نم الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وبشكل خاص عن السيدة عائشة رضي الله عنها وآل الزبير عائلته وقد حصل على بعض الوثائق ، كما أنه قد ذكر آيات قرآنية تتصل بالحوادث ، وكذلك كان يورد الشعر في بعض الأحيان ، إلا أن هذا ليس نتيجة لأثر أسلوب الأيام ، بل ذلك يعكس حبه للشعر ودور الشعر في تكوين الثقافة.

ولقد امتد اهتمام عروة بالتاريخ إلى عصر الخلفاء الراشدين فتناول مثلاً الردة وحروبها ومعركتي القادسية واليرموك وهذا ما يؤكد اهتمام المؤرخ العربي بأحداث الأمة بشكل مبكر.

"ولنلاحظ هنا أننا إذا أردنا أن نتفهم تطور الكتابة التاريخية يلزمنا أن نلاحظ ، أن الدراسات حتى في المغازي ، كانت أعمالاً جماعية ، وأن فعاليات الأفراد تكون جزءاً من مدرسة ، فكان كل واحد من حملة العلم يضيف دراساته وبحوثه إلى دراسات أساتذته ، وبذلك يحفظ علم المدرسة التي ينتمي إليها ويضيف إلى ما وصل إليه.

وكذلك يقوي وبعض هذا العمل التاريخي من المصادر أو المصدر التاريخي الذي نريد أن نطلع عليه أو الوصول لأحكامه.

ومن كتاب المغازي ومؤرخيها من الرعيل أو الجيل الثاني للمؤرخين نذكر الزهري توفي 124 هجرية 741 ميلادية وهي يعتبر المؤرخ الأول للطبقة الثانية من مؤرخي هذا النوع التاريخ لكن الزهري ، لم يقتصر في رواية للمغازي فقط كما فعل عروة بن الزبير ، بل قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها وكتب كل ما سمعه وتناقله الأخبار ، وقام بتمحص تلك الروايات ووضعها في متني وواضح ، ودراسة رواياته التي وصلت إلينا "تجعلنا نميل إلى أنه كان أول من أعطى ،،السيرة،، وهو التعبير الذي استعمله هيكلاً محدداً ، ورسم خطوطها بوضوح".

أما كيف بدأت خطته للسيرة يذكر بعض المعلومات عن عصر ما قبل الإسلام بالنسبة للعرب وما يتصل منها بحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بشكل خاص ، ثم بعد ذلك يتناول الفترة المكية الهامة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم الهجرة إلى يثرب "المدينة المنورة" وكذلك يتناول في المغازي فتح مكة وذلك بعد وفود السفارات التي أرسلها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحكام والملوك الأجانب أو التي دعاها من خلال العرب إلى الإسلام وكذلك الوفود التي وفدت على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشير على فعاليات الرسول المختلفة ثم مرضه صلى الله عليه وسلم وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

أما ما هي مصادر الزهري عن السيرة فهي جميعاً استقت من الحديث النبوي الشريف ، وذلك لكوننا لم نعثر على أية أثر ولو كان بسيطاً للقصص فيما أرخ وكتب ، "وكما أننا نجد صدى ضعيفاً في مادته لقصص الأنبياء التي اهتم بها كما يبدو" وبالرغم من أن الزهري كان مولعاً بالشعر كما هو حال أبناء عصره ، بل متعمقاً في الشعر لم لكن رغم ذلك كان استعماله للشعر محدود في مغازيه ولذلك نراه بعيداً عن أسلوب الأيام في كتابته.

وكذلك تناول الزهري في دراساته عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً ، حيث تناول بإمعان الحوادث الهامة والمشكلات المرئية التي حدثت في عصرهم ، مثل طريقة انتخاب الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وتأسيس الديوان وجمع القرآن والتاريخ الهجري ، والشورى ، والفتنة ، ومقتل الخليفة الثالث عثمان ، وانتخاب علي بن أبي طالب "رضي الله عنه خليفة للمسلمين" وانتقال السلطة إلى الأمويين "وهو بذلك يظهر أهمية التجارب التي مرت بها الأمة".

ومن جانب آخر كان الزهري عالماً بالأنساب إذ ألف كتاباً في نسب قريش ، كما أن مصعباً يذكره مصدراً في كتابه المعروف نسب قريش. وكان الزهري يقوم بأسناد رواياته وقد اشتهر بقوة إسناده ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه لديه نظرة تمثل عصره ، حيث أنه يعد رواية التابعين أحياناً وافية بشروط الإسناد. "ولكنه أدخل شيء جديداً هو الإسناد الجمعي ، حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل ، وبذلك يسير خطوة مهمة نحوا لكتابة التاريخية المتصلة" انظر عبد العزيز الدور/ نشأة التاريخ عند العرب ص22.

وقام الزهري بخدمة مهمة لدراسة المصادر التاريخية إذ أنه كتب رواياته بصورة منظمة وبذلك يعتبر الزهري هو أول من فعل ذلك وقد وجدت له مؤلفات عديدة في خزانته الكتب عن الخلفاء الأمويين ، والتي فيها روايات يقال أنه أجبر على كتابتها فهي صدى لمناقشات مستفيضة لها بعد عدة عصور من كتابتها.سوف نعرج على أبرز تلامذة الزهري واللذين لهم شهرة في مجال كتابة تاريخ المغازي وأبرز هؤلاء هم ثلاثة الذين ساروا على خطى الزهري من بعده وأول هؤلاء هو:

1- سوسن بن عقبة الأسدي المدني والذي روى المغازي تاريخ الخلفاء الراشدين وكذلك تاريخ الخلفاء الأمويين حيث أخذ عن الزهري ، كما استخدم في مصادره أيضاً كتب عبد الله بن عباس وكانت حمل بعير على ما تذكر الروايات ، وكذلك نقل عن ابن سعد وابن اسحاق كما نقل عنه الواقدي والبطري ، وكان من تلاميذ مالك ابن أنس حيث يوثقه "كيداً بابن اسحق" ويقول ابن أنس عن سيرته "أنها أصح سير" وحقيقة الأمر أن ابن عقبة تميز بفكر تاريخي منهجي منظم سمع له ، وهو يبحث عن مغازي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك أخبار الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والدولة الأموية أيضاً.

وتميز عقبة بما يلي:

أ- أنه يفكر بوضع قوائم بأسماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين هاجروا إلى الحبشة ، أو المشاركين في بيعة العقبة وغيرهم.

ب- أن يضع هو أيضاً كما فعل ابن حزم ، مادته التاريخية في تسلسل زمني حولي ، وهكذا قدمت مدرسة المدينة بعمل هذين المؤرخين أهم الخدمات لتطوير وتدوين التاريخ وتثبيت أهم مصادره والتي أخذ يعمل بها الخلف من بعدهم.

أما كتابة المغازي أي كتاب ابن عقيوبة فقد لقي الكثير من الاهتمام فيما بعد لدقته واستيفائه واستخدامه من قبل الكثيرون أمثال أبو النعيم الأصفهاني والذي كتب بخطه فاستخدم هذه النسخة نفسها بعد قرنين من الزمن ياقوت الحموي ، وكذلك جمع قطعة منه ابن قاض شعبة الأسدي الدمشقي والذي توفي سنة 789 هجرية المصادف 1387 ميلادية ، ثم جاء ابن حجز العسقلاني فاحتفظ لنا في كتاب الإصابة بقطع من هذه المغازي تزيد على ما يقارب 225 قطعة وهي التي تمثل القسم الأكبر منها.

أما ابن عبد البر فقد اختصرها في كتابه الدرر أي اختصر المغازي والسير ، وكذلك ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر ، وتوجد إلى اليوم قطعة مخطوطة في متحف برلين.

2- أما المؤرخ الآخر والذي يعتبر من أهم مصادر المغازي وهو تتلمذ أيضاً على يد الزهري وهو معمر بن راشد البصري ولد هذا المؤرخ في صنعاء ، حيث انتقل من البصرة إلى اليمن ولم يرتحل إليها قبله أحد من المحدثين ، وكانت حركة وتنقله بين البصرة في العراق وصنعاء في اليمن ، والتي أصبح من خلالها صلة الوصل بين المدرستين أي مدرسة العراق التاريخية ومدرسة اليمن التاريخية ، رغم أن مدرسة اليمن أقل مستوى من مدرسة العراق حيث هي من مصاف المدارس الصغرى وهذا ما سوف نأتي ثم استقر بشكل نهائي في صنعاء حتى وفاته فيها ، وقد كتب كتاباً في المغازي نقل

فيه عن الزهري وكذلك عن أهل الكتاب ثم نقل عنه الواقدي والبلاذري وأيضاً ابن سعد والطبري ، وهناك ملاحظة وهي أن معمر ابن راشد لم يرتب مادة كتابه الترتيب الزمني ، كما فعل معاصره ابن عقبة إلا أنه اتبع الترتيب الموضوعي على غرار ما فعله هو نفسه في علم الحديث فإنه يعتبر من أوائل المحدثين والذين رتبوا الأحاديث في أبواب ومواضيع ، وعلى ما يبدو أنه لم يقتصر على سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب ولكن أضاف سير الأنبياء الآخرين ، وتدلنا المقتطفات التي أخذها الطبري عنه إلى أنه أدخل الكثير من قصص أهل الذمة المتعلقة بالرسل على السيرة ، والمعروف عن ابن سعد أنه أخذ أخباره عن طريق تلميذ معمر ابن راشد عبد الرزاق بن همام المتوفي سنة 211 هجرية 826 ميلادية والذي كتب بدوره كتاباً في المغازي حيث يذكره ابن النديم في فهرسه ، ولربما يكون هذا الكتاب قد أخذه عن استاذه مع إضافة التعليق عليه ، وقد عرفنا قطعة من كتاب معمر على رق شديد القدم محفوظ في المعهد الشرقي بشيكاغو وقامت بنشر النص الباحثة نبيهة عبود ، كما أن هناك قطع قد وصلتنا هي الأخرى للكتاب ما تزال مخطوطة في بعض المتاحف الإسلامية والعربية مثل استانبول والرباط ودمشق ، أما نسخة استانبول فهي على رق من جلد الغزال نسخت سنة 363 هجري المصادف 973 ميلادية في طليطلة في الأندلس.

3- أحمد بن اسحق المطلبي فهو من أبرز وأهم الثلاثة وعمود مدرسة المدينة المنورة في حفظ وتدوين المصادر والكتاب التاريخية ولد حوالي سنة 75 هجرية وتوفي سنة 151 هجرية وتعتبر الكتابة التاريخية قد بدأت معه وقد كتب أقدم سيرة نبوية محفوظة الآن برمتها. جده يسار كان من سبي عين التمر في العراق وهو أول سبي وصل المدين المنورة في حروب التحرير والفتوح ، وقد تقص محمد الأخبار في هذا البلد من أهله فيذكرون منه وحده أكثر من مائة راو كما روى ، وعن أهل الكتاب والموالي والأعاجم وعن الآيات والحديث والوثائق ومن القصص الشعبي العربي ومما رواه وهب بن منبه عن اليمن "فمصادر معلوماته كثيرة التنوع وتبلغ 114 شيخاً وكان هذا التقصي خلق له بعض المصاعب ، فقصد العراق في مطلع حكم المنصور وأهداه مغازيه التي كان كتبها في المدينة وسمع منه أهل الجزيرة والري حيث ظهر الكثير من رواته ولم يرو عنه أهل المدينة إلا القليل لأن عداء مالك بن أنس له واتهامه إياه بالدجل جعلهم يتحرجون من أمر توثيقه ، وقد جمع المستشرق فوك قائمة من 15 تلميذاً لابن اسحق معظمهم عراقيون وجزيريون ومن الري". انظر شاكر مصطفى / التاريخ العربي والمؤرخون / ص160-161.

أما الواقدي فكان له تلميذ هو محمد أبو عبد الله محمد بن سعيد بن منيع البصري الزهري ، ولد في البصرة سنة 168 هجرية 789 ميلادية وتوفي سنة 230 هجرية 945 ميلادية في بغداد عاصمة الخلافة العربية الإسلامية وهو ابن مولى من المدينة يلتحق ولاء بآل العباس ، عاش فترة من الزمن في المدينة ثم انتقل منها بين

مدن أخرى وقد تعرف في بغداد على الواقدي والتصق به وبالغرم من أنه درس على شيوخ آخرين كثيرين فإنه ظل على الارتباط بهذا الشيخ حتى آخر حياته.

وصلته الكبيرة بالواقدي لم تعطه فقط لقب كاتب الواقدي ولكنها أيضاً سمحت بن النديم صاحب الفهرست ، أن يقول أنه ألف كتبه من تصنيفات الواقدي ولكنه لا يذكر له في الوقت نفسه إلا كتاب أخبار النبي ، ويظهر أن هذا الكتاب ليس غير القسم الأول من كتاب ابن سعد المعروف بالطبقات الكبرى مع أننا نجد أن هشام الكلبي ، كان مصدر ابن سعد المباشر في تاريخ اليهود والنصارى كما استفاد من سيرة ابن اسحاق ومن كتاب نسب الأنصار لعبد الله بن محمد بن عمارة توفي سنة 200 هجرية فتلاميذ ابن سعد رووا عنه أخبار النبي محمد صلى الله عليه وسلم وطبقات الصحابة على أنهما كتابان وقد حفظت الطبقات على صورتها المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم وقد أشرنا إلى هذا في محاضرة سابقة ، ثم جمع ابن معروف الكتابين حوالي سنة 300 هجري مشكلاً منها كتاباً واحد تؤلف سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم القسم الأول من الكتاب.

وابن سعد آخر مؤلفي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى وثاني مؤلف بعد ابن اسحاق وصلنا كتابه عن السيرة والطبقات كاملاً ولم يأتي بعده مؤلف يأتي بجديد فيها ، أما أسلوبه التاريخي رغم أنه يحمل الملامح التي يحملها السابقون إلا أنه تميز بملامح خاصة ايضاً.

مصادر معلوماته تعتمد بخاصة على الواقدي وكان يعطي أحياناً تفاصيل أوفى منه ولا سيما في الفترتين المكية والمدنية للدعوة النبوية وعلى هشام ابن محمد بن السائب الكلبي ، فيما يتعلق فيما روي عن أهل الكتاب وعلى الوثائق فهو يكثر منها ، أما مصادره الأخرى فقد صدر المغازي بقائمة تحوي أهم رواته كما صدر كتاب الطبقات بقائمة أخرى وقد تميز منهجه بالعرض بتنظيم المادة وإلغاء الملاحظات الشخصية وإسناد كل قول إلى مرجعه وذكر الوثائق بنصوصها والاستشهاد بكثير من الشعر.

ولا يحمل مفهوم السيرة عند ابن سعد شيئاً كثيراً ، مما وراءها فقبل الإسلام لا يحتل إلا مجالاً ضيقاً فقط ، ولا مكان للرسالات الأخرى عنده ، وعنايته بالصحابة والتابعين وأحوالهم جرته إلى العناية أيضاً بالصحابيات والتابعات وقد خصص الجزء الثاني كله من طبقاته لهن.

ولإكمال الصورة لعلنا نستطيع أن نضيف أخيراً مولين آخرين من مؤلفي السيرة في الشام بعضهم عاصر ابن سعد بعض المعاصرة وبعض تأخر عنه قليلاً ، وإن كان كتاب ابن سعد عنهم غني أحياناً أمثال هؤلاء محمد بن عائد الدمشقي وذلك سنة 233 هجرية 817 ميلادية وعبد الله ابن محمد بن علي النفلي الحراني سنة 234 هجرية 848 ميلادية وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري الدمشقي سنة 280 هجرية 894 ميلادية ، إن هؤلاء هم الذين يشكلون بقية

تلك الجمهرة الواسعة التي عملت على حفظ السيرة وتنظيمها وإشاعتها بين الناس في الشام وبجانب علمها في حفظ الحديث أو بسبب من عملها في حفظ الحديث.

المصادر:

1- شاكر مصطفى / المصدر الأول / التاريخ العربي.

2- عبد العزيز الدوري / نشأة في علم التاريخ.

3- ابن الأثير / الكامل في التاريخ.

4- أبا الفداء / المختصر في أخبار البشر.

5- ابن النديم / الفهرست.

الوزارة في المغرب و الأندلس

ومهما كانت التقسيمات فالواقع لن يكون عند المرابطين مجلس للوزراء ، وإنما كانت عندهم هيئة استشارية تتكون من طائفة من الفقهاء والأعيان والكتاب. أما أهم الدواوين في المغرب العربي في تلك الفترة فهم ديوان الرسائل أو الإنشاء ، ويرأسه موظف كبير يعرف بالكاتب ، ولا يبعد ان يكون هناك دواوين مختلفة وعديدة يقوم بالإشراف عليها كاتب يقوم مقام الوزير ، وصلاحيات الوزير هنا محددة وعمله مقيد أي يمكن أن نسميها وزارة تنفيذ على عكس وزارة التفويض في عهد العباسيين والفاطميين وكذلك الحاجب في الأندلس.

ولم يكن في دولة المرابطين ما يطلق عليه رئيس الوزراء أو الوزير ، لأن السلطة كانت محصورة في يد أمير المسلمين نفسه ، وذلك لكون الدولة المرابطية كان تقوم على مشورة الفقهاء والذين هم على مذهب الإمام مالك ابن أنس أكثر ما تقوم على السياسة.

الوزراء في عهد الأمويين في الأندلس

لم يكن لقب الوزارة موجوداً في الدولة الأموية في الأندلس كما هو الحال في مشرق الوطن العربي الإسلامي بل كانت تطلق كلمة الحاجب على من ينقلوا الوزارة أو هو شائع الاستعمال تارة يطلق عليه لقب الوزير وتارة أخرى الحاجب.

وعليه فإن اسم الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب الخليفة أو السلطان من عموم الناس من الخاصة والعامة ، كما هو الحال عند الأمويين قبل سقوط دولتهم وبعد ذلك العباسيين في المشرق ثم الفاطميين في مصر ، وإنما المقصود هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف فالحاجب كما يقول ابن خلدون في هذا الأمر أنه مشابه على عمل رئيس الوزراء اليوم أي الحاجب ويتولى رئاسة الوزراء والحكومة.

وقد وزعت مهام رئيس الوزراء كما نسميه اليوم على مجموعة من كبار الموظفين في الدولة للاستعانة بهم في تسيير أمور الدولة ، ويختار الأمير أو الخليفة من هؤلاء الموظفون الكبار يسميه الحاجب ويعين وزيراً للمالية وزيراً للرسائل ووزيراً للمظالم وكذلك وزيراً لمتابعة أحوال أهل الثغور وهكذا.

ولكي تكون الأمور مرتبة ومنسقة صار لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينفذون أوامر الخليفة أو السلطان كل حسب اختصاصه ودائرة عمله ، واختير أحدهم للتردد على الخليفة أو الأمير وكذلك النيابة عنه في أي وقت

وعرف هذا الشخص باسم الحاجب ، واستمر الحال هكذا حتى وصل الأمر إلى ملوك الطوائف ، فأصبح اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس ملوك الطوائف ويختص بهم ، وغدا الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين.

ولم يكن مجلس الوزراء أو مجلس الحاجب هو الذي يدير شؤون الدولة والحكومة ، بل كان هناك إلى جانبه مجلس آخر يمس مجلس الشورى وهذا المجلس يكون برأسة الخليفة أو الأمير ، أما فتكيله فتتكون من كبار رجال الدولة وبعض أمراء البيت الأموي في الأندلس.

وكان أول من لقب بذي الوزارتين هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد في زمن الخليفة الأموي في الأندلس عبد الرحمن الناصر وذلك لجمعه بين عملي السيف والقلم ، ونتيجة لهذا تم مضاعفة راتبه وقد يقوم هذا الرجل في بعض الأحيان بواجبات الحاجب إذا أصبحت هناك أعمال كثيرة بعهدة الحاجب.

ولم تكن الوزارة في عهد الأمويين في الأندلس حكراً على المسلمين فقط بل كان يتقلدها غيرهم من أهل الذمة كما فعل ذلك عبد الرحمن الناصر عندما عين حراي بن شيروط وزيراً وبعث به سفيراً إلى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة "أوتو".

وتغير دور الحاجب من تغير وضع الدولة الأموية في الأندلس ، وذلك قوة أو ضعفاً وعرفاه دورة عندما كانت الدولة الأموية قوية ، لكن الوضع تغير بعد ضعفها ، حيث ازداد نفوذ الحاجب ، حتى أصبح الخليفة ليس له حول ولا قوة في أمور الدولة بل الحاجب هو الذي يسيطر على الأمور ، وخير مثال لنا على هذا الحال هو المنصور بن أبي عامر الذي تخلص من جعفر المصحفي وخلفه في كرسي الحجابة ، والذي أصبح بدوره الحاكم المطلق للدولة الأموية في الأندلس ، حتى دعي له في المنابر وضربت السكة باسمه بعد الخليفة وكذلك نقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء.

القضاء في الأندلس

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس كما كان في غيرها من البلاد العربية الإسلامية ، وكان الأمير أو الخليفة هو الرئيس الأعلى للقضاء ، وذلك لكون هذه الوظيفة متعلقة بالدين وكان قاض القضاة يسمى قاض الجماعة كذلك لأنه يقيم في حاضرة الدولة وكان هناك شروط للقاضي وهي:

1- أن يكون متبحراً في الفقه.
2- مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة.
3- أن يكون عربياً خالصاً.

ولكن القاعدة الأخيرة أو الشرط الأخير كان يخترق بين فترة وأخرى بحيث كان للقضاء بعض الموالي والمولدون والبربر ، ومثالنا على ذلك بن يحيى الليثي قاض قضاة الأندلس ، وهو كان من أصل بربري ومن قبيلة معمودة وكان قاضي الجماعة يختار على الأعم الأغلب من قضاة الأقاليم الأندلسية والذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة.

وكان قاض الجماعية يقيم بقرطبة عاصمة الدولة الأموية في الأندلس ، ويعين من قبل الأمير او الخليفة ، أما الأقاليم فكان ينوب قضاة يسمى كل واحد منهم مدد خاص.

أما مصادر التشريع في الدولة الأموية في الأندلس فهما القرآن والسنة النبوية الشريفة ، ويسير القضاة في الأندلس والمغرب وفق مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه وإلى يومنا هذا ، وينفذ أحكام القضاة هم الحكام والولاة.

وهناك اختصاصات أخرى للقاضي منها الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو مسجد الزهراء والذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء وكذلك الدعاء في صلاة الاستسقاء ، وكان يسمى القاضي بـ "صاحب الصلاة" حتى فرق عبد الرحمن الناصر بين مسؤولية الصلاة "إقامة الصلاة" بحيث أفرد لها شخص آخر ولقضاة القضاء شخصاً آخر.

أما المظالم:

أما محكمة المظالم فهي بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا ، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاض إذا اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل ، وكان الغرض الأساسي من إنشاء محكمة المظالم وهو وقف تعدي وتجاوز أصحاب الجاه والحسب والنفوذ ولهذا السبب كانت المظالم لم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يسمى قاضي المظالم.

ولأهمية المظالم خصص لها ديوان خاص بها سمي بديوان المظالم ويسمى رئيس هذا الديوان بـ "صاحب المظالم" وسلطاته أوسع بكثير من سلطة القاضي.

أما الكيفية التي تعقد فيها محكمة المظالم فانعقادها يتم تحت رياسة الخليفة أحياناً أو الوالي أو ينوب عن أحداهما ويعين صاحب المظالم يوماً محدداً يقصد فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى ، أما إذا كان صاحب المظالم لم يكلف بمهمة أخرى فإنه ينظر للمظالم على طول أيام الأسبوع.

وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات أو خمسة لجان أو مستشارين ، ويكون مجلس المظالم قد عقد وانتظم وكمل نصاب عمله بحضور هؤلاء الجماعات وهم:

1- الحماة والأعوان.
2- الحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها.
3- الفقهاء والذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من مسائل.
4- الكتاب يقومون بتدوين أقوال المتخاصمين.
5- الشهود وهؤلاء يثبتون أو يقولون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافي العدل.

ولقاضي المظالم اختصاصات ومن هذه الاختصاصات فهي:

1- النظر في الشكاوي والقضايا التي يتقدم بها الأفراد أو الجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق الصواب والعدل والإنصاف ، وكذلك عمل الخراج إذا أشتطور في جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا لم يكونوا دقيقين في إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.
2- النظر في المظالم التي تحلق بصحاب الأرزاق إذا ما نقصت أرزاقهم أو تأخر دفعها.
3- تنفيذ ما يعجز القاض عن تنفيذه من الأحكام.
4- مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد.

المصادر:

1- حسن ابراهيم حسن / تاريخ الإسلام.

2- ابن خلدون / المقدمة.

3- الخضري/ نفح الطيب.

4 حسن أحمد محمود / قيام الدولة المرابطة.

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها. وما يتمتع به كل منهم بالحرية. ثم وصف البلاد ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة. ووصف المنازل وما فيها من أثاث وشراب ولباس وما إلى ذلك من مظاهر المبحثين ، وكان الشعب في أواخر العصر العباسي الأول يتألف من عدة عناصر:

وهي العرب والفرس والمغاربة وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسية في عهد الخليفة المعتصم والذي اتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس ، فأصبح الأتراك خطراً يهدد الخلفاء أنفسهم. حتى أن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تآمرهم.

على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضي (322 - 329 هجرية) إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة وإلى الخلفاء أخرى.

ولما انتقلت السلطة إلى بني بوية قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذي كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم في إقرار نفوذهم. ووقع بنو بوية فيما وقع فيه العباسيون من قبل ، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة بينهم وبين الأتراك واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار مداداة الديلم والتودد إلى الأتراك. لكن بختيار ، على الرغم من استعانته بالأتراك ، لم يسلم من شرهم فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش في عصر بني بوية يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراعنة وغيرهم من المرتزقة.

وكان من أثر انقسام المسلمين في هذا العصر على شيع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع فهناك النيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة في عهد نفوذ الأتراك وفي عهد أمرة الأمراء وهناك الشيعيون الذين قاسوا كثيراً من العنت والاضطهاد حتى استولوا بنو بنوية على العراق ، فتمتعوا بشيء غير قليل من الطمأنينة في ظل البويهيين المتشيعيين ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعيين والسنيين فضرب يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد ابن علي زين العابدين ابن

الحسين بن علي ابن أبي طالب
وحبس في بغداد سنة (335 هجرية) ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويين الذين لجئوا إلى مصر.

ومع ذلك أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق ، ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة وقد خرج يحيى بن عمر العلوي على الدولة الدولة العباسية ولكنه قتل في عهد المستعين سنة (250 هجرية) كذلك ثار بطرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واستولى عليها وعلى جرجان ، وحكم البلاد عشرين سنة (250 – 270 هجرية) إلى أن مات فخلفه أخونه وكان يدعوان إلى الرضا من آل محمد ثم خلفه الحسن بن علي الحسني المعروف بالأطروشر بيد أن الشيعيين انتعشوا في عهد بني بوية وأصبحوا يقيموا شعائرهم في شيء كثير من الطمأنينة ، وإن كانت مساكنهم لم تتعدد المكان المحيط بسوق الكرخ غربي بغداد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري. وسنة (349 هجرية) قامت فتنة بين العامة في بغداد وتعطلت صلاة الجمعة في مساجد السنيين على حين أقمت في مسجد براثا الشيعي.

ولم تلبث هذه الفتنة أن سكنت بعد أن اعتقل معز الدولة جماعة من السنيين وفي السنة التالية احتفل الشيعيون بيم عاشوراء الذين جعلوه من أيام الحزن عندهم وفي الثامن عشر من ذي الحجة من هذه السنة احتفل الشيعيون بيوم غدير خم وأمر معز الدولة بإظهار الزينة في بغداد فرحاً بعيد الغدير وضربات الدبارب والبوقات ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنيين والشعيين وحدهم. بل تعداه إلى بعض السنيين وبعض. فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها.

حتى أنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبري سنة (310) هجرية لأنه جمع كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد ابن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء كما رأينا كيف بلغ من تشددهم في الدين أن قاموا في وجه ذوي اليسار وكسروا أواني الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين. ذكر السيوطي أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة (318 هجرية) لاختلافهم مع غيرهم من السنيين في تفسير قوله تعالى "على أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" فقال الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه وقال غيرهم بل هي الشفاعة واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة مع خصومهم.

ومن طباق الشعب طبقة الرقيق وكانت مصر وشمالي إفريقية وشمالي جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود وقد جلب إلى العراق كثير من الزيجات اللائي عرفن بكثرة النسل كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور. وكثر الزنج في العراق وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربعة عشر سنة (255 – 270 هجرية) وكلفت الدولة العباسية الكثير من الأموال والدماء.

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهن المغنيات وارتفع ثمنهن. وقد قيل أن ابن رائق اشترى حول سنة (325 هجرية) جارية مولدة موصوفة بحسن الغناء بأربعة آلاف دينار وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس في القرن الرابع الهجري ، وتخريب الثغور الغربية ، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي من الرقيق وهو بيزنطية وأرمينية.

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمعون العلماء ، الأتراك والديلم والأكراد الذين قاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر ، وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع العربي الإسلامي في العصر العباسي الأول. إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً؛

وكانت سمرقند التي كانت تعد من أكبر أسواق بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة يعيشون منها؛

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء. لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب حتى أنهم كانوا يفضلونهم أحياناً على العربيات الحرائر.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة وهم النصارى واليهود وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ويقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة.

وقد أوجبت الحاجة على المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من التسامح بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادهم ويأمروا بحمايتهم.

وكان للنصارى بطريق يعينه الخليفة بعهد خاص كما يعهد لكبار العمال ويطلق عليه اسم "الجاثليق النسطوري" أي رئيس المسيحيين الشرقيين ، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته ، وكذلك عومل بطريقة اليعاقبة.

أما اليهود فكان لهم رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب الملك ، ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال ، بخلاف ما كان عليه الحال بالنسبة إلى النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب على بيت المال مباشرة ، ويطلق على رئيس اليهود في بغداد "رأسي الجالوت" وقد امتد نفوذه إلى اليهود المقيمين في البلاد الواقعة شرقي الفرات وبلغ عدد اليهود في البلاد العربية الإسلامية (300.000) ولكما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود ففي همذان مثلاً بلغ عددهم ثلاثين ألفاً وفي أصبهان خمسة عشر ألفاً وفي شيراز عشرة آلاف وفي غزنة ثمانين ألفاً وفي سمرقند ثلاثين ألفاً ويظهر أن عددهم كان ضئيلاً في بلاد الشام ،

وخاصة في أثناء الحرب الصليبية ، حتى أن عددهم في الحي الخاص بهم في بيت المقدس لم يتجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ما ذكره بنيامين وشخصاً واحداً على ما ذكره بتاحيا.

أما في دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف ، وفي حلب خمسة آلاف ويقول المقدسي أنه كان بخراسان "يهود كثرة ونصارى قلة" ويقول عن بلاد الجبل "اليهود به أكثر من النصارى" وفي القرن الرابع الهجري اعترفت الدولة العباسية بالمجوس الذين لم يكن قد تم التغلب عليهم في البلاد البعيدة ، لتمسكهم في دينهم وتقاليدهم وكراهيتهم للإسلام بأنهم أهل الذمة مما كان لليهود رئيس ديني يلقب بألقاب الملوك ويدفع له أبناء نحلته الضرائب كما يفعل اليهود ، وكان منصبه وراثياً وقد كثر عدد المجوس في القرن الرابع في العراق وجنوبي فارس.

المصادر:

1- حسن ابراهيم حسن/ تكريم الإسلام.

2- أدم متز / الحضارة الإسلامية.

3- المقدسي / أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

4- المسعودي / مروج الذهب.

القضاء في العصر العباسي

القاعدة الأولى – المولى

وهو مصر الولاية ، أي رئيس الدولة (الخليفة) فتقليد القضاء من قبله من الواجبات الأساسية لمنصبه ، لأن القضاء ، كما عده ابن خلدون من وظائف ومندرجا في عمومها.

ففي الدولة العربية الإسلامية تنحصر سلطة تعيين القضاء في الخليفة وحده ، وإذا كانت ثمة جهات رسمية تمارس هذه السلطة فنيابة عن رئيس الدولة (أي الخليفة) وتخويلاً منه. وذلك لأن المصادر أوردت ما يشير إلى أن ولاة الأمصار مارسوا صلاحية تعيين القضاء وعزلهم كما مارسها في قاض القضاة وبعض الوزراء في ذلك العصر. إلا أن هذه الممارسات كانت بتخويل من الخليفة ورضاه ، "والمصادر لا تذكر إلا حادثة واحد تساهل فيها الخليفة في ممارسة هذا الحق ، فتم تعيين أحد القضاء دون رض (وهذا القاض هو أبو العباس ابن أبي الشوارب) ضمن المنصب من معز الدولة بمبلغ (200.000 درهم) ، دون أن يستطيع الخليفة أن يفعل شيئاً لكنه أمر بعد سنين بنقض جميع أحكامه واعتبر جميع سجلاته العدلية لاغية ، لأن تعيين القضاة لا يصح إلا من جهته" انظر الدكتور عبد الرزاق الأنباري، النظام القضائي ، ص190.

القاعدة الثانية المولى

وهو القاض المعين من قبل السلطة التشريعية ، لأجل فصل وحسم الدعاوي الواقعة بين الناس وفق أحكام الشريعة السمحاء ، ويشترط في تعيين القاض أن يكون رجلاً ذا قدرة عقلية تمتاز بحدة الذهن والفطنة ، كما اشترطوا فيه الحرية والإسلام والعلم بالأحكام ، إضافة إلى سلامة الحواس.

القاعدة الثالثة العمل

المقصود بالعمل هنا تحديد النطاق والمكان الذي يمارس فيه القاضي صلاحياته ، فرئيس الدولة الخليفة ، عندما يبعث قاضياً إلى مكان محدداً مثلاً يقول له قلدتك قضاء الكوفة ليكون مجال عمله معلوماً.

القاعدة الرابعة – النظر

والمقصود بهذا أن يمارس القاض السلطة في الحكم فلا بد له أن ينظر في دعاوي الناس لكي تكتمل مقومات ونظره هذا إما أن يكون عاماً ينتهل جميع الأحكام وهي النظر في حقوق الأملاك وفي أموال الأوقاف والوصايا وفي شؤون موظفي مجلسه ، وإقامة الحدود ، والحكم بالقصاص ، إما أن يكون نظره خاصاً ، كأن يقلد النظر في دعاوي الديون دون غيرها أو الحكم في نصاب مقدار من المال لا يتجاوزه ، مثلاً على هذا ما ذكره أبو عبد الله الزبيري توفي سنة 317 هجرية 929 ميلادية قال لم يزل الأمراء عندنا في البصرة يستقضون على

المسجد قاضياً يسمونه قاض المسجد يحكم فيما بين 200 درهم فما دونهما ويفرض النفقات ولا يتصدى بها موضعة ولا ما أقدر له.

القاعدة الخامسة العقد

ولا بد لصحة وسلامة النظام القضائي في توفر العقد بين المولى أي أنس الدولة العربية الإسلامية والمولى القاضي ، ليمارس الثاني مسؤولياته وفقط عقد. والذي يتضمن أربع شروط:

1- مقدمة العقد فيها أن يكون المولى عارف بتكامل شروط القضاء في المرشح لهذا المنصب ليصح العقد.

2- صفة العقد: ويتحقق هذا بذكر لفظ التقليد وصيغة يقول مثلاً وليتك ، قلدتك ، عهدت إليك ، مع حضور المرشح شخصياً أمام رئيس الدولة (الخليفة) أو من ينوب عنه.

3- صفة العقد: يشترط أن يكون لفظ العقد صريحاً مثل (قلدتك القضاء) أو (استخلفتك على القضاء) مثال على ذلك نذكر أن الخليفة هارون الرشيد كان إذا أراد تقليد أحدهم ، أرسل إليه طالب حضوره أمامه ، فإذا حضر ولاه القضاء ، فلما ولى عبد الله بن أدرسي الأودي قضاء الكوفة قال : إن أهل بلدك طلبوا مني قاضياً ، وسموك لي فيمن سموا ، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وصالح ما أدخل فيه من أمر الأمة ، فخذ عهدك وامضي.

ويشترط في "اللفظ" ذكر البلد الذي يتولاه وصفة الحكم من عموم وخصوص ، وأخيراً قبول المرشح الترشيحة ، كقوله: قبلت ، أو قد تقبلت فيتم العقد" انظر ، عبد الرزاق الأنباري ، النظام القضائي ص 161.

4- لزوم العقد: إذا تم العقد صار ملزماً للقاضي والناس الذين يحكم بينهم فعليهم قبول ولايته ، والالتزام بتنفيذ أحكامه لأن لزوم طاعة أهل البلد شرطاً في صحة التقليد.

"وهذه المسألة ، رضا الناس وطاعتهم في الاحتكام إلى قاض الدولة الرسمي ، في العراق ، لم أجد في مصادر خروجاً عنها إلا مرة واحدة ، فقد رفض أهل بغداد المعتز له وقالوا ، لا يلي علينا إلا من نرضى به ، فكتب الخليفة المتوكل العهد مطلقاً ليس عليه اسم أحد وانفذه من سامراء مع أحد رجالات الدولة ، وقال له : أحضر الناس وأقراء العهد فإن رضوا به قاضياً فوقع في الكتاب اسمه فلما قدم بغداد صاح الناس : ما نريد غير الواهبي فوقع في الكتاب اسمه وحكم من وقته في الرصافة "والمقصود هنا بالواهبي هو القاضي عبد السلام بن عبد الرحمن (ت 249هـ/863م) وكان على قضاء الرقة ، ثم أراده أهل بغداد على قضاء الرصافة فاستجاب الخليفة للطلب" انظر عبد الرزاق الأنباري.

والآن قد عرفنا القواعد التي يشترط توفرها في الدائرة القضائية لكي تكسب صفة النظام ، وكان من المستحسن أن يعطي رئيس الدولة أي الخليفة أو من ينوب عنه أن يعطي القاضي كتاب عهد لكي يكون له دليل عمل ، وبرهاناً على ولاية يدخل فيه القاضي المدينة ، فيقرأه على الناس ، في المسجد الجامع ، لكي يشهر ولايته ، ويعلم الناس حدود صلاحياته ويفضل أن يحكم بعد هذا ولو بين خصمين لتستقر قواعد وظيفته ويعلم كذلك الناس مقدار علمه.

وسلطات الأمراء في الأمصار مثل البصرة – الكوفة – والفسطاط والمدينة وغيرها سلطات واسعة لا يشاركهم فيها أحد سوى القاضي ، فللقاضي سلطة القضاء والحكم من الخلافات التي تظهر حول القوانين ، لكن الخلفاء والأمراء كانوا ينظرون غالباً فيما يتعلق بالقانون العام أما القضاة فكانوا ينظرون في القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية ، من مواريث ، وزواج ، أو طلاق ، أو ما يتعلق بشؤون اليتامى والأرامل ، أو المعاملات في الأسواق حيث أن السلطة القضائية في الإسلام يمارسها من يتولى الخلافة ، لأن القضاء من وظائف الخلافة متدرج في عمومها ، وقد مارس الخلفاء هذه السلطة بأنفسهم في حاضرة الدولة العربية الإسلامية (العاصمة) كما كتبوا إلى قضاة الأمصار أحكاماً قضائية معينة كان على القضاة تنفيذها والالتزام بها.

حيث كان السلطة القضائية في الدول العربية الإسلامية بين قطبين:

الأول: الأمير.

والثاني: القاضي.

ومن المعروف أن سلطة الأمير تفيض سلطة القاضي ، فهو مثل الخليفة ومنفذ القوانين التي تصدرها الدولة ، والمسؤول المباشر عن حفظ النظام والأمن في المصر لأن سيادته الدولة في الأمصار والأقاليم التابعة للدولة العربية الإسلامية تتمثل بالأمير ، ومما زاد في صلاحياته ونفوذه هو أن تعيين القاضي وعزله كانا من اختصاصه ، فالأمير لم يكن مجرد حكم بين الناس ، بل كانت له سلطة عليا لا يتمتع بها القاضي ولا غيره ، وقد عبر شريح قاض الكوفة عن هذه السلطة عندما ذكر : أن الأمير في الكوفة يأمر فيطاع ، والروايات التاريخية في هذه الفترة تشير وتؤكد ارتباط القاضي الأمير (كانت ولاة البلدان إليهم القضاء يولون من أرادوا وكان يركب القاضي مركباً ولا يذهب في حاجة إلا استأذن أمير البلد ، لا، يطيب له الرزق) نقلاً عن الأنباري ، عبد الرزاق.

المصادر:

1- الدكتور عبد الرزاق الأنباري ، النظام القضائي.

2- ابن الجوزي / المنتظم.

3- ابن حزم / الأحكام في أصول الأحكام.

4- الخطيب البغدادي / تاريخ بغداد.

إن تداخل سلطة الأمير مع القاضي في اختصاصاته لربما أربك المؤسسة الإدارية في الدولة العربية الإسلامية وفي الأمصار بشكل خاص ، مما دفع الأمر للقائمين عليه أن يتلافى هذا الموضوع في قضية التداخل الإداري وإرباك العمل في الأمصار التابعة للدولة العربية الإسلامية في عصر الخلفاء العباسيين.

فكانوا أن عهدوا للأمير بالقضاء أو للقاضي بالإمارة توحدت المؤسسة القضائية في المصر ، وجعلها تكتسب قوة وقدرة على التنفيذ في كثير من الأوقات كما كانت تناط مسؤولية الإمارة والقضاء بشخص واحد وكذلك الشرطة مما يكسبه قوة مركزاً مؤثراً بشكل كبير في الإدارة وتصريف الأمور "ففي سنة 110 هـ ولي خالد بن عبد الله على العراق ، فجمع الصلاة بالبصرة ، مع الشرطة والقضاء إلى بلال بن أبي بردة ، لا ريب أن الصورة الحقيقية والصادقة لسلطة القاضي والأمير معاً إنما تتجلى أكثر واقعية في الأمصار نفسها ، وليس في كتب الفقهاء" انظر الدكتور عبد الرزاق الأنباري.

ولعلنا نطلع على ما يجري من أحداث في الأمصار يقول الدكتور عبد الرزاق الأنباري "عين أياس بن صبيح المعروف بأبي مريم الحنفي قاضياً حتى توفي عتبة بن غزوان وهو الذي ولى أبا مريم الحنفي ، فلم يزل قاضياً حتى توفي عتبة بن غزوان ، وولي المغير بن شعبة فأقر بأمر أبا مريم على القضاء ، غير أنه ثم أمر بعزله لأنه صالح بين متخاصمين في دينار غرمه هو من ماله.

ولفترة قصيرة مارس أمير البصرة المغيرة بن شعبة القضاء في البصرة إلى أن اختار عمر كعب بن سور الأزدي فكان أول قاض على البصرة استقضاه خليفة".

أما في ولاية كعب بن سور على البصرة تورد المصادر معلومات عن لجوء العرب المسلمين وغير المسلمين إليه لفصل الحكم بينهم فكانوا يترافقون في قضاياهم إليه فإذا أراد أن يستحلف المسيحيين فإن كعب بن سور كان يأتي به المذبح ، ويضع على رأسه الإنجيل ويستحلفه بالله اما إذا أراد أن يستحلف يهودياً قال لأعوانه (أدخلوه الكنسية وضعوا التوراة على راسه واستحلفوه بالله الذي أنزل التوراة على موسى).

لو رجعنا إلى هذه المعلومات لوجدناه كما يقول الدكتور عبد الرزاق الأنباري "أن هذه المعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة ، فهي تؤكد أن القاضي العربي كان ينظر في دعاوي الجميع وفي عهد مبكر سواء كان ذلك في البصرة أو الكوفة ، وهي تؤكد عدالته فإلا الأحكام وإلا لما اختاروا جميعاً يحتكمون لعدالته".

وهنالك ظاهرة بارزة في قضاء البصرة وهي أنهم يذهبون لقاضي الكوفة ويشاورونه عن بعض القضايا والخصومات التي تحدث بين الناس ويلوح فيها الغموض وعدم الوضوح ، كما وأنهم كانوا في أحيان كثيرة يذهبون للتحكيم خارج القضاء ويرتضون له ، فإذا أبى أحد الخصمين الانصياع لقرار التحكيم كتب القاضي إلى صاحب الشرطة لينفذ قرار التحكيم.

واشتهر من قضاة البصرة إياس بن معاوية بن قرة المزني ، والذي تولى القضاء في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وقد شغلت أحكامه وفراسته في القضاء جانباً كبيراً من كتاب أخبار القضاء لو تبع وصارت أحكامه دلائل لتثبيت كثير من أراد الفقهاء وأحكامهم الشرعية حتى يمكن أن نعده هو وشريح القاضي قاضي الكوفة منه أبرز واهم من ساهموا في إغناء التشريع بالأحكام القضائية والتي امتازت على غيرها من أحكام الفقهاء بالتطبيق العلمي في ميدان القضاء الفعلي.

"لقد حكم إياس في قضايا تتعلق بالحدود والقصاص وكاد مجلس قضائه في المسجد الجامع في البصرة كما قضى في السوق ، أما طريقته للنظر في الدعاوي ، فقد رتبها حسب حضور الخوصم من سبق إلى مكان أحق به ، وأجلس عليه ، فإذا قام فجلس عليه آخر فهو أحق به ، وكان راتبه 100 درهم شهرياً" عبد الرزاق الأنباري ، مصدر سابق.

وفي أواخر الحكم الأموي قامت في البصرة اضطرابات الإدارة القضائية ، وكان هذا الأمر نتيجة طبيعية لاضطراب الأمور ، منها عزل القضاة المستمر من قبل الولاة ، وكان آخر القضاة على القضاء على البصرة هو القاضي عباد بن منصور الذي جمعت له الصلاة والأحداث إضافة للقضاء ، واستمر الوضع على هذا الحال إلى سنة 120 هجرية 744 ميلادية والأحداث : هو قوة عسكرية مدربة تمزج بين الأسلوب العسكري والمدني تحافظ على الأمن في البصرة وينظم لها الشباب على شكل متطوعة للعمل على حماية مدينتهم.

أما في العصر العباسي وهو مجال محاضرتنا هذه فقد تغير الأمر ونشطت الدائرة القضائية من جديد فقد أصبح تعيين القضاة يصدر من الخليفة بشكل مباشر ، حيث يعين الخليفة العباسي أو جعفر المنصور سنة 140 هجرية المصادف 757 للميلاد سوار أول من تشدد بالقضاء وعظم أمره ، واتخذ الأمناء وأجرى عليهم الارزاق ، وقبض الوقوف وأدخل الأوصياء والأمناء وطول السجلات ، وضم الأموال المجهولة الأرباب وسماها الحشرية (والمعروف أن الأسناد كانوا من بين موظفي القاضي يأتمنهم في الحفاظ على أموال اليتامى ، حيث تطور النظام القضائي في الدولة العربية الإسلامية على عهد العباسيين إلى الحكم وهم يعلنون ويتعهدون أنهم سيحكمون بما أنزل الله ويعملون بما في كتابه وأن تكون سيرتهم في العامة والخاصة سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

"وقد تأثرت المؤسسات القضائية أكثر من غيرها بالسياسة الجديدة للعباسيين ، وهذا أمر طبيعي فإذا كان العباسيون ورثة بيت النبوة ، الراغبين في إحياء السنة وأقامة العدل فالقضاء هو الميدان العلمي لتطبيق هذه

السياسة وقد ظهر اهتمامهم وعنايتهم به منذ وقت مبكر فقد عظم شأن القضاة وقوي مركزهم منذ عهد الخلفاء العباسيين الأول ، الذين ما أن ظفروا بالملك حتى اشتدوا في شأن القضاء وتخيروا للوظائف الشرعية صدور العلماء".

وقد حدد الخليفة العباسي المنصور أربعة ذو شيء لا يصلح بهم الملك وهؤلاء:

1- قاضي لا تأخذه الله لومة لائم.
2- صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوي.
3- صاحب الخراج.
4- صاحب البريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة وقال مرة أخرى ، الذي علي للرغبة أن أختار قضاتهم وأعزلهم بالحق كي لا يصل ظلم بعضهم إلى بعض وأن أرفع أقدار فقهائهم وعلمائهم.

وقد وضع الدكتور عبد الرزاق الأنباري مظاهر التطور القضائي في الدولة العباسية في جملة أمور منها:

1- سلطة تعيين القضاة.
2- محاولة تغيير التشريع.
3- منصب قاضي القضاة.
4- ظهور طبقة الشهود العدول.
5- ظهور مهنة المحاماة.

وسوف نتحدث عن ظهور مهنة المحاماة:

إهن التطور الأخير في النظام القضائي في الدولة العربية الإسلامية في ظل العهد العباس هو ظهور وظيفة جديدة في المحاكم لم تكن موجودة في العصور التي سبقت في الدول العربية الإسلامية قبل مجيئ العباسيينن وتلك الوظيفة هي وظيفة المحاماة ، حيث أخذت المصادر تورد لنا منذ العصر العباسي الأول مهمة أسماء عدد كبير من الوكلاء (أي المحامين) تولى مهمة الدفاع عن موكليهم في المحاكم التي كانت تقام في عموم الدولة العربية الإسلامية في العهد العباسي. أو ذلك لقاء أجر متفق عليه بين الطرفين أي الموكل والوكيل.

حيث أخذ هذا العرف يتطور منذ عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد إذا أقيمت دعوى على شخص أن يحضر المحكمة هو أو يوكل عنه وكيلاً ينظر خصمه ، حيث توجد قوائم بأسماء هؤلاء الوكلاء الذين ترافعوا أمام القضاة في الدول العربية الإسلامية في العصر العباسي ، وما تقاضوه من أتعاب أو أجور جراء ما قاموا لهم من توكيل عن المتخاصمين ، وهذه الظاهرة ، أي ظاهرة المحاماة هي ظاهرة حضارية متقدمة جداً كان المبدع الأول لها العقل العربي في عصر ازدهار الدولة العرية الإسلامية.

المصادر:

1- الدكتور عبد الرزاق الأنباري.

2- ابن جري / محمد ابن أحمد ، كتاب القوانين الفقهية.

3- الباجي ، سليمان بن خلف / كتاب الحدود في الأصول.

4- ابن الشحنة ، ابراهيم بن أبي اليمن الحنفي / لسان الحكام في معرفة الأحكام.

مراسيم الخلفاء العباسيين

فاقت مواكب الخلفاء العباسيين مواكب الخلفاء الأمويين في جانب الروعة والبهاء ففي أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة ، حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة ، ثم أن الخليفة ممتطياً جواد شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة ، وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق مرصعة الجواهر النفيسة ، وكان الخليفة العباسي الهادي هو أول من أدخل هذا النظام في الدولة العربية الإسلامية على عهد العباسيين ، إلا أن الخليفتين الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان للبساطة والتواضع ، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين ، ومن مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلاة.

أما من أعظم مواكب خلفاء بني العباس فهو موكب الحج ، حيث يجتمع أهل بغداد من الحجاج والحجاج الذين يأتون إلى بغداد في طريقهم للديار المقدسة من الأمصار الشرقية الإسلامية التابعة للدولة العربية الإسلامية ، وخاصة أهالي العراق وفارس وخراسان والمناطق الأخرى ، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكساء والطعام الذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ومعهم مجموعة من الجنود لحراستهم ، ويسير في مقدمة هذا الموكب هوادج وهي التي توضع على ظهور الإبل تركب فيها إما النساء أو الشخصيات المهمة البارزة في الدولة للحماية من الحر والبرد والمطر ، يعلوها قباب مزوينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحج.

ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء وهي:

الأول: جمع الناس في مسيرتهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا.

الثاني: ترتيبهم في المسير والنزل وإعطاء كل طائفة (أي مجموعة) منهم قائداً حتى يعرف كل فريق قائده إذا سار ، ويألف مكانه إذا نزل فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه.

الثالث: أن يرفق بهم في المسيرة حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم.

الرابع: أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجربها وأوعرها.

الخامس: أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت.

السادس: أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم داعر ولا يطمع فيهم متلصص.

السابع: أن يمنع عنهم ما يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج ، بقتال إن قدر عليه أو ببذل المال إن أجاب الحجيج إليه.

الثامن: أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً إلا أن يفوض الحكم إليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز حينئذ الحكم بينهم فإن دخلوا بلد فيه حاكم جاز له ،

ولحاكم البلد أن يحكم فأيهما حكم نفذ حكمه ولو أن التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد.

التاسع: أن يقوم زائغهم ويؤدب فاتنهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد.

والعاشر: أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن الفوات ولا تلجئهم ضيقة الوقت إلى الحث على المسير ، فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته ، فإذا كان الوقت متسعاً عدا بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف ، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفاً من فواتها فيفوت الحج بها.

فمن أدرك الوقوف بها في شيء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك الحج وإن فاته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر فقد فاته الحج ، وعليه إتمام ما بقي من أركانه وجبرانه بدم ، وقضاؤه في العام المقبل إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه ، ولا يصير حجه عمرة بالفوات ، ولا يتحلل بعد الفوات إلا بإحلال الحج ، فإذا قضى الناس حجهم أمهلهم لأيام التي جرت بها لاعادة في إنجاز علائقهم ولا يرهقهم في الخروج فيضير بهم ، فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم رعاية لحرمة وقياماً بحقوق طاعته ، ثم يكون في عودة بهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما التزمه في صدرهم ، حتى يصل بهم إلى البلد الذي سار بهم منه فتنقطع ولايته عنهم بالعودى إليهم.

ويقول نخلة المدور "ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة ، وقد غصت بالناس المواقف وضاقت بهم المساحات ، ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض ، قد استرسل عليه الفضة في الحلية الثقيلة ، وهو جالس في هودج مزين بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة ، وفي الأخرى الخاتم وعليه جبة وش من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية ، يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبير سلمى بأربعين ألف درهم ، وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأيلة لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار ، واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين ، وأما لفيلة فإنه لم يسبق لأحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب... وأنه إنما اتخذها له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها ، وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها إذا كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها ، وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التي يطعنها حريمه وأهل بيته ، وفيهم موسى ابن المهدي حاجاً ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود".

وقد سن الخليفة العباس المهدي سنة كسوة الكعبة في كل عام ، فإنه لما قدم مكة وزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ، وألبسها كسوة جديدة من الحرير إذ خاف أن تنهدم لكثرة من عليها من الكسي ،

التي ألبسها هشام بن عبد الله الأموي ، فأصبح ذلك سنة أتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي هي سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام ، وأما البلد الذي اختص بصناعة هذه الكسوة فهي مصر ومنذ ذلك الوقت لما تمتاز به الصناعة المصرية وخاصة في جانب الأقمشة من الدقة والرصانة والروعة فلذلك كان يكلف بها المصريون أو ولاية مصر لصناعة كسوة الكعبة المشرفة وأصبح هذا تقليد سنوي في موسم الحج تبدل الكسوة سنوياً وإلى الوقت الحاضر.

أما حياة بعض الوزراء والأمراء فهي كانت حياة بذخ وهذه الحالة أو الظاهرة ابتدأت مع العصر العباسي الأول حيث يعيش هؤلاء عيشة قوامها البذخ والإسراف فهذا يحيى بن خالد البرمكي قد بلغ من كرمه وجوده وبذخه وإسرافه وكذلك عطائه الذي أصبح بالوصف ، أنه كان إذا ركب أعد بدراً (أي جراباً) في كل منها مائتا درهم أو طريقه في يقفون للذين بإعطائها يقومون ، يتلمسون سؤاله لقضاء حاجاتهم ، وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالا ، فقال خال: : أني استقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر فسماهم الزوار ، وكان خالد أول من سماهم بذلك فقال له بعضهم والله لا أدري أي أياديك عندنا أجل ، أصلتنا أم تسميتنا ، ولهذا اشتهروا البرامكة كما أسلفنا هذه صورة من المواكب في عهد العباسيين والتي ملئها العز والقوة والشموخ العربي والإسلامي.

الخلاصة: أرجو أن أكون قد قدمت لكم كافة المعلومات اللازمة التي تفيدكم في فهم هذا الموضوع.

ملاحظات حول فتح العرب لإسبانيا

لا شك أن موضوع فتح العرب لإسبانيا ، موضوع مطروق ومعروف من قديم " وقد لاحظ ذلك الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب (توفى سنة 776 هـ - 1374 م) حينما قال (1) " وحديث الفتح وما من الله به على الإسلام من المنح " وأخبار ما أفاء الله من الخير على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد لطارق بن زياد ، مملول قصاص وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعظم امتشاش (2) ، وآلة معلقة في دكان قشاش ! (2)

والواقع أنني لست الآن بصدد كتابة تاريخ لهذه الفترة ، وإنما هي مجرد ملاحظات عدت لي من خلال قراءاتها لكتب التاريخ التي أرسخت لهذا الفتح العربي الكبير وقد حصرت هذه الملاحظات في النقاط التالية : -

أولاً - نشأة البحرية العربية وأثرها في فتح المغرب والأندلس .

كان احتلال المسلمين الأوائل للشام طعنة نافذة في جسم الإمبراطورية البيزنطية شعارتها إلى شطرين : الإمبراطورية الأم في آسيا الصغرى وما وراءها ، ثم الولايات التابعة لها مثل مصر وإفريقية .

ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الإمبراطورية إلا البحر المتوسط ، ولهذا لعب هذا البحر دوراً هاماً في محاولة . إنقاذ الإمبراطورية على يد البيزنطيين ، وفي محاولة تصفيتها على يد المسلمين (1) .

فكلا الفريقين ركب البحر ليعلو خصمه ، وكان النصر بعد ذلك حليف العرب ، لأن إرادة التغيير المنبثقة من روح الدين الجديد قد أشعرتهم بذاتهم التي كانوا غافلين عنها ، ودفعتهم إلى تلك الحركة التوسعية التي

شملت الشام ومصر وإفريقية وما يليها غرباً كنتيجة حتمية أقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية . ولم يلبث المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ، أن وجدوا أنفسهم مطلين على البحر المتوسط من شواطئ طويلة تمتد من طرسوس شمالاً إلى برقة وتونس جنوباً " ويواجهون أعداء الداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هذه الشواطئ الإسلامية .

لهذا أدرك المسلمون قيمة البحرية كسلاح حربي مضاد ، فأخذوا في إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافئ الممتدة على طور هذه الشواطئ مثل صور وعكا وطرابلس ودمياط ورشيد وتنيس والاسكندرية ثم برقة وتونس .

كذلك لجأوا إلى تحصين السواحل بالقلاع والمراقب والمناور ، كما عمدوا إلى نقل أهالي البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية ، ومنحوهم فيها الإقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة ، وتعمير هذه البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة أخرى .

فيروى البلاذري أن معاوية نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك إلى أنطاكية ، كما نقل قوماً من زط البصرة إلى السواحل ؛ وأنزل بعضهم أنطاكية (1) .

كذلك يؤثر عن معاوية أنه اعتمد على القبائل الكلبية اليمنية في العمليات البحرية في الشام لما عرف عنها من طاعة وتنظيم ، ولأنها كانت تفوق منافسيها من القبائل القيسية في هذا المضمار (1) . كذلك اعتمد على القبط المصريين الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها التي ثبت أنها أفضل بكثير من السفن التي تشد بالحبال (2) .

ولقد سار الأمويون على نفس هذه السياسة عند تعمير سواحل إفريقية ، وفي هذا المعنى يروي البكري عند كلامه عن تأسيس مدينة تونس ، أن الخليفة عبد الملك بن مروان (79 هـ - 84 هـ / 668 - 703م) كتب إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس . وكتب إلى حسان بن النعمان أمير المغرب يأمره أن يبني لهم دار صنعة تكون قوة وعدة المسلمين ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر ، وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغاروا منها على ساحل الروم . وقد نفذ حسان أوامر الخليفة وأنشأ هذه القاعدة الحربية الإسلامية الجديدة التي عرفت بميناء تونس والتي صارت تخرج منها أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر المتوسط ، وهكذا أصبحت إفريقية مركزاً بحرياً إلى جانب الشام ومصر (1) .

هذا ويفهم من كلام المؤرخين المعاصرين سواء أكانوا عرباً أو بيزنطيين ، أن سياسة التوسع العربية التي قام بها الأمويون في شمال أفريقيا ، كانت تهدف في أساسها إلى غزو صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل البحر الإدرياتي ودالمسيا ، أو بعبارة أخرى غزو الإمبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب إلى جانب الحملات التي كانت سائدة عليها من ناحية الشام وآسيا الصغرى من جهة الشرق ، لكي يتم للمسلمين بذلك تطويق القسطنطينية وخنقها .

ويبدو أن أباطرة البيزنطيين قد أدركوا أهداف السياسة العربية بدليل أنهم بذلوا مجهودات لحماية هذه الأجزاء الغربية من الإمبراطورية لدرجة أن بعضهم مثل الإمبراطور قسطنطين الثاني خليفة هرقل ، اضطر إلى اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهي ترك عاصمته القسطنطينية سنة 42هـ سنة 662م والإقامة في روما وصقلية كي يعمل على تقوية وسائل الدفاع عن هذه الأجزاء الغربية من الإمبراطورية في حوض البحر المتوسط ، أو كما يقول هو نفسه لحماية الأم قبل حماية البنت ، ويعني بذلك حماية روما أو الملك ومركزه ، فهي أعظم من القسطنطينية بطبيعة الحال . وظل هذا الإمبراطور يعمل على مقاومة الخطر العربي إلى أن اغتيل بيد أحد قواده في مدينة سرقوسة شرقي صقلية سنة 668 م .

وخلفه ابن قسطنطين الرابع الذي سار على نفس سياسة والده في مقاومة غارات الأساطيل العربية (1) .

ولقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة الهامة ، وأشاروا إليها في كتبهم ، ومثال ذلك قول ابن الأثير في كلامه من جزيرة صقلية : ، وعمرها الروم من جميع الجهات ، وعمروا فيها الحصون والمعاقل ، وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما صادفوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم .

ثم يضيف في موضع آخر : " وكان الروم قد حصنوها وأنشأوا فيها أسطولاً كانوا يهاجمون به مراكب المسلمين وقطع البحر عنه (2) ، على أن هذه الاستعدادات الحربية العظيمة التي قام بها البيزنطيون في ممتلكاتهم الغربية وفي جزيرة صقلية بوجه خاص لم تحل دون تصميم المسلمين على غزوها وغزو غيرها من جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط : فيروي ابن الخطيب أن أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين إليها من قبل الخليفة عثمان رضي الله عنه ثم معاوية بعده ، الأمير معاوية بين حديج الكندي سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها ثم بعث إليها معاوية ، رحمه الله ، عبد الله بن قيس الفزاري ، ففتحها وغنم وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة مكللة بالجوهر ، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان فرأى أن يبعها قائمة أكثر ثمنها فبعثها إلى الهند فأنكر الناس عليه ذلك إنكاراً شديداً (1) .

كذلك يروي ابن عذاري رواية غريبة تفيد بأن الأندلس دخلها عبد الله بن نافع بن عبد القيس ، وعبد الله بن الحصين ، الفهريان ، من جهة البحر في زمن عثمان وأن ذلك كان سنة 27 هـ . وهذه الرواية – " إن صحت " – فإنها تدل على قوة البحرية الإسلامية في هذه الفترة المبكرة (2) .

على أن الذي يهمنا في هذا الصدد ، هو أنه لما تولى التابعي المشهور موسى بن نصير إمارة إفريقية سنة 85 هـ " تبنى مشروع غزو صقلية وما يليها غربا من جزر الأعداء في حوض البحر المتوسط فاهتم موسى في بادئ الأمر بتحديد وتوسيع دار الصناعة بتونس التي أسسها حسان بن النعمان من قبل كما أمر بصناعة مائة مركب فيها (1) ثم أخذ يوجه حملات بحرية بعيدة المدى إلى صقلية وسردانية والجزر الشرقية أو جزر إليليا – (ميورقة ومينورقة ويابة) .

ويفهم من كلام ابن قتيبة أن موسى وجه حملتين إلى صقلية : الأول كانت سنة 85هـ سنة (704 م) ، وفيها أمر الناس بالتأهب لركوب البحر وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا ، ثم شحن فلم يبقى أحد إلا أن يرفع ، دبا برمع فعقده لولده عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم ، وأمره ثم أثمره أن يرفع من ساعته . وإنما أراد موسى مما أشار من مسيره أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسقيت غزوة الإشراف .

ثم سار عبد الله بن موسى في مراكبه فأصاب في غزوته تلك صقلية ، فافتتح مدينة فيها فأصاب ما لا يدري ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة ثم انصرف قافلاً سالماً (2) .

أما الحملة الثانية على صقلية فكانت في سنة 86 هـ (705 م) ، عقد موسى قيادتها لصاحب شرطته عياش بن أخيل الذي أغار على مدينة سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالماً غانماً . (1)

أما عن حملة موسى على جزيرة سردانية فيجعلها ابن قتيبة في سنة 89هـ (807 م) ثم يقول : " وقام عبد الله بن مرة بطالعة أهل مصر على موصى في تسع وثمانين ، فعقد له موسى على بحر أفريقية فأصاب سردانية وافتتح مدائنها " فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والحرث وغيره (2) .

أما عن حمله موسى على الجزر الشرقية أو جزر البليار ، فروايات المؤرخين تشير إلى أنها كانت في نفس تلك السنة (89 هـ) وأنها كانت بقيادة موسى بن نصير نفسه أو ابنه عبد الله ثم عادت إفريقية محملة بالغنائم والأسرى .

ويبدو أن حاكم أو ملك جزيرة ميورقة البيزنطي كان من هؤلاء الأسرى بدليل أن المراجع التي تحدثت عن عودة موسى إلى المشرق أشارت إلى أن موسى اصطحب معه في هذه الرحلة ملك ميورقة وعشرين ملكاً من ملوك جزائر الروم ومائة من ملوك الأندلس . . . الخ . (1)

هذا ويضيف ابن قتيبة أن والي مصر عبد العزيز بن مروان ، وجه حملة بحرية إلى جزيرة سردانية بقيادة عطاء بن نافع الهذلي (7) ، فأرسى في طريقه بميناء سوسة وأخرج إليه موسى الأسواق ، وكتب إليه : " إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام ، فأقم ولا تغزو بنفسك فإنك في تشرين الآخر (نوفمبر) ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر . غير أن عطاء لم يلتفت إلى نصيحة موسى ، وأبحر في مراكبه إلى الجزيرة المذكورة ، وأصاب فيها مغانم كثيرة وأشياء عظيمة ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف قرب شواطئ إفريقية ، وغرق عطاء وأصحابه ، وقذفت الأمواج بعض المراكب ، ومن نجا من البحارة ، فأدخلهم دار الصناعة بتونس (3) .

وعلى الرغم من أن المراجع المعاصرة لم تحدد لنا الوضع السياسي الذي كانت عليه كل من جزيرة سردانية وجزر البليار في القرنين السابع والثامن الميلادي ، إلا أن أغلب المؤرخين الأوروبيين يؤكدون بأنها لم تابعة لحكم القوط في أسبانيا ، وإنما كانت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية ، وأن حكام هذه الجزر استطاعوا بمرور الوقت أن يتمتعوا بشيء الاستقلال الذاتي (1) .

ولعل هذا الرأي يفسر لنا مدى اهتمام المسلمين بمثل هذه الغارات البحرية ، التي كان هدفها الأساسي منذ البداية ، هو تصفية ممتلكات وقواعد الدولة البيزنطية في حوض البحر المتوسط قبل المضي في غزو إسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فإن النصوص السابقة تبين لنا بوضوح أن موسى ابن نصير لم يكن قائداً برياً فحسب ، بل كان أيضاً قائداً بحرياً خبيراً بشئون البحر وأجوائه وتقلباته ، وأن نفوذه في حوض البحر البحر المتوسط كان قوياً بفضل أساطيله وقواعده البحرية التي امتدت من مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، هذا فضلاً عما كان يوجد تحت يده من الموارد اللازمة لبناء السفن ، كالحديد والأخشاب التي ما زالت توجد بكثرة كموارد طبيعية في بلاد المغرب .

ومن هذا نرى أن موسى بن نصير كان لديه من الإمكانيات ما يجعله يفكر في غزو روما أو القسطنطينية ، إما عبر صقلية وإيطاليا ، كما فعل حديثاً القائد الإنجليزي ، مونتجمري في الحرب العالمية الثانية ، وإما عبر أسبانيا وأوروبا كما فعل قديماً القائد القرطاجني هانيبال . وقد يؤيد ذلك تلك التصريحات التي أدلى بها موسى فيما بعد ، مثل قوله " أما والله لو تقادوا غليه " لقدتهم إلى روسيا ثم يفتحها الله على يدي إنشاء الله . " (1) وقوله : " تالله لو ساعدتموني ، لسرت بكم حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية العظمى وافتتحها بإذن الله . " (2)

ومن الطريف أن بعض المؤرخين أمثال ابن بشكوال وابن سعيد والمقري نسبوا إلى الخليفة عثمان بن عفان تصريحاً مماثلاً يقول فيه بأن فتح القسطنطينية أو رومية إنما يكون من قبل الأندلس (3) .

وهذا التصريح وإن كان يبدو سابقاً لأوانه من الناحية الزمنية ، إلا أنه يدل على أن فكرة القضاء على الدولة البيزنطية من هذه الجهات الغربية كانت مختمرة في أذهان المسلمين قبل عهد موسى بن نصير كما سبق أن أشرنا .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يتضح لنا مما تقدم أن موسى قد استطاع بفضل قوته البحرية ، أن يشل حركة الأسطول البيزنطي في غرب حوض البحر المتوسط ، وأن يتجنب بذلك الخطأ الذي وقع فيه عقبه بن نافع منذ عشرين سنة بالحصول على أسطول مماثل ليحمي ظهره وجناحه مما أدى إلى مصرعه (1) . وهكذا استطاع موسى بفضل سياسته البحرية الحكيمة أن يقدم بكل اطمئنان على فتح أسبانيا بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته من خطر البيزنطيين .

ثانياً – التخطيط لفتح أسبانيا :

إذا تصفحنا كتب التاريخ التي تناولت الفتوحات العربية ، نلاحظ أنها أحاطت هذه الفتوح بهالة من الخيال والتنبؤات ، ونسبت إلى المسلمين وقوادهم أعمالاً خارقة للبشر ، لأن العناية الآلهية كانت معهم تنقذهم وترعاهم رغم قلتهم ، وتقودهم إلى النصر دائماً كما لو كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات (2) .

والحقيقة إن هذه الصورة ، لا تنطبق على الواقع التاريخي ، لأن القيادة العليا للمسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها ، فلم تقدم على أي عمل حربي ، إلا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة ، حفظاً لأرواح المسلمين .

وكما كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة عمر بن الخطاب مع كبار قواده في اجتماع الجابية سنة 18 هـ ، كذلك كان فتح المسلمين لأسبانيا نتيجة لخطة موضوعة أيضاً ، أقرها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق ، باتفاق مع قائده على المغرب موسى بن نصير . وفي ذلك يقول عريب بن مسعد : " فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك إما مراسلة وإما نهض إليه بنفسه ، على خلاف في ذلك ، فأشار عليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين " .

وتنفيذا لأوامر الخليفة ، قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب أسبانيا لجس النبض ، فاستدعى في بادئ الأمر حليفة ومحرضه على غزو أسبانيا الكونت يوليان حاكم منطقة سبتة وقال له : " إننا لا نشك في قولك ولا نرتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين ملكك روذريق حمية الجاهلية وإنفاق الدين ، فجز إليه بنفسك وشن الغارة على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ، وإذ ذاك تطيب

النفس عليك ، ونحن من ورائك إن شاء الله . فانصرف يوليان وحشد جيوشه ، وجاز في مركبين إلى الأندلس ، وشن الغارة على الساحل الجنوبي ، فسبا وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيراً ، وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو (1) " .

ولك يكتف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان ، بل استدعى ضابطاً من ضباطه يدعى طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبي زرعة (2) ، وأمره بشن الغازي على ساحل إسبانيا الجنوبي ، فعبر طريف المضيق في مائة فارس وأربعمائة راجل ، وذلك في رمضان سنة 91 هـ (يوليه سنة 70 م) ، وهناك في المكان المعروف باسمه حتى اليوم tarifa ، نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبياً ومالاً كثيراً ورجع سالماً (3) ، فتبين لموسى أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الإسبانية كان صحيحاً ، فيعد جيشاً كبيراً من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس ، بقيادة قائده طارق بن زياد (1) نائبه على طنجة .

من هذا نرى أن فتح المسلمين لأسبانيا ، لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية ، بل كان فتحاً منظماً حسب خطة موضوعة من قبل .

ثالثاً – عبور المسلمين إلى أسبانيا :

من المسائل الهامة التي نلاحظها في كتابات المؤرخين القدامى والمحدثين ، هي مسألة عبور جيوش المسلمين إلى أسبانيا . إذ يفهم من كلامهم أن الجيوش الإسلامية التي بعث بها موسى بن نصير إلى الأندلس سواء بقيادة طريف أو طارق ، كانت جيوشاً برية فقط ، وأن موسى اعتمد في نقلها عبر المضيق إما على مراكب للكونت يوليان (2) ، وإما على مراكب تجار الروم التي كانت تختلف إلى الأندلس (1) ، وأن الكونت يوليان هو الذي تولى عملية نقلهم في كلتا الحالتين . والواقع أن هذه الروايات تبدو غريبة من حيث الواقع التاريخي ، إذ أنها لا تتفق مع سياسة الدولة الأموية بوجه عام . ولا مع سياسة الخليفة الوليد بن عبد الملك بوجه خاص ، التي تقوم على عدم المغامرة بأرواح المسلمين في البحر أو البر إلا بعد اتخاذ الاحتياطات الحربية التي تكفل سلامتهم ، مثل إنشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وإرسال البعوث والسرايا قبل القيام بهجوم حربي .

والأحداث التاريخية السابقة لهذا الغزو الإسلامي لأسبانيا تشهد بصواب هذا الرأي ، خصوصاً بعد أن تبين لنا مدى إمكانيات موسى بن نصير وخبرته وبلائه في حوض البحر المتوسط .

والرأي الصائب في نظرنا هو أن موسى اعتد في فتح أسبانيا على أساطيله العربية التي كانت تحت قيادته ورهن إشارته على طول الساحل المغربي ، إذ لا يعقل أن تكونه أربع سفن فقط كافية لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف (2) محارب عدا الخيل والعباد . كما أنه لا يعقل كذلك أن يعهد موسى إلى شخص أجنبي – مهما خلصت نيته – بمثل هذه العملية الحربية الخطيرة التي تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف من المسلمين .

وعلى الرغم من أن النصوص التي لدينا لا تساعدنا للأسف في تدعيم هذا الرأي ، إلا أنها مع ذلك تعطينا إشارات متفرقة تعبر عن النشاط البحري الذي بذله كل من موسى وطارق استعداداً لفتح أسبانيا . ومن أمثلة هذه العبارات :

" ووجه موسى بن نصير مولاه طارقاً إلى تلمسان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه (1) " .... " وذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقاً مولاه إلى طنجة وما هنالك فافتتح مدائن البربر وقلاعها ثم كتب إلى موسى إنني قد أصبت ست سفائن ، فكتب إليه موسى أن أتمها سبعاً ثم سيرها إلى شاطئ البحر واستعد لشحنها (2) " . . " ومضى طارق لسبتة وجاز في مراكبه (كذا) إلى جبل فأرسى فيه فسمي جبل طارق باسمه إلى الآن (3) " وأمر موسى طارقاً بالدخول فحشد (بياض ولعله السفن) فلما دخل السفن مع أصحابه . . . " (4) " فاختلفت السفن بالرجال والخيل وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع فنزله طارق والمراكب تختلف . . . (1) " فلما استقرت لموسى القواعد ولم يبق بالبلاد من ينازعه ، كتب إلى طارق يأمره بغزو الأندلس ، فامتثل طارق أمره ، وركب البحر إلى الجزيرة الخضراء (2) ، هذه العبارات وأمثالها وإن كانت قد وردت متناثرة في روايات مختلفة ، إلا أنها تحمل في طياتها نشاطاً واستعداداً بحرياً واعتماداً على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح العظيم .

رابعاً – معركة جبل طارق

من الملاحظات الهامة التي تأخذها على الرواية الإسلامية بصفة عامة ، أنها لم تهتم بوصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد على الساحل الأسباني ، فقد أجمع معظمها وفي اختصار شديد على أن طارق قد حط في الجبل المنسوب إليه دون أن يلقى مقاومة تذكر . وهذه الرواية تحتاج إلى شيء من التفكير لأن هذا الجبل موقعاً استراتيجياً هاماً منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فهو همزة الوصل بين عدوتي المغرب والأندلس ، والمتحكم في مضيق المجاز ضد أي عدوان على أسبانيا من هذه الناحية الجنوبية. ولقد أدرك الفينيقيون من قديم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتي المغرب والأندلس ت، فأقاموا على هذا الجبل أبراجاً للمراقبين ، ولم يسمحوا لأي دولة أخرى مشاركتهم في استغلال تلك المناطق الغربية ، وحددوا الساحل الشرقي الأسباني كأقصى حد يمكن الوصول إليه ، ولم يترددوا في إغراق كل سفينة تحاول عبور المضيق non plus ultra(1) .

وأطلقوا على هذا الجبل اسم mons calpe وهي تسمية فينيقية بمعنى الجبل المجوف ، وهم يعنون بذلك تلك المغارة الكبيرة التي فيه ، والتي سماها الأسبان باسم القديس ميخائيل san Miguel ، كما يسميها الإنجليز مغارة القديس جورج saint george ، وقد أشار الحميري إلى هذا الغار وقال إنه كان يعرف بغار " الأقدام " لوجود آثار أقدام فيه (2) .

ولقد تداول حكم إسبانيا بعد الفينيقيين ، أبناؤهم القرطاجنيون ثم بعد ذلك الرومان ثم القوط ، فحرصوا جميعاً على بسط سيطرتهم على مضيق المجاز ، واتخذوا من جبل طارق قاعة حربية لهذا الغرض : ولا شك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين في الجانب المغربي المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة ، لأن مضيق المجاز الذي يفصل بينهما ، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي 15 ك م ، وهي مسافة لاوزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الشاطئين المغربي والأسباني ، يضاف إلى ذلك أن الغارات التي شنها كل من يوليان وطريف على سواحل أسبانيا الجنوبية ، كانت بمثابة إنذار صريح للقوط كي يأخذوا حذرهم من أي هجوم يقع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل بعد ذلك أن يغفل القوط – مهما بلغ ضعفهم – هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة بدون حراسة أو مراقبة ؟

! وهذا جعلنا على يقين من أن نزول المسلمين في هذاالجبل لم يتم بمثل هذه السهولة التي تصورها كتب التاريخ ولقد صدق حدسنا حينما وقفنا أخيراً على نص يؤيد هذا الاعتقاد .

وقد ورد هذا النص في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، للمؤرخ التونسي أبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري ، الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري ، وفيه يصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق عند سفح هذا الجبل ، والمقاومة التي أبداها العدو ليحول دون نزول المسلمين هناك ، ثم حركة الالتفاف البارعة التي قام بها طارق وجنوده أثناء الليل حول العدو المرابط في الجبل ، والانقضاض عليه فجأة وإبادته عن آخره . وفي ذلك يقول :

" فمضى طارق لسبته وجاز في مراكبه إلى جبل فأرشى فيه ، فسمي جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطئ كان عزم على النزول فيه إلى ، البر فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر ، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل عنه في البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم (1) " .

هذا الوصف يذكرنا بعمليات الغزو الحديثة رغم اختلاف الوسائل والعصور ، كما أنه يدل بوضوح على عظم المقاومة التي لقيها المسلمون منذ بدء نزولهم في أرض أسبانيا لدرجة أنهم اضطروا إلى تغيير خططهم العسكرية التي كانت مقررة من قبل ، والنزول ليلاً في مكان آخر صخري وعر ، مستخدمين في ذلك برازع الدواب ومجاذف السفن كي تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم .

ولا شك أن هذا الانتصار الأول الذي أحرزه طارق عند نزوله ، قد مكنه من احتلال هذا الجبل الذي حمل اسمه بعد ذلك عن جدارة واستحقاق .

هذا وتنبغي الإشارة هنا إلى أن المؤرخ المغربي ابن عذاري ، الذي عاش بعد ذلك في أواخر القرن السابع الهجري ، قد أورد بعض عبارات النص السابق ، ولكن دون أن يشير إلى هذه المعركة التي خاضها طارق مع القوط في سبيل احتلال هذا الجبل ، وفي ذلك يقول :

" وأول فتوحاته جبل الفتح المسمى بجبل طارق ، وذلك لما جاز المسلمون ونزلوا في المرسى وهم عرب وبربر ، حاولوا الطلوع في الجبل هو حجارة حرش ، فوطأوا للدواب بالبراذع ، وطلعوا عليها ، فلما حصلوا في الجبل بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب (1) .

خامساً : حرق المراكب وخطبة طارق :

بقيت بعد ذلك تلك القصة الشائعة التي تقول بأن طارق بن زياد قد أحرق سفنه بعد نزوله للشاطئ الإسباني ، كي يقطع على جنوده أي تفكير في التراجع أو الارتداد ، ثم خطب فيهم خطبته الشهيرة الطويلة التي يقول في مطلعها : " أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام . . . الخ .

والرواية الإسلامية التي تشير إلى حادثة حرق السفن لم ترد – فيما أعلم – إلا في ثلاثة مراجع أحدها كتاب الأكتفا لابن الكردبوس ، والثاني كتاب نزهة المشتاق الشريف الأدريسي والثالث كتاب الروض المعطار للحميري .

فابن الكردبوس بعد أن يصف المعركة التي خاضها طارق لاحتلال هذا الجبل الذي سمي باسمه ، يقول في اختصار شديد : " ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا " (1) .

أما الإدريسي فإنه يقول في شيء من التفصيل : " وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله بن ونمو الزناتي ، لما جاز بمن معه من البرابر ، وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه ، فأمر بإحراق المراكب التي جاز فتبرأ بذلك عما اتهم به (1) .

ويكرر صاحب الروض المعطار رواية الإدريسي مع اختلاف بسيط ولكنه هام فيقول : " وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه ، تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا ينزلونه فأراد أن ينفي عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها ، فتبرأ بذلك مما أتهم به (2) .

ويفهم من رواية ابن الكردبوس ، أن طارق أراد بحرق سفنه أن يشحذ همم المقاتلة . أما الإدريس والحميري ، فإنه يفهم من كلامها أن طارقاً أحس بأن العرب لا تثق به ، وقدر أنهم قد لا ينزلون معه إلى الجبل ، وهذا يعني أن خلافاً وقع بين طارق وبين جنوده العرب الذين يعملون تحت قيادته ، فعمد إلى إغراق سفنه كي يحول دون انسحابهم بها إلى المغرب ، فيتخلص بذلك من التهم التي يوجهونها عنده عند القائد الأعلى موسى بن نصير . وكيفما كان الأمر ، فإن جمهرة المؤرخين المحدثين يميلون إلى إنكار صحة هذه الرواية من أساسها كحدث تاريخي . إلا أننا في الواقع لا نستطيع نفيها أو إثباتها ، خصوصاً وأن هناك روايات مشابهة وردت في كتب التاريخ قديماً (1) وحديثاً تشير إلى وقوع أحداثاً مماثلة ، ولعل أقرب مثال لذلك هو تلك القصة التي يرويها أبو بكر المالكي من أن فاتح جزيرة صقلية المشهور أسد بن الفرات (212 هـ / 827 م) ، أراد هو الآخر حرق مراكبه حيثما ثار عليه بعض جنوده وقواده ، وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان ، بسبب المجاعة التي حاقت بهم . وفي ذلك يقول : إن أسد بن الفرات وابن قادم قد اختلفا ، وذلك أن أسد لما وصل بالناس في صقلية ، أضر بالناس الجوع حتى أكلوا لحوم الخيل ، فمشى الناس إلى ابن قادم فمضى إلى أسد وقال له : " ارجع بنا إلى إفريقية ، فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم ، فقال له أسد : " ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير . " ، فأبى عليه الناس ذلك ، فأراد حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة سيئة ، فقال أسد : " على أقل من هذا القتل عثمان بن عفان ، ثم تناوله أسد وضربه ثلاثة أو أربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، فتم له ما أراد وعادت العزيمة إلى الأنفس ، فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى قتلهم وهزمهم (1) .

وهناك قصة مماثلة يقدمها لنا التاريخ الأسباني وبطلها هو القائد أرفان كورتس hernan cortes الذي فتح المكسيك سنة 1519 م ، فيروي أن هذا القائد الأسباني اكتشف مؤامرة دبرها جماعة من قواده للهرب بالسفن إلى أسبانيا ، عندئذ أمر كورتس بإنزال الجنود والأمتعة إلى الشاطئ الأمريكي ، ثم دس من خرق السفن وأغرقها ليلاً كي يحول دون تنفيذ هذه المؤامرة (2) .

وهذه الرواية تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن قصة حرق المراكب – إن صحت – كانت شائعة ومعروفة في أسبانيا لدرجة أن بعض القادة الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها في بعض أعمالهم الحربية .

هذا ومن الطريف أن الأسبان ما زالوا يستعملون مثلاً شعبياً يقول :

He quemado todos mis naves .

ومعناه الحرفي أحرقت جميع سفني ، ولكنه يستعمل بمعنى بذلت كل ما في وسعي . فهل لهذا التعبير الشعبي علاقة بحرق السفن أيضاً ؟

أما من ناحية الخطبة التي ألقاها طارق على جنوده فقد ، وردت في عدة مراجع مثل تاريخ عبد الملك بن حبيب (1) ، وكتاب نفح الطيب للقرى (2) ، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري (3) ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (4) . أما عامة المراجع الإسلامية فإنها تمر عليها بالصمت التام باستثناء عبارة ابن الكرديوس التي تلخص الخطبة في كلمتين فقط : " قاتلوا أو موتوا (5) " .

ولقد شك معظم المؤرخين المحدثين في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، على اعتبار أنها قطعة أدبية فريدة لا يقدر طارق على صياغتها ، كما لا يقدر جنوده على فهمها لأنهم جميعاً – القائد وجنوده – من البربر .

على أن هذا التعليل وإن كان يبدو منطقياً ومعقولاً ، إلا أنه لا يمنع من أن طارقاً قد خطب جنده على عادة القواد والفاتحين في مختلف العصور . وإن كنا نعتقد في هذه الحالة ، أن الخطبة لم تكن باللغة العربية ، إنما كانت باللسان البربري أو الغربي – كما يسميه المؤرخون القدامى .

ثم جاء كتاب العرب بعد ذلك ، فنقلوها إلى العربية في شيء كثير من الخيال والإضافة والتغيير على عادتهم . وقد يؤيد ذلك أن هناك خطباً كثيرة من هذا النوع قيلت في هذه المناسبات ، فأين صاحب الصلاة يشير إلى الخطب التي ألقاها الشيخ المرحدي أو محمد عبد الواحد بن عمر في الجنود باللسان العربي تارة وباللسان الغربي تارة أخرى يحرضهم على قتال النصارى (1) . ويشير ابن الخطيب إلى شاعر المرينيين أبي فارس عزوز (ت 697) الذي خلط المعترب باللسان الزناتي في مخاطباتهم (2) . كذلك يشير المؤرخون إلى الكتب العديد التي ألفها المهدي بن تومرت بالعربية والبربرية ، لإفهام الناس تعاليمه ومذهبه ، مثل كتب الإمامة والقواعد والتوحيد (3) .

ولا زالت هذه العادة متبعة إلى اليوم في بلاد المغرب . فالخطب والأخبار ما زالت تذاع بالراديو بالعربية والبربرية التي تنقسم بدورها إلى لهجات متعددة مثل الشلحة وتمازرت والزناتية ..

ومن هذا نرى أنه ليس بعيداً بالمرة أن يكون طارق قد خطب جنوده البربر بلسانهم الغربي ، إذ أنه من غير المعقول أن يخاطبوا في ساحات الوغى وفي مقام الجد بلغة لم يتعلموها أو يفهموها ، فكان استعمال اللسان البربري في هذا الموقف ضرورة لإحراز التأثير المطلوب والفائدة العاجلة .

سادساً – وقعة شذوقة :

أقام طارق بن زياد في جبل طارق عدة أيام ، بني خلالها سوراً أحاط بجيوشه سماه سور العرب (1) . كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة ، وهي مدينة الجزيرة الخضراء algeciras التي سميت أيضاً بجزيرة أم حكيم ، على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ، ثم تركها في هذه البلدة فنسبت إليها .

ويلاحظ أن موقع هذه الميناء قريب وسهل الاتصال بمدينة سبتة على الساحل المغربي المقابل ، بينما يصعب اتصاله بأسبانيا ذاتها لوجود مرتفعات بينهما ، وهذا ما يدل على حسن اختيار طارق لهذا الموقع الاستراتيجي . كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك .

وفي ذلك يقول ابن خلدون : " فصيرهما عسكرين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق ، والآخر على طريق بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم التحصن (1) " .

وعلم ملك أسبانيا القوطي وذريق Rodrigo خبر نزول المسلمين في بلاده ، وكان وقتئذ مشغولاً في إخماد ثورة قام بها البشكنس vascos سكان نافارا في أقصى شمال أسبانيا . ومن المحتمل جداً – كما يقول – سافدرا saavadra أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبإيعاز من أعداء الملك لشغل أنظاره عن عمليات نزول المسلمين في أسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فقد أسرع الملك القوطي بالعودة جنوباً بجميع قواته ومعداته وأمواله لملاقاة المسلمين .

وفي خلال ذلك الوقت كان طارق قد زحف نحو الغرب ، متخذاً من المرتفعات الجنوبية الساحلية حامياً له من هذه الناحية الجنوبية ، كما اتخذ من بلدة طريف قاعدة يحمي بها مؤخرة جيشه ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بحيرة تعرف باسم لاخندا laguna de la janda في كورة شذونة sidonia .

وهكذا نجد أن طارقاً قد اختار مكاناً مناسباً لجيوشه في هذه المعركة ، فقد جعل منطقة البحيرة أو المستنقعات حاجزاً بينه وبين القوط من ناحية ، كما ترك الطريق بينه وبين الجزيرة الخضراء مفتوحاً لينسحب منه إذا اضطرته الظروف إلى ذلك من ناحية أخرى .

ثم علم طارق من جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها له ملك أسبانيا ، فانزعج طارق لهذا الخبر ، وقد عبر المؤرخون عن هذا الانزعاج بعبارات مختلفة مثل قول ابن قتيبة : " وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث ! (1) ، وفي هذا المعنى أيضاً يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة : " وكتب طارق إلى موسى يستغثه ويخبره بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وأن ملك الأندلس قد زحف إليه مما لا طاقة له به (2) " .

واستجاب موسى لنداء طارق ووجه إليه مدداً يقدر بخمسة آلاف جندي فصار مجموع المسلمين بالأندلس حوالي اثني عشر ألفاً .

ولقد أجمع معظم المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين المسلمين والقوط والتي توقف عليها مصير أسبانيا في يد المسلمين ، حدثت في كورة شذونة في جنوب غرب أسبانيا ، وأنها دامت ثمانية أيام من الأحد 28 رمضان إلى الأحد 5 شوال سنة 92 هـ / 19 – 26 يولية سنة 711 م (1) ، ويصفونها بأنها كانت معركة قاسية اقتتل فيها الطرفان قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء (2) ، وأنه لم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها ، وأن عظامهم بقيت في أرض المعركة دهراً طويلاً لم تذهب (3) وكان النصر في النهاية حليف المسلمين .

على أننا نلاحظ بصدد هذه الوقعة ، أن الروايات الإسلامية والمسيحية وإن كانت قد أجمعت على وقوعها في كورة شذونة ، إلا أنها قد اختلفت حول المكان الذي دارت فيه من هذه الكورة الواسعة :

(1) فهناك فريق – أمثال ابن خلدون ، والحميري ، والمؤرخ الأسباني دي رادا الطليطلي jiminiz de rada – يرى أنها حدثت شمال كورة شذونة عند وادي لكه guadalete ، بالقرب من شريش jerez التي كانت قاعدة لهذه الكورة وتسمى أيضاً باسمها شذونة . ولهذا سموها بمعركة وادي لكة أو معركة شريش (1) .

(2) وهناك فريق آخر تزعمه المستشرق الأسباني سافدرا saavedra يرى أنها حدثت في جنوب كورة شذونة عند إقليم البحيرة ووادي البرباط rio barbate ، وهو النهر الذي يخترق هذه البحيرة ويصرف مياهها غرباً في البحر المحيط . ولكي يدعم رأيه افترض أن اسم وادي لكه الذي ورد في المصادر العربية ما هو إلا تحريف لاسم وادي لكه الذي كان يطلق أيضاً على وادي البرباط ، لوقوع قرية عليه – اندرست الآن – اسمها بكه فسمي باسمها . (2)

(3) وهناك فريق ثالث وعلى رأسه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنال ، يرى أن هذه المعركة حدثت عند البحيرة بالقرب من المكان السابق عند نهر سلادو rio salado ، وعلى هذا الأساس فسر كلمة وادي لكه على أنها تعريب لكلمة lago أو locus ومعناها البحيرة (1) .

(4) هناك رأى رابع يرى أن الملك القوطي وذريق قتل في مكان يسمى السواقي ، وقد افترض سافدرا أن هذا الاسم تحريف للفظ segoyueia وهو اسم بلدة في ولاية شلنقة Salamanca في شمال أسبانيا . وعلى هذا الأساس بنى نظريته القائلة بأن رذريق لم يمت في معركة البحيرة التي انهزم فيها أمام طارق زياد ، بل فر شمالاً إلى ولاية شلمنقة حيث التقى مرة أخرى مع جيوش المسلمين في معركة ثانية عند البلدة المذكورة آنفاً sagoyuela حيث انتهى الأمر بمقتله هناك سنة 713م (2) . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن ثبت عدم صحتها بعد أن ظهرت نصوص جديدة لعريب بن سعد ، وابن الشباط ، ولمؤرخ مجهول الاسم في كتاب هل بعنوان فتح الأندلس ، تشير كلها بوضوح إلى أن السواقي اسم مكان في كورة شذونة وليس في شمال أسبانيا . " (3)

ورأينا في الموضوع بعد كل ما تقدم ، أن هذه المعركة التي توقف عليها مصير أسبانيا في يد المسلمين ، كانت أكبر وأعظم من أن تحده بمثل هذه الأماكن المحدودة الضيقة ، إذ يبدو – كما هو واضح من النصوص – أنها معركة واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول طارق أرض أسبانيا ، وحشد فيها ملك القوط كل ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح ، لدرجة روعت طارق وأزعجته وجعلته يسارع في طلب المزيد من القوات . ولا شك أن معركة بمثل هذه الحشود الكبيرة ، وهذا الهدف الخطير ، وهذه المدة الطويلة التي استغرقتها في صراع وطراد ومتابعة ، لابد وأن تكون معركة عظيمة تليق بهذا الفتح العظيم ، معركة لم تقتصر رحاها على جنوب شذونه أو شمالها بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة ، فهي معركة كورة شذونة بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها .

ومن هنا جاز لنا أن نقول بأن ما ورد في كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل : البحيرة ، وادي لكة ، وادي بكة ، وادي البرباط ، شريش ، السواقي ، ما هي في الواقع إلا تسميات لتلك الأماكن التي دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة في أراضي كورة شذونة.

هذا ، وقد يشفع لنا في هذا الرأي ، أن جميع المعارك التي حدثت بعد ذلك في بقية أنحاء أسبانيا ، كانت بمثابة مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه العركة الفاصلة ، بحيث لم يستغرق استيلاء المسلمين على أسبانيا بعد ذلك ، وعورة مسالكها وقسوة مناخها أكثر من ثلاث سنوات ، وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد انتهت تقريباً .

سابعاً : اتهام فتح أسبانيا :

لا شك أن هذا النصر العظيم الذي حققه طارق في معركة شذونة ، قد فتح أبواب الأندلس للمسلمين ، فاتجه طارق بالجيش الرئيسي شمالاً نحو العاصمة طليطلة ، وفي أثناء زحفه اعترضته قلعة استجه ecija واستولى عليها . وفي الوقت نفسه أرسل أقساماً من جيشه إلى المناطق الجانبية ، فاتجه قسم إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي ، مولى عبد الملك بن مروان ، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، واتجه قسم آخر إلى البيرة ونواحيها واستولى عليها .

وقد وجد طارق وقواده معاونة من اليهود المقيمين في أسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم ، ولهذا اعتمد طارق عليهم في حفظ البلاد المفتوحة ، في الوقت الذي كان فيه الجيش الإسلامي متفرغاً لعملية الغزو .

واستمر طارق في زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة ، فدخلها دون مقاومة تذكر ، إذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينة شبه خالية تقريباً (1) ، وهنا تشير المصادر العربية بإسهاب إلى الكنوز والذخائر التي غنمها المسلمون من كنائس المدينة وقصورها .

ثم خشي طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، لا سيماً وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه ، وثقلوا بالغنائم التي جمعوها ، فاستنجد طارق بقائده موسى ابن نصير .

وفي شهر رمضان 93 هـ (يونيه 712 م) عبر موسى المضيق بجيش كبير من ثمانية عشر ألف مقاتل ، معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية ومن بينهم عدد من التابعين ، ونقد عرفت هذه الجماعة العربية الأولى بطالعة موسى .

وسار موسى في طريق غربي غير الطريق الذي سلكه طارق ، واستولى على مدن أخرى لم يستول عليها طارق ، مثل قرمونة carmona واشبيلية sevilla ، وماردة merida ثم التقى بطارق عند نهر التاجر tajo بالقرب من العاصمة طليطلة .

ثم تابع القائدان سيرهما نحو جبال البرت pixinios في أقصى الشمال ، وأخذت المدن تتساقط في أيديهما تباعاً مثل سرقسطة zaragoza ووشقه huesca ولاردة lerida ، حتى بلغا شاطئ البحر الشمالي cantabrico عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ، فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر 95 هـ (714 م) .

بقيت مسألة أخيرة يحسن أن نقف عندها قليلاً ، وهي ما أثارته بعض الروايات العربية من أن موسى لما علم بانتصار طارق ، حقد عليه وداخله الحسد والغيرة ، وخشي أن ينسب إلى طارق شرف هذا النصر ، فصمم على الاشتراك في القتال ، وأبت عليه نفسه أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه طارق من قبل ، فأقسم بأن يسير في طريق آخر أنفة وكبرياء .

وواضح أن أصحاب هذه الرواية ، قد نظروا إلى مشروع هذا الغزو العظيم من زاوية شخصية ضيقة تافهة ، إذ لا شك أن كلا القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر .

وواضح من تحركات الجيوش الإسلامية في الأندلس ، أن خطة الغزو كانت موضوعة ومدبرة تدبيراً محكماً ، وهي كما رأينا تشبه حركة الكماشة في المصطلح الحربي الحديث : طارق يسير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقابل له ، وينتهي حركة الالتفاف أو التطويق هذه ، بالتقاء القائدين عند العاصمة القرطبية نفسها .

وهكذا سقطت معظم شبه جزيرة أيبريا iberia في يد المسلمين ، ولم يبق منها إلا بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية ، وهي كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبرى .

أما شرق الأندلس el levante ، فقد فتح على يد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي خلف آباء على ولاية الأندلس ، وكانت المقاومة في هذه المنطقة قد تركزت في كورة تدمير " وقاعدتها الحصنة أور يولده orihuela . وقد سميت هذه الولاية بهذا الاسم نسبة إلى اسم صاحبها الأمير القوطي تيودومير الذي استطاع بفطنته وذكاء أن يحصل من عبد العزيز على شروط حسنة ضمنت له استقلاله بولايته في مقابل جزية سنوية . وتسوق الرواية الإسلامية في ذلك قصة طريفة تتلخص في أن تدمير حينما شعر بقلة رجاله وخطورة الغزو الإسلامي ، أمر النساء بنشر شعورهن ، والوقوف مع القلة الباقية من رجاله على أسوار حصن أوريوله والرماح في أيديهن ، فخيل المسلمين أن حامية المدينة ، كبيرة العدد فقبلوا مبدأ المفاوضة ، ونزل إليهم تدمير بنفسه على هيئة رسول ، وأخذ يفاوض عبد العزيز حتى استطاع أن يعقد معه صلحاً على نفسه وماله وأهل بلدته . ولما تم الصلح كشف تدمير عن شخصيته ، وأدخل المسلمين المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا عدداً قليلاً من الرجال (1) .

على أن الذي يهمنا في هذا الصدد هو نص هذه المعاهدة الذي وصل إلينا عن طريق المؤرخ الأندلسي الضبي (ت1202) في كتابه بغية الملتمس (2) . وهذا أمر مهم في حد ذاته لأن المراجع العربية لم تحفظ لنا أمثال هذه المعاهدات القديمة التي يزخر بها التاريخ الإسلامي .

أما الركن الشمالي الغربي ، وهو الإقليم المسمى بأشتوريش Asturias ، في منطقة جليقية أوغاليسيا Galicia ، فإن المسلمين في الواقع لم يفرضوا سلطانهم تماماً على هذه النواحي لوعورة مسالكها وبرودة مناخها ، فأهملوا جانبها زهداً فيها واستهانة بشأنها . ولهذا استطاعت بعض فلول الجيش القوطي المنهزم بزعامة قائد منهم يدعى بلاي pelayo (ت 737 م) أن تعتصم بالجبال الشمالية في هذه المنطقة ، وهي التي يسميها الأسبان بقمم أوروبا picos de europa وهي عبارة عن ثلاثة جبال شامخة ، القمة الغربية منها تسمى أو نجا onga وبها مغارة تعرف بكهف أونجا covadonga (1) ويسميها العرب صخرة بلاي لأنه اختبأ فيها هو وأصحابه حينا حاصرهم المسلمون ، وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخر (2) . ولما أعيى المسلمين أمرهم ، تركوهم وانصرفوا عنهم استخفافاً بشأنهم وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم ؟ (3) .

والمصادر الأسبانية تجعل من انسحاب المسلمين عن كوفونجا نصراً عسكرياً وقومياً كبيراً للأسبان ، بل وتذهب إلى أن العناية الإلهية قد تدخلت في صالحهم ، فصارت سهام المسلمين ترتد إلى صدورهم ، كما انهارت عليهم قطعة من الجبل فقتلتهم عن آخرهم بما في ذلك قائدهم المسمى علقمة (1) . أما المصادر العربية فإنها وإن كانت تعترف بانسحاب المسلمين عن هذه المنطقة القاحلة الباردة ، إلا أنها لا تذكر شيئاً عن القائد علقمه ولا عن الأساطير الخرافية السالفة الذكر (2) .

وكيفما كان الأمر ، فالمهم هنا أن في هذه البؤرة الصغيرة كوفادونجا ، نبتت نواة دولة أسبانيا النصرانية ، ونبتت معها حركة المقاومة الأسبانية التي أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي صارت تعرف بمملكة ليون . ولقد أحاطت هذه المملكة الأسبانية نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين . وعرفت هذه الحصون في المصادر العربية باسم منطقة القلاع ، بينما أسمتها المصادر الإسبانية gastellas أي القلاع كذلك . وكان أمراء هذه القلاع تابعين لملوك ليون ، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي كي يتمكنوا من محاربة المسلمين ، كذلك كانت ليون نفسها ، إذ انتشر بين أهالي تلك المنطقة نظام الملكيات الصغيرة ، حتى يتمكن كل فرد منهم أن يدافع عن أرضه وأهله وأمواله . ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن العاشر الميلادي بزعامة أقوى أمرائها فرنان جونثالث eernan Gonzalez ، واستقلت عن مملكة ليون وصارت تعرف بإمارة castille وقد عرب المسلمون هذا اللفظ إلى قشتاله .

ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة ذات الأصل الساذج البسيط ، تنمو وتتسع شيئاً فشيئاً على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى سيطرت على جميع أنحاء أسبانيا ، بل وامتد نفوذها بعد ذلك إلى أمريكا مع حركة الكشوف الأسبانية الحديثة ، وصارت لغتها القشتالية هي اللغة الأسبانية الرسمية السائدة في أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية فيما عدا البرازيل التي تتحدث البرتغالية .

وقد يكون في هذا الكلام شيء من الاستطراد ، ولكنه استطراد مفيد ما دام يعبر عن المعنى التاريخي الكبير الذي يستتر وراء حادثة بسيطة مثل حادثة كوفودنجا ، ومن هنا تدرك السبب الذي جعل الأسبان يهتمون بعمارة هذا الموقع ، وجعله منطقة سياحية ويضعون بلاي في مصاف القديسين ، ويحجون إليه في كل عام ، لأن العبرة هنا ليست في التفاصيل المادية البسيطة لحادثة كوفادونجا ذاتها ، وإنما في الآثار والفوائد السياسية والقومية الكبيرة التي ترتبت عليها .

-2-

الخلافة في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

موضوع الخلافة موضوع قديم واسع متشعب ، وقد كثر الكلام والجدال فيه بين العلماء القدامى والحديثين : فبعضهم يقيم هذا النظام على العقل ، لأنه لولا الولاة لكان الناس فوضى مهملين ، والبعض الآخر يقيمه على الشرع دون العقل ، لأن أول اختصاص للخليفة هو حفظ الشرع . وهناك جدال حول الشروط المعتبرة في الخليفة ، وحول سلطة الجماعة أو أهل الحل والعقد ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا أحب التعرض لها في هذا الموضوع ، وحسبي أن أحيل القارئ إلى بعض ما كتبه علماء الأصول في هذا الموضوع مثل الماوردي في أحكامه السلطانية ، وابن خلدون في مقدمته (1) ، وسعد الدين التفتازاني في مقاصد الطالبين ، وعبد القادر الفاسي في رسالته عن الإمامة ، والسيد رشيد رضا في بحثه القيم عن الخلافة والذي نشره بمجلة المنار القاهرة 1923 ، وقد ترجمه إلى الفرنسية ، المستشرق الفرنسي هنري لاوست (2) . هذا إلى جانب المستشرقين الذين كتبوا في موضوع الخلافة أيضاً مثل توماس .

المحاضرة 3 + 4+ 5+ 6

أرنولد (1) . ووليام بور (2) ، وغيره ، إذا لا يتسع المجال لذكر جميع أسماء من كتبوا هذا الموضوع ، فيكفي ما ذكرت منها على سبيل المثال لا الحصر .

والنقطة التي أحب أن أتناولها في هذا الموضوع المتشعب ، هي نظام الخلافة في الغرب الإسلامي ، وما ترتب عليها من أحداث سياسية في العصور الوسطى .

الخلافة ، والإمامة العظمى ، وإمارة المؤمنين ، ثلاث كلمات معناها واحد وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ، وعلى هذا الأساس كان تعيين الإمام أو الخليفة واجباً حتمياً على الجماعة الإسلامية .

خلافة الخوارج والشيعة في المغرب :

كانت الدعوة في الغرب والأندلس . عقب الفتح الإسلامي ، قائمة لخلافة دمشق الأموية التي ما كاد ينتهي أجليها سنة 132 هـ (750 م) حتى سيطرت على تلك البلاد دويلات وخلافات إسلامية تدين بمختلف المذاهب .

وكان مذهب الخوارج في بادئ الأمر ، أكثر المذاهب انتشاراً بين قبائل البربر ، لأنه يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين ، ويرى تركها لاختيار الأمة ، فهي التي تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن جنسه أو لونه ما دام مستوفياً لشروط الخلافة ، لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي ، فاتخذوه عنواناً للمعارضة القومية ضد أي سيادة تفرض عليهم . وكانت الصفرية والأباضية أكثر مذاهب الخوارج رواجاً في المغرب ، وأكثرها اعتدالاً وتسامحاً مع المخالفين ، إذا قورنت بغيرها من المذاهب الخارجية الأخرى مثل مذهب الأزارقة في المشرق ، فالصفرية والإباضية لا يرون إباحة دماء ولا يرون جواز سبي النساء والذرية ، بل ولا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان (1) .

وعلى أساس هذه المبادئ السابقة قامت في المغرب دولتان خارجيتان : إحداهما تدين بالمذهب الصفري ، والآخرى تدين بالمذهب الإباضي .

أما الأولى فهي دولة بني مدرار آه بنى وأسول الصفرية التي قامت في منطقة سجلماسة (تافيلانت الحالية) في جنوب المغرب الأقصى سنة 140 هـ (757 م) ومؤسسها كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناس الصغرى .

واستمرت هذه الدولة زمناً طويلاً ، ويلاحظ أن بعض ملوكها خطبوا للخلافة العباسية في بغداد أمثال أبي القاسم الزناني الصفرى الذي يقول ابن خلدون بأنه خطب في عمله للمنصور ثم للمهدي من بني العباس (1) ، كذلك يلاحظ أن عدداً آخر من ملوكها ، دعا للخلافة الشيعية الفاطمية عندما قامت في المغرب اتقاء لخطرها (7) ، وأخيراً جاء آخر ملوكها وهو محمد بن الفتح بن مدرار ، فاعتنق المذهب السني المالكي وتسمى بأمير المؤمنين سنة 342هـ وتلقب بالشاكر لله ، وضربت بذلك الدراهم والدنانير ، فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية . ثم انتهت عنده الدولة على يد قائد الفاطميين جوهر الصقلي سنة 349 هـ (960 م) (3) .

أما الدولة الخارجية الثانية ، فهي الدولة الرسمية الإباضية التي قامت في المغرب الأوسط سنة 144 ق (76 م) . ومؤسس هذه الدولة رجل فارس الأصل – كما يقال – وهو عبد الرحمن بن رستم الذي بويع بالخلافة وصار

يلقب بالإمام هو وأبناؤه من بعده ، كما ينص على ذلك ابن صغير والباروني فيما كتباه عن أئمة الرستميين (1) .

وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت التي بناها عبد الرحمن ابن رستم سنة 150 هـ (767 م) . وتقع تقريباً في مكان تيارت الحالية tlarat في ولاية وهران oran غربي الجزائر . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وهاجر إليها التجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي حتى صارت تسمى بالعراق الصغير تشبيهاً لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل (2) .

ولقد عمل عبد الرحمن بن رستم على تدعيم دولته ، فعقد تحالفاً مع الدولة الأموية في الأندلس ، وكذلك مع الدولة الخارجية الأخرى في سجلماسة وهي الدولة المدرارية الصفرية ، ونتج عن هذا التحالف الأخير تلك المصاهرة التي تمت بزواج المنتصر بن اليسع بن مدرار على أروى (3) بنت عبد الرحمن .

ولقد أنجب المنتصر من أروى ولدا سماه ميمونا ، وهو الذي خلفه في الحكم بعد ذلك (1) .

ولما توفى عبد الرحمن بن رستم سنة 168 هـ (784 م) ، ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة ، بينما اتخذ المخالفون جانباً معارضاً ، ولهذا سموا بالنكسار أو النكرية .

واستمرت هذه الدولة الرستمية تحكم المغرب الأوسط زمناً إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة 296 هـ (909 م) .

على أن سقوط هذه الدولة لم يكن معناه القضاء على مذهب الإباضية في المغرب ، بدليل ثورة أبي يزيد الخارجي التي قامت في جبال أوراس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وكادت أن تقضي على الدولة الفاطمية في المغرب . وقد تلقب هذا الزعيم الزناتي الخارجي بلقب شيخ المؤمنين ، واعترف بخلافة عبد الرحمن الناصر في قرطبة ، كي ينال تأييده ، غير أن الفاطميين تمكنوا من إخماد ثورته وقتله بعد كفاح مرير طويل سنة 335 هـ (947 م) (2) .

على أن دعوة الإباضية استمرت ، رغم ذلك ، قائمة في المغرب ، بدليل أنهم ما زالوا يعيشون إلى اليوم في جنوب طرابلس بمنطقة مزاب وجبل نفوسة في ليبيا .

وإلى جوار هاتين الدولتين السابقتين . قامت في المغرب الأقصى دولة علوية حسنية سنة 172 هـ (788 م) ، وهي دولة الأشراف الأدارسة ، ومؤسسها هو أبو العلاء إدريس بن عبد الله الأكمل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، الذي فر إلى المغرب بعد هزيمة العلويين في موقعة فخ بأحواز مكة سنة 169 هـ (786 م) .

وهناك في المغرب الأقصى أقام إدريس الأكبر دولته ، وبنى عاصمته مدينة فاس التي أتمها ابنه إدريس الأصغر من بعده .

ويفهم من كلام المؤرخين أن الأدارسة في المغرب كانوا يلقبون بلقب الإمام (1) ، وأن هذه الإمامة انتقلت إليهم بوصاية محمد النفس الزكية لأخيه إدريس الأكبر ، على أساس أن محمد النفس الزكية انعقدت له الإمامة قبل بني العباس ، وأنه لهذا السبب كان مالك بن أنس وأبو حنيفة يرجحان إمامته على بني العباس ، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة من قبل . كذلك يؤثر عن مالك أنه كان يفتي

أهل المدينة خلال ثورة النفس الزكية سنة 145 هـ بأنه " ليس على مكره يمين أو طلاق " وهو يقصد بذلك أن من بايع أبا جعفر المنصور مكرهاً ، فهو في حل من بيعته ، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية . وقد لحق مالك أذى كبير من جراء ذلك ، إذ ضربه العباسيون بالسياط ، ومنعوه من الخوض في هذا الحديث (1) ، ولا شك أن هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه مكانة في دولة الأدارسة بالمغرب ، بدليل ما رواه ابن خلدون من أن الإمام إدريس الأكبر قال في هذا الصدد : نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه – يعني الموطأ – وأمر بذلك في جميع عمالته (2) .

هذا ويفهم من كلام المؤرخين كذلك – أن هذه الدولة العلوية الإدريسية ، كانت أيضاً موطناً للمعتزلة ، وأن قبيلة أوروبا التي ساندت الإمام إدريس ، كانت تدين بمذهب الاعتزال ، وأن عبد الله الكامل والد الإمام إدريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (3) .

ولقد امتد حكم الأدارسة بالمغرب من السوس الأقصى إلى تلمسان ووهران في المغرب الأوسط . وتوجد في خزانة الرباط وثيقة هامة ، وهي قطعة من رسالة للإمام إدريس الأول إلى أهل مصر ، يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت النبوي الذي ينتمي إليه ، ويصف التضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي الموروث عن الرسول ، ويطالبهم بتأييده ومساندته (4) .

ورسالة الإمام ادريس أو المولى ادريس – كما يسمونه المغاربة – إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن الإدارية ، لم يفكروا في فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي كما يزعم البعض ، بل كانوا يريدون توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم ، مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف وشرعيتهم في الحكم .

ويتضح من الأحداث التاريخية التالية ، أن الخلافة العباسية ، قد خشيت على نفسها من اتساع أهداف الدولة الإدريسية ، فأقامت دولة الأغالبة في أفريقية (أي القطر التونسي) سنة 184 هـ (800 م) . لتكون حداً فاصلاً بين بلادها وبلاد الأدارسة .

ولكن على الرغم من هذا الحاجز الذي أقامه العباسيون في وجه المغرب ، حاول الأدارسة من جانبهم ، استمالة الأغالبة ، وكسب صداقتهم ففي هذا الصدد يقول لسان الدين بن الخطيب القسم الثالث من كتابه أعمال الأعلام :

" وكتب إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، القائم بالمغرب ، إلى إبراهيم بن الأغلب ، يستكفيه عن ناحيته ، ويذكره بقرابته من رسول الله (صلعم) . فأجابه عن كتابه وأودعه ، ولم تجر بينهما حرب " (1) .

ويضيف ابن الخطيب في موضع آخر من كتابه السالف الذكر :

" ذكر أن الخليفة المأمون ، وجه إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، كتاباً يأمره فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر في مصر ، فلم يرض بذلك زيادة الله ، وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وهو ثمل ، ونار عظيمة بين يديه في كوانين ، وقد احمرت عيناه ، فهال الرسول منظره " وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه . يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة ؟ هذا ما لا يكون أبداً ، ثم مد يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار ، ودفعه للرسول وصرفه ، وكانت في الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه أبداً " (1) .

وواضح من هذا النص ومن النصوص التي قبله ، أن الأدارسة قد اتصلوا بأهل مصر كما اتصلوا بأهل تونس ، لدرجة أن بعض ملوك الأغالبة قد هدد فعلاً بمبايعتهم والانضمام إليهم .

ثم قامت خلافة العبيديين أو الفاطميين في المغرب سنة 296 هـ (900 م) . ولا شك أن دعوة العلويين الأدارسة ، رغم كونها لا تدين بالمذهب الإسماعيلي الشيعي ، إلا أنها مهدت السبيل لدعاة الفاطميين في المغرب ، وهيأت الأذهان بقبول دعوتهم لآل البيت . واستطاعت الدولة الفاطمية بفضل تأييد بعض القبائل المغربية ، أن تقضي على نفوذ الأغالبة والرستميين والمدراريين بل والأدارسة أيضاً ، وأن تحقق وحدة مغربية قاعدتها مدينة المهدية في أفريقية (2) .

والخلافة أو الإمامة الفاطمية ، خلافة دينية وراثية تقوم على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي ، وتستند إلى أساسين هامين : الأساس الأول هو العلم اللدني أو الإلهي الموروث عن النبي (صلعم) ، عن طريق علي بن أبي طالب ثم أورده من بعده إلى الفاطميين .

فالإمام عند الفاطميين على هذا الأساس ليس شخصاً عادياً بل فوق الناس جميعاً : وهو المنفذ ، ولا يسأل عما يفعل ، لأنه معصوم من الخطأ نتيجة لما ورثه من علوم لدنية عن النبي . وهناك نوعان من العلوم ، علم الظاهر وعلم الباطن أي ظاهر القرآن وباطنه ، وقد علم النبي ، عليا بن أبي طالب هذين النوعين من العلوم ، فاطلعه على خفايا الكون والسر المكنون من هذه العلوم ، وكل إمام ورث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده ، ولهذا كان الإمام معلماً أكبر .

ومن هذه النظرة الشيعية للإمام نفهم السر في سبب تقديس الناس له ، والركوع عند مروره " وتقبيل الأرض بين يديه .

ولعل شعر ابن هانئ الأندلسي ، أكبر شاهد على ذلك ، مثل قوله في مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمي .

هذا ابن وحي الله تأخذ هديها ... عند الملائك بكرة وأصيلاً

وعلمت من مكنون سر الله ما ... لم يؤت في الملوكت ميكائيلاً (1)

أما الأساس الثاني للإمامة الفاطمية ، فهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد . والمعروف ي ذلك أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضية أي أنها ترفض إمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وترى ، كما يرى الشيعة عموماً ، أن علياً يستحق الخلافة بعد النبي لا عن طريق الكفاية وحدها ، بل عن طريق النص عليه بالاسم ، فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، وإنما هي ركن الدين والإسلام ، ولا يمكن للنبي أن يتركها للأمة ، بل كان عليه تعيين إمام لهم معصوماً من الخطأ ، وأن علياً هو الذي عينه النبي إماماً بعده .

ويستشهدون في ذلك بوصية الرسول عقب حجة الوداع وفي مكان يسمى بالغدير حيث قال : " من كنت هؤلاء فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " . وقوله : " على مني بمنزلة هارون من موسى ، ..... الخ .

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ، ولقب علي بالوصي ، بينما لقب من جاء بعده بالأئمة ، ومرتبة الوصاية عندهم أعلى من مرتباً الإمامة وتلى مرتبة النبوة . ثم انتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة ، فقالوا . إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ، فالأب ينص

على ابنه في حياته ، ولا يقوم النص في الإمامة على أساس تولية الأب الأكبر ، فالإمام يستطيع أن ينص على أي ابن له ، فهذا أمر يخصه وحده لأنه يتلقى علمه ووحيه من الله .

ولقد حاول الفاطميون فرض مذهبهم الشيعي الإسماعيلي على رعاياهم بقوة السيف ، كما حاولوا صبغ الوحدة المغربية بتلك الصبغة المذهبية المتطرفة . غير أن المغرب لم يقبل بهذه السيطرة المذهبية الشيعية التي لا تلائم مزاجه وطبيعته ، فخرج عن طاعة الفاطميين ، وأخذ يتطلع إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس في ذلك الوقت ، وهي الخلافة الأموية .

الخلافة الأموية بالأندلس

قامت الخلافة في الأندلس متأخرة زمن عبد الرحمن الناصر سنة 316 هـ (929 م) ، وذلك نتيجة للظروف السياسية التي أحاطت بالأندلس في ذلك الوقت . أما قبل ذلك التاريخ ، فقد مرت الأندلس في دورين أساسيين : -

الدور الأول : تمتد من سنة 92 - 138 هـ (71 - 756 م) أي منذ الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الأموية بها وفيه كانت الأندلس إمارة غير مستقلة وغير وراثية ، تتبع الخلافة الأموية بدمشق ويحكمها والي يعرف بالأمير يتبع أمير أفريقية من الناحية الإدارية ، بمعنى أن أمير القيروان هو الذي كان يعين ولاة الأندلس في غالب الأحيان .

الدور الثاني : تمتد من سنة 138 - 316 هـ (756 - 929م) أي منذ مجيء عبد الرحمن الأول (الداخل) الأندلس وينتهي بإعلان عبد الرحمن الثالث نفسه أميراً للمؤمنين وتلقبه بالناصر لدين الله .

وفي هذا الدور كانت الأندلس إدارة وراثية مستقلة سياسياً عن خلافة المشرق العباسية .

أما من الناحية الروحية فيفهم من كلام بعض المؤرخين أمثال ابن الكردبوس (1) وابن أبي دينار (2) أن جميع أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر قد دعوا في خطبهم الدينية لخلفاء بني العباس ببغداد رغم العداء السياسي الذي كان قائماً بين هاتين الدولتين ، فقالا في هذا الصدد : وكان - أي الناصر - من تقدمه من آبائه يخطبون لبني العباس . "

غير أن هذه الرواية في الواقع لم يقم عليها دليل أو إجماع تاريخي خصوصاً وأن ابن أبي دينار السالف الذكر عاد ثانية وناقض عبارته الأولى بقوله : ودانت لعبد الرحمن (الداخل) البلاد ، وبقي ملكاً ثلاثاً وثلاثين سنة ، وتداولتها بنوه من بعده ولم يخطب أحد منهم لبني العباس ولم يدخل تحت طاعتهم ، إلى أيام عبد الرحمن الذي تلقى بالناصر لدين الله وتسمى بأمير المؤمنين (1) .

أما ثقاة مؤرخي الأندلس ، أمثال ابن حزم وابن الأبار والمقرى فقد حددوا مدة الدعاة لبني العباس في الأندلس بفترة قصيرة فقط في بداية عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك .

فابن حزم في كتابه ، نقط العروس ، يقول أن الدعوة للعباسيين استمرت عدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الأول (2) ، كذلك يقول ابن الأبار في كتابه " الحلة السيراء " وأقام عبد الرحمن (الأول) أشهراً دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور . . . متقيلاً في ذلك يوسف الفهري في الدعوة للعباسيين (3) .

أما المقرى ، فقد أورد لنا رواية طريفة لعلها نقلاً عن ابن حيان يبين فيها الظروف والملابسات التي تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين فيقول : " وفر من الشام الأمير عبد الملك بن عمر بن مروان الأموي خوفاً من

المسودة (أي العباسيين) ، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوه به وولاه إشبيلية لأنه كان قعدد بني أمية . ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور العباسي ، أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، فتوقف عبد الرحمن في ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة المنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر . (1)

من هذه النصوص السابقة يبدو لنا أن ما يتعلق بدعاء بني أمية في قرطبة للعباسيين أمر مبالغ فيه ، وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة من بداية عهد عبد الرحمن الأول ثم قطعت بعد ذلك نهائياً .

على أنه يلاحظ أن أمراء بني أمية الذين حكموا قبل الناصر ، وإن كانوا قد قطعوا الدعاء لبني العباس ، إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفة ، واكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف (2) وهناك فرق كبير بين لقب خليفة وابن خليفة بطبيعة الحال .

ولا شك أن السبب في ذلك هو شعورهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد ، وأن الخروج عنها عصيان ، وأن الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين ، أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبية . (3)

هذا هو الأصل النظري للخلافة السنية " غير أن مصلحة العمل ومقتضيات السياسة وتغيرات الظروف فيما بعد ، حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضعه محل الاجتهاد . ومن ثم أجاز السنيون أنفسهم تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقضي بذلك (1) ، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين ، وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحلل الموشية ، من أن الأندلسيين أنفسهم هم الذين بايعوا وحملوا الأمير عبد الرحمن بن محمد (الثالث) على حمل هذين الإسمين : أمير المؤمنين والناصر لدين الله ، وصاروا يخاطبونه باسم الخليفة قبل إعلانه رسمياً وفي ذلك يقول . " وكان بعض أولي الفضل والتأمل من الناس سموه بهذا الاسم قبل أن يلبسه دهره ، وخاطبه به كثير من خاصته في كتبهم وأشعارهم ، فكثر ذلك عليه ووافاه من كل ثنية ، وجاءه من كل ناحية ، حتى اضطره إلى حمله ، وحاجره بأن يكون باخساً لنفسه في رفضه ، وهو قوي على مخالفة آبائه في اقتصارهم على سواه ، واستشهدوا عليه بما فهمه الله سليمان في الحكمة دون والده عليهما الصلاة والسلام (1) .

واضح مما تقدم أن نظرية الخلافة السنية قد تكيفت تكيفاً جديداً تبعاً للواقع وللضرورة السياسية ، والنظريات دائماً تتبع الواقع وتتأثر به .

وعلى أساس هذا المفهوم الجديد للخلافة ، أعلن عبد الرحمن بن محمد (الثالث) نفسه خليفة للمسلمين . ولا شك أنه كان مدفوعاً في ذلك بمصالح مختلفة في الخارج والداخل أهمها : -

(1) قيام خلافة شيعية فتية معادية في المغرب ، وهي الخلافة الفاطمية التي كانت ترنو إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع وغدر .

(2) ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام المقتدر ، واستبداد القواد الأتراك بها ، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي .

(3) ضعف مكانة الأمير الأموي في قرطبة نتيجة للثورات والفتن الداخلية التي شغلت عهود ثلاثة من الأمراء قبله ، بحيث أصبحت الحاجة ماسة إلى رفع مكانته ومنزلته السياسية والدينية ، لا سيماً وأن تلك الثورات الداخلية قد قضى عليها في بداية عهد عبد الرحمن الثالث .

(4) الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين .

يروي ابن عذاري أنه " في سنة 316 هـ ، قرر عبد الرحمن بن محمد أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره فيه ، بأمير المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم ، فعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة ، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك (1) ، وفي اليوم التالي 2 ذي الحجة سنة 316 هـ أصدر الخليفة الجديد منشوراً عاماً إلى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم فيه : .... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا ، ورودوها علينا كذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه واسم ثابت أسقطناه . فمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله " (1) .

كذلك أمر الناصر لدين الله بإثبات عبارة " الناصر لدين الله أمير المؤمنين " في إعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ، ونفذ الأمر بذلك (3) .

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة ، واستمر لقب خليفة في ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة 422 هـ (1031 – م) .

ويلاحظ أن نظام الخلافة الأموية في الأندلس ، كان نظام ملك يقوم على أساس التوريث ، ويستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً ، فهي تختلف تماماً عن خلافة الإسلام الأولى أيام الخلفاء الراشدين ، التي كانت تقوم على الشورى والانتخاب . على أننا مع ذلك إذا قارناً خلافة الأندلس بالخلافات الأخرى المعاصرة لها كخلافة العباسيين أو الفاطميين ، فإننا نجد أن الخلافة الأندلسية كانت أكثر ديموقراطية منها . فالخليفة العباسي كان يحكم بتفويض من الله وقد صرح بذلك أبو جعفر المنصور حينما قال : " إنما أنا سلطان الله في أرضه " ت، وهذه العبارة تشبه تماماً نظرية الحق الإلهي في الحكم . divine right of rule التي كانت سائدة بين الفرس قديماً والتي سادت أوروبا في العصور الحديثة .

كذلك كان الخليفة الفاطمي يرى نفسه إماماً معصوماً من الخطأ ، ولا يسأل عما يفعل ، لنه وارث العلوم للمدينة بما فيها من سر مكنون وغامض مصون من خفايا الكون .

وهذه القداسة لا نجدها في الخلافة الأموية الأندلسية ، فالخليفة إنسان عادي ، قد يخطئ أو يصيب ، والناس أحرار في نقده وإن استطاعوا عزله عزلوه . ومن أمثلة هذه الروح الديموقراطية التي امتازت به الخلافة الأموية بالأندلس ، أن عبد الرحمن الناصر حينما بنى مدينة الزهراء وصرف عليها جزءاً كبيراً من وقته ومن مال الدولة ، قامت عنده معارضة شديدة تزعمها قاضي قرطبة المنذر بن بن سعيد البلوطي ، فقد أخذ هذا القاضي يعرض بالخليفة في المساجد أيام الجمعة (1) ، وقد أثارت هذه المعارضة غضب الخليفة الناصر فأقسم بألا يصلي خلفه صلاة الجمعة أبداً ، ولكنه لم يستطع إيذاءه أو عزله .

ومثل هذه المعارضة نفسر ظاهرة فريدة في نوعها في ذلك الوقت ، إذ أنه من المعروف أن أموال الشعب كانت في العصور القديمة والوسطى ملكاً لرئيس الدولة .

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الأندلسية تخالف نشأة الخلافة في الممالك الإسلامية الأخرى ، من حيث أنها لم تستند على ما يسمى " بالحق الطبيعي الموروث ، الذي يأتي عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول كما يقول الشيعة ، أو عن طريق الميراث عن العباس بن عبد المطلب عم النبي كما يقول العباسيون على أساس أن العم في الميراث مفضل على ابن البنت مثل قول شاعرهم :

آلى يكون وليس ذاك بكائن

لبني البنات وراثة الأعمام !

أما في الأندلس فلم يحدث شيء من هذا التعقيد ، كل ما هنالك أن عبد الرحمن الناصر رأى أن يكون خليفة لأنه أحق من غيره بها ولا سيماً الفاطميين ، وعرض الأمر على الأمة فقبل الناس بذلك وبايعوه ، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم .

ومن حسن الحظ أن وثيقة الإعلان التي وزعها الناصر على عمالة في هذا الشأن محفوظة لدينا في كتب بعض المؤرخين أمثال ابن عذاري " وصاحب الحلل الموشية ، وفي تاريخ لمؤلف مجهول (1) ، وقد أوردنا جزءاً منها آنفاً ، ويلاحظ فيها البساطة في العرض والطلب .

ويبدو أن الخليفة الناصر أراد أن يتمم أبهة الخلافة الجديدة ويزيد في هيبتها فبنى قصراً خلافياً أسماه الزهراء . وما زالت آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم على نحو ثمانية كيلو شمالي غرب قرطبة . وهي تشهد برقي هذا العصر وبعظمة الخلافة الأموية .

أما من حيث المظهر العام للخليفة فإنه كان يشبه تماماً ما كان يحدث في خلافة بغداد أو القاهرة ، فالخليفة الأموي له حاشيته من خدم وحراس ، وله بلاط يستقبل رجال الدولة وسفراء الدول الأجنبية ويضم العلماء والشعراء وأهل الفن . وكثيراً ما تحاك فيه الدسائس والمؤامرات بين رجال الدولة وأحياناً تشترك فيها نساء القصر ، وقد أعطانا المؤرخون أمثال ابن حيان (2) وابن خلدون (3) وصفاً تفصيليا للحفلاتّ التي كانت تقام في قصر قرطبة أو قصر الزهراء ، بمناسبة استقبال ملوك أسبانيا ، أو ملوك وزعماء العدوة المغربية وهي كلها تعبر عما كان يمتاز به عصر الخلافة الأموية من قوة وتقدم ورخاء .

الصراع بين خلافتي المغرب والأندلس :

لا شك أن قيام خلافتين متجاورتين ، وعلى أسس مذهبية مختلفة ، كان من شأنه أن يحدث صداماً بينهما ، وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لخلافة الفاطميين الشيعية بالمغرب ، وخلافة الأمويين السنية بالأندلس ، فالفاطميون منذ قيام دولتهم في بالمغرب ، فكروا في غزو الأندلس ، ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجاسوسية من جهة أخرى ، لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية . . وكان هؤلاء الرجال في العامة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف كي يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب .

ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس ، نذكر الرحالة أبا القاسم ابن حوقل النصيبي (ت سنة 367 هـ - 977 م) الذي يبدو أنه تستر بالتجارة عند دخوله الأندلس ، إذ يسميه ياقوت بالتاجر الموصل . (1)

وقد اهتم ابن حوقل في تقريره الذي رفعه إلى الفاطميين ، بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية مع الإشارة إلى ضعف أهلها عن الدفاع عنها ، ليحمل هؤلاء على غزو تلك البلاد . ومثل ذلك قوله :

" وليس لجيوشهم حلاوة في العين ، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ، ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غير بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم .... ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها . (1) .

ولا شك أن ابن حوقل كان متحاملاً على الأندلسيين في كلامه ، ومبالغاً في اتهامه لهم بالضعف ، ولهذا لم يظفر مشروعه بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية (2) .

على أن نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها في الأندلس كان محدوداً ، وذلك لما كان للمذهب السني هناك من قوة متأصلة في نفوس الأندلسيين ، وإن كان ذلك لا يمنع القول من أن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم ، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب أسبانيا ضد الحكم الأموي أواخر القرن الثالث الهجري ، واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي (297 - 322 هـ) ودعا له في مساجد بلاده ، وقد أمده المهدي بالذخيرة والأسلحة (1) ، كما أرسل له داعيين أقاما عنده ، وأخذ يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين ، وإقامة دعوتهم . غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة الفاطمية ، وإنما اتخذها وسيلة ليكايد بها الأمويين في قرطبة بدليل أنه في أواخر أيامه ، استغنى عن الداعيين ، وأعدهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي (2) .

وهناك أيضاً القائد علي بن حمدون ، المعروف بابن الأندلس الذي ورد إلى المغرب من الأندلس ، واتصل بالمهدي ثم بابنه القائم (322 - 334 هـ) وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة ، وهي التي سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط .

ولما قامت فتنة أبي يزيد الخارجي في جبال أوراس ، كتب الخليفة القائم على ابن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب ، فكانت لابن حمدون جولات مع أبي يزيد تجلى فيها جلده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهق فمات سنة 334 هـ . وعقد الخليفة اسماعيل المنصور (334 - 341 هـ) لجعفر بن علي بن حمدون على المسيلة والزاب فصارت له هناك دولة مزدهرة ، وقصده العلماء والشعراء ، مثل الشاعر الغرناطي ابن هانئ الأندلسي الذي مدحه بقوله :

المدنفان من البرية كلها   جسمي وطرف بابل أحور

والمشرقات النيرات ثلاثة   الشمس والقمر المنير وجعفر (1)

وهذا الشاعر ، ابن هانئ الأندلسي (بـ 362 هـ) ، يعتبر أيضاً من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث الحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (341 - 265 هـ) ، ويعتبر شعره في ح هذا الخليفة ، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الإسماعيلية (2) .

ولقد زاد من خطورة الدولة الفاطمية ، أنها كانت تمتلك قوة بحرية منظمة في المغرب وصقلية ، ورثتها عن الأغالبة ، ثم عملت على تنميتها وتقويتها منذ قيام دولتها ، وبني الخليفة المهدي على الساحل التونسي بين سوسة وصفاقس مدينة المهدية التي أشاد المؤرخون بدار صنعتها التي نقرت في الجبل ، وبقوة أسواردها وضخامة أوبوابها وكثرة مراجلها ، حتى إنه يقال إن المهدي لما فرغ من بنائها قال : " آمنت اليوم على الفاطميات ، وهذا دليل على حصانتها (3) .

ولعل القصيدة التي أوردها الشاعر علي بن محمد الإيادي التونسي ، في وصف الأسطول الفاطمي على عهد الخليفة محمد القائم ، تعطينا فكرة عن قوة الأسطول في ذلك العهد ، وفيها يقول :

أعجب بأسطول الإمام محمد ويحسنه وزمانه المستغرب

لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المتعجب

شرعوا جوانب مجاذف أتعبت شادي الرياح لها ولما تتعب

والبحر يجمع بينها فكأنه قيل يقرب عقرباً من عقرب

وعلى جوانبها أسود خلافة تختال في عدد السلاح المذهب (1)

على أن الحكومة الأموية في الأندلس ، لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندس ، إذ كان لها هي الأخرى عيون ووسطاء منبثون في أنحاء المغرب . وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد . وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ، ووهران oran ، وتنس tenes ، وبونه (عناية الحالية شرقي الجزائر) ، وبجاية ، ومرسى الدجاج . وكانت هذه الجاليات ، قوية التمسك بالعقيدة السنية ، شديدة الكراهية للمذهب الشيعي (2) .

وحسبي أن أضرب مثلاً لهذه المقاومة المالكية الداخلية ، بالنص الذي أورده المالكي في كتابه رياض النفوس ، تعقيباً على احتلال الإمام عبيد الله المهدي لإفريقية ، إذ يقول فيه بأن فقيهاً مالكياً يدعى جبله ، ترك رباطه بقصر الطوب ، وأقام في مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط ، فتركت الرباط والحرس ، ورجعت إلى ها هنا " . فقال : " كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذي قد حل بساحتنا ، لأنه أشد علينا من الروم " .

فهذا النص يدل بوضوح على مدى الانقسام الديني الذي أحدثه حلول الفاطميين في المغرب (1) .

وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت ، رجل قوي الشخصية ، بلغت الأندلس في عهده ذروة القوة والاستقرار ، وهو الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الناصر لدين الله ، الذي حكم الأندلس مدة نصف قرن (300 - 350 - هـ 912 - 96 م) .

وقد اضطر هذا الرجل أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي ، نلخصها فيما يلي :

أولاً : إعلان نفسه خليفة :

أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة 317 هـ - 929 م . وكان الدافع الأساسي لهذه الخلافة السنية الجديدة ، هو - كما ذكرنا آنفاً - مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في المغرب ، وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم ، ولهذا فرضوا قتاله ، واستحلوا دمه ، وفي ذلك يقول الخليفة المعز الفاطمي في خطاب له وجهه إلى الأندلس :

" وهو يزعم أنه أمير المؤمنين ، كما تسمى دون من سلف من آبائه ، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله . ونحن نقول : " إننا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه ، مع بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه ، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية . . . الخ " (1) .

واضح من هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين الخلافتين أنه كان من المتعذر التوفيق بينهما .

ثانيا : تقوية الأسطول الأندلسي

اهتم الناصر منذ بداية حكمه ، بإعداد أسطول يجري كامل الإعداد والتنسيق وبذل في ذلك جهوداً جبارة لدرجة أن عمال دور الصناعة - كما يقول دوزي - لم يجدوا وقتاً للراحة . وبذلك استطاع أن يشحن موانيه بالسفن والعتاد الحربي والجنود . ولقد أصدر الناصر أوامر إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين ، وفي ذلك يقول عذاري : " وفي سنة 301 هـ ، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميزه من العدوة ، فأحرق جميعها . " (2)

ثالثاً : تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية التي كانت عرضة لأي غزو مفاجئ يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده . ويروي المؤرخون أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة 302 هـ (914م) حيث أشرف على الأعمال الدفاعية في طريف tarifa والجزيرة الخضراء algeciras ولا يزال القصر الذي بناه في طريف باقية أثاره إلى اليوم (1) أما الجزيرة الخضراء فيروي الحميري أن الناصر بنى فيها دار صناعة للأساطيل ، أتقن بناؤها ، وعلا أسوارها ، لأن مرساها هو أيسر المراسي وأقربها من بر العدوة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبته . (2)

ونظراً لأهمية موقع ها الثغر وخطورته ، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور ، في يد أمير من الأسرة الأموية .(3)

رابعاً . احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق .

استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل بلاده ، فيروي البكري أنه في سنه 314هـ (927 م) .

استولى الناصر على مدينة مليلة melille ، وبنى سورها ، وجعلها معقلاً للزعيم المكناسي موسى بن أبي العافية المكناس موسى بن أبي العافية حاكم هذه المناطق الشمالية ، الذي انضم عليه وخلع طاعة الفاطميين ، وأرسل بعض أسراهم إلى قرطبة لعرضهم في شوارعها . وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر أحمد بن موسى الرازي :

والملك الناصر دين الله فيما يحوط الدين غير ساه

بنى لموسى عدة مدينة منيعة شاهقة حصينه

ذلت لها تاهرت والأفرقة ولم يطف بنيانها العمالقة

وفي ربع الأول سنة 319 هـ (931 م) (2) احتل عبد الرحمن الناصر مدينة سبته ceuta على يد قائده فرج بن عفيره وعمل على تحصينها لأهمية موقعها . وقد وصف ذلك ابن عذاري بقوله :

وشكها بالرجال ، واتقنها بالبنيان ، وبنى سورها بالكذان ، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده ، وصارت مفتاحاً للغرب والعدوة من الأندلس ، وبابا إليها ، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدوة المغربية ، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون لربيع الأول من العام المؤرخ . (3) .

هذا وقد كان يشير البكري إلى أنه كان يعيش بسبته جالية أندلسية كبيرة من أهالي مدينة قلسانة calsena هاجروا إليها واستوطنوها أيام المحل (الجدب) الذي حل بالأندلس (131 - 136 هـ) ، وأنهم كانوا يؤدون الطاعة إلى قريش المدرة من الحسنيين (أي الأدارسة) ، حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر . (4) .

وكان من الطبيعي بعد احتلال سبتة ، أن يحتل الناصر ثغر طنجة المجاور لها ، وقد أشار ابن عذاري إلى التحصينات التي أقامها عاهل الأندلس في هذه المدينة (1) .

كذلك يروي البكري أن عبد الرحمن الناصر ، حاول في سنة 320 هـ (922 م) احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط ، وهو جزيرة أرشقول ، التي تسمى اليوم رشجون rachjoun أمام مصب نهر تافنا بالجزائر ، وهي جزيرة عالية منيعة ، تحصن بها أحد أمراء الأدارسة ، واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش . فحاصرها الأسطول الأندلسي مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بن أن فرغت جبابهم من المياه ، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم عندئذ اضطر الأسطول الأندلسي أن ينصرف عنهم عائداً إلى المرية (2) .

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة الجزائرية ، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى مثل سبتة وطنجة ومليله ، أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأن يتدخل في سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي .

خامسا : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى ، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها بعد الغزو الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة ، وأصيلاً ، وقلعة النسر أو حجر الفسر بين قبائل غمارة . ومثل إمارة لكور أو بني صالح ، وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف ، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح ابن سعيد . وتنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يمني من قواعد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحريري ، كان قد استقر في هذه المنطقة ودفن بها ، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح ، ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة – ولقد لعبت إمارة نكور دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة وصنهاجه ، كما أنها في الوقت

نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ، ولقيت من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته تأييد الأمويين في الأندلس لها (1) .

ولم يقتصر الناصر على محالفة هذه الدويلات المغربية الشمالية ، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر ولا سيماً قبيلة زناته التي عمل على تحريضها ودفعها إلى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين . وقد شرح لنا صاحب كتاب مفاخر البربر هذه السياسة بقوله : -

" وتخطاهم عبد الرحمن إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر ، يستألفهم ، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ، ممداً لمن عجز برجاله ، مقوياً لمن ضعف بماله ، متعهداً بوجوه رسله وخواصه ، إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه ، وأرقسموا بطاعته ، ولا سيماً عند امتياز أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله ، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها ، ووقائع يبعد تقصيها ، وهلك باختلافها من ملوك الدعوتين ، وزعماء الطائفتين جماعة كبيرة (1) " .

سادساً : تأييد ثورة أبي يزيد الخارجي

عمل الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية ، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي ضد الدولة الفاطمية . وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم ، وجزءاً من عهد ولده اسماعيل المنصور (2) (234 - 341 هـ) ، ولم يتردد خليفة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية ، وفي مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ودعا للخليفة الناصر في البلاد التي خضعت له فيروي ابن عذاري أنه في سنة 233هـ (944) ، أرسل أبو يزيد إلى الناصر وفداً يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما ، وهزيمته لجند القائم الشيعي ، ويظهر له خضوعه واعترافه بولايته ، وفي السنة التالية (334 هـ) أرسل أبو يزيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي . وفي السنة التي تلتها (335 هـ) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولد أيوب . فأكرمه الناصر ، وأنزله في قصر الرصافة وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده ، وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطراً كبيراً على الدولة الفاطمية إلا أنها انتهت أخيراً بالفشل وبقتل صاحبها سنة 336 هـ (948) (1) .

سابعاً : التحالف مع أعداء الدول الفاطمية من ملوك أوربا والمشرق

لم يتردد الناصر في إبرام اتفاقيات تحالف مع ملوك الدول المعادية للفاطميين فتحالف مع ملك إيطاليا هوج دي بروفانس hugues de province الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة . كذلك تحالف مع قسطنطين السابع امبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين . وهنا تشيد المصادر الأندلسية بالاحتفالات الفخمة البالغة التي استقبل بها الناصر رسل الروم في سنتي 344 هـ (945 م) ، 338 هـ (950م) (1) أما المصادر الإسماعيلية فإنها تؤكد وجود اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين : هؤلاء من المغرب ، وأولئك من الشرق ، وفي ذلك يقول القاضي النعمان :

" وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة . وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قبله فأجابه إلى ذلك . وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ، ومراكب بني أمية من الأندلس " .

والواقع أننا لا نستطيع على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك لا سيماً وأن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي أبرمت بين الناصر والبيزنطيين . وأغلب الظن أنها كانت على غرار المحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والإمبراطور تيوفيل 225 هـ (840م) وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية ولكن دون الارتباط معهم في حمل حربي مشترك (2) .

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الأخشيديين ملوك مصر ، فأرسل إليهم عشرة آلاف دينار لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك . وجدير بالذكر أن رئيس المدرسة المالكية في مصر في ذلك الوقت كان عالماً أندلسياً اسمه أبو إسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطبي ، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ويدعو على نفسه بالموت قبل مجئ دولتهم وقد توفى فعلاً في سنة 355 هـ أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات (1) .

على أن النزاع بين الفاطميين والأمويين لم يقتصر على هذه الحرب الباردة القائمة على التسابق في التسلح ، واحتلال المواقع الهامة وإثارة الفتن بين قبائل البربر ، وتدبير المؤامرات من وراء ستار ، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما . وقد أعطانا ابن الأثير وصفاً لبداية هذا الاشتباك بقوله : -

وفي سنة 344 هـ (955 م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي ، صاحب الأندلس ، مركباً كبيراً لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً كبيراً لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي فقطع عليه أهل المركب الأندلسي ، وأخذوا ما فيه ، وأخذوا الكتب التي إلى المعز ، وبلغ ذلك المعز فعمر أسطولاً واستعمل عليه الحسين علي صاحب صقلية ، وسيره إلى الأندلس فوصلوا إلى المرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب ، وأخذوا ذلك المركب ، وكان قد عاد من الاسكندرية ، وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات وصعد من في الأسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا ، ورجعوا سالمين إلى المهدية (2)

واضح من هذا النص السابق ، أن السبب الأساسي للاشتباك المسلح بين الدولتين ، هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها وإلى الفاطميين بصقلية إلى الخليفة المعز بالمهدية . وقد رجح دوزي أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع هجوم فاطمي على الأندلس ، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها (1) .

ولقد كان رد الناصر على هذا الاعتداء . أن أمر عماله بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس ، كما أمر مملوكه غالب بن عبد الرحمن الناصري بالإبحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين في إفريقية . (2) إلا أنه يبدو أن القائد غالب لم يوفق كثيراً في هذه الغارة ، إذ يقول ابن الأثير في هذا الصدد .

" فنزلوا ونهبوا ، ثم قصدتهم ، عساكر المعز ، فعادوا إلى مراكبهم ، ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم " (3) على أن القائد غالب لم يتردد في معاودة الكرة في السنة التالية (345 هـ - 956 م) ، فهاجم بأسطول من سبعين سفينة ، مدينة الخرز - حالياً la calle - " وكانت كما يقول البكري ، قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية (4) ، فأضرم النار فيها ، كما خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت . (5)

هذا ، ويعطينا ابن عذاري وصفاً طريفاً يصور لنا بروز إحدى هذه الحملات الموجهة ضد الفاطميين ، من العاصمة قرطبة ، ومدى الحماس والهرج الذي انتاب الأهالي والجنود خلال هذا الاحتفال الشعبي ، ومثال ذلك قوله : -

" وفي سنة 347 هـ ، في أول المحرم ، أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلي بالخروج غازياً في الأسطول إلى بلد الشيعى معد ابن اسماعيل (المعز) صاحب أفريقية . فبرز ابن يعلي إلى محلة الربض لغزاته هذه ، يوم الخميس لثمان خلون منه ، وكان بروزه فخماً خرج إليه من النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وأبناؤهم وولدانهم ، خلق لا يحصيهم إلا خالقهم ، فانتشروا بأكتاف الربض على عادتهم ، فأخذ السفلة منهم والغوغاء ، يتقاذفون بالحجارة حاكين صفى القتال ، فدخل في عرضهم قوم من الطنجيين من جند السلطان ، حشروا الضراب حتى حمى وطيسه ، وقد تكنف صفيهم من النظارة بالرجال والنساء خلق عظيم فلم يك إلا ساعة ، ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحد صفيهم ، فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليهم فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال وتخطوهم إلى من حولهم من النظارة ، وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن ... وشرح ذلك يطول (1) .

واستمرت الغارات ، والاشتباكات البحرية متبادلة بين الطرفين دون توقف تقريباً فيما تلا ذلك من سنين ، كما استمر الأمويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية وجالياتهم الأندلسية على الساحل المغربي .

واضطر الخليفة المعز الفاطمي في سنة 347 هـ (958 م) أن يبعث قائده جوهر الصقلي أو المغرب الأقصى لإخضاع البربر لسلطان الفاطميين والقضاء على النفوذ الأموي بالمغرب ونجح جوهر في إخضاع البربر (1) ولكنه لم يستطع القضاء على القواعد الأموية الساحلية إلى حرص الأمويون على التمسك بها والدفاع منها ، وفي ذلك يقول ابن عذاري :

" وفي سنة 348 هـ ، أوصل الناصر إلى نفسه حريز بن منذر في جماعة من وجوه الموالي والعرفاء ورجال الجند ، يأمرهم جميعاً بالخروج إلى مدينة سبتة من أرض العدوة مع بدر الفتى الكبير صاحب السيف ، لتنفيذ العدد فيها من أجل جولان جوهر ، قائد معد الشيعي صاحب القيروان بأرض العدوة ، فنفذوا لأمره ومكثوا لذلك إلى أن أمنت الحادثة ، فانصرفوا مع القائد بدر ، آخر ذي الحجة من السنة (2)

ثم توفى الخليفة الناصر ، وخلفه ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (250 - 366 هـ = 961 - 976م) الذي سار على سياسة والده العدائية نحو الفاطميين . فيروي ابن عذاري أنه في سنة 353 هـ تحرك الحكم بنفسه من قرطبة إلى ثغر المرية توقعاً لما يصدر من صاحب أفريقية المحاد لأهل الأندلس ، ولمعاينة ما استكمله بها من الحصانة ، ومطالعة الرابطة القبطة - حالياً gabo de gata ومشارفة حال الرعايا بتلك الجهة (3)

ومن هذا كله ، يبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس ، كما شعروا أن بقائهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وتقلباتهم ، وأما غارات الأمويين ودسائسهم ، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر . (1)

وفي عام 258 هـ (969م) ، تمكن القائد من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة .

وهذا الغزو من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة . وهذا الغزو يعتبر فريداً في نوعه ، إذ

لم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية إلا في أيام الفراعنة ، حينما غزاها الليبيون أيام الأسرتين 22 ، 23 . ثم لحق الخليفة المعز بقائده جوهر في مصر سنة 362 هـ تاركاً حكم المغرب في يد حلفائه بني زري زعماء صنهاجه .

واستمرت السيادة الفاطمية والأموية في المغرب قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناته وضرب بعضها ببعض . وأخيراً تمكنت صنهاجة ، أو بمعنى آخر الدولة الزيرية ، من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب ، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة ، فقد سيطرت عليه زنانة وحلفاؤها الأمويون .

وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعين وحلفاتهما في المغرب ، وبالتالي خفت وطأة الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس (2) .

على أن ابتعاد الخلافتين عن بعضهما . لم يحل دون استمرار العداء بينهما ولا أدل على ذلك من الخطاب الذي أرسله الخليفة العزيز بالله الفاطمي إلى خليفة الأندلس الحكم المستنصر يهجوه فيه ، وقد رد عليه الخليفة الأموي بعبارة موجزة حسمة ، وقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفنا لأجبناك ، (1) وفي هذا إشارة إلى الطعن في نسبه .

كذلك يرى من حجر السقلاني أن رجلاً أندلسياً حاول اغتيال قاضي قضاة مصر الحسين بن علي الفاطمي أثناء تأديته الصلاة في أحد مساجد ألقاه سنة 291 هـ واستند ذلك الوقت اضطر القضاة إلى اتخاذ حرس أم الصلاة . (2)

هذا ولم يتردد الأمويون في إظهرا نواياهم وأطباعهم في الاستيلاء على ملك الفاطميين في مصر والشام . ونجد ذلك واضحاً في شعر حاجبهم المنصور بن أبي عامر على عهد الخليفة هشام المؤيد مثل قوله :

عن قريب نرى خيول هشام   يبلغ النيل خطرها والشآما (3)

ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا ، قد كاد أن يتحقق فعلاً بعد وفاته بقليل . إذ يروي المؤرخون أنه في عام 395هـ (1005م) .

قامت في إقليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، قام بها أحد افراد البيت الأموي ، ويسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبي وكرة – وكان قد خرج من الأندلس مظهراً التصرف ، واشتغل بتعليم الصبيان ، ولما قوى أمره دعا على المنابر باسم الخليفة هشام المؤيد ، وكان يلعب الحاكم بأمر الله وآباءه ، واستولى على برقة ، وانتصر على الجيوش التي وجهها إليه الحاكم ، واستطاع في سنة 297هـ (1007م) ، أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة ، ولكنه انهزم أخيراً وأسر ، وعرضه الحاكم في شوارع القاهرة عرضا مزرياً ، إذ جعل وراءه قرداً يصفه على رأسه ثم قتله وصلبه . (1)

علىأنه يبدو أن هذه الثورة الأموية السنية ، وإن كانت قد فشلت في القضاء عن دولة الفاطميين في مصر . إلا أنها قد تركت آثاراً سنية معادية للفواطم في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى ويظهر ذلك جلياً في سياسة المعز بن باديس الصنهاجي . ملك الدولة الزيرية ، حينما فتك بالشيعة في ولايته سنة 408 هـ (1017م) . ويقال في تعليل ذلك إن المعز وقع تحت تأثير أستاذ سني المذهب كان قد تولى تربيته منذ صغره (2) .

ويروى ابن الأثير ، أن المعز بن باديس كان ماشياً مع القيروان والناس يدعون له ، فاجتاز بجماعة هناك ، فقيل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز ، رضي الله عن أبي بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها على هرب المقلى بالقيروان ، وهو مكان يجتمع به الشيعة فقتلوا فيهم ثم انتشرت المذابح في أنحاء الدولة الزيرية . وكانت القيمة تسمى في المغرب بالمشارقة نسبة إلى عبد الله الشيعي الداعي الذي يعرف أيضاً بالمشرقي لأنه جاء من المشرق . (1)

ولم يقتصر أمير أفريقية على اضطهاد الشيعة بل أخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي وترك ما دونه من المذاهب الأخرى حتى يتم له بذلك الانفصال الروحي أو المذهبي عن الدولة الفاطمية في مصر (7) .

وهكذا نرى مما تقدم ، أن النزاع بين هاتين الخلافتين ، كان نزاعاً مذهبياً عنيفاً يتعذر حله ، ولا يرجى صلاحه ، ولهذا استمر قائماً بينهما إلى أواخر أيامها .

نهاية الخلافة الأموية بالأندلس :

استمرت الخلافة الأموية في الأندلس تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، إلى أن جاء الحاجب المنصور بن أبي عام وأبناؤه من بعده فانتزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد ، واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعي فكان مثلهم في ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية في بغداد ومثل أسرة بدر الجمالي التي سيطرت على الخلافة الفاطمية في القاهرة .

ولا شك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالأندلس ، لا سيماً بعد أن طمع عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر (1) فيما لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل .

ذلك أنه طمع فيما بقي للخليفة الأموي من سلطة روحية وأراد أن يستأثر لنفسه بالسلطة الشرعية في الدولة أي بالخلافة نفسها ، وكان الخليفة هشام رجلاً طيباً لا يرد طلباً فيتقدم إليه عبد الرحمن بأن يعهد إليه بولاية العهد . فوافق هشام وكتب عهداً بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن . وقد هز هذا الحادث الدولة الأموية هزاً عنيفاً ، وعز على المضريين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين (1) وأن تبتعد الخلافة عن قريش فانبعثت العصبية العربية ، وانتهز الأمويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية فخلعوا هشاماً عن العرش ، وولوا رجلاً من أحفاد الناصر ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المهدي بالله .

ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن ، رجع من الشمال وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه ، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله للمهدي وجماعته . وبموته انتهت دولة بني عامر سنة 399هـ . ويلاحظ أن نهاية هذه الدولة يدل على تعلق الناس بالخلافة ، وحرصهم على أن تكون من قريش (2) .

والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس ، مليئة بالفتن والاضطرابات تصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة .

ويكفي الدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس .

وفي سنة 422 هـ (1031 م) سقطت الدولة الأموية بعد نزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله وإجلاء من تبقى من المروانية عن قرطبة وفي ذلك يقول ابن الخطيب : ومتى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ، ولا يكنفهم أحد (1) . ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جهود انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها وصيرورة الأمر شورى وأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو ما أسماه بالجماعة .

وهكذا تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة (2)

تعدد الخلافة في عصر دول الطوائف

نتج عن سقوط الدولة الأموية أن انقسمت الأندلس أن دويلات صغيرة متنازعة ، واستقل كل أمير بناحيته ، وأعلن نفسه ملكاً عليها فدخلت البلاد بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف ، أو عصر الفرق كما يسميه ابن الكردبوس (2)

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس :

الحزب الأول : ويمثله أهل الأندلس ، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا في البوتقة الأسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين ، بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلبي أو الأسباني وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة .

وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون (1) في إشبيلية وبنو جهوو في قرطبة وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى سرقسطة وبنو صمادح أو بنو نجيب في المرية ، وبنوا برزال في قرمونة ، ونبو خزرون في أركش ، وبنو نوح في مورور moron وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية (7) . . الخ

أما الحزب الثاني فيمثله المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالأندلس ولا سيماً الصناهجة الذين استقروا بها في أيام المنصور بن أبي عامر ، ومن زعماء هذا الحزب بتوزيري الصنهاجيون في غرناطة وهم فرع من بني زيري حكام الدولة الزيرية في إفريقية على عهد الفاطميين ، وكذلك بنو حمود الإدارسة الحسنيون العلويون ، وهم من سلالة الأمير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني الذي كان يحكم بلاد غمارة في شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط . وفي خلال الفتنة التي عمت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتهز أمير من سلالة الأمير أبي حفص عمر وهو ، علي بن حمودة وكان والياً على طنجة وسبتة ، فاستولى على مالقة ثم تقدم إلى قرطبة وقتل صاحبها الخليفة الأموي سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن " الملقب بالمستعين ، وذلك سنة 407 هـ وأسس دولة الحموديين التي كانت قاعدتها مالقة (1) ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا بحكم استقرارهم بين البربر في المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربري ومثل ذلك ما يرويه ابن الخطيب من أن علي بن حمود السالف الذكر كان بربري اللسان وأنه حينما قتل سليمان المستعين قال : لا يقتل الزلطان إلا الزلطان " . (7)

أما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبة الذي استقلوا بشرق الأندلس levante وهؤلاء الصقالبة كانوا في الأصل رقيقاً أو عبيداً من سبي الشعوب السلافية الذين يبعوا إلى عرب الأندلس ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة ثم توسع الأندلسيون في استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية بما في ذلك شمال أسبانيا المسيحي . وجاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً من الجنسين إلى قرطبة حيث

ربى الذكور منهم تربية عسكرية إسلامية واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش ثم تدرجوا في الرقى حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الأموية ، كما برز منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة .

وفي أثناء اضمحلال الخلافة الأموية ، شارك هؤلاء الصقالبة في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد وتزعمهم خيران العامري رئيس حزب الصقالبة في العاصمة . وبعد سقوط الدولة الأموية ، تكونت من هذا الحزب الدويلات الإسلامية الصغيرة التي قامت في شرق الأندلس ، والتي كانت تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية ، لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصور بن أبي عامر وأبنائه . ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا في هذه المنطقة نذكر مجاهد العامري الذي استقل بداية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردانيا وسواحل إيطاليا وسيطرت أساطيله على غربي حوض البحر المتوسط () .

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكه بسياج شرعي روحي ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره .

فبنو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول ، جاءوا بشخص فقير يسمى ، " خلف الحصري ، كان يعمل حصرياً في مصنع للحلفاء ، " كان شديد الشبه بالخليفة الأموي هشام المؤيد للشكوك في موته ، فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمناً إلى أن أظهر موته للمعتضد بن عباد وقعاه إلى رعيته سنة 455 هـ واستظهر بعهد عهده له الخليفة هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جزيرة الأندلس . (2)

أما الحزب المغربي في الأندلس ، فقد تزعمته خلافة بني حمود مستندة إلى أصلها العلوي الشريف . ولا شك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودي يعرف بصاحب البربر ، وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول . على أن فقر بن حمزة في الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت ، إلا أنه كان قاصراً على منطقة مالقة والجزيرة الخضراء أي في الجزء الجنوبي من الأندلس المجاو . لممتلكاتهم في شمال المغرب ، ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم ، وصار كل واحد فيهم يدعي الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب محلا في مثل المهدي والعالي والمستعلي والسامي والمتأيد . (1)

ولم يلبث نفوذ بني حمود أن انتهى في الأندلس بأن استولى بنو زيري ملوك غرناطة على مالقة ، كما استولى بنو عباد على الجزيرة الخضراء فانتهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلي في العدوة المغربية .

أما الفريق الثالث ، هو الحزب الصقلبي ، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة في مملكته ، ونذكر على سبيل المثال أبا الجيش مجاهد العامري الصقلبي الذي أقام في مملكته بدانية والجزر الشرقية ، خليفة قرشيا من إشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطي ، ولقبه بالمنتصر بالله ، وأثبت اسمه في سكته وإعلامه سنة 405 هـ . ولكنه سرعان ما عزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تآمر ضده أثناء غيابه في غزو جزيرة سردانيا . وقد لجأ المعيطي إلى مدينة بجاية بالمغرب الأوسط حيث اشتغل معلماً لصبيان البربر إلى أن مات سنة 432 هـ (1)

وهكذا نجد أن الخلافة في الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها ، وهذا يعبر مظهراً من مظاهر الفوضى وعاملاً من عوامل الفتنة في تلك الفترة . وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين قد أجازوا تعدد الخلافة الضرورة والمصلحة وهي اتساع رقعة الإسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه " إلا أنهم اشترطوا في ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعاً للتصادم والتشاحن ، ولحماية المسلمين من شرور الفتنة ، ولكنا نرى أن الأندلس في هذه الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعي لأنها أجازت العقد لخلفاء عديدين في صقع متضايق الأقطار ، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب ، ولعل خير تعقيب على ذلك قول أبي محمد بن حزم في هذا الصدد : " اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب لهم بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلها ، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين وهم : خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام وشهد له خصيان ونران ، فخطب له على مقابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله . ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء ، ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة وإدريس بن يحيى بن علي ببشتر " (1) .

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفيين قد عمدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين في حياتهم وفي ألقابهم ونعرتهم الخلافية وفي ذلك يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيرواني .

مما يزهدني في أرض الأندلس   أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد (2)

هذا وقد بلغ من أمر تقليد هؤلاء الملوك لخلفاء الشرق أن بني حمود الأدارسة في مالقة كانوا إذا حضرهم شاعر أو زائر كان عليه أن يتكلم معهم من وراء حجاب أوستر ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقوله الخليفة .

فيروى في هذا الصدد أنه لما حضر الشاعر ابن مقاناً الأشبوني أمام الخليفة إدريس بن يحيى الحمودي وأنشده قصيدته النونية التي مطلعها :

وكأن الشمس لما أشرقت   فانثنت عنها عيون الناظرين

إلى أن قال : أنظرونا نقتبس من نوركم

إنه من نور رب العالمين

عندئذ رفع الخليفة الحمودي الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر (1)

وهذا الحادث يرينا مدى الروح الديموقراطية التي ظلت تسود حكام الغرب الإسلامي رغ هذه القداسة المصطنعة التي حاولوا تقليد المشرق فيها .

المرابطون والخلافة العباسية :

وبينما كانت الأندلس تعاني من هذا التفكك السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف ، إذا بالمغرب يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية في ظل دولة المرابطين وزعيمها أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللتوني الصنهاجي (2) :

ولا شك أن تاريخ بلاد العدوتين المغربية والأندلسية ، الذي هو وليد جغرافيتها ، يجعلنا ندرك تماماً بأن هذه القوة المرابطة الفتية الطموحة ما كانت لتقف وجها لوجه أمام الأندلس مكتوفة الأيدي عند هذا الحد الشمالي للمغرب ، لأن منطق الأحداث التاريخية ، من قبل ومن بعد . كان يفرض عليها الانتشار والتوسع في العدوة الأندلسية المقابلة ، خصوصاً بعد أن امتلك المرابطون ثغور المجاز المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلة .وقد يؤيد هذا الكلام تلك القصة التي أوردها صاحب المعجب عن مخاوف الأندلسيين من هذا الغزو المرابطي منذ أن بدأت طلائعه تخرج من صحراء شنجيط (موريتانيا الحالة) وتتدفق نحو المغرب الأقصى (1) . إلا أنه يبدو أن الظروف السياسية قد خدمت المرابطين في هذه الناحية ، فجعلت الأندلس تحت ضغط الغزو المسيحي من الشمال هي السباقة في طلب المعونة من المغرب قبل أن تفرض عليها فرضاً ، وقد روي في هذا الصدد أن المعتمد بن عباد حيثما عزم على الاستنجاد بالمرابطين قال جعلته المشهورة التي عبرت عن شعور المسلمين في ذلك العصر : " رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير أ " . وهذا التصريح الجميل يدل بوضوح على أن المعتمد كان يعلم تماماً بأن ملكة ضائع سواء على يد المرابطين في الجنوب أو الأسبان في الشمال ، إلا أنه كان يفضل السيادة الإسلامية بطبيعة الحال

ثم عبر المرابطون الأندلس واقتصروا على ملك أسبانيا الفوفسو السادس في وقعة الزلاقة سنة 479 هـ (1086 م) . ثم أعقبوا هذا الانتصار بالاستيلاء على الأندلس ، وخلع ملوك الطوائف بعد أن ثبت تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع العدو " وبذلك أصبح القطران (المغرب والأندلس) – ، يكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مدينة مراكش . وعلى الرغم من ضخامة هذه المملكة المغرية فإن المرابطين لم يحاولوا تلقيب أنفسهم بلقب خليفة أو أمير المؤمنين بل اكتفوا بلقب أمير المسلمين ودعوا للخليفة العباسي ببغداد (1) وفي هذا الصدد يقول صاحب الحلل الموشيه : ولما ضخمت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمالته ، اجتمعت إليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وقالت له : أنت خليفة الله في أرضه وحقك أكبر من أن تدعي بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين . فقال لهم : حاش الله أن تتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم فقالوا له لابد من اسم تمتاز به فأجاب إلى أمير المسلمين وناصر الدين وخطب له بذلك في المنابر وخوطب به من العدوتين (1) .

وفي هذا المعنى أيضاً يقول السلاوي الناصري : وإنما أحتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة العباسي مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولاته مستندة إلى الشرع . . . وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه ، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش (2) .

وبعض المؤرخين مثل ابن أبي روزع في كتابه روض القرطاس يرون أن يوسف بن تاشفين ، قد اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة سنة 479 هـ (086 م) وهذا الرأي مشكوك في صحته والدليل على ذلك هو الظهير الرسمي الذي أصدره يوسف بن تاشفين إلى رعيته لتلقيه بأمير المسلمين وناصر الدين ، وهذا الظير ينص على تاريخ صدوره وهو نصف المحرم سنة 466 هـ أي قبل موقعة الزلاقة بثلاثة عشر عاماً . وقد ورد هذا الظهير في كتاب الحلل الموشية السالف الذكر (3) .

كذلك يروى بعض المؤرخين أن دعاء الرابطين للخليفة العباسي قد تم بعد موقعة الزلاقة أيضاً وهذا يبدو غير صحيح كذلك لأن النقود المرابطة تثبت لنا أنهم دعوا للخلفاء العباسيين ولقشوا اسمهم على السكة منذ سنة 450 هـ أي منذ بداية دولتهم في عهد الأمير أبي بكر بن عمر ، غير أنه يلاحظ أن اسم الخليفة العباسي المنقوش على السكة المرابطية كان يكتب في هذه الصيغة " عبد الله أمير المؤمنين (1) . وقد رجع البعض أن المقصود بهذا الاسم هو عبد الله بن ياسين مؤسس الدعوة المرابطية ولكن هذا الرأي غير صحيح كذلك لأن عبد الله بن ياسين لم يتخذ لنفسه لقباً خلافياً ولم يتجاوز سلطته كفقيه ، والرأي الصائب هو ما رواه العالم الأثري الألماني فإن برشم van berchem من أن الخلفاء العباسيين كانوا يكنون عن أنفسه يلقب عبد الله في النقوش أو النقود ، ولم يذكروا أسماءهم المجردة ، وقد فعل المرابطون بالمثل فاكتفوا باستعمال صيغة عبد الله وهي كنية يمكن أن تخلع على أي خليفة عباسي ، ثم أضافوا إلى جانبها لقب " أمير المؤمنين (2) " .

هذا وينبغي أن نشير إلى أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعاراً لهم في ملابسهم وأعلامهم – وهذا اللون الأسود كما هو معروف هو شعار العباسيين الذين أصبحت لهم السيادة الروحية على تلك البلاد الغربية بعد انقطاع طويل .

بقت مسألة أخيرة تسترعي الانتباه والاهتمام وهي معرفة اسم الخليفة العباسي الذي أرسل إلى يوسف بن تاشفين تقليده واعترافه بشرعية حكمه على تلك النواحي الغربية ، وكذلك اسم الرسول الذي حمل الرسالة الخلافية إلى العاهل المغربي . وقد قصى ابن خلدون على أن يوسف بن تاشفين خاطب الخليفة العباسي المستظهر بالله ، وأوفد عليه ببيعته ، عبد الله بن العربي وولده القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان ترقيته إياه على المغرب وتقليده ذلك ، فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب (1) .

وعلى الرغم من هذا النص الصريح الذي يحدد اسمالخليفة العباسي ، والرسول المغربي ، فإن بعض المؤرخين قد كتب اسم الخليفة على أنه المقتدى أو المستنصر بالله (2) ، كذلك نلاحظ أن المؤرخين والكتاب الآن ترجموا لحياة القاضي أبي بكر بن العربي ، قد تكلموا عن رحلته وأشياخه ومؤلفاته وأشعاره في شيء من التفصيل ، إلا أنهم لم يبرزوا الدزر السياسي إلهام الذي قام به هو ووالده خلال هذه الرحلة (3) . بل ويذهب عبد الحي الكناني إلى إنكار هذا الدور السياسي من أساسه ، ونقض رواية ابن خلدون بقوله :

" وما ذكره ابن خلدون في هذا الصدد منقوض " فإن ابن العربي ووالده ذهباً للمشرق فراراً من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد بدليل أن عبد الله بقي بالمشرق إلى أن مات هناك إجماعاً (1) ، وولده أبو بكر بقي بعده ، ورجع لبلده لا لمراكش ، وفي مدة انتقالهما وجولاتهما بالمشرق ، اعتقلت أملاكهما عليهما إلى أن ربع أبو بكر فتشفع في ردها علية الحافظ أبو علي الصدفي " (2) .

والواقع إن ما ظهر بعد ذلك من وثائق ونصوص حول هذا الموضوع ، يتفق مع ما جاء في كلام ابن خلدون ويناقض رأى عبد الحي الكتاني . فمن حسن الحظ أنه توجد لدينا الآن قطعة خطية من كتاب ، ترتيب الرحلة للرغيب في الملة ،لهذا العالم المشهور أبي بكر بن العربي للعافري المالكي قاضي قضاة اشبيلية على عهد المرابطين (468 – 542 هـ = 1076 – 1148 م) . ففي هذا الكتاب تحدث ابن العربي عن رحلته التي قام بها إلى المشرق صحبة والده سنة 485 هـ وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز السبعة عشر ، كما أورد في كلامه خطابات ووثائق رسمية هامة تضمنت الحقائق التالية : –

أولاً : أن الغرض من هذه الرحلة هو طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إلى الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته ، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين .

ثانياً : أن الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو الخليفة أحمد المستظهر بالله (487 - 52 هـ = 1094 - 1118 م) الذي استجاب لهذا الطلب وسلم ابن العربي ووالده تقليده وعهده للأمير يوسف بن تاشفين موقعاً عليه بعلامته ، القاهر بالله .

ثالثاً . نص خطاب الوزير العباسي أبي منصور محمد بن جهير إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في هذا المعنى أيضاً .

رابعاً : نص الفتيا التي طلبها ابن العربي ووالده من الفيلسوف أبي حامد الغزال الطوسي (450 - 505 هـ) حول المشاكل التي تتعلق بشرعية حكم الأمير يوسف بن تاشفين ، وإجابة الغزالي عليها ، ثم نص الخطاب الذي بعث به الغزالي إلى يوسف بن تاشفين . وقد أشارت الفتيا إلى الموقف العدائي الذي وقفه ملوك الطوائف في الأندلس تجاه يوسف تاشفين ورفضهم الجهاد معه لأنه ليس إماماً من قريش أو نائباً عن إمام ، واتهامهم له بالاحتيال لعدم وجود ما يثبت ذلك لديه . وقد نص الغزالي في إجابته على أن تأخر منشور التقليد الخلافي عن يوسف بن ناشفين . لاعتراض العوائق المانعة من وصوله ، لا يمنع من أن يكون ابن تاشفين نائباً عن الإمام بحكم قرينة الحال ، وأن على الإمام أن يتدارك مثل هذه الأحوال بالسرعة الواجبة منعاً لوقوع الفتن .

هذه هي خلاصة بعض الحقائق التي تضمنتها الوثائق السالفة الذكر ونظراً لأهميتها رأينا أن ننشرها كضميمة في آخر هذا الكتاب .

خلافة الموحدين :

وخلفت دولة المرابطين في حكم المغرب والأندلس ، دولة مغربية أخرى هي دولة الموحدين . وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية ، طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي المصمودي السوسي . وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغي إحدى بطون مصمودة الساكنة في بلاد السوس بجبال أطلس .

رحل ابن تومرت في شبابه إلى المشرق ، وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر ، طلباً للعلم ، ونفس حالة الضعف التي كان يعانيها المجتمع الإسلامي في ظل الخلافتين الهرمتين : العباسية والفاطمية ، ونجاح الصليبيين في تأسيس إمارات لهم في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، عندئذ لم يطق صبراً على ذلك ، وأنبرى يهاجم الأوضاع السائدة بكل شدة وعنف : يروي ابن القطان في هذا الصدد :

" ونزل المهدي مدينة الاسكندرية " فرأى بها مناكر فغيرها ، وأغلظ في أمرها ، فقامت عليه العامة ، والغوغاء ، وصاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي ، فلما فقده الطرطوشي بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فقصد إليه وهو في مسجد الأخضر على ساحل البحر ، فترامى عليه وصافحه ، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء ، وأنه يريد الذهاب إلى المغرب ، فودعه وانصرف (1) " .

ثم يستمر ابن القطان في وصفه لرحلة ابن تومرت من الإسكندرية إلى المغرب بحراً وبراً ، كذلك تجد وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه الرحلة في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت لأبي بكر الصنهاجي المكني بالبيذق (2) وهو

من تلاميذ ابن تومرت ، ونخرج من هذا الوصف وذاك ، أن ابن تومرت كان طوال رحلته سواء في تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى ، كان يعمل على محاربة البدع ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، وأنه كثيراً ما استخدم عصاه ، واصطدم بالأهالي وخرج هارباً ساخطاً من بلد إلى آخر .

ولا شك أن ابن تومرت ، قد أيقن بعد هذه الرحلة الطويلة في المشرق والمغرب ، أن علاج هذه الحالة يقتضي إنشاء خلافة إسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الإسلامي كله " وتتولى علاجه وإصلاحه .

ومن ثم شرع ابن تومرت في نشر دعوته بين ذويه وعشيرته المصامدة في أقصى المغرب ، ولقب نفسه بالمهدي والشيخ وأمغار – ومعناها الشيخ بالبربرية – ، كما اتخذ قاعدته في بادئ الأمر في جبل ايجليز عند مدخل مدينة مراكش ، وكان يسمى أيضاً بالجبلين . ولما اشتدت حركته انتقل إلى قلعة حصينة منيعة في قلب جبال أطلس الكبير وهي قلعة تينملل (1) التي أشاد المؤرخون والجغرافيون بحصانتها .

وكان حكام المغرب والأندلس في ذلك الوقت هم المرابطون ، وهم جماعة سلفيه على مذهب أهل السنة والجماعة ، يتمسكون بمذهب مالك ابن أنس ، ويكرهون المتكلمين وعلم الكلام ، وينفرون من الرأي والتأويل والخوض في مسائل التوحيد . ويرون الاقتداء بالسلف في قبول النصوص على علاتها ، وإقرار المتشابهات كما جاءت والإيمان بها كما هي .

فالمهدي بن تومرت هاجم المرابطين وفقهاء المالكية من هذه الناحية ، وقال بضرورة تأويل النصوص ، ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق ، واتهم المرابطين بالتجسيم والشرك لأنهم يقرون الصفات إلى الله تعالى وهي شبهة إشراك غيره معه ، بينما سمى أصحابه بالموحدين تعريضاً بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل وهو يعني بذلك أن أصحابه هم الذين يفهمون معنى التوحيد الخالص ومعنى تستنزيه الذات الإلهية من الصفات المشبهة (1) .

والواقع أن ابن تومرت قد تأثر في هذه الناحية بآراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد . ومذهب الاعتزال معروف من قديم في المغرب ، وقد أشار اليعقوبي والبكري والإدريسي إلى أن ابن تومرت قد تأثر في هذه الناحية بآراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد . ومذهب الاعتزال معروف من قديم في المغرب ، وقد أشار اليعقوبي والبكري والإدريسي إلى أن قبيلة أوروبة التي ساندت المولى إدريس ، كانت تدين بالاعتزال ، وأن مملكة الأدارسة كانت موطناً للاعتزال وأن عبد الله والد المولى إدريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (2) .

فابن تومرت من هذه الناحية لم يأت بشئ جديد على المغرب ، وإنما هو نوع من التجديد .

كذلك موه ابن تومرت دعوته بفكرة المهدوية والعصمة ، ولقب نفسه بالمهدي المنتظر والإمام المعصوم وعقيدة المهدوية كانت معروفة في المغرب من قديم ، واستغلها الفاطميون من قبل ، ونجحوا في تأسيس دولتهم بالمغرب .

وكان لهذه العقيدة المهدوية إقبال ورواج في بلاد المغرب أكثر منه في بلاد المشرق ، وذلك بسبب ما أذاعه البعض من أحاديث نبوية ، لم تثبت صحتها تنبئ بظهور المهدي المنتظر في أرض المغرب وأنه يقوم برد الدين الصحيح .

كذلك مزج ابن تومرت دعوته ببعض ما قال به الظاهرية ، والمذهب الظاهري كان أيضاً معروفاً بالمغرب على يد الفقيه الأندلسي أبي محمد ابن حزم الظاهري في القرن الخامس الهجري . وتنقسم دعوة بن حزم إلى قسمين :

القسم الأول : وهو الجانب الفقهي ، وفيه يرى ابن حزم عدم التقيد بآراء مذهب من المذاهب السنية المعروفة وهو ما يسمى بالتقليد أي ما تمسك به الآباء من المذاهب .

فابن حزم حارب التقليد ، وقال بأن كل إنسان حر في أن يحكم فكره فيما يراه مناسباً ، بشرط أن يستند في ذلك إلى حجج القرآن والسنة واستمرار العمل ، أي ما أجمع عليه الصحابة والتابعون . وعلى هذا الأساس هاجم ابن حزم فقهاء المالكية الذين كانوا قد تعانوا مع السلطان وكونوا دكتاتورية مالكية في الأندلس .

أما الجانب الثاني من دعوة ابن حزم ، فيتناول مسألة العقيدة . ويرى فيه ابن حزم ضرورة التفسير الحرفي الظاهر للقرآن والسنة ، وعلى هذا الأساس أنكر التأويل ، وهاجم المعتزلة القائلين به .

فالمهدي ابن تومرت ، رأى أن يستغل هذا المذهب الظاهري لصالحه ، وأن يأخذ منه ما يراه مناسباً لدعوته ، فترك الجانب الاعتقادي الظاهري ، لأنه يتعارض مع مذهب الاعتزال الذي يدين به ، وأخذ الجانب الفقهي الظاهري الذي يحارب التقليد والاحتكار المذهبي . وكان غرضه من ذلك هو محاربة فقهاء المالكية الذين قوى نفوذهم على عهد المرابطين (1) .

ومن الطريف أن المهدي بن تومرت ، قد وضع كتاباً أسماه موطأ المهدي ، وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ مالك بعد حذف معظم الإسناد منها للاختصار (2) وهذا يدل على أن ابن تومرت لم يكن يهدف إلى مهاجمة المذهب المالكي في حد ذاته ، وإنما أراد مهاجمة نفوذ فقهاء المالكية .

وخلاصة القول ، أن المهدي بن تومرت ، أراد أن يضمن لدعوته النجاح ، فيجعلها مزيجاً من هذه التيارات والأفكار الثقافية والفقهية والاعتقادية المختلفة التي كانت في المغرب ، ولكنها كانت في معظمها ممنوعة من الظهور ومحرمة على الناس (1) . فإحياؤه لها مجتمعة في دعوة إصلاحية جديدة يعتبر حركة من حركات التجديد في الإسلام .

وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكرهم إيماناً ومعرفة واتحاداً ، ولأنهم دون غيرهم الموحدون المؤمنون فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقيدة الموحدية الجديدة ، ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين . يقول صاحب كتاب المعجب :

وأقر المهدي على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ إمرة المؤمنين (2) " .

ولكن كان لابد أن تستند خلافتهم أيضاً إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوي أو الأصل العربي . لهذا قالوا بانتماء كل من المهدي وعبد المؤمن إلى الرسول عن طريق الأدارسة ، واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم كي يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية ، كما تشبهوا بالرسول في تصرفاته وأعماله . وإذا تصفحنا مثلاً كتاب البيذق السالف الذكر نجد شجرة طويلة لنسب كل من المهدي وخليفته عد المؤمن وكلها ترتفع إلى الرسول (1) .

أما من جهة الأصل العربي ، فيروي ابن الأثير أن ابن تومرت حينما سأل عبد المؤمن عن نسبه في أول لقاء لهما " أخبره بأنه من قيس عيلان ثم من بني سليم فقال ابن تومرت : هذا الذي بشر به النبي (صلعم) حين قال : إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس ، فقيل من أي قيس فقال من بني سليم ، وواضح أن سليم وقيس ينتميان إلى مضر التي منها قريش .

كذلك يروي المؤرخون ، أن عبد المؤمن بن علي ، كان يقول لن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية التي ينتمي إليها ، وهي من بطون زناتة بنواحي تلمسان : " أنا لست منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان ... ولكومية علينا – في الولادة بينهم ، والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال (2) . وقد حرص مؤرخو هذا العصر وشعراؤه على إثبات هذا الأصل العربي في كتاباتهم فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسي بدلاً من الكومي (3) .

كذلك استغل الموحدون هذا الأصل العربي في اصطناع القبائل العربية المقيمة في أفريقية ، للاشتراك معهم في جهاد المسيحيين في أسبانيا (1) . فنجد شعراء الموحدين يدعونهم بأبناء العم ، ويذكرونهم بصلة النسب ونتائج القربى التي تجمع الموحدين مع العرب في قيس عيلان (2) . وكان لهذه الدعاية أثرها في هجرات هذه القبائل العربية إلى المغرب الأقصى مما ساعد على تعريب هذه البلاد وصبغها بالطابع العربي .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يبدو أن هذه الدعوة الموحدية الجديدة قد بهرت عقول المغاربة ، بدليل هذه السرعة العجيبة التي انتشرت فيها ، والنجاح العظيم الذي أحرزته على المرابطين في وقت قصير . كذلك كان لهذا النجاح صدى كبير بين المشارقة أيضاً بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة . ومثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة اليمني الذي عاش بمصر في أواخر العصر الفاطمي ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلاً للأحداث الجارية في عصره فلم يجد فيها أعظم من شخصية بن تومرت الذي ارتفع في رأيه إلى أعلا درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته

كما يقول الورى لحماً على وضم

وقد ترقى إلى أن أمسكت يده

من الكواكب بالأنفاس والكظم

وكان أول هذا الدين من رجل

سعى إلى دعوه سيد الأمم (1)

وليس من شك في أن الموحدين قد عبارا كل دعاتهم وأنصارهم وكتابهم للقيام بالدعاية اللازمة للخلافة الموحدية في العالم الإسلامي . ففي كتاب البيذق تجد باباً عن أصحاب المهدي المقيمين في مصر . وقد بلغ عددهم واحداً وخمسين رجلاً ذكر المؤلف أسماءهم واحداً واحداً ، ثم قال بأنهم كانوا بمثابة أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لأوامره ، مؤمنين بدعوته (2) . وهذا الكلام يدل على أن المهدي كانت له جمعية من أنصاره ودعاته على نشر دعوته في مصر وغيرها من بلاد الشرق الإسلامي .

وفي كتاب نظم الجان لابن القطان ، تجد صورة مقارنة بين الخلافتين الفاطمية بمساوئها ، والموحدية بمحاسنها ، يخرج منها المؤلف بنتيجة واحدة وهي أن الخلافة الموحدية هي أجدر الخلافات بحكم العالم الإسلامي (3) .

أما الرحالة الأندلس المشهور ابن جبير الذي عاصر قيام دولة الموحدين وطاف بأنحاء المشرق الإسلامي في تلك الفترة ، فقد وصف الحالة في تلك البلاد وقال بأن المصريين كانوا يترقبون مجيء الموحدين ، ويؤولون بعض الظواهر الطبيعية على أنها تعبير عن قرب مجيئهم لدرجة أن بعض فقهائهم قد أعد خطباً مناسباً لإلقائها بين يدي الخليفة الموحدي عند قدومه (1) .

هذا ويقدم لنا ابن فرحون في كتابه الديباج المذهب ، دليلاً آخر عن الفكرة التي كانت سائدة بين الناس حول قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم الإسلامي . فيقول في ترجمة أبي الوليد القرطبي ، إنه قدم إلى مصر هارباً من عبد المؤمن ودولته لما ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يعم فدخل اليمن ، ثم خاف أن يظهر على اليمن ، فأراد أن يتوجه إلى الهند ولكنه مات بزبيد (2) ، واستمرت فكرة الوحدة الإسلامية مسيطرة على عقول خلفاء الموحدين ولا سيماً في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره عن عيوبه (3) .

وقد عبر هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره فن قوله يمدح الخليفة يصف بن عبد المؤمن :

ستملك أرض مصر والعراقا

ويجري نحوك الأمم إستباقاً (1)

وقوله في مدح الخليفة يعقوب المنصور :

إن الخلافة نالت من محاسنكم

أو فى الحظوظ فأبدت منظراً عجباً

أعلى المراتب من بعد النبوءة قد

حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً في ممالكه

حتى يدوخ منها خيله حلباً

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى

أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله

وكل عصر له ما زال مرتقباً (2)

في خلال هذا الوقت وفي عهد الخليفتين يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور ، قامت في مصر والشام دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة الفاطمية ، ويستفاد من بعض وصايا صلاح الدين إلى سفرائه ، أن الموحدين قد استاؤوا من قيام دولته ، وما ترتب على ذلك من ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك البلاد (3) . وهذا الكلام صحيح في جوهره ، لأن الموحدين – كما ذكرنا من قبل – لم يعترفوا بخلافة العباسيين ، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد .

ويبدو أن صلاح الدين – رغم تبعيته للخلافة العباسية – قد حاول توثيق علاقته بالموحدين ، فأرسل سفيراً من قبله ، وهو الأمير عبد الرحمن ابن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور .

ويستفاد من كلام المؤرخين أن أغراض هذه السفارة أحيطت بسرية تامة وغموض كبير ، فيروى ابن عذاري في كتابه البيان المغرب .

وفي شهر رجب سنة 586 هـ وصل إلى المنصور أمير المؤمنين ، مخاطبات السيد أبي زيد من أفريقية والسيد أبي الحسن من بجاية ، بوصول ابن منقذ إلى تلك البلاد ، وما قابلوه من المبرة وتوطئة المهاد ، والتعريف منهم بكتمانه لسبب وصوله . . . فروجع السادات بالشكر على ما قابلوه به من الإكرام ، وأن لا يبحث عنه بشيء من الاستفهام ... ثم استقر الرسول بمدينة فاس ، فأقام بها إلى أن انقضت حركة المنصور في الأندلس . فاستدعى الرسول المذكور ، فوصل إليه ، وقعد بين يديه : وخلا به على اختصاص وانفراد ، فتلقى الجواب من المنصور مجملاً ، وأحيل على ما يوضحه له الوزراء مفسراً ومكملاً ، وخرج الرسول من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يعلم به (1) .

أخذ المؤرخون بعد ذلك يعلقون على هذه السفارة بمختلف الآراء والتكهنات : فصاحب كتاب الاستبصار – الذي يظن أنه كان من كتاب المنصور – يعتقد أن هذه الزيارة لم تكن إلا لإعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين إلى الخليفة الموحدي ، على حين يذهب غيره من المؤرخين إلى أن الغرض من هذه السفارة هو رغبة صلاح الدين في تدخل الأساطيل الموحدية لوقف الإمدادات الصليبية إلى الشرق . ثم يعود المؤرخون إلى الاختلاف فيما بينهم ، فبعضهم مثل السلاوي الناصري يقول إن الخليفة المنصور قد أرسل فعلاً جزءاً من أساطيله إلى الشرق للمشاركة في العمليات الحربية هناك (1) ، بينما يقول البعض الآخر – وهم الغالبية – إن المنصور قد رفض أن يجيب صلاح الدين إلى طلبه لأنه – أي صلاح الدين – لم يعترف بخلافة المنصور ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله عبد الرحمن بن منقذ (7) ، وهذه المسألة قد تكون لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية معناه الاعتراف أيضاً بصدق العقيدة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية .

وإذا أضيف إلى هذا أن الموحدين كانوا من أصل بربري ويريدون اكتساب الأصل العربي والنسب النبوي ، صار الأمر أشكالاً نفسياً أيضاً وقد تبدو هذه العقدة النفسية واضحة في المحنة التي نزلت بالفيلسوف أبي الوليد ابن رشد أيام المنصور الموحدي حيثما قال في شرح كتاب الحيوان لأرسطو ، إنه رأى الزرافة عند ملك البربر ، ويقال أنه عاد وقال عند ملك البرين ليخرج من هذه الورطة (1) . كذلك تبدو هذه الحالة النفسية أيضاً في صيغة الدعاء لخلفاء الموحدين في خطبة الجمعة : " اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك المحي سنة رسولك الإمام أبي يوسف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين " . (2) فهذا الحرص على تكرار لفظ أمير المؤمنين دون ذكر أسماء الخلفاء قد يكون له صلة بهذه الحالة النفسية .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا الخلاف السياسي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان ، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة ، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة ، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين .

ويشير الرحالة المعاصر ابن جبير إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين ، لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون

فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم . " ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة : فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم " . (1)

ومن الطريف أن بعض الروايات الإسلامية ، أشارت إلى أن الخليفة يعقوب المنصور لم يمت بأرض المغرب وإنما مات في فلسطين بعد أن ترك ملكه وبلاده ورحل إلى الأراضي المقدسة لجهاد الصليبيين بل ويذهب ابن خلكان إلى أنه رأى في البقاع قبراً بالقرب من بلدة المجدل بفلسطين ، وأن الناس هناك يؤكدون على أنه قبر يعقوب ملك المغرب ويتباركون به (2) . ولا شك أن هذه الروايات لا تدخل إلا في نطاق الأساطير الشعبية ، وقد كذبها جمهرة من المؤرخين وعلى رأسهم الشريف الغرناطي الذي قال بأنها تخرص وأباطيل (3) ، بل إن ابن خلكان نفسه رغم روايته السالفة ، عاد وقال إن المنصور قد مات ودفن بالمغرب وهذا هو الثابت المعروف . ولا يسعنا في تفسير هذه الروايات إلا على أنها تعبير عن انطباعات شعبية لما كان يدور في خلد المسلمين من أماني وآمال نحو إخراج الصليبيين المستعمرين من بلادنا شرقاً وغرباً ، ونحو التقاء المغرب بالمشرق من جديد .

خلافة الحفصيين بتونس

وبعد زوال دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، ظلت دعوتهم مستمرة في المغرب على أيدي أقربائهم الحفصيين حكام أفريقية أو البلاد التونسية .

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر إنتي الهنتاتي شيخ قبيلة هنتانة إحدى بطون مصمودة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين . وكان هذا الشيخ الحفصي من كبار القائمين بدعوة المهدي بن تومرت ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والأندلس .

وصلة الحفصيين بالبلاد التونسية ترجع إلى أيام ابنه محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي الذي كان صهراً للخليفة المنصور الموحدي ، والذي ولاه بعد ذلك الخليفة الناصر بن المنصور على تلك البلاد التونسية سنة 603 هـ (سنة 206 م) .

وكانت أفريقية منذ بداية عصر الموحدين مركزاً للعناصر المعارضة لدولتهم ونخص بالذكر بني غانية المسوفيين المرابطين حكام جزر البليار الذين كثيراً ما اتحدوا مع العناصر المقيمة في إفريقية مثل الأغزاز والأعراب الذي جاءوا من مصر واستقلوا بحكم عدد من المدن التونسية .

وقد اضطر خلفاء الموحدين الأوائل إلى محاربتهم وطردهم من هذه البلاد ، إلا أنهم كانوا يعودون إليها ثانية كلما سنحت له الفرصة . وأخيراً رأى الخليفة الموحدى الناصر ، أن سلطان الموحدين لن يستقيم في إفريقية إلا إذا أقام عليها والياً دائماً من قرابته يكون مسموع الكلمة بين الموحدين ، وله مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها . واختار لهذا الغرض ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاني السالف الذكر . وقد روى المؤرخون في هذا المعنى حواراً لطيفاً بين الخليفة والوالي يعبر عن بدأ ارتباط الحفصيين بهذه الولاية ، فيقولون إن الخليفة الناصر قال للشيخ عبد الواحدة يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر في استنفاذ هذا القطر ، ولا آمن عليه من عدو متوثب ، ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو

أنت . فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقوم أنا ، أو أقم أنت وأرجع أنا ، فأذعن الشيخ عبد الواحد للإقامة في إفريقية واشترط شروطه التي تخول له شبه استقلال بهذه الولاية ، وهي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع الميورقي ابن غانية عنها ، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه ، ومن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية (1) .

ولما هزم الموحدون أمام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعة العقاب las navas de tolosa سنة 609 هـ (1212 م) وأنهار نفوذهم في المغرب والأندلس بع هذه الكارثة ، أعلن الأمير أبو زكريا الحفصى (1) استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة بني عبد المؤمن في مراكش سنة 626 هـ (1229 م (2)) ، ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير حتى أنه زجر الشاعر الذي مدحه بأمير المؤمنين ، ولم يقبل قوله :

الأصل بالأمير المؤمنين فأنت بها أحق العالمين (2)

على أن هذه الإمارة لم تلبث أن تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد (4) الذي تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين .

وهناك خلاف حول تاريخ إعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس ، فالزر كثي يقول :

وفي يوم الاثنين 24 ذي الحجة من سنة 650 هـ (1253 م) رأى المولى المستنصر أن الاقتصار على لفظ الأمير قصوراً ، فتسمى بأمير المؤمنين ، وأمر أن يذكر في الخطبة ويطبع بالذهب ، وفي ذلك اليوم نلقب بالمستنصر بالله (1) أما محمد بن أبي القاسم الرهيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار ، فقد جعل تاريخ هذه الخلافة في سنة 657 هـ (1259 م) عقب سقوط خلافة بغداد في أيدي المغول ، ومبايعة شريف مكة لسلطان تونس بالخلافة (2) .

ويبدو أن رأى الزركشي هو الأصح نظراً لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة أهل المغرب والأندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية .

وكيفما كان الأمر ، فلقد استند الحفصيون في إعلان خلافتهم الجديدة إلى الأسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد ، كالأصل العربي ، والنسب النبوي ، إلى جانب قرابتهم للموحدين ، فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبي حفص عمر بن الخطاب (1) ، وعمر كما نعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وقد تزوج النبي ابنته حفصة . فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي ، وهذا النسب النبوي ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة .

ولقد حرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل ، وإظهاره في كل مناسبة . ونجد ذلك واضحاً في أقوال كتابهم وشعرائهم ، التي أطلقت على دولتهم اسم العصرية والفاروقية (2) أو كقول ابن خلدون في قصيدة يمدحهم بها .

يقوم أبو حفص أب لهم وما

أدراك ، والفاروق جد أول (3)

ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة 656 هـ (1258

م) وعقب ذلك أرسل شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصي المستنصر بالله ، واعتبروه وريثاً للخلافة العباسية المنهارة . ولا شك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساساً شرعياً وهو الإشراف على الحجاز ، أصل العرب والملة ومقر الحرمين الشريفين (1) . وفي ذلك يقول المستشرقين فإن برشو : أن الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين في الوقت الذي اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئاً من هيبة الخلافة العباسية (3) . ولم يقتصر نفوذ الحفصيين على الأراضي الحجازية ، بل نجد أن الدعاء للخليفة الحفصي قد عم مساجد المغرب والأندلس فترة من الزمان ، فالأندلس بعد كارثة العقاب ، قد سقط معظمها في يد الأسبان ولم يبق للمسلمين منها سوى منطقة غرناطة الجبلية في الركن الجنوبي الشرقي لأسبانيا ، حيث قامت هناك مملكة بني نصر أو بني الأحمر . وقد رأى سلطانها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) أن يعمل على تدعيم دولته الناشئة بمبايعة السلطان الحفصي أقوى ملك في المغرب في ذلك الوقت (1) .

وكما فعل بنو الأحمر في غرناطة ، فعل كذلك بنو زيان في تلمسان بالغرب الأوسط ، وبنو مرين (أو بنو عبد الحق) في المغرب الأقصى .

وهاتان الدولتان قامتا على أنقاض دولة الموحدين في المغرب ، وكانتا في حاجة أيضا إلى تأييد جارهما الحفصي ولو بصفة مؤقتة ، وفي هذا الصدد يقول السلاوي الناصري : " ولما ولما نبغ بنو مرين بالمغرب ، وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب ، واستجلاباً لمرضاتهم ، وإتيانا لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم . " ، ثم يضيف بعد ذلك أن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني هو أول من قطع الدعوة للحفصيين (2) " وهكذا ظهرت في المغرب من جديد وبالقرب من حدود مصر الغربية خلافة قوية وهي الخلافة الحفصية التي امتد سلطانها الروحي على الحجاز شرقاً وعلى المغرب والأندلس غرباً ، وصارت عاصمتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب السفراء والعلماء من مختلف أنحاء العالم .

ولقد شعرت مصر بخطورة أهداف هذه الخلافة الجديدة ، لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائماً إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والأخشيديين والفاطميين الأيوبيون والمماليك والعثمانيون ، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب ، خدام الحرمين " (1) .

وكان يحكم مصر أيام الخليفة الحفصي المستنصر بالله (647 - 675 هـ - 1249 - 1277 م) ، السلطان الظاهر بيبرس البند قداري (658 - 676 هـ = 1260 - 1277 م) ، وهذا السلطان يعتبر من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر ، إذ استطاع أن ينتصر على المغول عند الحدود العراقية . وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال كما هو واضح في الملحمة الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية .

" رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع السياسة التقليدية المصرية ، ولهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659 هـ (1261 م) ، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة ولقبه بالمستنصر بالله !

أمير المؤمنين . وعلى الرغم من أن المراجع العربية تنص على أن هذا اللقب هو لقب أخيه الخليفة المستنصر (1226 - 1242 م) باني المدرسة : المستنصرية ببغداد (1) إلا أننا نلاحظ أيضاً أن هذا اللقب هو نفس

اللقب الحفصي بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين ، مجرد مصادفة أو تورد خواطر ، ولكنه يبدو أنه نوع من باب التحدي أو المنافسة .

وكيفما كان الأمر فإن الخليفة الجديد بعد أن تمت مبايعته ، قام بدوره وقلد السلط أن بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ، وما يغزوه من بلاد الأعداء .

وهكذا اكتسب بيبرس بهذا العمل نفوذاً أدبياً وروحياً في الأوساط الإسلامية ، ولكن المهم هنا هو أن إحياء بيبرس للخلافة العباسية لم يكن عملاً روحياً محضاً لأنه نظر إلى النتائج المادية المترتبة على هذا العمل ، وهي انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر وذلك تمشياً مع السياسة التقليدية التي حرصت عليها مصر في كل وقت (2) . ولتنفيذ هذه السياسة عملياً ، قام بيبرس أولاً بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل الكسوة إلى الكعبة ، كما أرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب . . . الخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج وأظهر خشوعاً وكرماً لا ينتهي . ولكنه لم ينس مصالحه السياسية إذ أزال أنصار الحفصيين ، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي (1) كما أقام الأمير شمس الدين مروان شبه مندوب له إلى جانب شريف مكة (2) .

ويبدو أن التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس ، قد دفع بعض الأمراء الطموحين إلى المفاضلة بين هاتين الخلافتين لتحقيق مآربهم الشخصية ، فيروي ابن خلدون مثلاً أنه في سنة 663 هـ (1264 م) ثار وإلى طنجة المدعو ابن الأمير ، وخطب للخليفة الحفصي صاحب أفريقية ، ثم خطب للخليفة العباسي في القاهرة . ثم خطب لنفسه ، وانتهى الأمر بقتله سنة 665 هـ (3) .

وبعد مضى وقت قصير ، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها محدوداً في المنطقة التي تعيش فيها . فالخلافة الحفصية بعد انقضاء القرن السابع الهجري ، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس ، ثم لم تلبث أن دبت فيها الحروب الأهلية واستقلت بجماية عن تونس ، وانتهز بنومرين هذه الفرصة ، وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات (4) وعلى الرغم من أن سلاطين بني مرين قد لقبوا أنفسهم بلقب أمير المسلمين ، إلا أن بعضهم قد اتخذ ألقاباً خلافية من باب للتشريف ، ومثل ذلك السلطان المريني أبو عنان فارس الذي يصفه ابن بطوطة بالإمام الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عنان (1) . كذلك يروي أن الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب حينما ذهب في سفارة إلى هذا السلطان المريني أبي عنان أنشده قصيدة مطلعها :

خليفة – الله ساعد القدر

علاك مالاح في الدجى قمر (2)

وكذلك قوله بعد ذلك في مدح السلطان – أبي زيان المريني :

يا ابن الخلائف يا سمى محمد * يا من علاه ليس يحصر حاصر

ألقت إليك يد الخلافة أمرها * إذ كنت أنت لها الولي الناصر (3)

وقد علق المؤرخ المعاصر ابن خلدون على هذا الوضع في أيامه بقوله : " ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعته زناتة (يقصد بني مرين وبني زياد) ، ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة في عدم انتحال اللقب بأمير المؤمنين أدباً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً ، ولبني أبي حفص من بعدهم

، ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمير المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته . (1)

وما يقال عن سلاطين بني برين ، يقال أيضاً عن ملوك بني الأحمر سلاطين غرناطة الذين خوطبوا بألقاب الخلافة من باب التشريف ، وإن كان اللقب الرسمي الذي اتخذوه هو ، أمير المسلمين ، (2) ونلاحظ ذلك في قصائد شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك الذي لا يزال ديوانه منشورا بأحرف من ذهب على جدران قصر الحمراء . واقتدى بهم في ذلك مولك بني زيان بتلمسان ، فلقبوا أنفسهم بلقب أمير المسلمين . وفي خزانة الرباط (المكتبة الكتانية) مصحف نتسخه بيده السلطان أبو زيان محمد الثاني سنة 801 هـ ووقع في آخره وصفه بأمير المسلمين . ولعل كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف ملوك بني زيان (3) للحافظ محمد بن عبد الجليل التنسي ، لخير دليل على محاولة انتساب هؤلاء الملوك للأصل النبوي الشريف رغم كونهم من زناتة ، ويعرفون أيضاً ببنى يغمر اسن ومعناها بالزنانية رئيس القوم .

أما الخلافة العباسية بالقاهرة ، فإنها هي الأخرى لم تكسب بإحيائها إلا كسباً زائفاً ، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت سجناء تقريباً في أبراج قلعة الجبل وكان عملهم قاصراً على حضور حفلات السلطان وتزيين مجالسه للوفود والسفراء .

ومن الغريب أن كثيراً من الدول الإسلامية الأخرى ، لم تعترف أصلاً بخلافة القاهرة أو خلافة تونس ، وظلت على ولائها لخلافة بغداد حتى بعد زوالها وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله ، فالهند مثلاً ظلت تدعو للخليفة العباسي وتنقش اسمه على السكة مدة قرن من الزمان كما لو كان حياً يرزق (1) ، وكذلك كان الحال في اليمن ، إذ يروي الخزرجي الذي كان حياً سنة 798 هـ أن الدعاء للخليفة العباسي المستعصم بالله ، كان مستمراً في اليمن على أيامه أي في أواخر القرن الثامن الهجري (2) :

هذا ويبدو أن المصريين أنفسهم كانوا يشكون في صحة نسب الخلفاء العباسيين الذين أقامهم سلاطين المماليك في القاهرة ، ومن يتصفح كتب المؤرخن المعاصرين ، يجد عبارات تدل على هذا الشك في صحة نسبهم ، مثل قولهم الخليفة الأسود ، أو الزرابيني أو ذكر مبايعة شخص بالخلافة ، أو الخليفة المدعو فلان (3) . كذلك تجد في النسخة الخطية لكتاب ، الذيل على الروضتين لأبي شامة (1) ، وهو مؤرخ معاصر لإحياء الخلافة بالقاهرة ، يذكر بجوار اسم بعض الخلفاء عبارة أمير المنافقين بدلاً من أمير المؤمنين ، وقد ظن ناشر هذا الكتاب أن المؤلف أو الناسخ قد أخطأ في كتابة هذه العبارة وصححها في المتن إلى " أمير المؤمنين (2) " ، مع أنها قد يكون لها مدلول تاريخي عام كما هو واضح .

يتضح مما تقدم أن كلا من خلافة القاهرة أو خلافة تونس ، لم تسد الفراغ الروحي الذي تركته خلافة بغداد ، فلهذا بقي نفوذهما ضعيفاً ومحدوداً إلى أن قضى عليهما معاً الأتراك العثمانيون في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي (3) ، وصار السلطان العثماني بعد ذلك يجمع في يديه السلطتين الزمنية والروحية ، فكان ذلك إيذاناً ببداية عصر جديد .

الوزارة في الشرق :

بعد الخلافة تأتي الوزارة من حيث الأهمية الإدارية في الدولة : ونظام الوزارة فارسي قديم وليس من مستحدثات الإسلام . ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو فارسي من كلمة wi – chir (1) ، أي

الرئيس الذي يحكم ، أم هو عربي من الوزر وهو الثقل والعبئ ، أو من الوزر وهو الملجأ أو المعتصم ، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ يلجأ إليه الخليفة في الأمور العامة (2) .

ومهما يكن من شئ ، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم (3) ، وعرفه العرب أيام الرسول (1) ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، خلفاء بني أمية (2) ، من حيث أن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين ، أو أصحاب رأي فيما يحتاجون إليه من أمور . فهؤلاء الأشخاص كانوا يقومون بعمل الوزير ، إلا أنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادراً .

ثم جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ومتأثرة بتقاليدهم ونظمهم ، فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة ، من أهمها الأشراف على الشئون المالية ، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات ، وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية في مختلف الأقاليم والأمصار . وقد حفظت لنا المراجع الإسلامية عدداً من قوائم الخراج التي كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية ، مثل قائمة الجهشياري (3) (ت 331 هـ) في كتابه الوزراء والكتاب ، وهي تمثل الخراج في عصر الرشيد (170 - 193 هـ) وقائمة ابن خلدون في مقدمته ، وهي منسوبة إلى عصر المأمون (4) (189 - 128 هـ) ، وقائمة ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك ، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري (1) ، وقائمة قدامة بن جعفر (337 هـ) في كتابه الخراج وصنعة الكتابة ، وهي تمثل الخراج الكلي الدولة العباسية (2) .

فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج في الدولة (الدخل) ، كما كان هو المشرف أيضاً على ديوان النفقات (المنصرف) ، وهي النفقات المنصرفة على قصر الخلافة . وقدرة الوزير تظهر حينما يرى العجز في الميزانية بين الدخل والمنصرف ، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافي الأمر وسد العجز . وإلى جانب هذه النواحي المالية والاقتصادية ، كان اوزير أيضاً هو المختص بفن الإنشاء ، وذلك – كما يقول الماوردي – كي يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه . لهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة ، لأنه هو الذي يتولى بنفسه الإشراف على ديوان الرسائل الذي سمي فيما بعد بديوان الإنشاء ، وأيضاً على ديوان الخاتم الذي تختم فيه رسائل الدولة . كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء ، وأن يكون دارساً كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم . . . الخ . هذا وكان للوزير العباسي لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية ، كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة .

وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين ، أصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية ، طابع جديد لم يوجد من قبل (1) . وفي هذا يقول ابن خلدون : –

" فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقدة ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه . وأضيف إليه النظر فيه . ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع ، ودفع إليه ، فصار اسم

الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي ، بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك . " (2)

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية ، كأسرة البرامكة ، وبنى سهل ، وبنى طاهر ، وبنى الفرات ، وبنى الجراح ، وبنى خاقان ، وبنى وهب . . . الخ (1) .

وحينما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين ، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة إلى الوزارة ، وهنا أخذت الوزارة معنى آخر ، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ ، أصبحت وزارة تفويض (2) ، أي بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة ، بينما بقي هو كالمحجور عليه .

ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بني بويه الفرسي ، أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير ، وطمعوا في ألقاب الإمارة والسلطنة ، فاتخذوا لقب أمير الأمراء ، ثم جاء من بعدهم الأتراك السلاجقة ، فغيروا هذا اللقب ، واتخذوا لقب سلطان ، وصار بيدهم ، كما حدث للبويهيين من قبل ، الأمور السياسية والحربية معاً . أما لقب وزير ، فقد ظل باقياً ، إلا أن مكانته انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته ، وصار عمله محدوداً ككاتب للخليفة أو كاتم لأسراره .

وما يقال عن وزارة العباسيين ، يقال أيضاً عن وزارة الخلافة الفاطمية في القاهرة ، من حيث أنها بدأت هي الأخرى ، منذ خلافة العزيز بالله ، بوزارة تنفيذ ، ثم أصبحت وزارة تفويض حينما ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين ، وسيطر على الدولة أمير الجيوش في أيام الفاطميين ، كان يشبه نظام إمرة الأمراء في عهد العباسيين .

هذا عن نظام الوزارة باختصار في المشرق الإسلامي .

الوزارة في المغرب :

أما في بلاد المغرب ، فنلاحظ أن الدول الإسلامية الأولى التي قامت هناك ، لم يظهر فيها لقب وزير ، باستثناء دولة الأغالبة التي اتخذ بعض أمرائها وزراء في دولتهم ، مثل الأغلب بن عبد الله المعروف بغلبون الذي كان وزيراً لأخيه الأمير زيادة الله الأول بن الأغلب (2) ، ومثل نصر بن حمزة وزير أبي العباس محمد بن الأغلب (3) ، وعبد الله بن الصائغ الذي كان وزيراً وصاحب البريد في عهد زيادة الله الثالث الأغلبي (4) ، إلا أنه يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفاً ، حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقباً تشريفياً . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأغالبة – رغم استقلالهم – كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد ، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالاً لها من قديم في هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم .

أما الأدارسة في فاس ، والرستميون في تاهرت ، والمدراريون في سجلماسة ، والفاطميون إبان حكمهم في المغرب ، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمن عاونهم في الحكم ، إلا أنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير .

فالفاطميون مثلاً لم يتخذوا الوزراء إلا في القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز (365 – 386 هـ) ، وفي ذلك يقول المقريزي : " وأول من قيل له الوزير في الدولة الفاطمية ، الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله " (1) . هذا ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور حسن ابراهيم حسن (2) ، دون أن يشير إلى المصدر الذي نقل عنه ، أن الخليفة المعز لدين الله ، اتخذ جوهر الصقلي وزيراً له سنة 347 هـ بالمغرب . وأغلب الظن أن كتاب الخطط للمقريزي ، هو مصدر هذه الرواية ، إذ يقول : " وجوهر هذا مملوك رومي ، وباء المعز لدين الله ، وكناه بأبي

الحسين ، وعظم محله عنده في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وصار في رتبة الوزارة ، فصيره قائد جيوشه " . (3)

وهذه العبارة السالفة ، قد تعني أيضاً أن جوهر الصقلي ، قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار في مرتبة الوزير ، ولكنه لم يحمل لقب وزير ، بل كان قائداً لجيوش الدولة . وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بصدد خطة الوزارة :

" ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان ، وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة ، فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً " .

على أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة (2) الوزارة في المغرب ، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم . وقد أعطانا ابن عذاري قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدي بقوله :

" واستحجب أبا الفضل جعفر بن علي ، وأبا أحمد جعفر بن عبيد وأبا الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسي (3) " .

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الأعمال الحربية براً وبحراً ولا سيماً في صقلية . وهم في هذا يشبهون حجاب . (4) الأغالبة الذين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين .

ولقد برز من حجاب الفاطميين ، أبو أحمد جعفر بن عبيد الذي غزا جنوب إيطاليا عن طريق صقلية في سنة 313 هـ (924 م) (5) وكذلك الحاجب أبو الفضل جعفر بن علي بن حمدون ، الذي استمر في منصبه في عهد الخليفة محمد القائم (1) بن المهدي ، وشارك في إخماد ثورات الخوارج وغيرها من العمليات العسكرية الأخرى . ويروي المقريزي أن المعز لدين الله ، لما عزم على الرحيل إلى مصر استدعى جعفر بن علي ، وعرض عليه أن يكون نائبه في المغرب ، غير أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطاً تجعله شبه مستقل عن مصر . وقد غضب المعز لذلك وقال له : " يا جعفر ، عزلتني عن ملكي ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني ! قم فقد أخطأت حظك . " ثم استدعى يوسف بلكين بن زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، وأسند إليه ولاية المغرب بعد أن حد كثيراً من اختصاصاته . (2)

الوزارة في الأندلس :

أما في الأندلس ، فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية ، ويشهد بذلك ابن عذاري الذي أورد في ترجمة كل أمير أموي ، عدد وزرائه وأحياناً يذكر أسماءهم أيضاً (3) . وكان منصب الوزير في بادئ الأمر ، يشبه في مدلوله ما كان سائداً في بقية أنحاء العالم الإسلامي ، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثاني (207 – 238 هـ – 822 – 852 م) ، الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس ، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة التي كانت الوزارة واحدة منها ، فخصها بعنايته وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة . وقد أمدنا كل من ابن حيان وابن خلدون ، وابن سعيد ، بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة ، فقال ابن حيان : –

" والأمير عبد الرحمن ، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف في القصر كل يوم والتكلم معهم في الرأي ، والمشورة لهم في النوازل ، وأفرد لهم بيتاً رفيعاً قصره مخصوصاً بهم ، يقصدون إليه ، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم . فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتاً ، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور

مملكته ، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه ، وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة) ، أخرج رقاعة ورسائله إليهم بأمره ونهيه ، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه . . . وجرى على ذلك من تلاهم " (1)

ويشير ابن عذاري إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثاني كانوا تسعة ، وإن رزق كل واحد كان ثلاثمائة دينار (2)

ولم يحدد ابن عذاري المدة المستحقة لهذا الراتب ، وإن كان يبدو أنه عن كل شهر في الغالب (1) ، وهذا يعتبر قليلاً إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة أو في قرطبة فيما بعد (2) ، كما يعتبر في الوقت نفسه مناسباً إن قورن مثلاً براتب وزير الجنسيين في تونس (3) .

أما ابن خلدون ، فقد أمدنا ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير في الخطة بقوله : -

" وأما دولة بني أمية بالأندلس ، فأبقوا (4) اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزير ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، (5) وللترسيل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم (1) .

هذا ، ويضيف ابن سعيد المغربي ، أن مناصب الوزارة في الأندلس . كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعلومة (2) .

من هذه النصوص السابقة ، نفهم أنه كان يوجد بالأندلس على عهد الدولة الأموية ، وزارة متعددة المناصب ، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذي يتصل بالخليفة . وهذا التعدد في مناصب الوزراء ، لا نجده في نظام الوزارة بالشرق العربي ، حيث كانت السلطة مكرزة في يد وزير واحد وقلما وجد وزيران . أما في الأندلس . فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها ، ثم هناك الرئاسة العامة وهي الحجابة ، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخليفة . فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة ، وهو في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في المشرق في العصر الوسيط .

ومن الطريف أن ابن حيان حينما يتكلم عن وزراء الأمير عبد الرحمن الأوسط ، يذكر من بينهم وزيراً سكندرياً ذهب إلى الأندلس في صباه ، وظل يترقى إلى أن صار وزيراً ، فيقول : " ومن وزرائه عبد الواحد ابن يزيد الاسكندراني الذي حضر إلى الأندلس وهو فتى ، وكان يشدو شيئاً من الغناء على مذهب الفتيان ، فأمره الحاجب عيسى بن شهيد بقوله : أمسك عن الغناء البتة ، فإنه يريبك لدينا ، وتحقق بأدبك ، وتنبه لحظك ، فلك خصال تجذب بصنعك . ففعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فظل يترقى في منازل الخدمة حتى رقى إلى الوزارة والقيادة (1) .

هذا ويلاحظ أن ابن حيان ، قد ذكر في موضع آخر من كتابه (2) ، اسم هذا الوزير السكندري ضمن قواد الأمير عبد الرحمن الثاني ، وهذا يثبت ما قاله آنفاً من أنه قد رقى إلى الوزارة والقيادة .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، أطلق لقب " ذو الوزارتين " على بعض الوزراء والحجاب في الأندلس . وقد سبق أن استخدم هذا اللقب في المشرق أيضاً على عهد العباسيين ، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذي منحه لوزيره الفضل بن سهل . والمراد بتلك النسمة هنا ، أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معاً

، ولهذا يقال له أيضاً : صاحب السيف وصاحب القلم ، وقد يجمعان معاً فيقال ، ذو الوزارتين ، أو وذو الرياستين " (1) .

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب في الأندلس ، قد اختلف في مدلوله عن المشرق ، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، قد أنعم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد سنة 327 هـ (939 م) ، نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التي أتحفه بها هذا الوزير الثري ، عندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذي الوزارتين .

وقد وصف المقرى هذه الحادثة نقلاً عن ابن حيان وابن خلدون بقوله :

وكان الناصر قد استحجب موسى بن محمد بن حدير . واستوزر عبد الملك بن جمهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد . وأهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الأصناف ، وقد ذكرها ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون :

وهي مما يدل على الدولة الأموية ، واتساع أحوالها ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، لثمان خلون من شهر جمادي الأولى ، وهي هدية عظيمة الدأن ، اشتهر ذكرها إلى الآن ، وأنفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس ، مثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعاً . وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها ، فاستحسنها الناس وكتبوها وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصاً وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعاً ، وأضعف له رزق الوزارة ، ولقه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إلى ألف دينار ، وثنى له العظمة لثنيته له الرزق فسماه " ذا الوزارتين " لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالاً لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت ، وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية . فعظم مقداره في الدولة جداً . " (1)

واضح من هذا النص السابق أن لقب " ذي الوزارتين " الذي لقب به ابن شهيد لم يكن معناه صاحب السيف والقلم ، بل كان لقباً تشريفياً مثل لقب " ذو السيفين " الذي منحه الخليفة الحكم المستنصر لقائده غالب بن عبد الرحمن . بعد أن قلده سيفين عقب انتصاره على الأدارسة في المغرب سنة 364 هـ (1)

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس ، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئاً فشيئاً حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة ، وصار اختصاصه يشمل الشئون والعسكرية . وتنبغي الإشارة هنا إلى ما سبق أن بيناه آنفاً وهو أن الحاجب في الأندلس ، لم يكن ذلك الرجل الذي يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة ، كما كان الحال في الشرق ، وإنما قصد به رئيس الوزارة أو ما يسمى بالوزير في المشرق (2) .

ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوياء في الأندلس : جعفر بن عثمان المصحفي ثم المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده . وحسبنا أن نقتبس هنا بعض فقرات لابن عذاري يصف بها مدى النفوذ الذي بلغه المنصور بن أبي عامر بقوله :

وفي سنة 371 هـ تسمى ابن أبي عامر بالمنصور ، ودعى له على المنابر استيفاء لرسوم الملوك ، فكانت الكتب تنفذ عنه . من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان . وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، ثم تابعتهم على ذلك وجوه بني أمية ، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده ، وينحنون له عند كلامه ومخاطبته ، فإنقاذ لذلك كبيرهم وصغيرهم . . . فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب ،

وشاركه في تلك المذاهب ، ولم يجعل فرقاً بينهم وبينه إلا في الاسم وحده في تصدير الكتب عنه ، حتى تناهت حاله في الجلالة . وبلغ غاية العز والقدرة (1) " .

ويبدو أن لقب وزير في ذلك الوقت ، قد أخذت مكانته تضعف نتيجة لازدياد سلطة الحاجب في الدولة . وقد يدل على ذلك ما رواه ابن خلدون وصاحب القرطاس ، من أن زعيم قبيلة مغراوه الزناتية ، زيرى ابن عطية ، احتقر لقب الوزير الذي أنعم عليه به المنصور بن أبي عامر ، لدرجة أن صاح غاضباً في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير : وزير من يالكع لا والله إلا أمير بن أمير ، وأعجبا لابن أبي عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! ، والله لو كان بالأندلس رجل ، ما تركه على حاله (2) .

ولما سقطت الدولة الأموية ، وقامت على أنقاضها دويلات ملوك الطوائف ، ترفع هؤلاء الملوك عن استعمال لقب وزير ، واتخذ بعضهم لقب الحاجب مثل سابور الفارسي ، أول من استقل بمنطقة بطليوس ، وباديس من حبوس ملك غرناطة ، وأحمد بن قاسم أمير ولاية البونت alpuente من أعمال بلنسية (1) . كذلك زاد استعمال الألقاب التشريفية المزدوجة في أيام ملوك الطوائف مثل : ذو الوزارتين ، ذو الرياستين ، ذو السيادتين ، ذو المجدين ، بالإضافة إلى ألقاب الملك والسلطنة والخلافة وهكذا انحطت مرتبة الوزير عندهم ، وصارت تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى (2) .

الوزارة على عهد المرابطين :

ولما جاء المرابطون ، أعادوا لهذه الخطة مكانتها القديمة ، واحتل الوزير في أيامهم ، مكاناً بارزاً في الدولة . ويلاحظ أن كتابات المعاصرين – أمثال ابن عبدون والطرطوشي – قد أشادت بالمركز الممتاز الذي كان يحتله الوزير في نظم المرابطين ، على اعتبار أنه الشخص المقرب من السلطان ، والذي يحضر مجلسه ، فهو – على حد قول الطرطوشي – " بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، وفي الأمثال نعم الظهير الوزير (3) .

ومن المعروف أن دولة المرابطين ، كانت دولة إسلامية مجاهدة ، يقوم نظام الحكم فيها على أسس عسكرية ، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأهلي ، ومعاولوه هم قواد الجيش . لهذا كان الطبيعي أن يقسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك . ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً ، كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ، وهو ما يقابل عندنا في مصر كاتب ديوان الإنشاء في العصر الوسيط ، فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء :

1) وزراء عسكريون من قادة الجيش ، وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجه التي قامت على أكنافها دولة المرابطين .

2) وزراء كتاب وهم من الفقهاء .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن كلمة فقيه في الإصطلاح العلمي الإسلامي ، هو العالم بالأحكام الشرعية إلا أنه لم يلبث أن تطور استعمال هذا اللقب في المشرق ، وصار يطلق على دارس الفقه عموماً من الطلبة . ومثال ذلك قول الذهبي متحدثاً عن المدرسة المستنصرية ببغداد : " وعدد فقهائها مائتان وثمانية وأربعون فقيها من المذاهب الأربعة ، وأربعة مدرسون (1)

" . فأطلق لقب الفقهاء على الطلاب فحسب ، وبمثل ذلك أطلق ابن السبكي لقب الفقيه والفقهاء على الطلاب (2) ، أما في المغرب والأندلس ، فلم تكن كلمة فقيه قاصرة على المشتغل بالفقه فحسب . وإنما توسعوا في

استعمالها ، فأطلقوها على الرجل المثقف بصفة عامة ، وفي ذلك يقول ابن سعيد : " وسمة الفقه عندهم جليلة " حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويره بالفقيه ، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (1) .

بهذا المعنى العام لكلمة فقيه ، كان وزراء المرابطين الكتابيون وقضاتهم ، وقد نص صاحب كتاب الحلل الموشية على أن يوسف بن تاشفين ، اتخذ وزيراً عسكرياً وهو ابن عمه وصهره سير ابن أبي بكر (2) الذي قضى على ملوك الطوائف بالأندلس ، كما اتخذ وزيراً كاتباً وهو الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور ، الذي كان – على حد قوله –" علم بلاغة به يهدي ، وإمام شرف قدمه العلم والندى ، وعاصر مجد هو الغاية والمنى " (2) " ثم يضيف صاحب الحال الموشية ، أن هذا الوزير الأخير ، هو الذي كتب باسم يوسف بن تاشفين نص ولاية العهد لابنه الأمير أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين (1) .

ولما ولى أمير المسلمين على بن يوسف (500 – 537 هـ = 1106 – 1143 م) ، استوزر القائد ينتان أو ينتيان بن عمر الذي كان قائداً لفرقة الحشم ، ثم بعد ذلك في أواخر عهده ، استوزر ولده إسحاق بن ينتيان بن عمر الذي كان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، يتوقد ذكاء ونبلاً وفهاء فأعجب به أمير المسلمين إعجاباً كثيراً ، وجعل له أيضاً النظر في المظالم والشكايات ، فانتفع به الناس . وقد تولى هذا الوزير في أواخر أيام دولة المرابطين ، قيادة الحملة التي استسلمت للخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (1) سنة 541 هـ (1147) .

كذلك أخذ السلطان علي بن يوسف ، وزراء ومستشارين عن الفقهاء وكبار العلماء ، وتخص بالذكر منهم الوزير الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي شارك شارك في جميع العلوم ، ونظم اشعر ، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ ، نذكر منها كتابه الذي سماه ، قراضة الذهب في ذكر لئام العرب " ، ضمنه لئام العرب في الجاهلية والإسلام ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب .

ولقد كان لهذا الوزير موقفاً تاريخياً مشهوراً خلال المناظرة التي قامت في حضرة السلطان علي بن يوسف ، بين فقهاء المرابطين والفقيه محمد بن تومرت ، الذي كان ثائراً على الأوضاع الاجتماعية في الدولة المرابطية . فيروي المؤرخون أن مالك ابن وهيب لما سمع كلام ابن تومرت ، استشعر حدة نفسه ، وذكاء خاطره ، واتساع عبارته . فأشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله قبل أن يستفحل خطره ، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه . غير أن علي بن يوسف توقف في قتله أو اعتقاله ، وأبى ذلك عليه دينه لعد ثبوت التهمة على (1) . وقد صح توقعه مالك بن وهيب ، إذ أنه على يد هذا الفقيه السوسي ابن تومرت ، قامت دولة الموحدين التي قعدت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس .

الوزارة في عهد الموحدين :

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين في وجود كبيرة ، إذ أنها قامت هي الأخرى على أسس دينية إصلاحية ، واصطبغت نظمها بالصبغة العسكرية ، وكان جهاد الصليبيين في الأندلس من أهم أهدافها .

وفي بداية عهد هذه الدولة ، اعتمد المهدي ابن تومرت في إدارة حكومته على عدد من كبار اتباعه ، كانوا بمثابة وزرائه ، وعرفوا باسم العشرة أو أهل الجماعة وقد أورد صاحب كتاب الأنساب (2) بعض اختصاصات هؤلاء العشرة مع ذكر أسمائهم بقوله :

" فمن ذلك أهل الجماعة ، رضي الله عنهم : أمير المؤمنين أو محمد عبد المؤمن بن علي ، كان الإمام المهدي يسميه صاحب الوقت ، واختصه بفرس أخضر ، وسليمان آحضري وكان يكتب الرسائل عن إذن الإمام المهدي ، وأبو ابراهيم إسماعيل بن بلالي الهزوجي ، وكان يقضي بين الناس عن إذن الإمام ، وأبو عمران موسى بن تمارى الجدميون ، وكان أمين الجماعة ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان وكان يؤم في الفريضة عن إذن الإمام ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني (1) واختصه الإمام المهدي بال\رقة ودعا له بالبركة وأيوب الجدميوي وهو الذي تولى قسمة الإقطاع بين الموحدين في أول الأمر (2) .

وفي عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي (524 - 558 هـ = 1130 - 1163 م) تغير هذا النظام ، وصار للدولة وظائفها الإدارية المعروفة كالوزارة والكتابة والقضاء ، ولكن بقيت مع ذلك مشيخة الموحدين للرأي والمشورة عند السلطان ، وقد عرفوا بأشياخ الرأي أو أشياخ البساط ، ولم يكن فيما يبدو له من آراء ما يحد من إرادة الخليفة ، إذ يقول العمري في ذلك :

" وكان لعبد المؤمن وأبنائه أشياخ من أعيانهم لا عدة لهم ولا جند ، كعدة الأمراء بمصر ، بل المرء منهم بنفسه فقط ، وإنما هم أعيان الجماعة ممن يحضر عند سلطانهم للرأي والمشورة ، ولكل طائفة مزوار وهو كبير لهم يتولى النظر في أحوالهم" (1)

وكان منصب الوزير من المناسب الهامة في الدولة الموحدية ، وقد شغله عدد من أبناء الخلفاء وإخوتهم من بني عبد المؤمن الذين كانوا يسمون بالسادة أو الأسياد ، كما شغله عدد من أصهارهم وقوادهم وكتابهم كما كان الحال أيام المرابطين من قبل وكان الوزراء من الساة أي الأمراء يتخذون لأنفسهم في غالب الأحيان ، وزراء بين أيديهم تمييزاً لأنفسهم عن سائر الوزراء . وعلى الرغم . من أن المصادر التي لدينا لا تسعفنا في تحديد اختصاصات الوزير على عهد الموحدين ، إلا أنه كان وزير تنفيذ في غالب الأحيان وأنه كان يقوم بعمل الكاتب ، وبعمل الحاجب – بمدلوله الأصلي – أي كرئيس للتشريفات الذي يحجب الخليفة عن الخاصة والعامة ويأذن للوفود بالدخول عليه مع تقديم كل فرد بذكر اسمه ونسبه وبلده (2) . كذلك كان للوزير ، مع ذلك النظر في الحساب والأشغالالمالية (1) ، وإن كان البعض يجعل هذه الشئون المالية في يد شخص آخر يعرف بصاحب الأشغال (2) .

وكيفما كان الأمر ، فإن الوزير على عهد الموحدين لم يكن صاحب النفوذ الحقيقي في الدولة ، بل كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة . أما أصحاب النفوذ الفعلي في الدولة فهم السادة أو الأمراء من بني عبد المؤمن الذين كان يعين منهم الولاة في المغرب والأندلس ، ويختار منهم نائب السلطان الذي ينوب عن الخليفة أثناء غيابه عن العاصمة مراكش . (3)

هذا ويروي ابن خلدون أن خلفاء الموحدين لم يتخذوا لأنفسهم حجاباً لاختصاص الوزراء بهذه المهمة ، ولهذا فإن اسم الحاجب لم يكن معروفاً في دولتهم (4) إلا أننا مع ذلك نجد في الكتب المعاصرة ما يفيد من وجود حجاب لخلفاء الموحدين منذ أيام أمامهم المهدي بن تومرت . ومثال ذلك أبو محمد وأسنار الذي اختصه المهدي لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته ، والخروج بين يديه . وكان رجلاً أسود من مدينة أغمات (5) أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالي الخصيان أمثال كافور ، وعنبر ، وفضيل ، وريحان ، ومبشر وفارح (!) . وأغلب

الظن أنهم كانوا من فتيان أو مماليك الخليفة ، وأن مهمتهم كانت قاصرة على خدمته وملازمته في جلوسه وفي غدواته وروحاته .

ومن أهم وزراء عبد المؤمن نذكر أبا جعفر بن عطية القضاعي المراكشي ، وأصله القديم من طرطوشة في شمال شرقي أسبانيا . وقد جمع هذا الوزير بين الكتابة والوزارة في بادئ الأمر ، ثم انفرد بالوزارة بعد أن استكتب عبد المؤمن رجلاً من أهل بجاية يقال له أبو القاسم القالمي .

وكان ابن عطية في الأصل كاتباً لإسحاق بن علي بن يوسف في دولة المرابطين ، فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند ، وكان يحسن الرمي ، فانخرط في حملة للموحدين كانت متجهة إلى رباط ماسة في بلاد السوس جنوباً لإخماد ثورة هناك قام بها رجل ادعى الهداية اقتداء بالمهدي بن تومرت ، واسمه محمد بن هود الماسي ، ولما أخمدت تلك الثورة وقبل صاحبها سنة 548 هـ ، طلب الشيخ عمر الهنتاتي قائد الجيش الموحدي ، من يكتب عنه بأخبار هذا النصر إلى عبد المؤمن ، فعرف بابن عطية ، فأمر بحضوره فحضر وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال ، استحسنها عبد المؤمن (1) ، فعينه كاتباً لدولته ، ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره . وكان هذا الوزير متزوجاً أميرة لمتونية تعرف ببنت الصحراوية وهي حفيدة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين . وكان أخوها يحيى بن أبي بكر بن يوسف ، ويعرف أيضاً بابن الصحراوية من فرسان المرابطين المشهورين وله بلاء شديد في مقاومة الموحدين ، ثم انقاد لهم أخيراً حين لم يجد بداً من الانقياد ، فعظمت مكانته عندهم ، وولوه قائداً على من وحد (بتشديد الحاء) من المرابطين . (2)

ويبدو أن هذه الصلة السياسية والعائلية التي تربط ابن عطية بالمرابطين ، كانت أساس نكبته التي انتهت بقتله سنة 553 هـ . إذ استغلها أعداؤه واتهموه بالتعاون مع أعداء الدولة من المرابطين ولا سيماً بني غانية حكام ميورقة (3) ، وقالوا في ذلك شعراً يحرضون فيه الخليفة على قتله ، مثل :

قل للإمام أدام الله مدته   قولا تبين لذي لب حقائقه

إن الزراجين (1) قوم قد وترتهم   وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

وللوزير إلى آرائهم ميل   لذاك ما كثرت فيهم علائقه

فبادر الحزم في إطفاء نورهم   فربما عاق عن أمر عوائقه

الله يعلم أني ناصح لكم   والحق أبلج لا تخفى طرائقه

هم العدو ومن والاهم كهم   فاحذر عدوك واحذر من يصادقه (2)

كذلك يروي صاحب المعجب أنه نقل عن الفارس يحيى بن الصحراوية إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها ، وأقوال كان يقولها ، أحنقته عليه وهم باعتقاله ، فرأى الوزير ابن عطية أن يحذر صهره ، فقال لامرأته أخت يحيى المذكور : " قولي لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوناه غداً ، فليعتل ويظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل ، فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر ألماً به ، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته ، فأمر إلى بعضهم ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذي أسر إليه فنقل ذلك بجملته إلى عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب في قتل الوزير أبي جعفر بن عطية (3) .

وواضح من كل ما تقدم ، أن نكبة الوزير كانت ترتبط بمسألة أمن الدولة وسلامتها ، بدليل أن الخليفة لم يقتصر على قتل أبي جعفر فقط ، بل قتل أيضاً أخاه أبا عقيل عطية بن عطية ، كما سجن يحيى بن الصحراوية إلى أن مات في سجنه ، وهذا يذكرنا بنكبة البرامكة وزراء العباسيين .

واستوزر عبد المؤمن بعد ذلك عبد السلام بن محمد الكومي نسبة إلى كومية قبيلة عبد المؤمن (1) .

وقد كانت لهذا الوزير مصاهرة مع الأسرة الحاكمة حيث أن والد عبد المؤمن تزوج أم الوزير عبد السلام ، وكانت له معها بنت اسمها " بنده " (2) أو فنده ، لهذا كان هذا الوزير يدعى بالمقرب ، لشدة تقريب عبد المؤمن إياه (3) . ويبدو أنه قد اعتمد على هذه القرابة في تصرفاته كوزير ، إذ أخذ عليه الاستبداد بعمله والاستئثار بالسلطة ، فضلاً ما اتهم به من الغلول في غنائم قابس ، وشكايات أهل الأندلس من العمال الذين وجههم هذا الوزير إليهم ، الأمر الذي جعل عبد المؤمن يأمر باعتقاله وسجنه أثناء حملته التي دخل فيها تلسان سنة 555 هـ .

ثم احتال في قتله بأن دس له سماً مسهلاً أفقده قواه ، حتى لم يبق فيه إلا عيناه " ، على حد تعبير ابن صاحب العلاوة (1) .

وأخيراً وزر لعبد المؤمن ابنه السيد الأعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن الذي ظل في منصبه حتى وفاة والده (2) .

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558 - 580 = 1163 1184 م) ، استمر منصب الوزارة في يد شقيقه (2) أن حفص عمر مدة يسيرة حتى استقرت الأحوال لأخيه ، فنحي عنها لأبي العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع الذي كان يعمل في الوزارة تحت إدارته (بين يديه) منذ أيام عبد المؤمن (4) .

وكان واد هذا الوزير ، ابراهيم بن جامع ، من أصل أندلسي ، نشأ بساحل مدينة شريش في بلدة روطه على البحر المحيط ثم انتقل إلى العدوة المغربية واتصل بابن تومرت وصار عن جملة أصحابه (أهل الدار) .

وكان من أبنائه إدريس المذكور الذي وزر للخليفة يوسف بن عبد المؤمن ( ) ، وأبو محمد عبد الله بن جامع الذي ولى في ذلك العهد على مدينة سبته بالإضافة إلى ولاية الأسطور في جميع أنحاء الدولة (2) .

وباشر هذا الوزير عمله بمعرفة أخوته ، وبنيه ، وكذلك عاونه شيخ الطلبة أو محمد المالقي الذي كان عنده في مسلاخ – أي رتبة – وزير على حد قول ابن صاحب الصلاة (3) وقد ورد ذكر الوزير ابن جامع ومعاونيه في مناسبات عديدة في كتاب المن بالإمامة (4) ، وهي كلها تعطينا صورة من بعض مهام الوزير في ذلك العهد ومثال ذلك قوله : –

" وركب الخليفة أبو يعقوب يوسف على جواده العتيق ، ووزيره أبو العلا إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً يحدثه ، ويأمر الخليفة بالأوامر فينفذ إدريس المذكور فيها ثم يرجع إليه . (5) ، وقوله حينما مرض الخليفة المذكور :

وكان يدخل إليه وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة ، والأخبار المسلية السارة المتجاملة ، ويحضر معه الأطباء الأولياء أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل وغيرهما (6) .

وقوله عندما شفي الخليفة من مرضه :

" وجلس رضي الله عنه ، ودخل عليه أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر ، والوزير أبو العلاء ادريس بن جامع وأخوه أبو محمد عبد الله (1) قائمان بترتيب الدخول بالناس ، وسلموا عليه ودعوا له وهنوه على عافيته وشفايته . (2) "

وقوله يصف أول خروج للخليفة بعد شفائه في موكب رسمي :

" والوزير أبو العلاء ادريس بن جامع ، مدير لهذه الحال الشريفة ، لا يصدر شيء إلا عن رأيه " ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه ..... ثم استوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر ، وهي أول ركبة خرج فيها من حين مرضه ، والوزير أبو العلاء راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه ، على حجابه ، مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوي اللبانات كلاماً أو إشارة ه، خرج إليهم مستفهماً كلامه موصلاً إعلامه (3) .

وإلى جانب هذه الأعمال المختصة بحجابة الخليفة ، كان الوزير في بعض الأحيان ، يكلف ببعض الأعمال الأخرى التي قد تقتضي سفره بعيداً عن العاصمة مراكش ، ومثال ذلك الوزير أبو جعفر بن عطية السالف الذكر حينما بعثه عبد المؤمن إلى الأندلس لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال هناك (1) . وكذلك الوزير أبو العلاء ادريس بن جامع الذي كلفه أبو يعقوب يوسف بالإشراف على بعض أعمال البناء والتعمير في إشبيلية ، فكان هذا الوزير وابنه يحيى ملتزمين للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء (2) .

وظل إدريس بن جامع وأخوته وبنوه محل تجلة واحترام طيلة خمس عشرة سنة . وفي سنة 573هـ على قول ابن عذاري (3) أو في سنة 477 هـ كما يقول عبد الواحد المركشي (4) ، سخط عليهم الخليفة أبو يعقوب يوسف ، فقبض عليهم واستصفى أموالهم ، ثم أبعدهم إلى ماردة في الأندلس (5) .

ثم وزر لأبي يعقوب يوسف ابنه وولي عهده أبو يوسف يعقوب (المنصور) الذي اتخذ بين يديه أي تحت إدارته الوزير أبا بكر بن يوسف الكومي (1) ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل السيد الوزير أبو حفص بن عبد المؤمن من قبل حينما اتخذ بين الوزير ادريس بن جامع في خلافة والده عبد المؤمن ، وفي بداية خلافة أخيه أبو يعقوب يوسف . ولعل الغرض من ذلك هو وضع الأمراء أقرباء الخليفة في مكانة تسمو عن الوزراء (2) .

ولقد اكتسب يعقوب المنصور من هذا العمل الوزاري الذي تولى أعباءه ، خبرة جليلة ، نفعته في أيام خلافته بعد ذلك ، إذ يقول المعجب في هذا الصدد :

وولي الوزارة أيام أبيه ، فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته في معرفة جزئيات الأمور ، فدبرها بحسب ذلك ... وكان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرباً للأمور ، عارفاً بأصول الشر والخير وفروعهما (3) .

وفي خلافة يعقوب المنصور (580 - 595 = 1184 - 1199 م) ، شغل منصب الوزارة عدد من إخوته مثل السيدين أبي عبد الله ، وابراهيم (4) ، كما شغلها أيضاً جماعة من أشياخ الموحدين وأعيانهم ومعظمهم من زعماء نبيلة هنتانة إحدى بطون مصمودة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين .

ومن هؤلاء نذكر أبا يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني ، الذي استشهد في موقعة الأرك alarcos المشهورة التي أحرز فيها المنصور نصراً حاسماً على الأسبان سنة 591 هـ (1195 م) (1) ويقول صاحب المعجب إن أمر الوزارة قد اضطرب قليلاً (2) بعد وفاة هذا الوزير القائد ، ثم وقع اختيار الخليفة المنصور لشغل

هذا المنصب ، على ابن عم الشهيد اسمه أبو عبد الله ويلقب بالفيل ، فوزر أياماً يسيرة ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى نواحي اشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد ، فأرسلوا إليه من رده ، وأعفوه من الوزارة . ثم وزر للمنصور أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان الهنتاني ، فلم يزل وزيراً إلى أن مات المنصور (3) .

وإلى جانب هؤلاء الوزراء ، هناك أندلسي أديب طبيب شاعر خدم في بلاد الموحدين ، وشارك في بعض أعمالهم المعمارية إلى جانب عمله كطبيب لهم ، وهو الوزير الأجل أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن الوزير أبي العلاء بن زهر الإيادي (4) (توفي سنة 595 هـ - 1199 م) وواضح من اسمه أنه من سلالة وزراء أطباء ، وكانت لهم شهرة وزعامة في عالم الطب والجراحة حتى صار اسم " ابن زهر " علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية avenzoar (1)

قال السلاوي : وهذا الوزير أبو بكر ابن زهر ، هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، وزر للمنصور ولأبيه من قبله ، وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس . وكان حاذقاً بصناعة للطب والجراحات وهو من أطباء الخليفة المنصور وله كتاب في طب العين (3) كما أن ما كتبه من أزجال وموشحات يعتبر نموذجاً لهذين الفنين (3) وعلى الرغم من المراجع المعاصرة لا تدرج اسم أبي بكر بن زهر في عداد الوزراء العاملين في الدولة ، إلا أنها تجمع على تلقيبه بالوزير ، فهل كان هذا اللقب لقباً تشريفياً ورثه عن أبيه وجده تقديراً لخدماتهم الطبية ؟ قد تكون الإجابة بنعم لو أن الأطباء الآخرين الذين خدموا معه في بلاط الموحدين أمثال بن رشد الحفيد ، وابن طفيل ، وأبي مروان بن قاسم ، قد حملوا لقب وزير ، ولكننا نجد أسماءهم خالية منه .

وأغلب الظن أن ابن زهر قد نال هذا اللقب نتيجة قيامه بأعمال شبيهة بأعمال الوزراء العاملين في الدولة . فلقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن كلا من الخليفتين أبي يعقوب يوسف (1) ويعقوب المنصور (2) ، قد عهد إلى ابن زهر بالإشراف على بناء جامع إشبيلية ومثال ذلك قوله :

وتعطل بناء الصومعة إلى أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (أي المنصور) في عام 584 هـ . وقد أمر بإعادة بناء الصومعة المذكورة ، وبناء ما اختل في الجامع فشرع فيها ... ودام ذلك أعواماً يعمل في الصومعة أحياناً ، ويسافر عن إشبيلية فيتعطل في المدد التي كان يعاود فيها البناء . (3)

هذا الإشراف الفني الذي قام به زهر على مباني الموحدين ، يذكرنا تماماً بالوزير إدريس بن جامع حينما قام حيثما قام بعمل مشابه في إشبيلية ذكرناه آنفاً . لهذا فإنه من المحتمل جداً أن يكون الموحدون قد منحوا أبا بكر بن لقب وزير نظير مشاركته لولاة اشبيلية في هذه الأعمال الإدارية الداخلية . وبد يؤيد ذلك وجود حالات متشابهة رواها ابن عذاري عند قوله :

وفي سنة 561 نظر (أبو يعقوب يوسف) في حديث اشبيلية ، إذ كانت تحتاج إلى والي ، فاختار لها الشيخ أبا عبد الله بن أبي ابراهيم ، وعقد له رايتين في مجلسه الكريم ، وعين له وزيراً يسوس أحواله وينظر أعماله وأشغاله وهو أبو زكرياء بن سنان (1)

على أن وزارة أبي بكر بن زهر لم تقتصر مهامها على إشبيلية وحدها ، إذ كان كثيراً ما يتردد على العاصمة مراكش ، ويشارك في مجالس الخليفة المنصور وبأمر منه ، فيروي أبو الفضل التيفاشي أنه جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور ، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد ، والرئيس

الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي ، وكان الأول قرطبياً ، والثاني إشبيلياً ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : " ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية (2) .

كذلك يروي المقري ، أن ابن زهر قال أثناء مقامه بمراكش ابياناً من الشعر يعبر فيها عن شوقه إلى ولد له صغيرة تركه بإشبيلية ، فلما سمعها يعقوب المنصور ، أرسل المهندسين إلى إشبيلية – من غير علم من ابن زهر – وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال بن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيوته وحارته ، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام ، فقيل له : أدخل البيت الذي يشبه بيتك ، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه (!) .

وولى بعد وفاة المنصور ابنه محمد الناصر لدين الله (595 – 611 هـ = 1199 – 1214 م) ، فاستبقى وزير أبيه أبا زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ، ثم عزله بعد مدة يسيرة وولاه بعد ذلك على مدينة تلمسان (2) ثم ولى الخليفة في الوزارة أخاه ابراهيم بن يعقوب المنصور الذي اتصل به المراكشي صاحب كتاب المعجب ، ومدحه بقوله : " وهو خير أبناء أبي يوسف يعقوب وأجدرهم بالأمر (أي بالخلافة) لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق وإطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ... وكان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية " (3) .

وبقي الأمير ابراهيم في الوزارة حتى سنة 605 هـ حينما ولاه أخوه الخليفة على إشبيلية ، وعين مكانه في الوزارة أبا عبد الله محمد بن موسى الضرير . وكان لهذا الوزير صلة نسب مع بني عبد المؤمن ، إذ أن عمته زينب بنت موسى الضرير كانت زوجة لعبد المؤمن بن علي ، وأنجبت منه أبا يعقوب يوسف جد الناصر (1) .

ويروي صاحب المعجب أن هذا الوزير كان من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وأنه كان دائماً يحض على فعل الخير بجهده ونشر العدل حسب طاقته ، والإحسان ، إلى الرعية والأجناد فرأى الناس في أيام وزارته من الخصب وسعة الرزق وكثرة العطاء مثل الذي رأوا أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه (2) .

واستمر هذا الوزير مدة ثم عزله الناصر لأسباب لا نعرفها ، وولى مكانه أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع (3) .

وهذا الوزير الجديد من عائلة معروفة في تاريخ الموحدين ، وقد سبق أن أشرنا إلى جده إبراهيم الذي كان من أصحاب المهدي بن تومرت ، ثم إلى والده عبد الله الذي كان قائداً للأساطيل الموحدية ووالياً على سبتة ، ثم إلى عمه أبي العلاء ادريس الذي كان وزيراً لكل من عبد المؤمن وأبي يعقوب يوسف بعده .

واستطاع هذا الوزير أبو سعيد عثمان أن يسيطر على الخليفة الناصر وينال ثقته ، إلا أن عدداً من المؤرخين اتهموه بالدس والخديعة وكره زعماء الموحدين والأندلسيين ، وجعلوه سبب الكارثة التي أودت بجيوش المسلمين في وقعة العقاب المشئومة las navaa de tolosa في صفر سنة 609 هـ (يوليو 1212 م) فيقول صاحب القرطاس والسلاوي مثلاً ، وكان الوزير أبو سعيد قد تمكن من الناصر ، فأقصى شيوخ الموحدين

وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه ، وانفرد هو به ، فكان يشير على الناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن وجلبت الكرة على المسلمين (1) .

والواقع أن أسباب تلك الهزيمة لا ترجع إلى فساد هذا الوزير ، بل إلى فساد الإدارة كلها في الدولة واضطراب الشئون المالية فيها . وقد لاحظ ذلك صاحب المعجب عند قوله :

" وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين : وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء ، في كل أربعة أشهر ، لا يخل ذلك من أمرهم . فأبطأ في مدة عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصاً في هذه السفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء . (1)

وقد يؤيد ذلك أيضاً ، حركة التطهير الشاملة التي أجراها الناصر قبيل هذه الموقعة ضد الفساد وسوء الإدارة في جميع أنحاء مملكته . وقد نكب في هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها (2) وتجدر الإشارة هنا ، إنصافاً للوزير بن جامع ، أن الذي قام بعملية التطهير ، ونكبِ أشياخ الموحدين ، شخص آخر كان الخليفة الناصر قد فوض إليه مهمة الأشغال العملية أي الأمور المالية وهو صاحب الأشغال أبو محمد بن أبي علي بن مثنى ، الذي ضرب به المثل في ذلك فقالوا " مدها قل لابن المثنى يردها " . (2)

وهذا وينبغي أن نضيف إلى هذا العامل الداخل ، عاملاً خارجياً كانت له خطورته في تقرير مصير هذه المعركة . ذلك أن الأوضاع الساسية في العالم المسيحي عامة وفي أسبانيا خاصة . قد تغيرت في عصر الناصر عما كانت عليه في عصر والده المنصور ، فالممالك الأسبانية النصرانية في أيام المنصور كانت متعادية ومتفرقة الكلمة ، وهذا مكن المنصور من أن ينفرد بأعدائه متفرقين ، وينتصر عليهم واحداً بعد الآخر . وكان لهذه الانتصارات ، ولا سيماً انتصار الأرك – رد فعل شديد في الأوساط الأوروبية المسيحية دفع ثمنه غالياً بعد ولده الناصر . ذلك لأن ملوك إسبانيا وأحبارها قد استغلوا هذا الشعور المسيحي العام ضد الموحدين ، في توجيه حركة الاسترداد الأسبانية reconquista إلى وجهة صليبية عالمية بعد أن كانت قاصرة على القوى الأسبانية المحلية في معظمها . وقد كلل مسعاهم بالنجاح عندما نادى البابا إيوسنت الثالث innocent iii بتوجيه حملة صليبية عند حرب أسبانيا في الغرب على غرار الحملات الصليبية في الشرق ، كما أخذ يعمل في الوقت نفسه على تسوية الخلافات القائمة بين ملوك أسبانيا لتوحيد جبهتهم أمام أعدائهم . ولم تلبث جموع هذه القوى الصليبية ، وأكثرها من الإيطاليين والفرنسيين ، أن أخذت تفتال على أسبانيا ، انثيال الجراد في الكثرة والإفساد – على حد قول الناصر في إحدى رسائله (1) – ثم انضمت إلى قوات الممالك النصرانية الأسبانية المتحدة ، وتقدم الجميع نحو المسلمين وكلهم عزم على محو وصمة هزيمة الأرك ، بالانتصار على الموحدين يضاف إلى ذلك أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدماً كبيراً في غرب أوربا في ذلك العهد .

وهكذا نجد أن هذه المعركة التي خاضها الناصر في وديان تولوسا عند قصر العقاب (2) ، كانت تختلف عن المعارك التي خاضها أسلافه من قبل في طبيعتها وأهدافها ، وهذا كان له دخل كبير في نتيجتها المجزئة .

ولم يعش الخليفة محمد الناصر بعد هذه الكارثة سوى مدة قصيرة ، وتوفى في شعبان سنة 610 هـ وقد علق ابن الخطيب على وفاته بقوله : ولم يعد بعده إلى الأندلس أحد من ملوك الموحدين على أن انقرضت أيامهم (1) أما الوزير أبو سعيد عثمان بن جامع ، فإنه قد عاد بعد هذه الكارثة إلى سابق منصبه ، واستمرت

وزارته بعد وفاة الناصر في خلافة ولده أبي يعقوب يوسف الثاني الملقب بالمستنصر بالله فقام بتدبير الأمر مع مشيخة الموحدين إلى أن عزل من الوزارة في سنة 165 هـ ، وولى بعده وزير اسمه زكريا بن يحيى بن أبي إبراهيم الهزوجي ، وكان أيضاً من ذوي القرابة للأسرة الملكية ، إذ أن والدته كانت ، من بنات يعقوب المنصور . (1) غير أن دولة الموحدين في الواقع كانت بعد هذه الكارثة قد ذهب ريحها وتهدم صرحها : ففي الأندلس ، أخذت معاقل المسلمين تتساقط في يد الأسبان في كل جهة ، وفي المغرب ظهرت قوة زنانية فتية كانت تسكن صحراء فجيج (2) في منطقة وجدة بشرق المغرب الأقصى على حدود الجزائر ، وهم بنو مرين الذين اقتحموا المغرب في عهد هذا الخليفة وأغاروا على مختلف نواحيه في تازا وفاس وبلاد الريف ، وهزموا الجيوش الموحدية التي تعرضت لهم . وتركوا جنودها عراة يخفون أجسادهم بأوراق نبات هناك يعرف بالمشعلة ، فسميت تلك السنة (613 هـ) بسنة للشعلة . حدث كل هذا بينما كان الخليفة المنتصر الموحدي ، قابعاً في قصره ، لاهياً بترويض أبقاره التي كان يستوردها من أسبانيا ، وكأنه يذكرنا بمصارعي الثيران فيها . ولم تلبث حياته أن انتهت بين ثيرانه ، إذ طعنته بقرة شرود في صدره فقتلته في حينه سنة 620 هـ (1224 م) .

وكانت وفاة المستنصر الفجائية دون أن يخلف حقباً ، سبباً في إثارة المنازعات بين بني عبد المؤمن حول العرش ، واستبداد الأشياخ والوزراء بنواحيهم مما أدى إلى اضطرام فتن وحروب أهلية عجلت بسقوط دولة الموحدين .

ولقد قامت على أنقاض هذه الإمبراطورية الموحدية أربع دول مستقلة هي : -

1) الدولة الحفصية في تونس سنة 627 هـ (1230 م)

2) دولة بني عبد الواد في تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط سنة 633 هـ (1235 م) .

3) دولة بني مرين أو بني عبد الحق في فاس وهي الدولة التي استقلت بالمغرب الأقصى بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائياً سنة 668 هـ (1269 م) .

4) مملكة غرناطة وهي آخر ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في أسبانيا ، وقد استقل بها بنو الأحمر أو بنو نصر سنة 635 هـ (1238 م) .

الوزارة على عهد الحفصيين :

للموحدين دولتان : المؤمنية في مراكش ، نسبة إلى عبد المؤمن بن على ، والحفصية في تونس نسبة إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة المصمودية ، وأحمد القائمين بدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدن كما هو واضح من أصلها .

وعلاقة الحفصيين بإفريقية ترجع إلى سنة 603 هـ (1206 م) حينما فوض الخليفة الموحدى محمد الناصر أمر أفريقية إلى وزيره وصهره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني ، ومنحه جميع السلطات التي تخول له حكماً مستقلاً بهذه الولاية . وهذا الحدث يعتبر في الواقع إيذاناً بانفصال أفريقية عن الدول الموحدية في مراكش . ثم حدث الانفصال الرسمي النهائي على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة 626 هـ (1229م) .

والسبب الحقيقي الذي شجع هذا الأمير على الاستقلال بولايته هو انهيار دولة بني عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة 1212 م . أما السبب المباشر لهذا الاستقلال فهو الإعلان (1) الذي أصدره الخليفة الموحدي إدريس المأمون في مراكش سنة 626هـ (1229 م

) . والذي رفض فيه تعاليم المهدي بن تومرت ، ثم أزال اسمه من السكة والخطبة كما قتل المعارضين لسياسته من أشياخ الموحدين ، ومعظمهم من هنتاته ، قبيلة الحفصيين . عندئذ ثار الأمير أبو زكريا الحفصي على المأمون ، ورفض مبايعته ، واتخذ من هذا الإعلان ذريعة للخروج عن طاعة بني عبد المؤمن والاستقلال بولايته ، كما اعتبر نفسه أحق بميراث المهدي بن تومرت منهم .

ولهذا حرص الحفصيون منذ بداية دولتهم على التمسك بتعاليم أمامهم المهدي ، وذكر اسمه في الخطبة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة . وإذا استثنينا بعض التعديلات التي اقتضتها ظروف الزمان والمكان ، فإن ما ورد في تاريخ الدولة الحفصية من أنظمة وتقاليد ، يعتبر استمرارا للدولة المؤمنية لأن كلاهما من الموحدين .

وبدأت هذه الدولة كإمارة مستقلة في عهد أبي زكريا يحيى الأول ثم تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين ، واستمرت هذه الدولة مدة طويلة إلى أن سقطت في يد العثمانيين نهائياً سنة 981 هـ (1574 م) ، وكان نظام الملك فيها وراثياً ، وغالباً ما يكون بالعهد من السلطان السابق ، وأحياناً يكون بالغلبة والقهر من أحد القرابة .

أما عن حدود هذه الدولة ، فقد كانت تشتمل على الأراضي التي تقابلها اليوم طرابلس الغرب في ليبيا ، والجمهورية التونسية ، وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذي يشمل ولايات بونه أو عنابة (بلد العناب) وقسنطينة ، وبجاية وتدلس التي تسمى حالياً دلس dellys غرباً ، وما بعد ورقلة في الصحراء الجزائرية جنوباً . (1)

وكانت مدينة تونس هي عاصمة المملكة الحفصية ، بينما كانت بجاية وأحياناً قسنطينة هي قاعدة المنطقة الغربية منها أي الجزائر الحفصية التي كثيراً ما استقل ، لأنها عن تونس واتخذوا الوزراء والحجاب والكتاب مثل سلاطين تونس .

وكان يعاون السلطان في الحكم ، أقاربه وأشياخ الموحدين الذين كانوا ينتمون إلى القبائل الموحدية التي قامت على أكتافها دولة الموحدين من قبل ، مثل هرغة التي ينتمي إليها ابن تومرت ، وهنتاتة قبيلة الحفصيين ، وأهل تيمال ، وجنفيسة وهكورة ، وهم جميعاً من المصامدة وموطنهم الأصلي جبال أطلس ، ثم قبيلة كومية التي ينتمي إليها عبد المؤمن بن علي الكومي ، وكان موطنها الأصلي منطقة ندرومة الحالية بالجزائر .

وكان لكل قبيلة مزوار أو أمزوار ، وهي كلمة بربرية معناها الابن البكر ، ثم صارت تستعمل في معاني كثيرة مثل كبير القبيلة ، وحاجب السلطان ، ورئيس الجند ، ونقيب الإشراف ، وموقت المؤذنين (1) والمعنى المقصود هنا هو شيخ القبيلة . وهؤلاء الأشياخ كانوا يكونون مجالس العشرة والخمسين التي كانت تحيط بالسلطان وتكون مشورته ، وكان برأسهم واحد منهم يسمى شيخ الموحدين أو الشيخ المعظم لسمو مكانته وارتفاع شأنه ، وهو وزير الرأي والمشورة عند السلطان (1) ، ولهذا كان يختاره السلطان بنفسه ، ومن بين قرابته في أغلب الأحيان ، وكثيراً ما يعهد إليه بمهام خطيرة في الدولة مثل وزارة الجند أو الحرب أو خطه الحجابة أو هما معاً . هكذا نجد أن شيخ الموحدين كان بمثابة رئيس الوزراء في الدولة . ونذكر على سبيل المثال شيخ الدولة أبا سعيد عثمان بن محمد الهنتاني المعروف بالعود الرطب (2) (ت 673 هـ) ، وعائلة بني أبي هلال

الهنتاتية في عهد الخليفة المستنصر الحفصي ، وشيخ الدولة محمد المز دوري الذي أخذ البيعة للسلطان الحفصي أبي يحيى زكريا المعروف باللحياني لطول لحيته (3) (711 - 717 هـ) .

وإلى جانب طبقات الموحدين ، كانت هناك الجاليات الأندلسية التي هاجرت إلى تونس عقب سقوط بلادها في يد الأسبان . ونذكر من أعلامها ابن الآبار ، وابن الجنان ، وابن محرز ، وابن سيد الناس ، وابن عميره ، وحازم القرطاجني وغيرهم . وقد أحسن الحفصيون استقبال المهاجرين الأندلسيين ، واستعانوا بهم في إدارة دولتهم التي كانت ما تزال ناشئة وفي حاجة إلى رجال من ذوي الخبرة والاختصاص في مختلف الميادين . وقد أشار ابن خلدون إلى أن هجرة الأندلسيين إلى البلاد التونسية كانت أكثر من هجراتهم نحو البلدان الإسلامية الأخرى . وعلل ذلك باستفحال الدولة الحفصية . أما الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، فيعلل ذلك أيضاً بالعلاقة التي كانت موجودة من قبل بين الأندلسيين وبين أمراء الحفصيين الذين سبق لبعضهم أن باشروا الحكم في الأندلس في عهد الموحدين .

وكيفما كان الأمر . فإن هجرة الأندلسيين إلى الدولة الحفصية كان من أكبر العوامل التي ساعدت على تقدمها وازدهارها ، إذ أنهم أدخلوا فيها أساليب زراعية جديدة ، وأسهموا بقسط وافر في تدعيم الحياة الإدارية فشاركوا في مناصب القضاء والوزارة والحجابة ، كما شاركوا في نشر الحركة العلية والأدبية مما أعطى هذه البلاد لوناً من الحضارة والتقليد الأندلسية (1) . ويكفي أن نحيل هنا على كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، لنرى مدى إسهام الأندلسيين في نشر الثقافة والحضارة في مدينة بجاية وحدها وقس على ذلك في بقية المدن الأخرى (2) .

ومن المناصب الهامة التي شارك الأندلسيون في إدراتها إلى جانب الموحدين ، هي خطة الوزارة ، يروي العمري نقلاً عن ابن سعيد المغربي ، أن وزراء السلطان الحفصي كانوا ثلاثة وهم : وزير الجند وهو بمثابة الحاجب بمصر ، ووزير المال وهو المعروف بصاحب الأشغال ، ووزير الفضل وهو كاتب السر (1) .

أما وزير الجند أو الحربفكان في غالب الأحيان هو شيخ الموحدين فهو بمثابة رئيس الوزراء . ولهذا كان يلقب بألقاب تدل على منزلته مثل شيخ أو رئيس الدولة أو صاحب الدولة أو رئيس الدولة ، كما كان ينوب عن السلطان عند غيابه عن عاصمته : ويجلس بين يديه في مجالسه مع أشياخ الرأي والمشورة ، وله النظر في الولايات وقيادة الجيوش في الحروب (2) .

أما وزير المال أو الأموال وهو المسمى أيضاً بصاحب الأشغال ، فهو – كما يقول ابن خلدون – المختص بالحسبان ، وبالنظر المطلق في الدخل والخرج ، ويحاسب ويستخلص الأموال ، ويعاقب على التفريط (3) .
وقد ولي وزارة المالية في بادئ الأمر واحد من شيوخ الموحدين ، ثم شغلها بعد ذلك أناس من ذوي الاختصاص في الشئون المالية ، من خارج في الشئون المالية ، ومن خارج طبقة الموحدين .

وبعض هؤلاء الوزراء كانوا من الأفارقة أهالي البلاد الأصليين ، أمثال أبي العباس أحمد اللياني (1) على عهد الخليفة المستنصر ، أو من الموالي أمثال الملوك مدافع على عهد الواثق بالله بن المستنصر ، إلا أن أغلبهم كان من الأندلسيين أمثال أبي عثمان سعيد بن أبي الحسين الذي ينتمي لأسرة بني سعيد المشهورة في التاريخ أصحاب قلعة يحصب الأندلسية بجوار غرناطة (la alcala, la real) ، وقد تولى وزارة المالية في عهد المستنصر وأوائل عهد ابنه الواثق بالله (2) ، وأبي بكر محمد بن خلدون جد المؤرخ المعروف بن خلدون على

عهد الخليفة أبياسحاق ابن الواثق ، ومثل محمد بن يعقوب ، وأبي القاسم بن طاهر وغيرهم ممن شغل هذا المنصب في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري (2) . وكل هذا يدل على أن وزارة المال لم تكن شرطاً قاصراً على الموحدين الأولين كما يقول الزركشي (4) وابن خلدون (5) ، وإنما كانت تمنح لذوي المعرفة والدراية بالشئون المالية .

ومن سوء الحظ أن وزير المالية أو صاحب الأشغال في هذه الدولة الحفصية ، كان عرضة دائماً للقتل أو السجن والتعذيب ومصادرة الأموال . فاللياني قتله المستنصر سنة 659 هـ (1261 م) ، وسعيد بن أبي الحسين قتله الواثق بالله وصادر أمواله سنة 676 هـ ((1278) (2) ، وأبو بكر محمد بن خلدون قتله مغتصب العرش ابن أبي عمارة سنة 682 هـ (1283 م) ، وقد شرح حفيده ابن خدلون خبر مصرعه بقوله : " واستقل أبو إسحاق بملك أفريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمداً إلى الأشغال في الدولة على سنن عظماء الموحدين فيما قبله ، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم ، وحسابهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ولما غلب ابن أبي عمارة على ملكهم بتونس ، اعتقل جدنا أبا بكر محمد ، وصادره على الأموال ، ثم قتله خنقاً في محبسة (3) ويبدو أن التنافس الذي كان سائداً بين المهاجرين الأندلسيين وبين بعض أشياخ تونس من الموحدين ، كان له دخل في هذه النكبات (4) .

ولقد استمر هذا المنصب يشغله صاحب الأشغال إلى أن حدث تغيير في تلك التسمية على عهد السلطان الحفصى أبي فارس عبد العزيز أو عزوز (796 - 837 = 1394 - 1433 م) ، إذ صار يطلق عليه اسم المنفذ أي صاحب الجباية والتنفيذ في الدولة . وكان يختار من بين كبار رجال الموحدين ويتمتع بنفوذ كبير في المملكة - (1) .

أما وزير الفضل أو كاتب السر ، فهو المختص بديوان الإنشاء أي الذي يتولى المكاتبات والأوامر السلطانية ، وكذلك كتابة العلامة ، وهي جملة أو عبارة التوقيع التي تضاف إلى هذه المكاتبات ثم ترفع إلى السلطان ليضع خاتمه : عليها كذلك كان هذا الوزير يشرف على أرباب العلم وسائر فنون الفضل ولهذا سمي بوزير الفضل . وكان يشترط فيه أن يحسن الإنشاء ، ويجيد الترسيل باللغة العربية الفصحى ، وأن يؤتمن على كتمان الأسرار ، ولهذا سمي أيضاً بكاتب السر (2) . ولم يشترط الحفصيون النسب في صاحب هذه الخطة أي أن يكون من قرابتهم أو من طبقة الموحدين كعادتهم في معظم الولايات والمناصب الرئيسية ، وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الكتابة والترسيل لم تكن من منتحل القوم بسبب رطانة ألسنتهم ، وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة (3) ولهذا نجد أن هذه الخطة شغلها عدد كبير من الأندلسيين الذين كانوا يجيدون هذا الفن من الكتابة .

هذا ويرى ابن سعيد والزركشي ، أن علامة الحفصيين التي اختارها خليفتهم الأول المستنصر بالله ، كانت " الحمد لله والشكر لله " ، ثم رأى شيخ الموحدين في عهده أبو سعيد عثمان الهنتاتي المعروف بالعود الرطب ، أن الأوامر السلطانية قد تنفذ بأمور صغيرة لا ينبغي الكتابة بمثلها عن الخليفة لعلو قدره ، ولهذا قسم العلامة إلى علامتين : كبرى وصغرى فالأوامر الكبيرة الصادرة عن الخليفة تكتب بالعلامة أو العبارة السالفة الذكر . أما الأمور الصغيرة التي يكبر قدر الخليفة عنها فتصدر بعلامة أخرى عن أمر نائب الخليفة . وكان صاحب العلامة الكبرى هو وزير الفضل ويوقعها السلطان نفسه ، وتكتب بعد البسملة بالقلم الغليظ في أعلا الصفحة أما العلامة الصغرى فتكتب في أسفل المنصور وتصدر عن وزير الجند الذي كان في العادة هو شيخ الموحدين أو نائب

الخليفة . وللتمييز بينهما كانت كتب السلطان تصدر في ورق أصفر ، بينما كان ما يكتب عن وزير الجند يصدر ورق غير الأصفر . ومن عادة المغاربة كلهم أن لا تطول كتبهم ولا يبعد بين أسطرهم كما جرت به العادة في مصر والشام وإيران . (1)

ولقد أورد أبو الوليد بن الأحمر في كتابه مستودع العلامة أسماء كتاب العلامة على عهد الحفصيين إلى ما بعد سنة 855 هـ (2) .

ومن أبرز الكتاب الأندلسيين الذين تولوا هذه الخطة على عهد المستنصر الحفصي ، نذكر أبا عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الآبار (595 – 658 هـ) وتذكر المراجع أنه كان يكتب العلامة بخطه المغربي ، ولكن السلطان رغب في أن تكون بالخط المشرقي ولهذا أمر بأن يكتفي ابن الآبار بإنشاء المكاتبات ، ويدع العلامة للوزير أحمد بن إبراهيم الغساني ، فغضب ابن الآبار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما ينشئه من رسائل ، فعوتب في ذلك وروجع ، فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد متمثلاً ببيت للمتنبي :

أطلب العز في لظى وذر الذل (م) ولو كان في جنان الخلود

وحمل الخبر إلى السلطان ، فعزله عن عمله . وأحسب ابن الآبار بخطأ تصرفه ، فكتب كتاباً بمثابة اعتذار للسلطان أسماه " إعتاب الكتاب " ، ويتضمن حكايات كتاب سبق إليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوهم . وعفا عنه السلطان بعد ذلك إلا أنه يبدو أن ابن الآبار ظل على كبريائه ومهاجمة خصومه ولا سيما الوزير أحمد ابن إبراهيم الغساني فأوغروا صدر المستنصر عليه وأوهموه بأنه يتآمر ضده ، فأمر بقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل قعصاً بالرماح سنة 258 هـ (1260 م) (1) .

وإلى جانب هذه الأعمال ، كان يعهد إلى وزير الفضل في كثير من الأحيان ، الإشراف على مكتبة القصر الملكي ، والنظر فيما تحتاج إليه من كتب (2) . وقد ذكر الكاتب المعاصر أبو محمد عبد الله التجاني في رحلته أن أول من ابتدأ في جمع هذه الخزانة أو المكتبة هو أبو زكريا يحيى الأول ، وأنه عهد إلى صاحب خطة العلامة الكبرى الحسن بن معمر الهواري الطرابلسي النظر في خزانة الكتب بالقصبة ، ثم إن الخليفة المستنصر بالله تغير عليه فنفاه إلى المهدية سنة 667 هـ ، ولكنه عفا عنه السنة التالية ورجع ابن معمر إلى تونس . ولما مات المستنصر وبويع لولده الواثق ، استدعى الحسن ابن معمر وأمره بالنظر في خزانة الكتب وذلك في سنة 675 هـ . ويروي أنه لما مثل الحسن عن هذه الخزانة ، ذكر أنها كانت ثلاثين ألف سفراً حين كانت لنظره أولاً ، وأنه لما أعيد إليها واختبرها في هذه المرة ، فوجدها تقصر عن ستة آلاف سفر ، فسئل عن موجب ذلك ، فقال : المطر وأيدي البشر (1) . ويبدو أن ضياع هذه الخزانة الضخمة يرجع إلى الحفصيين أنفسهم . بدليل ما يرويه الزركشي وابن أبي دينار عن أن السلطان أبا يحيى زكريا بن أحمد بن اللحياني (711 – 717 هـ) لما رأى اضطراب ملكه ، وظهر له خروج الأمر من يده ، باع جميع النفائس التي كانت بالقصبة ومن جملتها الكتب التي اقتناها أبو زكريا الأكبر ، وخرج من تونس إلى طرابلس واستوطنها عام 717 هـ (2) .

من كل ما تقدم نرى أن الوزارة الحفصية كانت تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم ، وأن السلطان كان يهيمن عليها ويجتمع بوزرائها في كل يوم تقريباً وقد أوضح ابن سعيد هذا اللقاء الذي كان يتم بين السلطان ووزرائه بقوله :

" وعادته في مدينة مملكته – يعني تونس – أنه يخرج كل يوم باكراً إلى موضع يعرف بالمدرسة ، ويبعث خادماً صغيراً يستدعي وزير الجند من موضعه المعين له ، فيدخل عليه رافعاً صوته بسلام عليكم ، من بعد أن يومئ برأسه . ولا يقوم له السلطان ، ويجلس بين يديه ، ويسأله السلطان عما يتعلق بأمور الجند والحروب ، ثم يأمره باستدعاء من يريده من أشياخ الجند والعرب أو من له تعلق بوزير الجند ، ثم يأمره باستدعاء وزير المال ، وهو المعروف بصاحب الأشغال ، فيأتي معه ويسلمان جميعاً من بعد على السلطان ، وإن كان قد تقدم سلام وزير الجند ، ولكنه عادة الدخول عليه ، فيتقدم وزير المال إلى بين يدي السلطان ، ويتأخر وزير الجند إلى مكان لا يسمع فيه حديثهما ، ثم يخرج وزير المال ، ويستدعي من يتعلق به ، ثم يحضر صاحب الطعام بطعام الجند ويعرضه على وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير . ثم يقوم السلطان من المدرسة إلى موضع مخصوص ، ويستدعي وزير الفضل ، يعني كاتب السر ، ويسأله عن الكتب الواردة من البلاد وعما تحتاج إليه خزانة الكتب ، وهما تجدد في الحضرة وفي البلاد مما يتعلق بأرباب العلم وسائر فنون الفضل والقضاة ويأمره باستدعاء من يخصه من الكتاب ، ويملي عليهم وزير الفضل ما أمر بكتابته ويعلم عليه وزير الفضل بخطه " (1) .

الحجابة في الدولة الحفصية

أما خطة الحجابة في هذه الدولة ، فقد مرت في أدوار مختلفة من ضعف إلى قوة ثم ضعف واضمحلال . ويذهب المستشرق الفرنسي روبرت برولشفيج في كتابه القيم عن الحفصيين ، إلى أن هذه الخطة لم تظهر في الدولة الحفصية إلا في أيام السلطان أبي إسحاق إبراهيم الأول (678 – 683 هـ) الذي عاش في الأندلس فترة قبل إعلانه العرش ، فتأثر بهذه الخطة التي كانت شائعة هناك ، واتخذ في خلافته حاجباً أندلسياً وهو أبو القاسم بن الشيخ (1) تلميذ الكاتب الأندلسي المعروف ابن عميرة . إلا أنه يبدو أن هذه الخطة كانت قائمة في تونس قبل ذلك التاريخ ، إذ يروي ابن عبد الملك المراكشي أن أبا القاسم بن الشيخ كان حاجباً للخليفة المستنصر الحفصي جد أبي إسحاق المذكور (2) .

وكيفما كان الأمر ، فإن خطة الحجابة في بداية الحفصية ، لم يكن لصاحبها نفوذ سياسي كبير ، إذ كان عمله قاصراً على إدارة قصر السلطان أو كما يقول ابن خلدون : كان بمثابة قهر مان خاص بداره ، ينظر في أحواله ويجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإصطبلات وغيرهما ، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا أتفق أنه يحسن صناعة الكتابة ، وربما جعلوه لغيره (2) .

ويستمر ابن خلدون في شرح تطور هذه الخطة في الدولة الحفصية فيقول :

" واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس ، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ، ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة ، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ، ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم – أبي حفص عمر الثاني – ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه ، وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة التي كان سلماً إليه وباشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد . " (2)

واضح من كلام ابن خلدون ومن الأحداث التاريخية لهذه الدولة ، أن الحجابة قد ارتفع شأنها بعد أن كانت قاصرة على نظارة قصر السلطان فصار صاحبها رئيساً للوزراء ، وحل محل وزير الجند وشيخ الموحدين من حيث الاختصاص ، أو بمعنى آخر صار شيخ الموحدين يلقب بالحاجب أيضاً . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة استبداد الحجاب

بالخلفاء وهذا يذكرنا بالحاجب المنصور ابن أبي عامر في الأندلس ، وكان صنوه في تونس هو الحاجب أبو محمد بن تفراجين (1) الذي استبد بكل من أبي حفص عمر الثاني بن أبي بكر (747 - 750 هـ) وأبي إسحاق إبراهيم الثالث) 751 - 779 هـ) وسلم عليه سلام الملوك ، كما تزوج ابنته السلطان أبو إسحاق المذكورة سنة 766 هـ بصداق قدره 12 ألف دينار و 30 خادماً وتوفى ابن تفراجين بعد ذلك في تلك السنة (2) . وبعد وقت قصير خلفه حاجب آخر وهو أحمد اليالقي الذي استبد بالسلطان خالد بن إسحاق (770 - 772 هـ) ، ولم يترك له شيئاً (3) . ثم جاء بعده السلطان أبو العباس أحمد الثاني (772 - 796 هـ) فباشر الحكم بنفسه وقضى على كل نفوذ لهذه الخطة التي كانت مصدر الاستبداد والتغلب (4) .

هذا والجدير بالذكر أن المؤرخ ابن خلدون الذي أمدنا بهذه المعلومات القيمة قد توهها هو الآخر خطة الحجابة المطلقة لأمير بجاية أبي عبد الله محمد سنة 5761 هـ (1264 م) .

وقد شرح هو نفسه حدود عمله الجديد بقوله ، وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطه عهداً بولاية الحجابة ، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب ، الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد . (1)

وظل ابن خلدون حاجباً لهذه الإمارة الحفصية الجزائرية مدة عام تقريباً ، ثم اضطر إلى الفرار منها إلى مدينة بكرة قاعدة الزاب بالجزائر وذلك عقب مقتل خليفة الأمير محمد واستيلاء ابن عمه أبي العباس على بجاية سنة 767 هـ (2) ويضيف ابن خلدون أن ملك تلسان أبو حمو موسى الثاني ، كتب إليه يستدعيه من بكرة ليوليه حجابته (3) لما كان يعلمه من نفوذه في بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة ولكن ابن خلدون اعتذر عن قبول هذه الخطة ، وأرسل إليه أخاه الأصغر يحيى نيابة عنه (4) .

وفي أواخر أيام الدولة الحفصية انفصلت الحجابة نهائياً عن رئاسة الوزراء وصار الحاجب - كما يقول الحسن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقي - القرن 16 م ، في المرتبة السادسة في الدولة الموحدية الحفصية واقتصرت مهمته على الإشراف على فرش قاعة السلطان بالأبسطة والوسائد ، وتنظيم جلوس الحاضرين في الأماكن المخصصة لهم (1) .

الوزارة والحجابة في دولة بني عبد الواد

تنتمي هذه الدولة إلى قبيلة بني الواد إحدى بطون زناتة التي كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط . ولما فتح الموحدون هذه البلاد ، كان بنو عبد الواد عوناً لهم على ذلك ، فنالوا ثقة الموحدين، وحصلوا منهم على إقطاعات وفيرة بأحواز تلسان ، فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت .

ولما انهارت دولة الموحدين ، استقل يغمراسن بن زيان ملك بني عبد الواد بهذه المنطقة سنة 633 هـ (1235 م) مؤسساً بذلك دولة بني عبد الواد التي عرفت أيضاً بدولة بني يغمراسن باعتباره أول ملوكها ، وبدولة بني زيان أو الزيانية نسبة إلى اسم والده (1) .

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة ، إذ أنهما كانت تضيق وتتسع حسب قوة جيرانها من بني حفص شرقاً ، وبنى مرين غرباً ، إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طولاً من البحر المتوسط شمالاً إلى صحراء الجزائر جنوباً ، وعرضاً من جبال سعيدة ووادي مينة شرقاً إلى وادي ملوية ومدينة وجدة غرباً (2) .

وكثيراً ما كانت هذه الدولة في أيام قوتها تغير على جيرانها ، وتتوغل في أراضيهم شرقاً وغرباً ، إلا أنها في نفس الوقت كانت تعاني هي الأخرى من غاراتهم ولا سيماً بني مرين الذين تمكنوا من احتلال عاصمتهم تلسان (بكر التاء واللام وسكون الميم) مرات عديدة .

ولقد كانت الصحراء جنوباً هي معقل بني عبد الواد ومأواهم الذي يحتمون به حينما تتعرض بلادهم لغزو جيرانهم المرينيين ، فيظنون بها إلى أن تزول حدة هذا الغزو بانسحاب السلطان المريني أو بموته ، وعندئذ يعودون إلى قاعدتهم تلمسان ويستردون ملكهم مرة أخرى .

ولم يخفف من متاعب هذه الدولة الزيانية سوى تأييد ملوك غرناطة لها لما كانوا يخشونه من أطماع بني مرين في ملك الأندلس كما فعل المرابطون والموحدون من قبل . ومن ثم عمل بنو الأحمر على تأييد إلى زيان بشتى الوسائل كي يظلوا شوكة في جنب الدولة المرينية فيشغلونها عنهم .

وكان من نتائج هذه السياسة ، أن ارتبطت تلمسان بعجلة غرناطة في مختلف الميادين السياسية والحضارية حتى صار لها طابع أندلسي تلمسه بوضوح في مساجدها ومدارسها ومبانيها ، وقد ساعد على تدعيم هذه الروابط ، أن معظم ثغور هذه الدولة الزيانية كانت عامرة بالجاليات الأندلسية من قديم ، بل إن بعضها كان من بنائهم . ومن أهم تلك الثغور نذكر ، هنين (1) التي تقابل المرية almeria في شرق الأندلس ، ووهران التي بناها الأندلسيون وتقع شرقي تلمسان بقليل ، ومستغانم التي تقابل دانية dania في شرق الأندلس (2) . ولهذا كانت العلاقة بين البلدين محكمة وطيدة تولدت فيها السفارات والهدايا والمراسلات السلطانية (3) .

أما عن ترتيب هذه المملكة ، فالظاهرة أنها تشبه مملكة تونس في الحال والترتيب أو قريب من ذلك (4) . وكان الحاجب عندهم هو الرجل الأول في الدولة ، ويشمل نفوذه اختصاص الوزارة والحجابة معاً ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته حين قال :

وأما دولة بني عبد الواد ، فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها ، وإنما يخصوتن باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص ، وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها (1) .

وكلام ابن خلدون هنا ينطبق على معنى الحجابة المطلقة التي سيطرت على مملكة تونس فترة من الزمان . وقد شرح كذلك خطة الحجابة في تلمسان سلطانها أبو حمو الثاني في خطابه الذي أرسله إلى ابن خلدون يدعوه فيه إلى تولى حجابته ، وفيه يقول :

" وكانت خطة الحجابة بياناً العلي – أسماه الله – أكبر درجات أمثالكم ، وأرفع الخطط لنظرائكم ، قرباً منا ، واختصاصاً بمقامنا ، واطلاعا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم بها إيثاراً ، وقدمناكم لها اصطفاء واختياراً ، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي ، لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبيه ، حاجباً لعلى بابنا ، ومستودعاً لأسرارنا ، وصاحب الكريمة علامتنا ، إلى ما يشاكل ذلك من الأنعام العميم ، والخير الجسيم ، لا يشارككم مشارك في ذلك ، ولا يزاحمكم أحد ..... الخ (2) .

ولك هذا يدل على أن مدلول الحاجب هنا هو الوزير أو رئيس الوزراء المستقل بالدولة والوسيط بين السلطان وبين أهل دولته (3) .

على أن الشيء الذي نلاحظه في هذا الصدد ، هو أن عدداً كبيراً من وزراء هذه الدولة كانوا من أهل الأندلس . ففي عهد أبي حمو موسى الأول (707 - 717 هـ = 1307 - 1318 م) ، ولي الوزارة على التعاقب محمد بن ميمون بن الملاح ، وولداه من بعده محمد الأشقر ، فإبراهيم ، ثم عمهما علي بن عبد الله . وكان بنو الملاح هؤلاء من مشاهير رجال المال ومن أسرة قرطبية الأصل اشتهرت بالعدل والصدق والتقوى . وقد انقرض أمر هذه الأسرة يوم اغتيال أبي حمو الأول سنة 78 هـ ، إذ قتلوا معه وانتهبت أموالهم . (1)

وفي عهد ولده أبي تاشفين عبد الرحمن الأول (817 - 387 هـ = 1318 - 1336م) ولي الوزارة مملوك من أصل قطلاني إسباني اسمه هلال ، ولد في غرناطة وتربى في بلاط بني الأحمر ، ثم أهداه سلطان غرناطة إلى أبي حمو الأول الذي أعطاه بدوره إلى ابنه أبي تاشفين الذي ولاه حجابته حينما صار سلطاناً . وتصف المراجع هلالاً هذا بالغلظة والفظاظة والمهابة ، وقد انتهت حياته في السجن سنة 729 هـ بعد أن غضب عليه سلطانه أبو تاشفين . (2)

ويعتبر عصر أبي حمو موسى الثاني من أزهر عهود الدولة الزيانية (753 - 791 هـ = 352 - 1389 م) . وكان هذا السلطان قد ولد في غرناطة سنة 723 هـ (1323 م) ، وقضى فيها فترة شبابه ، عندما كان والده منفياً (1) ، فتأثرت شخصيته بالحضارة الأندلسية الراقية التي كانت سائدة في غرناطة في ذلك الوقت ، مما كان له أثر كبير في ذلك الازدهار الحضاري الذي نعمت به تلمسان حتى صارت صورة من غرناطة في عهده (2) ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شئ جندياً باسلاً ، إلا أنه كان في نفس الوقت أديباً فيلسوفاً وشاعرا فناناً . ويظهر ذلك بوضوح في كتابه ، نظم السلوك في سياسة الملوك ، (3) الذي صنفه على شكل نصائح لولده وولي عهده أبي تاشفين عبد الرحمن . والكتاب في مجمله تلخيص ، لكتاب سلوان المطاع ، لابن ظفر الصقلي (4) (ت سنة 555 هـ = 1160 م) ، إلا أن أبا حمر ضمنه الكثير من نظمه وما جرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بني مرين ، ومشايخ العرب ، وزعماء المغرب وغيرهم (1) . ولند أحاط هذا السلطان نفسه بطبقة من العلماء والشعراء تخص بالذكر منهم بعض الأندلسيين أمثال الكاتب يحيى ابن خلدون ، والشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي . (2) وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا السلطان في سنة 719 هـ (1369 م) دعا لحجابته المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون ، ولكن هذا الأخير اعتذر عن تلبية رغبته وأناب عنه أخاه أباً زكريا يحيى بن خلدون ، فشغلها مدة طويلة أنتج خلالها عدة أعمال أدبية تاريخية مثل كتاب " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، وقصيدة في السيف والقلم ، ومراسلات سلطانية مع ملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب (3) . وقد مات يحيى بن خلدون قتيلاً على يد ولي العهد أبي تاشفين سنة 780 هـ (1369 م) لمماطلته إياه بعقد ولاية وهران ، وكانت هذه المماطلة عن أمر السلطان أبي حمو (4) أما أخوه عبد الرحمن ابن خلدون ، فقد كان قبيل ذلك الوقت قد دعاه أبو حمو مرة أخرى للعمل معه سنة 776 هـ (1335 م) ، ولكنه امتنع وآثر التخلي عن السياسة ، والانقطاع للدرس والبحث ، فنزل بأهله قلعة ابن سلامة أو بني سلامة أو بني تاو غزوت في جنوب غرب مدينة فرندة frenda بمقاطعة وهران في الجزائر ، حيث أقام أربعة أعوام (776 - 780 هـ) كتب مقدمة تاريخه المشهورة (1) .

ولقد استطاع أبو حمو بفضل تدبير وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث ، أن يسيطر على بلاد المغرب الأوسط فترة من الزمان ، وأن يساعد مملكة غرناطة في جهادها مع الأسبان بالمال والمؤن والرجال ، إلا أنه لم يلبث أن أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما ثار عليه ولده أبو تاشفين ، وتآمر ضده مع السلطان أبي العباس المريني ، فقام من فوره لإخماد ثورته ، ولكنه قتل في خلال المعركة إذ كبا به فرسه فسقط صريعاً سنة 791 هـ (1389 م) ، وبموته انتهت مملكة تلمسان كدولة مستقلة ، وصارت تابعة لسلطان فاس . (2)

الوزارة والحجابة على عهد بني مرين أو بني عبد الحق :

كان بنو مرين من القبائل الزناتية (1) التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عمومتهم بني عبد الواد . ولهذا آثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على الدخول في طاعة الموحدين . وحياة الصحراء كانت توافقهم لأنهم من البدو الرحل . وكانوا في فصل الربيع يرحلون إلى شمال المغرب الأقصى لرعي إبلهم ومواشيهم . فيقضون شهوراً من السنة نازلين بين فجيج (فكيك) وملوية ، حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم . (2)

وقد لاحظ بنو مرين أثناء ذلك ما بدأ يطرأ على جسم الموحدين من ضعف واختلال بعد هزيمة العقاب ، فشجعهم ذلك على الطموح لذلك والاستيلاء على البلاد وخيراتها (3) . وكان أول قيام بني مرين في سنة 613 هـ (1216 م) ، على عهد أميره أبي محمد عبد الحق بن محيو الذي احتل مكناسة وتازا وأخذ يغير غرباً على بلاد الهبط (4) في شمال المغرب

ثم تدعمت أركان هذه الدولة في عهد عثمان بن عبد الحق سنة 616 هـ (1219 م) ، وأخيراً جاء أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني وقضى على آخر خلفاء الموحدين ، أبي دبوس ، واستولى على عاصمتهم مراكش سنة 668 هـ (1269 م) فانقرضت بذلك دولة الموحدين .

وقد تلقب يعقوب بعد ذلك بلقب أمير المسلمين بدلاً من لقب الأمير الذي كان يدعى به ، كما قطع الدعاء للخلافة الحفصية بتونس ، وبنى في الناحية الغربية من مدينة ، فاس ، عاصمة للدولة الجديدة سنة 674 هـ (1275) صارت تسمى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد وفاس الجديدة ، تمييزاً لها عن جارتها فاس البالية أو القديمة التي بناها الأدارسة من قبل (1) .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الدولة المريفية ، لم تستند في قيامها إلى دعوة إصلاحية دينية خاصة كما فعلت الدول التي سبقتها ، بل قامت نتيجة للاضطراب والفساد الذي حل بالمغرب عقب كارثة العقاب ، فاتخذت من ذلك مبرراً كافياً لقيامها (2) . على أن هذا لا يمنع القول بأن هذه الدولة كانت مثل سابقتها ، دولة عسكرية مجاهدة ، جعلت من الجهاد في الأندلس هدفاً مباشراً لقيامها .

ولقد حاولت هذه الدولة الزناتية أن تجمع كلمة المغرب العربي ، وتعمل على توحيده كما كان الحال في عهد بني عبد المؤمن ، ونجحت فعلاً في بعض فترات قوتها ، أن تمد نفوذها إلى نواحي كثيرة من القطر الجزائري بل والتونسي أيضاً ، إلا أنها اصطدمت هناك بمقاومة عنيفة من جانب بني عبد الواد والحفصيين ، واقتصر نفوذها آخر الأمر على بلاد المغرب الأقصى بين نهر ملوية شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ، وسجلماسة " تافيلالت " جنوباً .

أما في الشمال ، فقد حرص المرينيون على الجهاد في أسبانيا ، ومساعدة مملكة غرناطة الإسلامية واقتضت منهم هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في جنوب الأندلس مثل رندة وجبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وطريف ، المقدس ، إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه ، أن اهتمام المرينيين بهذه القواعد الأندلسية . لا يرجع فقط إلى الرغبة في مساعدة إخوانهم في الدين سكان غرناطة ، بل يرجع أيضاً على الدفاع عن نفوذهم في مضيق جبل طارق ، ومنع أي خطر يهدد المغرب من هذه الناحية الشمالية .

وقبائل بني مرين كانت كثيرة العدد ، نذكر منها : بني عبد الحق ، وبني عسكر ، وبني وطاس ، وبني الكاس ، وبني يابان ، وبني فودود ، وبني يرنيان ..... الخ وكلها تنتمي إلى زنانة (1) ، إلا أن نظام الملك فيها انحصر في بيت بني عبد الحق لأنهم – كما يقول ابن الخطيب – يعوب زنانة (2) .

وكان العظماء من ملوك بني مرين يباشرون القضايا المهمة بأنفسهم بمشور القصر الملكي بفاس الجديدة ، ويحيط بهم مجلس من الخاصة وأهل الشورى من أشياخ بني مرين الذين كان يرأسهم كبير منهم يدعى بشيخ بني مرين (3) . وهذا المجلس يذكرنا بمشيخة الموحدين على عهد بني عبد المؤمن والحفصيين .

وقد أشار العمري إلى أن هؤلاء الأشياخ كانوا يجلسون مع السلطان متقلدين سيوفهم ، بينما يجلس السلطان على فرش مرفوعة . وكان الجميع بما في ذلك السلطان والجند ، يتعممون بعمائم طوال ، قليلة العرض من كتان ، ويعمل فوقها إحرامات يلفونها على أكتافهم ، ويتقلدون السيوف تقليداً بدوياً ، ويلبسون الخفاف في أرجلهم ، وتسمى عندهم السيوف تقليداً بدوياً ، ويلبسون الخفاف في أرجلهم ، وتسمى عندهم بالأنمقة كما في أفريقية (أي تونس) ، ويشدون المهاميز فوقها ، ويتخذون المناطق (وهي الحوائص) ويعبرون عنها بالمضمات من فضة أو ذهب .

وربما بلغت كل مضمة منها ألف مثقال ، ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو يوم التمييز ، وهو يوم هزمهم على السلطان . ويختص السلطان يلبس البرنس الأبيض الرفيع ، لا يلبسه ذو سيف غيره " (1) .

وإذا كانت السلطنة في دولة بني مرين قد انحصرت في بيت بني عبد الحق ، فإنه يلاحظ أن خطة الوزارة أو رئاسة الوزراء قد استأثرت بها عائلات من القبائل المرينية المعروفة السالفة الذكر ، فنسمع عن عدد كبير من الوزراءباسم الفودودي أو اليرنياني أو الياباني أو السكري أو ابن الكاس أو الوطاسي ، بل إن بعضهم كانت تربطه بملوك بني مرين روابط المصاهرة (2) ، ولهذا فإن الوزير في عهد هذه الدولة كان يعتبر من أرباب السيف ، ومن أشياخ بني مرين ، وقد شرح ابن خلدون اختصاصه بقوله : " وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي الموزير " . (3)

وبطبيعة الحال كان هؤلاء الوزراء ، باعتبارهم من القادة العسكريين ، يرافقون السلاطين في غزواتهم سواء في المغرب أو الأندلس . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء من استشهد منهم في العمليات الحربية التي خاضها السلطان أبو الحسن المريني في طريف والجزائر وتونس ، ووصفهم بأوصاف تدل على مكانتهم الحربية كالبطولة والفروسية وسيوف الله المسلولة (1) . ويضيف ابن مرزوق أنه كان من اختصاص الوزير أيضاً ، الإشراف على الجبايات والنظر في الولاة . ورفع الشكايات للسلطان ومباشرة الحكم في بعضها (3) .

وبعد وفاة السلطان أبي عنان فارس سنة 579 هـ (1358 م) ضعف نفوذ ملوك بني مرين لصغر سنهم وتحول النفوذ إلى الوزراء . وإذا استثنينا فترات قصيرة تمكن فيها بعض الملوك من الانفراد بالحكم ، فإنه يمكن القول بصفة عامة بأن كل نفوذ في الدولة قد صار بيد الوزراء حتى نهاية الدولة المرينية .

أما من ناحية إدارة الشئون المالية ، فقد كانت في يد كاتب يعمل تحت إدارة الوزير ، ويعرف بصاحب الأشغال أو كاتب الأشغال ، ويتولى حسابات العطاء والخراج ، كما يتولى ديوان الجيش ، فيشرف على إحصاء الجنود بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم ، وهو مسؤول أمام السلطان أو الوزير ، وخطه معتبر في صحة الحسابات في الجباية والعطاء (3) ويروى ابن مرزوق أن ديوان هذه الخطة ، كان يشتمل على كتاب الخراج ، وأهل الحساب والمساحة ، وأن من ملحقاته شهود بين المال الذين كانوا يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال دخلاً وخرجاً ، وترجع إليهم سائر الأعمال ،وترفع لهم جرائد الحسابات وهي أشرف خطط العدالة (1) ومن توابع هذه الخطة أيضاً ، عمال الزكاة ، وهم الذين يخرجون للنواحي لاقتضاء ضرائب سكان البادية . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء من تولوا خطة الأشغال في أيام السلطان أبي الحسن المريني ، أمثال أبي الحسن القائل ، وأبي محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني ، وأبي الحسن علي محمد بن مسعود ، ووصفهم جميعاً بالحسب ، ونزاهة النفس والأمانة (2) ، ثم يضيفابن مرزوق بأن من فضائل السلطان أبي الحسن المريني ، أنه لم يستعمل أحداً من أهل الذمة في هذه الخطة أو غيرها كما استعمله غيره في المشرق والمغرب والأندلس . وضرب مثلاً على ذلك بابن نغزالة أو نغزله اليهودي وزير باديس بن حبوس بن زيرى ملك غرناطة (430 – 466 هـ) على عهد ملوك الطوائف ، وكيف أن العامة قتلته هو وأهل ملته على أثر القصيدة الحماسية التي قالها محرضاً ضد اليهود الشاعر الصوفي أبو إسحاق ابراهيم الإلبيري (3) .

والواقع أن هذه السياسية الحكيمة التي اتبعها السلطان أبو الحسن المريني إزاء أهل الذمة ، لم تكن قاعدة عامة عند جميع ملوك بني مرين فلقد سبق أن اتخذ كل من يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (ت سنة 706 هـ) ، وحفيده أبي الربيع سليمان (ت سنة 710 هـ) حاجباً يهودياً يدعى خليفة بن حيون بن رقاصة (1) ، كذلك اتخذ عبد الحق (الثاني) ابن سعيد ، آخر ملوك بني مرين جماعة من اليهود مثل هارون الذي جعله وزيره ، وشاويل الذي عينه حاكماً على فاس . وقد عجلت هذه السياسة الأخيرة بنهاية الدولة المرينية ، إذ ثار الأهالي باليهود وسلطانهم وقتلوهم جميعاً سنة 875 هـ (1479 م) (2) .

أما عن صاحب خطة الكتابة والإنشاء ، فقد ورد ذكره بصيغ مختلفة مثل صاحب القلم الأعلى (3) ، والفقيه الكاتب (4) ، وشيخ الكتبا (5) أو رئيس الكتاب (6) ، وكاتب السر أو كاتب السر والإنشاء (7) .

وواضح من هذه التسمية واختصاصها ، أنها تشبه تماماً وظيفة وزير الفضل وكاتب السر على عهد الحفصيين ، فهي إذن في مرتبة الوزارة وإن كانت المراجع المرينية لم تشر صراحة إلى صاحبها كان يسمى بالوزير ، هذا ويشير ابن خلدون إلى أن هذه الخطة كانت أحياناً تجمع في شخص واحد . وأحياناً تفرق في عدة أشخاص (1) .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذه الخطة كانت تعتبر من المناصب المرموقة في الدولة ، وكان صاحبها من المقربين للسلطان فيذكر العمري أن كاتب السر كان يقابل السلطان كل يوم ليعرض عليه الرسائل المختلفة وقصص أصحاب المظالم ، وقد يأمره السلطان بالمبيت عنده في الحالات الهامة (2) ، وكان له في كل يوم مثقالان من الذهب ، وله أيضاً قريتان يتحصل له منهما متحصل جيد ، مع رسوم كثيرة له على البلاد ، ومنافع

وإرفاقات . ولكل واحد من كاتب السر وقاضي القضاة في كل سنة بغلة بسرجها ولجامها . وسبنية قماش يرسم كسوته كما لأشياخ (3) وكان زي الكتاب والقضاة والعلماء عموماً ، قريب الشبه من ملابس الأشياخ والجند السالفة الذكر ، إلا أن عمائمهم كانت خضراء اللون (4) ، .

ولم يشترط في صاحب خطة الكتابة أن يكون من بني مرين ، بل كانت تسند إلى من يحسنها من أهلها أرباب الفكر والقلم (5) ، ولهذا شغلها عدد كبير من الأندلسيين إلى جانب المغاربة وبعض حجاب إلى جانب المغاربة وعض حجاب السلطان الذين كانت لهم دراية بهذا الفن (1) .

ويلاحظ في هذا الصدد ، أن الدولة المرينية كانت دولة بربرية خرجت من بداوة الصحراء إلى حياة المدنية والحضارة . ولهذا عملت ، لسد هذا النقص ، على تشجيع العلم وإكبار العلماء وبناء المدارس ، مما كان له أثر كبير في اجتذاب عدد كبير من علماء أفريقيا الشمالية وغرناطة إلى بلادهم ، واستيطانهم فيها حتى صاروا يعتبرون من أبنائها .

وكان علماء غرناطة (أي الأندلس في ذلك الوقت) من أكثر العلماء إقبالاً على الهجرة سواء إلى المغرب أو المشرق .

وقد علل ابن خلدون ذلك بغلاء المعيشة وقوة الحياة في هذه المملكة نتيجة لصعوبة أرضها الجبلية وكثرة ما يبذل فيها من جهد وأموال وعناية لإصلاحها . ولهذا اضطر عدد كبير من أهلها إلى الرحيل عنها إلى إلى مصر والمغرب حيث كانت فرص العمل أيسر ، ووسائل المعيشة أسهل وأرخص (2) . ولقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطة ، أن سمى أحد أرباضها الخارجية باسم ، حوز الوداع ، (1) ، وهو المكان الذي اعتاد فيه الغرناطيون توديع أهليهم وأحبابهم قبل رحيلهم (2) . وغير بعيد بالمرة أن يكون هذا المكان هو نفس المكان الذي يعرف حتى اليوم باسم suspiro dei moro أي زفرة العربي ، وهو الذي ترجعه الرواية الأسبانية إلى الملك عبد الله ابن الأحمر ، آخر ملوك غرناطة حينما غادر ملكه وبلاده ، ووقف يبكي في هذا المكان لإلقاء آخر نظرة على وطنه .

ومهما يكن من شئ ، فالذي يهمنا في هذا الصدد هو أن عدداً كبيراً من أهالي غرناطة ، قد رحل إلى فاس ، إما لطلب العلم فيها أو التدريس في جامعتها القروية ومعاهدها العلمية ، وإما للاشتغال في البلاد المريني ككتاب ، وفي المستشفيات المغربية كأطباء (3) .

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع الغرناطيين الذين عملوا كتاباً في بلاط بني مرين ، وحسبي أن أذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر .

فهناك مثلاً الشاعر أبو الحسن بن الصباغ الذي تولى خطة الكتابة في فاس منذ سنة 753هـ (1352 م) حتى سنة وفاته 758 هـ (1357 م) (1) وهناك الشاعر الرحالة المحدث أبو اسحاق إبراهيم بن الحاج النميري الذي طاف ببلاد المشرق والمغرب ثم تولى مشيخة الكتاب وكتابة السر على عهد السلطان أبي الحسن وولده أبي عنان فارس . وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية في إحاطته ، ذكر فيها أمثلة من شعره الذي وصفه بالعذوبة التي تجمع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة . كذلك وصف كتابه الذي دون فيه رحلتهبأنه يتضمن العجيب العجاب . ولقد عاد إبراهيم بن الحاج إلى وطنه غرناطة حيث ولى القضاء بها عقب وفاة السلطان أبي عنان المريني (2) .

وهناك الكاتب المالقي أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي الذي شغل منصب الكتابة وائتمن على خطة العلامة (3) أيام السلاطين أبي الحسن ، وأبي عنان ، وأبي سالم ، ولهذا الكاتب مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطي لسان الدين أبي الخطيب (1) كما يوجد له كتاب في السياسة ونظم الحكم ، ألفه للسلطان أبي عنان وبأمر منه ، وهو كتاب " الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، (2) ، ويتضمن شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ، وتوفى ابن رضوان سنة 783 هـ ودفن في مدينة آنفاً المعروفة اليوم بالدار البيضاء في شمال غرب المغرب (3) .

كذلك نذكر أبا القاسم محمد بن يحيى البرجي (4) الغاني الذي كان كاتبا للسلطان أبي عنان ثم لأخيه أبي سالم ، كما كان يرقد في السفارة إلى سلاطين مصر وملوك قشتالة ، وتوفي (5) سنة 786 هـ .

وهناك أيضاً الكاتب الأديب الشاب الغرناطي أبو عبد الله بن جزي على عهد السلطان أبي عنان وعلى الرغم من أن هذا الشاب قد توفى في سن مبكرة ، وهو في الخامسة والثلاثين من عمرة 755هـ (1356 م) ، إلا أن مآثره العلمية – كما يقول المقري – قد أثارت إعجاب معاصريه من أهل المشرق والمغرب . فمن ضمن أعماله المشهورة ، كتاب رحلة ابن بطوطة المسمى بتحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، فابن جزي هو الذي قام بصياغة هذه الرحلة مستعيناً في ذلك بمسودات صديقة الرحالة الطنجي ابن بطوطة . ويقال أنه قام بهذا العمل بناء على طلب السلطان أبي عنان ، وأنه أتمه في ثلاثة أشهر فقط (1) . كذلك كتب ابن جزى أثناء مقامه بفاس تاريخاً عاماً لبلده غرناطة ، ولكنه للأسف مات قبل أن يتمه . وقد صرح لسان الدين بن الخطيب بأنه قابل ابن جزي بمدينة فاس أثناء سفارته بالمغرب سنة 755 هـ وأنه قرأ كتابه وسار على منهاجه عند تأليف كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة . كذلك يذهب الملك الشاعر يوسف الثالث ملك غرناطة إلى أن ابن الخطيب قد نقل كثيراً في إحاطته من تاريخ ابن جزي (2) ، وهذا يدلنا على مدى قيمة هذا الكتاب المفقود . ولم يكن ابن جزي أديباً ومؤرخاً فحسب بل كان شاعراً أيضاً ، وله شعر جيد أورده المقري في كتابيه أزهار الرياض ، ونفح الطيب (1) . أما الكتاب من المغاربة ، فأسماؤهم لا حصر لها وكلها تنتمي إلى بيوتات معروفة، ويكفي أن نشير إلى بيت بني أبي مدين العثماني ، الذي انحصرت فيه كتابة الإنشاء وخطة العلامة مدة طويلة منذ أيام يعقوب ابن عبد الحق المريني وأبنائه من بعده (2) . وهم ينسبون إلى بني عثمان من بربر زوارة ببيجاية ، ثم استوطنوا القصر الكبير (قصر كتامة) في شمال المغرب الأقصى . ولا علاقة بين اسم هذه الأسرة واسم الولي الصالح شعيت بن الحسين بأبي مدين ، دفين قرية العباد بضواحي تلمسان سنة 594 هـ . فهذا الأخير أندلسي أشبيل من الخزرج ، وذاك من بني عثمان كما ذكرنا ، وإنما الأسمان توافقا وكلا الرجلين من الصالحين (2) .

وهناك أيضاً الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ، وأصله من مدينة سبتة ، ثم اتخذه السلطان أبو سعيد المريني كاتباً له ثم رقاه إلى رياسة الكتاب ورسم علامته في الرسائل والأوائل سنة 718 هـ ، ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن ، فارتقت سناعة الإنشاء والترسيل على يديه ، وتوفى في وباء الطاعون الجارف سنة 749 هـ (4) .

كذلك نذكر المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون الذي ولى خطة العلامة للسلطان أبي عنان (1) ، ثم كتابة السر والإنشاء لأخيه السلطان أبي سالم إبراهيم سنة 760 هـ . وقد نوه ابن خلدن بطريقته الجديدة في الكتابة التي تحرر فيها من قيود السجع بقوله :

" واستعملني – أبو سالم – في كتابة سره ، والترسيل عنه ، والإنشاء لمخاطبته ، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل ، دون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في ألا سجاع لضعف انتحالها ، وخفاء العالي منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ . وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة (2) .

ولقد أمدنا الأمير الغرناطي ، أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر النصري في كتابيه : روضة النسرين في دولة بني مرين ، ومستودع العلامة ، بأسماء كتاب الدولة المرينية حتى بعد سنة 800 هـ (1398 م) .

من كل ما تقدم نرى أن الوزارة في عهد بني مرين ، قد جمعت بين وزارة السيف والمال والقلم ، كما كان الحال في عهد الحفصيين ، وإن كان هذا الثالوث الوزاري قد تغير منذ وفاة السلطان أبي عنان ، حينما ضعف ملوك بني مرين ، واستبد وزارء السيف بأمور المملكة حتى صار كل شيء في يدهم .

ومن العجيب أن تنتهي دولة بني عبد الحق على أيدي وزرائهم وأبناء عمهم الوطاسيين حينما أعلن محمد الشيخ الوطاسي نفسه – لطانا على المغرب سنة 877 هـ (1472م) مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية .

الحجابة على عهد المرينيين

أما عن خطة الحجابة ، فقد اختلف المؤرخون حول تحديد اختصاصها واسم صاحبها . فابن خلدون نفى وجود اسم الحاجب في الدولة المرينية وذكر أن المتصرف بباب السلطان كان قائداً عسكرياً أشبه برئيس للحرس المليكي يدعى بالمزاور ، وذلك بقوله : " ولا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالمزوار ، ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته ، وإنزال سطواته ، وحفظ المعتقلين في سجونه ، والعريف عليهم في ذلك ، فالباب له ، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه فكأنها وزارة صغرى " (1)

أما ابن الخطيب ، فقد أشار في معرض كلامه عن أحداث المغرب ، إلى وجود قائد عسكري بباب السلطان ، ولكنه أسماه بصاحب الشرطة العليا وذلك عند قوله :

وقصد إلى قيوم الرماة ، وصاحب الشرطة العليا بباب السلطان ثلشيخ عيسى بن الزرقاء ، المنتسب إلى الرؤساء من بني أشقيلول (2) ، القديم جنوحهم إلى هذه الإيالة اليعقوبية .... الخ .

ويفهم من كلام كل من ابن الخطيب وابن خلدون وابن خلدون أن صحاب الشرطة العليا أو المزوار كان من كبار رجال الدولة ، وأنه كان مكلفا بالنظر في الجرائم التي يرتكبها علية القوم ، وتنفيذ أوامر السلطان الخاصة باعتقالهم وسجنهم . وهو في هذا يختلف عن صاحب الشرطة الصغرى الذي كان ينظر في الجرائم التي يرتكبها العامة (2) .

أما أبو الوليد بن الأحمر ، فقد نص صراحة علىوجود اسم الحاجب في الدولة المرينية ، ولكنه أطلقه على فئات مختلفة من الناس :

فمرة يطلقه على بعض أهل الذمة من اليهود مثل خليفة بن حيون بن رقاصة الذي كان حاجباً للسلطان يوسف بن يعقوب المريني ، ولولده أبي الربيع سليمان (3) . ومرة أخرى يطلقه على بعض موالي السلطان من الخصيان إلا علاج أمثال عتيق ، وعنبر ، وفرج ، وفارح بن مهدي وهذا الأخير كان في الأصل من موالي بني زيان ملوك تلمسان ثم اصطنعه بنو مرين . (1) ومرة ثالثة يطلقه على بعض الكتاب الذين جمعوا بين العلامة والحجابة أمثال الحاجب محمد بن محمد الكناني وولده أبي المكارم منديل الكناني على عهد أبي سعيد عثمان (2) ، والحاجب

عبد الله بن أبي مدين في أيام يوسف بن يعقوب (3) ، والحاجب محمد بن محمد بن أبي عمر التميمي الذي تغلب على سلطانه أبي عنان ، وبقي في تحجبه مطلق العنان (4) ويضيف ابن الأحمر أن هذا الحاجب التميمي لم يلبث أن تحول إلى خطة السيف وقدمه أبو عنان على الإمارة ببجاية . ومن الطريق أن ابن خلدون قابل هذا الحاجب بالبطحاء على مقربة من تلمسان ، وسماه في كتابه التعريف باسم الحاجب (5) ، رغم إنكاره وجود هذا الاسم في الدولة المرينية كما أسلفنا .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يبدو أن هذا التضارب في أقوال المؤرخين ناتج عن أن خطة الحجابة في الدولة المرينية لم تتخذ وضعاً ثابتاً لا في مدلولها ومعناها فحسب ، بل وفي أصحابها الذين تقلدوها ، مما دعا بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون إلى عدم الاعتراف باسمها في بعض كتبه (6) وبعد ، فإن للدولة المرينية ، مكانة خاصة في التاريخ المغربي إذ ترجع إليها إلى حد كبير معظم التقاليد القومية والحضارية المغربية بل والشخصية المغربية الحالية حتى قيل في المثل المغربي . " من بعد بني مرين وبني وطاس ما بقار ناس ، أي أن الناس المتمدينين هم الذين كانوا أيام بني مرين وبني وطاس (!) .

الوزارة والحجابة في مملكة بني الأحمر بغرناطة :

هذه الدولة تمثل آخر عهد المسلمين بأسبانيا ، وقد انحصر ملكها في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة أيبريا ، حيث جبال البشرات (2) alpujarras ، وجبال شلير (2) أو جبال الثلج sierra Nevada (3550 متر) ، التي كونت منها قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها . وكانت هذه المملكة تشتمل على الأراضي التي تقابلها اليوم ولايات غرناطة والمرية ومالقة ، وأجزاء من ولايات جيان وقرطبة وإشبيلية وقادس (1) .

وكانت عاصمتها مدينة غرناطة Granada ، وهي مدينة كبيرة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير ، ويخترقها نهر شنيل genil أحد فروع الوادي الكبير ، وهو يعتبر وادياً صغيراً (211 ك . م .) إذا قورن بوادي النيل مثلاً (6500 ك . م .) ، ولكن كتابهم قدروه بألف نيل ! (2) .

كذلك كان يشق مدينة غرناطة وادي حدره (3) darro (11 ك . م .) ثم يصب في شنيل . وكانت تقع عليه عدة قناطر مثل قنطرة القاضي التي ما زالت آثارها باقية إلى اليوم . وفي جنوب غرب غرناطة كانت تمتد مروجها الخصبة النضيرة التي كانت تسمى بالمرج أو الفحص أو البقاع ، ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت تسميتها الأسبانية vega التي انتقلت إلى أمريكا أيضاً (las vegas) .

وقلعة مدينة غرناطة ، هي مقر الحكم والسلطان ، وتعرف الحمراء ، وهو اسم قديم ورد ذكره لأول مرة في أيام ثورة المولدين التي قام بها عمر بن حفصون في القرن الثالث الهجري (1) . وواضح أن هذا الاسم راجع إلى لون تربة الهضاب التي بنيت عليها ، والتي سميت بالسبيكة لهذا السبب monte de la asabica ، وفي ذلك يقول ابن مالك الرهيني الغرناطي .

ترى الأرض منها فضة فإذا كنت بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب (2)

ومن هذا نرى أنه ليس هناك ثمة علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الأحمر الذين حكموها بعد ذلك ، فتشابه الاسمين وهو محض مصادفة .

وتأسيس دولة بني الأحمر أو بني نصر كان في سنة 635 هـ (1238 م) على يد قائد عربي أندلسي شجاع من بلدة أرجونه arjona إحدى حصون قرطبة ، وهو الغالب بالله محمد (3) ابن يوسف بن نصر ... بن عقيل بن نصر بن قيس بن سعد بن عبادة .

وواضح من نسبه أنه ينتمي إلى سيد الخزرج سعد بن عبادة الذي عاون الرسول في دار الهجرة . أما تسميته هو وأبناؤه من بعده بني الأحمر ، فنسبه إلى جده عقيل بن نصر ، الذي لقب بالأحمر لشقرة فيه (1) . وقد استمر هذا اللون الأشقر يظهر في بعض أفراد هذه الأسرة مثل محمد السادس الذي لقب في المصادر الأسبانية بالبرميخو bermejo ومعناه اللون البرتقال الضارب إلى الحمرة ، وهو لون شعره ولحيته (2) .

ومن الطريف أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا من اللون الأحمر شعاراً لهم في قصورهم بالحمراء ، وأعلامهم (3) ، وقبابهم (3) أو خيامهم بل وفي لون الورق الذي يكتبون عليه رسائلهم السلطانية (5) .

ولقد حكم هذا السلطان محمد بن يوسف مدة طويلة (635 - 671 هـ) وكان يلقب بالشيخ وبأمير المسلمين ، وقد وزر له عدد من كبار قواده الذين ساعدوه في تكوين مملكته مثل القائد يوسف بن صناديد زعيم مدينة جيان الذي مكنه من ناصيتهما (1) ، ومثل محمد بن محمد الرميمي الذي كان والده والياً من قبل الأمير محمد بن هود الجذامي على المرية ، ثم غدر بن ابن الرميمي فقتله بالسم أو بمخدة سنة 635 هـ . ورحل إلى تونس فأتاح لابن الأحمر فرصة الاستيلاء على المرية ، وبنو الرميمي أصلهم من بني أمية ملوك الأندلس ، وينسبون إلى قرية رميمة من أعمال قرطبة فهم من بيت عريق (2) . كذلك وزر لابن الأحمر ابنه وسميه في الاسم أبو عبد الله محمد ، فاكتسب خبرة من ذلك (3) .

ثم توفى السلطان محمد الشيخ ، وخلفه ابنه المذكور محمد الثاني (671 - 701 هـ) الذي لقب بالفقيه لعلمه وفضله وإيثاره للعلماء . ويعتبر هذا السلطان هو الذي مهد الدولة النصرية ووضع ألقاب خدمتها ، وأقام رسوم الملك فيها (4) . وكان وزيره عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني - نسبة إلى دانية - وبيته معدود في بيوتات الأشراف في شرق الأندلس (1) .

ولقد استمر ملك غرناطة في بيت بني نصر أو بني الأحمر حتى نهاية هذه الدولة وسقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في يد الأسبان سنة 897 هـ (1492 م) .

ويلاحظ أن سلاطين هذه الدولة ، كانوا يكتبون علامتهم وتوقيعاتهم بخطهم على السجلات كلها ، بمعنى أنه لم يكن لديهم خطة للعلامة كما كان لغيرهم من الدول (2) . وكانت علامتهم الغالبة هي : " صح هذا " ، وفي ذلك يقول شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك في مدح السلطان محمد الخامس ، الغني بالله :

يا إماماً قد تخذنا (م) هـ من الدهر ملاذاً

خط يمناك ينادي صح هذا صح هذا (3)

كذلك كانت بعض توقيعاتهم تمتاز بخفة الروح وحرارة النادرة ومثال ذلك توقيع السلطان محمد الفقيه على رقعة شخص كان يطلب صرف بعض الشهادات المخزنية (الحكومية) ويلح فيها :

يموت على الشهادة وهو حي إلهي لا تمته على الشهادة

وأطال الخط عند لفظ إلهي . إشعاراً بالضراعة عند الدعاء والجد (1) .

وكانت الوزارة هي القاعدة الأولى بعد رئاسة الدولة ، فالوزير هو الذي ينوب عن السلطان (2) . وهو الذي يهيمن على شئون الدولة المدنية والعسكرية إلى جانب إشرافه على الكتابة وديوان الإنشاء (3) ، لهذا كان كثيراً ما يلقب الوزير الغرناطي بألقاب تدل على قوة نفوذه مثل لقب الرئيس (4) ، وعماد الدولة (ابن الحكيم) (5) ، وذي الوزارتين (ابن الخطيب) (6) ، والحاجب (رضوان) (7) . وكل هذه الألقاب لم تكن تشريفية بل كانت حقيقية في معناها ومدلولها لأن صاحبها كان يجمع بين سلطتي السيف والقلم (8) .

وبحكم هذه السلطات الواسعة ، كان الوزير كثيراً ما يجنح إلى الاستبداد على سلطانه (1) ، مما يضطر هذا الأخير إلى التخلص منه إما عزلاً أو قتلاً أو إقامة وزير آخر بجانبه ينزعه السلطة فالسلطان أبو الوليد إسماعيل (713 - 752 هـ) حينما استبد وزيره القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الفهري ، أشرك معه في الوزارة قائداً من أعيان الحضرة وهو أبو الحسن علي بن مسعود المحاربي الذي ، جاذب رفيقه حبل الخطة ، ونازعه لباس الحظوة ، إلى أن مات الفهري (2) . أما ولده السلطان محمد الرابع بن إسماعيل (725 - 722 هـ) ، فإنه لما استولى عليه وزيره محمد بن أحمد بن المحروق ، وغلب عليه ، لم يتردد في قتله بمجلسه سنة 729 هـ ثم أقام في الوزارة مملوك أبيه أبا النعيم رضوان ، ولكنه لم يلبث أن زاحمه في الوزارة بمملوك يدعى عصاماً (3) .

كذلك يذهب ابن خلدون إلى أن فرار الوزير لسان الدين بن الخطيب من غرناطة إلى المغرب سنة 773 (1371 م) ، كان بسبب شعوره بالخوف من سلطانه محمد الخامس ، الغني بالله ، 755 ، 760 ، 763 ، 793 هـ) بما كان له من الاستبداد عليه (أي على السلطان) ، وكثرة السعاية من البطانة فيه (4) .

وإذا نحن ألقينا نظرة عامة على وزراء بني نصر ، نجد أنهم كانوا أصنافاً من علية القوم : صنف من القادة الكبار أمثال بني مول (1) ، وبني أبي الفتح الفهري (2) ، وبني سراج (3) ، وكلهم كانوا من بيوت الأندلس الكبيرة من قديم ، وتربطهم بملوك بني نصر صلات مكينة وروابط المصاهرة .

والصنف الثاني من الوزراء كان من مماليك بني الأحمر وخاصتهم البارزين أمثال الحاجب أبي النعيم رضوان الذي وزر للسلاطين محمد الرابع ، وأبي الحجاج يوسف ، ومحمد الخامس ، وصار بيده تنفيذ الأمور ، وتقديم الولاة والعمال ، وجواب المخاطبات ، وتدبير الرعايا وقود الجيوش (4) .

وقد انتهت حياة الوزير قتيلاً في الانقلاب الذي دبر لخلع السلطان محمد الخامس سنة 760 هـ إذ اقتحم المتآمرون بيته وقتلوه بين أهله وولده (5) .

كذلك نذكر الوزير خالد الذي كان في الأصل مملوكاً للسطان محمد الخامس (الغني بالله) ثم وزر لولده أبي الحجاج يوسف الثاني سنة 793 هـ (1391 م) . فاستبد بالأمر ، وقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة ثم حاول اغتيال السلطان نفسه بالسم بالتفاهم مع طبيب القصر اليهودي يحيى بن الصائغ ، فأمر السلطان بقتله بين يديه سنة 794 هـ كما زج الطبيب في السجن ثم قتله بعد ذلك (1) .

أما الصنف الثالث من وزراء غرناطة ، وهم الغالبية ، فكانوا من أهل العلم والفضل والأدب الذين مارسوا خطة الكتابة العليا في ديوان الإنشاء (2) قبل ترشيحهم للوزارة ، ثم ظلوا محتفظين بهذه الخطة إلى جانب عملهم كوزراء . ويلاحظ أن خطة الكتابة هنا كانت تسمى بالكتابة العليا (3) . وقد شرح ذلك ابن سعيد الغرناطي بقوله :

" وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة . وأهل الأندلس كثير والانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثرانه لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال ، لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر هو كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة " . (1)

والجهبذة كلمة فارسية الأصل ومنها الجهبذ أي الناقد العارف ، ولكن الجهبذة هنا هي الإدارة المالية الخاصة بجباية الضرائب وجمع الخراج وتحصيله ، وكانت الجهبذة هو صاحب الزمام أو صاحب الأشغال الخراجية الذي كان بمثابة وزير للمالية (2) .

وقد ذكر ابن سعيد أن صاحب الأشغال الخراجية في الأندلس ، كان أعظم من الوزير وأكثر اتباعاً وأصحاباً وأجدى منفعة ، فإليه تميل الأعناق ، ونحوه تمد الأكف والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار . " (3) أما ابن خلدون فإنه يذكر أن المختص بالحسابات وسائر الأمور المالية في الدولة ، كان يسمى في غرناطة بالوكيل . (4)

ويفهم من هذا وذاك أن الشئون المالية في الدولة كانت في يد موظف مختص آخر غير الوزير ، يختار من عظماء القوم ووجوههم ، ويسمى بتسميات مختلفة كالوكيل وصاحب الأشغال وكاتب الزمام أو الجهبذة .

غير أننا إذا استعرضنا الأحداث التاريخية لهذه الدولة ، نلاحظ أن الوزراء العظام فيها ، كان لهم أشراف على الشئون المالية واختصاص بمعرفتها ومثال ذلك الوزير محمد بن أحمد بن المحروق الذي كان وكيلاً للسلطان محمد الرابع (1) ، كذلك الوزير لسان الدين ابن الخطيب الذي داخله السلطان أبو الحجاج يوسف الأول في تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالاً (2) ، ثم عهد إليه ولده محمد الخامس (الغني بالله) بالإشراف على بيت ماله ، والعمل على صيانة الجباية وتثميرها (3) . بل إنه مما كان يؤخذ على الوزير عبد الله بن زمرك الذي خلف ابن الخطيب في منصبه ، هو كما يقول أحمد معاصريه ." " قلة معرفته بتلك الطريق الاشتغالية ، وعدم اضطلاعه بالأمور الجبائية ، واتهامه للمشتغلين – على غير أساس – بأنهم احتجنوا الأموال ، وأساءوا الأعمال " . (4) .

كل هذا يدل على أن إشراف الوزراء على النواحي المالية وإلمامهم بمعرفتها ، كان يلعب دوراً هاماً في نجاح مهمتهم .

وكيفما كان الأمر ، فالذي يهمنا في هذا الصدد ، هذا أن أصحاب الكتابة العليا ، وليس كتاب الزمام ، هم الذين كانوا موضع الترشيح لمنصب الوزارة في الدولة ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك عند قوله :

الطب والشعر والكتابه   سماتنا في بنى النجابه

هي ثلاث مبلغات   مراتباً بعضها الحجابة (1)

ومن هؤلاء الكتاب الذين شغلوا منصب الوزارة تذكر الحاج المحدث أبا عبد الله محمد ابن الحكيم الرندي اللخمي ، الذي ابتدأ كاتباً للسلطان محمد (الثاني) الفقيه (671 – 701 هـ) ثم صار وزيراً لولده محمد الثالث (المخلوع) (701 – 708 هـ) مع احتفاظه برئاسة القلم الأعلى (2) .

وقد انتهت حياة هذا الوزير قتيلاً سنة 700 هـ في مجلس السلطان أبي الجيوش نصر (708 - 713 هـ بسبب خلاف وقع بينه وبين القائد الوزير أبي بكر عتيق بن الول الذي كان صديقاً وسنداً للسلطان نصر عند عزله لأخيه محمد الثالث واعتلائه عرش السلطنة (3) . كذلك نذكر الفقيه أبا الحسن ابن الجياب – شيخ ابن الخطيب الذي تولى الكتابة العليا للسلاطين : أبي الجيوش نصر ، وأبي الوليد اسماعيل (713 - 725 هـ) . ومحمد الرابع بن اسماعيل (725 - 733 هـ) ، وأبى الحجاج يوسف الأول (733 - 755 هـ) . وقد ولاه هذا السلطان الأخير رسم الوزارة إلى جانب رئاسة الكتابة عندما تغير على وزيره أبي النعيم رضوان وعزله سنة 470 هـ .

وظل ابن الجياب وزيراً وكاتباً للدولة إلى أن توفى في سنة 749 هـ (1) . فخلفه تلميذه لسان الدين بن الخطيب (2) في رسم الوزارة والكتابة حتى نهاية عهد السلطان أبي الحجاج يوسف سنة 755 هـ .

ولما ولي ولده أبو عبد الله محمد الخامس ، الذي كان لا يزال شاباً حدثاً استدعى من جديد مولى آبائه ووزيرهم أبا النعيم رضوان ، وأسند إليه وزراته ونيابته كما أبقى ابن الخطيب في منصبه السابق كوزير ولكن تحت رئاسة الحاجب رضوان نظراً لمكانة هذا الأخير وسنه واختصاصه بالوزارة من قديم . وقد ذكر ابن الخطيب لأعمال التي كان يقوم بها في أوائل عهد هذا السلطان وهي ، الوقوف بين يدي سلطانه في المجالس العامة ، وإيصال الرقاع ، وفصل الأمر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والإنشاء ، والمواكلة والمجالسة ، جامعاً بين خدمة القلم ولقب الوزارة " .

ثم يضيف ابن الخطيب بأنه رغم وجود أأبي النعيم رضوان فقد كان المنفرد بسر السلطان وسفيره لدى المغرب (1) . إلا أنه يبدو أن نفوذ ابن الخطيب لم يلبث أن تضاءل أمام طموح الحاجب رضوان واستئثاره بالسلطة ، وفي ذلك يقول أحد المعاصرين : " وعلى أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان " وجد الحاجب الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعة بالاسم من ذلك المسمى ، فآثر الانتباذ وأخذ في تأليف كتابه الإحاطة " (2) .

وفي سنة 760 هـ (1359 م) وقع في غرناطة ذلك الانقلاب الذي أودى بحياة الوزير رضوان ، وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس ونفيه إلى المغرب وتولية أخيه اسماعيل الثاني مكانه . وصحب السلطان المخلوع إلى المغرب بعض أفراد حاشيته ورجال دولته ونخص بالذكر منهم وزيره لسان الدين بن الخطيب وقد رحب بهم سلطان المغرب أبو سالم إبراهيم المريني ، وأنزلهم في بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية . غير أن ابن الخطيب فضل أن يعيش بعيداً مرابطاً في ثغر سلا , sale ، ومجاوراً لأضرحة ملوك بني مرين في ضاحيتها شالة chella .

وفي سنة 763 هـ (1362 م) عاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه بعد حروب وخطوب شد أزره فيها كل من سلطان المغرب وملك قشتالة بدور الأول الملقب بالقاسي pedro el cruel (1) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن محمد الخامس كان في خلال هذه العمليات الحربية التي خاضها لاسترداد عرشه في الأندلس ، قد اتخذ وزيراً من قواده ، وهو قائد البحر أبو الحسن علي بن يوسف بن كماشة ، الذي كان من عتاق خدامه وخدام أبيه على قول ابن الخطيب . ولكن هذا الوزير لم يبق إلى جانب سلطانه أيام محنته ، إذ أنه حينما أرسله محمد الخامس من رندة إلى الباب المريني بفاس لاستجلاء بعض الأمور ، لم يعد إليه ثانية . ولما

انتصر محمد الخامس على خصومه ، واستقر في عرشه ثانية ، هرع إليه ابن كماشة طامعاً في العودة على وزارته ، ولكن السلطان رده خائباً وأرسل في طلب ابن الخطيب من المغرب للقيام بأعباء وزارته (2) .

وعاد ابن الخطيب إلى سابق منصب كوزير ، ولكنه في هذه المرة انفرد بالحكم بدون منافس . وفي ذلك يقول ابن خلدون " وخلا لابن الخطيب الجو ، واغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنية بند ماله وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة " (1) كذلك شرح ابن الخطيب سياسته التي سار عليها في دولة محمد الخامس الثانية بقوله .

ورمى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكم عقلي في اختيارات عقله ، وغطى من جفاني بحله ، ورمى إلي بدنياه وحكمتي فيما ملكت يداه ، واستعنت بالله تعالى وعاملت وجهه في سد الثغور ، وصون الجباية ، وإنصاف المرتزقة ومقارعة الملوك المجاورة ، وإيقاظ العيون من نوم الغفلة ، وقدح زناد الرجولية ، وجعل الثواب غطاء الليل ، ومقعد المطالعة فراش النوم ، والشغل لمصلحة الإسلام " (2) .

وهذه العبارة الأخيرة تشير إلى ما عرف عن ابن الخطيب من أنه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف العلمي ، يساعده في ذلك أرق أصابه بينما يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة . ومن الغريب أن هذا الجهد الكبير الذي كان يبذله ابن الخطيب ، لم يحد من نشاطه وحيويته ، ولهذا لقب بذي العمرين . ولقد أفاد كل من الجانب العلمي والجانب السياسي صاحبه ، فالسياسة أتاحت لابن الخطيب فرصة الاتصال بسفراء لدول الخليفة ومعرفة أخبار بلادهم . والاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة في أرشيف الدولة بقصر الحمراء . واستخدام كل هذه المادة التاريخية في مؤلفاته . أما العلم فقد أعطاه شهره ومكانة دعمت مركزه كوزير عن طريق قصائده ورسائله ونصائحه وحكمه التي كان لها تأثير كبير على ملوك الدول المجاورة من المسلمين والمسيحيين . وحسبنا أن نشير إلى ما أورده ابن الخطيب في إحاطته من أنه نصح ملك قشتالة بدور القاشي ، باعتباره صديقاً لسلطانه محمد الخامس ، بأن يضع أمواله وذخيرته وأولاده في حصن قرمونة المنيع خوفاً من أطماع أخيه هنري الثاني دي تراستمار henrique de trastamara الذي كان ينازعه العرش . ولقد استجاب الملك بدور لنصيحة ابن الخطيب وعمل بما أشار عليه به . وحينما تغلب هنري على أخيه بدور وانتزع العرش منه ، كان أول شئ اهتم به هو الاستيلاء على قلعة قرمونة garinona وما فيها من ذخائر وأموال ، فانصرف بذلك عن محاربة غرناطة لأنها كانت من أنصار أخيه ، وهذا ما كان يهدف إليه ابن الخطيب من وراء نصيحته السالفة الذكر (1) .

على أن نجاح ابن الخطيب في سياسته لا يرجع فقط إلى مكانته العلمية ، أو صدق فراسته السياسية ، بل يرجع كذلك إلى تمسكه في أحكامه بما جرت عليه الدولة من قواعد وعادات وقوانين ، حرصاً على استمرارها والمحافظة عليها ولدينا في هذا الموضوع نص طريف أورده الوزير والكاتب أبو يحيى محمد بن عاصم القيسي الذي عاش في القرن التاسع الهجري (15 م) والذي شبهه معاصروه بابن الخطيب في بلاغته ورئاسته ، فسموه بابن الخطيب الثاني ، فيقول (1) :

ولم يكن الوزير الكيس ابن الخطيب يجري من الاستقامة على قانون إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة ، وأولو الحذق من أرباب المهن السياسية

يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تميزه لما قصد ، ويرون المفسدة في الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها آكد واجب ، فيتحرونها بالالتزام كما تتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادر معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وجه رسمها فجهلوه ، حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني ، أن الرئيس أبا عبد الله بن زمرك ، دخل على الشيخ ذي الوزارتين ابن عبد الله بن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة ابن زمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ابن الخطيب : لا والله يا رئيس أبا عبد الله ، لا آذن في هذا ، لأنا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد (2) .

أما عن نهاية ابن الخطيب المؤلمة ، فتشبه إلى حد كبير نهاية الكثيرين من وزراء غرناطة الذين حكموا قبله أو بعده نتيجة لاستئثارهم بكل نفوذ في الدولة . على أنه يلاحظ أن ابن الخطيب حينما أحس بكثرة السعايات ضده ، وفساد الجو حوله ، انحرف بسياسة غرناطة انحرافاً كبيراً في أواخر حكمه ، إذ رسم لها سياسة ثابتة قوامها الارتباط فاس ، وإرضاء بني مرين في كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة . وكان هدفه من وراء ذلك هو سكن المغرب والاستقرار فيه إذا ما عزل من منصبه . (1)

والواقع أن سياسة التقرب من المغرب ، كثيراً ما لجأت إليها غرناطة عند استصراخها لإخوانها المغاربة للجهاد معها ضد المشركين ، إلا أنها في نفس الوقت كانت تتوجس خيفة من أطماع ملوك بني مرين في بلادها ، وتخشى أن يفعلوا معها مثل ما فعل المرابطون والموحدون من قبل (2) . كذلك كانت غرناطة حريصة على سلامة مصالحها المرتبطة مع جيرانها المسيحيين أمثال قشتالة وأراجون ، ولهذا لم تلتزم سياستها جانباً واحداً من هذه القوى المحيطة بها ، بل كانت تتغير وتتبدل في حرص وحذر حسب الظروف الخارجية المحيطة بها : فتارة تتقرب من قشتالة ضد المغرب ، وتارة أخرى تتقرب من المغرب ضد قشتالة وأراجون ، وتارة ثالثة تتقرب مع . ملوك أراجون ضد ملوك قشتالة أو العكس وهكذا . فهذه السياسة الماهرة الماكرة التي سلكتها غرناطة مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على قرنين من الزمان ، لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولقد أشاد المؤرخون بالدبلوماسية الغرناطية ، ووصفوها بصفة تدل على المرونة والمهارة وهي " سياسة اللعب بالثلاث ورقات " . juego de tres Barajas (1)

من هذا نرى أن وضع هذه المملكة الصغيرة وسط هذه القوى الثلاث (قشتالة ، أراجون ، المغرب) قد جعل سياستها مرتبطة بتلك السياسية التي حولها . ولعل هذا هو السبب في أن عدداً من ملوك غرناطة ووزرائها ، قد راحوا ضحية تماديهم في التزام جانب سياسي واحد دون تقدير العواقب المرتبة على تجاهلهم للجوانب الأخرى ومثال ذلك الوزير محمد بن علي المعروف بابن الحاج المهندس الذي كان مداخلاً لملوك قشتالة ، عالماً بلغتهم وسيرهم وأخبارهم ومهتماً بشأنهم ، ولهذا نهج سياسة موالية لهم ، وانحرف في ذلك انحرافاً لم يقبله أهل غرناطة ، فثاروا ضده واتهموه بتحريض ملك قشتالة على الاستيلاء على حصن القبذاق alcuadete ، ومساعدته على تملكه ، وكادوا يقتلونه لولا أن سلطانه أبا الجيوش نصر أمر بعزله في الحال (2) .

ويبدوا أن الخطيب قد قد وقع في نفس هذا الخطأ حيثما دفعته سياسته المغربية إلى رسم سياسة وحدة الغرب والأندلس دون أن يعمل حساباً لأنصار القوى السياسية الأخرى ، بل إنه لم يلبث أن تمادى في سياسته إلى أقصى حدودها خطورة حينما فر إلى المغرب وأخذ يحرض السلطان عبد العزيز على غزو غرناطة . وكان رد

الفعل شديداً من جانب غرناطة ، ولا سيما بعد موت السلطان عبد العزيز ، إذ سارع السلطان محمد الخامس باحتلال جبل طارق وثغر سبتة ليسيطر على المضيق ، ثم أخذ يتدخل في فاس نفسها يولى ويعزل من يراه من سلاطين بني مرين . وكان طبيعياً أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على ابن الخطيب وقتله وحرقه ومصادرة أمواله سنة 776 هـ (1374 م) (1) .

لقد كان فقد ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، إذ انقطع بموته أهم مصدر عربي لتاريخ غرناطة .

البحرية في العصر الأموي بالأندلس

سبقت الإشارة في أول هذا الكتاب إلى أن المسلمين الأوائل ، أدركوا قيمة البحرية كسلاح متم لفتوحاتهم البرية ، فأخذوا في إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافئ الممتدة على طول شواطئ الشام ومصر والمغرب . وقد ساعدتهم تلك القواعد والأساطيل على نقل جيوشهم ومعداتهم عند فتح الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا . فلولا تلك الأساطيل لتعذر بل استحال عليهم تنفيذ هذه الفتوحات العظيمة كما سبق أن بينا .

وتمتاز شبه جزيرة أيبيريا بسواحلها الطويلة التي تشرف على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي شرقاً وغرباً وجنوباً ، إلا أن هذا جعلها عرضة لأي غزو بحري يأتيها من هذه النواحي . . إلا أن هذا المسلمين أدركوا هذه المسألة منذ بادئ الأمر ، ورسموا لأنفسهم سياسة بحرية اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التي كانت منتشرة على تلك السواحل مثل طرطوشة tortosa ، وطركونة tarragona ودانيه deula ، ولقنت alicante ، وبجانه pechina ، وإشبيلية sevilla والجزيرة الخضراء algeciras وغيرها .

كما أنهم لم يجدوا صعوبة في الحصول خامات الخشب والحديد وكل ما هو ضرورة لبناء الأساطيل ، فكل ذلك كان وما زال متوفراً في أسبانيا (1) .

وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بأخبار هذه الفترة المبكرة التي تلت الفتح العربي بسبب الفتن والاضطرابات التي عمت الأندلس في ذلك الوقت ، إلا أنه يفهم من بعض الروايات أن الثغور الأندلسية كانت عامرة بالمراكب والسلاح والعدة ، فابن القوطية مثلاً حينما يتكلم عن طالعة بلج بن بشر ، وهم فرسان الشام الذين الذين حاصرهم البربر في ثغر سبتة 123 هـ (731 م) ، ورفض والي الأندلس عبد الملك بن قطن أن يسمح لهم بالعبور إليه ، يقول " فلما يئس بلج بن بشر منه ، أنشأ قربات (بتشديد الراء وفتحها أي قوارب caravos وأخذ من مراكب التجار ، وأدخل فيها من رجاله من جاوره إلى دار الصناعة بالجزيرة الخضراء ، وأخذوا ما فيها من المراكب والسلاح والعدة وانصرفوا بها إليه ، فدخل بذلك الأندلس (2) .

ومن الطريف أن ابن عذاري يشير في الأحداث التالية إلى أن والي شرطة الخليفة مروان بن محمد بدمشق ، واسمه الرماحس بن عبد الرحمن قد لجأ إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأسرية في المشرق ، فولاه عبد الرحمن الأول (الداخل) ثغر الجزيرة الخضراء (1) . وهذا هو أول ذكر لمؤسس بيت بني الرماحس الذي اشتهر أفراده بقيادة الأسطول الأندلسي على عهد الأمويين (2) . لا شك أن إسناد ولاية هذا الثغر الجنوبي الهام إلى الرماحس ، فيه معنى القيادة البحرية أيضاً .

وكما اعتمد الأمويون في الشام على القبائل اليمنية الكلبية في شئونهم البحرية ، فكانوا النواة الأولى للبحرية العربية في الشرق (3) ، اعتمد كذلك الأمويون في الأندلس على اليمنيين القضاعيين في هذه الأمور البحرية في بادئ الأمر ، فأنزلوهم في المناطق الساحلية الشرقية ، وجعلوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل ، وقد سمي هذا الإقليم أرش اليمن (4) ، أي أعطيتهم من الأرض أو الإقطاع . وكانت بلدة بجانة (بتشديد الجيم pechina (5) ، هي أهم قاعدة لهم في هذا الإقليم ، لما تمتاز به من موقع حصن مأمون ، وأرض خصبة عند مصب نهر أندرش andarax ، المعروف أيضاً بوادي بجانة (!) .

إلى جانب هذه العناصر العربية ، اعتمد الأمويون كذلك في حماية سواحلهم وشن الغارات على أعدائهم ، على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين الذين كانوا يتكلمون بعجمية أهل الأندلس romance . ولقد انتشر هؤلاء البحريون في بلدان الساحل الشرق الأندلسي التي كانت تعرف أيضاً باسم البلاد البحرية (2) . وكانت لهم فيها مراسي ورباطات ودور صناعة ومن أهم قواعدهم أشكوبارس escombreras وبجانة التي جاوروا فيها العناصر اليمنية (3) ، ولقنت alicante . وأقيله aguilas وكلها في شرق الأندلس كذلك انتشر هؤلاء البحريون في بعض جهات الساحل الإفريقي الشمالي على شكل جاليات أندلسية متفرقة . ومن أهم المدن التي أسسوها هناك نذكر مدينة تنس tanas سنة 262 هـ (875 م) ومدينة وهران qran سنة 290 هـ (902 م) في الجزائر ويشير البكري إلى أن بعض هؤلاء البحريين كانوا يترددون بسفنهم في كل عام بين شواطئ المغرب والأندلس ، فيقضون فصل الشتاء في المغرب والصيف في الأندلس (1)

كذلك كان لهؤلاء البحريين الأندلسيين مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي لكشف غيابه وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ومثال ذلك ما أورده كل من البكري والحميري عن خشخاش ابن سعيد بن أسود الذي خاطر مع جماعه من الأحداث فركبها المراكب ودخلوا البحر وغابوا فيه ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة (2) وكان بيت بني أسود من البيوت المشهورة في بجانة ، ولهم رباط على ساحلها عرف بقابطة بني الأسود ، ولعله رباط القابطة أو القبطة المشهور في كتب التاريخ ومكانه اليوم cabo de gata على ساحل المريه وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ، ضمن قادة الأساطيل التي قاتلت النورمانديين في عهد الأمير محمد الأول .

وحديث خشخاش وأصحابه يذكرنا بحديث الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة lesboa الذين توغلوا كذلك في المحيط الأطلسي في منتصف القرن الثالث الهجري أيضاً (3) ، وإن كان يبدو أنهم لم يذهبوا أبعد من جزر الخالدات (4) التي تعرف اليوم باسم جزر كناريا canarias

ومنذ هذا الوقت المبكر أيضاً كان المسلمون واليهود يذهبون إلى مدينة براغ لشراء الرقيق والقصدير والفراء ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية إلى بجانه حيث يخص الرقيق ، يباعون كخصيان بسعر مرتفع في الأندلس ، وكان البحر هو الطريق العادي لهذه الرحلة (1) .

أما عن النشاط الحربي لهذه الجماعات البحرية في حوض البحر المتوسط ، فقد أغفلته المصادر العربية ، بينما تكلمت عنه بأسهاب المصادر اللاتينية والبيزنطية ، ووصفت أصحابه بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص .

والواقع أن أعمال القرصنة في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم ، بل كانت شائعة ومنتشر بين المسيحيين والرنيسيين النورمانديين أيضاً ، وكثيراً ما استعان أمراء الأندلس بخبرة رعاياهم البحريين في حماية سواحلهم ، وقيادة أساطيلهم ، كذلك يلاحظ أن السفارات التي كان يرسلها كل من أباطرة الدولة الكارولنجية والدولة البيزنطية إلى أمراء وخلفاء قرطبة كانت تنص على طلب الحد من نشاط واعتداءات هؤلاء البحريين باعتبارهم من رعاياهم وتحت سلطانهم .

ومهما يكن من شئ ، فإن ما ورد في هذه الحوليات الأوروبية ، يشهد ، بوضوح على أن هؤلاء المجاهدين الأندلسيين ، قد ركبوا البحر وعرفوا القتال فيه وحذقوه منذ أواخر القرن الثاني الهجري أي على عهد الأمير الحكم الأول الربضي (180 - 206 = 296 - 822 م) .

ومن أمثلة نشاط هذه الجماعات ، نذكر تلك الغارات التي شنوها على الجزر الشرقية أو جزر البليار سنة 182 هـ (798 م) لدرجة أن أهالي تلك الجزائر استنجدوا بالإمبراطور شرلمان (768 - 84) ووضعوا أنفسهم تحت حمايته . (1)

وفي سنة 190 هـ (806 م) هاجم الأندلسيون جزيرة كورسيكا وغنموا منها غنائم كثيرة ، وفي أثناء عودتهم طمع فيهم آمز admer أمير جنوه ، ونعقبهم بأسطوله . فرجعوا إليه وقتلوه وهزموا أسطوله وأسروا رجاله ، وبلغ ذلك شرلمان ففكهم من الأسر بفدية أداها عنهم (2) .ولقد عاود الأندلسيون هجومهم على جزيرة كوسيكا مرة أخرى سنة 198 هـ (812 م) ولكن في أثناء رجوعهم ، أكمل لهم أرمنجول armengol أمير أمبورياس ampurias (2) قرب جزر البليار قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب بما كان فيها من غنائم وأسرى . وقد انتقم الأندلسيون عن ذلك باجتياح سواحل جزر البليار وجزيرة سردانيا سنة 200 (815 م) .

مثل آخر لنشاط هذه الجماعات الأندلسية في البحر المتوسط جاء نتيجة لثورة داخلية قامت في الأندلس ، وهي ثورة أهالي ربض قرطبة على أميرهم الحكم الأول في أواخر القرن الثاني الهجري . وقد عاقبهم هذا الأمير بهدم ديارهم وحرق حيهم وحرث أرضه وزراعتها ، ونفيهم عن البلاد . فعبر بعضهم إلى المغرب حيث أستبقوا في مدينة فاس عاصمة الأدارسة الجديدة ، وشاركوا في بنائها وتعميرها . أما البعض الآخر وكانوا 15 ألفاً عدا النساء والأطفال ، فقد واصلوا سيرهم في البحر شرقاً حتى بلغوا شواطئ الأسكندرية فنزلوا في ضواحيها .
وكانت الأحوال في مصر مضطربة ، إذ انتقلت إليها عدوى الخلافات التي نشبت بين الأمين والمأمون : ففريق كان يؤيد الأمين وفريق آخر مع المأمون ، وفريق ثالث بزعامة السري بن الحكم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ، ويضرب فريقاً بآخر بغية الاستقلال بمصر . فانتهز الأندلسيون المهاجرون فرصة هذه الفتن ، واستولوا على مدينة الأسكندرية بمعاونة أعراب البحيرة ، وأسسوا فيها إدارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت أكثر من عشر سنوات .

وعندما استقب الأمر للخليفة المأمون ، أرسل قائده عبد الله بن طاهر ابن الحسين إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة (212 هـ (828 م) (1) . فأرسل إلى هؤلاء الأندلسيين يهددهم بالحرب إن لم يدخلوا في الطاعة ، فأجابوه إلى طلبه حقناً للدماء ، واتفقوا معه على مغادرة الديار المصرية وعدم النزول في أي أرض تابعة للعباسيين . ثم اتجهوا في مراكبهم إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للدولة البيزنطية ، فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي سنة 825 م (2) . وهناك أسسوا قاعدة لهم أحاطوها بخندق كبير فعرفت بالخندق ، ثم انتقل هذا الاسم إلى الأوروبية على شك chandax ثم candia كانديا أو كندية وهو اسم المدينة الحالية التي تعرف أيضاً بالاسم اليوناني herakieon (2) .

ومن الطريق أنه ينسب إلى هذه المدينة بعض المنتجات التي نالت شهرة شعبية في مصر مثل العسل والصابون الكندية (بكسر الكاف وتشديد الياء) .

ولم تلبث كريت منذ ذلك الوقت أن صارت قاعدة بحرية هامة ، ومصدر تهديد مستمر لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، إذ أخذ الأسطول الكويتي يشن الغارات على جزر بحر أيجة ، وساحل تراقيا ، وجبل آتوس athos ، ومدينة ميتلين (862 م) ، واستطاع أن يوجه أقسى ضرباته في سنة 904 م عندما هاجم مدينة سالونيك ، وهي المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية ، وأسر آلافاً من سكانها اقتيدوا إلى مختلف الأقطار الإسلامية (1) . وظل مسلمو كريت مصدر رعب لأمن بيزنطة وتجارتها بما تسبب عنه وقوع اضطرابات اقتصادية وسياسية في داخل أراضيها . وقد حاول البيزنطيون استعادة هذه الجزيرة مرات عديدة ، ومن الطريف أن مئات من الجنود الروس اشتركوا في بعضها (2) ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل . والسبب في ذلك يرجع إلى الإمدادات العسكرية التي كانت تقدمها مصر والشات وأفريقية إلى هذه الجزيرة المجاهدة باعتبارها حصناً أمامياً لها (3) ضد عدوان البيزنطيين (4) .

ومن الطريف أنه في نفس تلك السنة التي استولى فيها الأندلسيون على مدينة كريت أي سنة 212 هـ (827) غزا الأغالبة أيضاً بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات بن سنان (1) ، جزيرة صقلية وثبتوا أقدامهم في مازره mazara ومينير mineo وغيرها من النواحي المواجهة للساحل التونسي جنوباً . وكان هذا الجيش الفاتح يتكون من عشرة آلاف فارس بعضهم من الفرس الخراسانيين – وأسد بن الفرات واحد (2) منهم – والبعض الآخر من الأفارقة ومن الأندلسيين المقيمين في إفريقية . وكان أبحارهم جميعاً من ميناء سوسة . ولقد استشهد هذا المجاهد الكبير عند أسوار مدينة سرقوسة syrcuse شرقي الجزيرة سنة 213هـ (828م) بعد أن وطد الحكم الإسلامي في بعض نواحيها (3) . ولم تلبث هذه الجزيرة بعد قليل أن صارت كلها في يد الأغالبة الذين هددت جيوشهم وأساطيلهم جنوب إيطاليا حتى بلغت روما نفسها .

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على المساهمة في فتح صقلية تحت لواء أسد بن الفرت ، بل عملوا بعد ذلك بعامين على دعم جيوشها عندما اشتد ضغط البيزنطيين عليها ، فيروي كل من ابن الأثير وابن عذاري أن أمير الأندس عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (206 – 228 هـ = 822 – 853 م) وجه إلى تلك الجزيرة حملة بحرية خرجت من يمناء طرطوشة سنة 214 هـ (829 م) ، واتجهت إلى صقلية لتعزيز الحامية الإسلامية هناك (1) .

على أنه يبدو أن المساعدات الأندلسية لجزيرة صقلية لم تستثمر بعد ذلك طويلاً ، بسبب المعاهدة الودية التي أبرمت بين الإمبراطور البيزنطي تيوفل (2) وبين عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط سنة 225 هـ (840 م) . وكان الدافع لها هو اجتماع البيزنطيين والأمويين على عداوة العباسيين الذين كانت صقلية تقع تحت سلطانهم . إلا أنه يلاحظ أن الأمير الأندلسي لم يلتزم في همذ المعاهدة بأي عمل مضاد لنشاط الأغالبة في صقلية رغم كونهم حلفاء للعباسيين بل اعتبرهم مجاهدين في سبيل الله .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن السياسة التقربية التي سلكها الأمويون في الأندلس نحو بيزنطة ، كانت تصاحبها سياسة عدائية نحو جيرانهم الكارولنجيين في قرب أ. إذ لم ينس الأندلسيون صراعهم الطويل مع هؤلاء الفرنجة أمام شار ما قل (1) (690 – 741 م) وأنه يبين pepin (752 – 761) م ، حفيده شرلمان (768 – 814) الذي تحالف مع أعدائهم العباسيين ، وحاول والأندلس في حملته الفاشلة على عهد الأمير عبد

الرحمن الداخل سنة 162 هـ (779م) ثم جاء ولده لويس الحليم أو التقى (84 - 840م) ، فسار على سياسة آبائه العدائية نحو الأندلس ، وبسط حمايته على الجزر القريبة منها مثل جزر البليار وسردانية وكورسيكا .

ورأى الأمير عبد الرحمن الأوسط (822 - 852 م)أن البحر هو الميدان المناسب الذي يستطيع أن يقهر فيه خصومه الكارولنجيين ، إذ كان يعمل أن قوتهم الحقيقية تقوم أساساً على جيوشهم البرية ، فضلاً عن أن قوتهم البحرية المحدودة قد ازدادت ضعفاً على أيامه في عهد كل من لويس التقى وابنه شارل الأصلع (840 - 877م) . ولهذا قام بحشد أساطيله على طول الساحل الشرقي الأندلسي ولا سيماً في طرطوشة وبلنسيه ، ثم أخذ يشن غارات مستمرة من سنة 838 إلى سنة 850 م على السواحل الكاولنجية في جنوب فرنسا حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وأول وما حولها ، بحيث استطاع مغامر والبحر من الأندلسيين اتخاذ جزيرة كامارج camargue عند مصب نم الرون ، قاعدة شبه دائمة للإغارة على الساحل الجنوبي والتغلغل في أراضيه عن طريق وادي الرون نفسه (1)

ولم تقتصر غارات الأسطول الأندلسي على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية بل شملت أيضاً جزر البليار التي كانت خاضعة لحمايتهم . ويبدو أن حكام هذه الجزر قد شعروا بعدم جدوى الارتباط بعجلة الدولة الكارولنجية ، فسارعوا بقبول سيادة الأمويين ، وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين وفي ذلك يقول ابن حيان :

" وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين أي (848 م) . أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولاً من ثلثمائة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقه ومنورقه لنقضهم العهد وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله عليهم ، وأظفر بهم ، فأصابوا سباياهم وفتحوا أكثر جزائرهم . وأنفذ الأمير فناء شنطير الحصى إلى ابن ميمون (2) عامل بلنسية ليحضر تحصيل الغنائم ، ويقبض الخمس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم وأحصيت رباعهم وأموالهم ، وقبض منهم ما عليه صولحوا . (3) ويضيف ابن عذاري متمماً رواية ابن حيان :

وفي السنة التالية 235 هـ (849 م) ، ورد كتاب أهل ميورنة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن ، يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم ، فكتب إليهم ما جاء فيه :

أما بعد ، فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم ، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم . وأصابتهم ما أصابوه عنكم من ذراريك وأموالكم ، وما أشفيتم عليه من الهلاك ، وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم ،وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة المسلمين ، والكف عن مكروههم ، والوفاء بما تحملون عن أنفسكم ، ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ، وتنعكم عن العود إلى مثل ذلك الذي كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته . (1)

من هذه النصوص المتقدمة يتضح لنا أن الجزر الشرقية (البليار) قد خضعت لنفوذ حكومة قرطبة في سنة 234 هـ (848م) ، وإن كان من المعروف أن هذه الجزر لم تضم إلى الأندلس نهائياً ، وتحكم حكماً مباشراً بواسطة عمال الدولة الأموية إلا منذ سنة 290 هـ (902 م) حينما أرسل إليها الأمير عبد الله ، قائده عصام الخولاني حاكماً عليها . (2)

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أنه رغم هذه الانتصارات التي أحرزها الأسطول الأندلسي على خصومه الفرنجة وحلفائهم في حوض البحر المتوسط ، فإن البحرية الأندلسية في ذلك الوقت كانت لا تزال محدودة في

إمكانياتها ووسائلها ، فلم تكن لديها القواعد والمحارس والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيماً الغربية منها . ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمتها أساطيل النورمان أو الفايكنج (1) بتحركاتها السرية الخاطفة وأسهمها النارية ، وأشرعتها السوداء التي جعلت بعض المعاصرين يراها ، وكأنها ملأت البحر طيراً جوناً (2) ، كما ملأت القلوب شجواً وشجوناً (1) " .

هذا ولم تكن غارات النورمانديين مركزة على مجموعة واحدة ذات قيادة موحدة ، بل كانت في مجموعات متعددة وفي أماكن مختلفة ، ولهذا كثيراً ما كانوا يغيرون في وقت واحد وفي أماكن متفرقة أو متقاربة ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الروايات الإسلامية التي دونت أخبارهم (2)

كذلك عرف عن النورمانديين أنهم كانوا يتحاشون الأماكن المحصنة بوسائل الحراسة والدفاع ، ويهاجمون السواحل المكشوفة التي لا تعترض عمليات سلبهم ونهبهم . وكانت سواحل الأندلس الغربية من هذا النوع الأخير ، ولهذا لم يجد هؤلاء الشماليون صعوبة في اختراق نهر الوادي الكبير من مصبه ، والصعود فيه بسفنهم ، ثم احتلال مدينة إشبيلية عدة أيام . عاثوا خلالها قتلاً ونهباً وتخريباً 230 هـ (844م) على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (3) .

ولما كان معظم الأسطول الأندلسي مرابطاً على الساحل الشرقي ، فقد اعتمد الأندلسيون في مقاومة هذا الخطر على جيوشهم البرية ، فأخذوا يضعون لهم الكمائن ، ويبنون لهم السرايا التي تحول بينهم وبين العودة إلى مراكبهم ، ويقذفونهم بالمجانيق من جنبي نهر الوادي الكبير . إلا أنه يبدو أن انسحاب النورمانديين من إشبيلية لم يتم إلا بعد وصول وحدات الأسطول الأندلسي إلى مكان المعركة . يؤيد ذلك قول العذري : " ثم هبط للإمام عبد الرحمن (الأوسط) خمسة عشر مركباً بالمقاتلة والعدة ، فنزلوا إشبيلية ، فلما أحس المجرس بها لحقوا بلبلة (niebla) (1) ، وقد انتهت هذه الغارة بانهزام النورمانديين عند طلياطه tejada ، بين ليلة وإشبيلية (2) ، وانسحابهم عن الأندلس .

لا شك أن هذا الحادث الخطير قد نبه الأذهان إلى ضرورة اتخاذ إجراءات دفاعية ضد أي هجوم مفاجئ يقع على الأندلس من ناحية البحر . ولهذا قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بعدة أعمال هامة في هذا السبيل ، ومثال هذا أنه أحاط مدينة إشبيلية بأسوار حجرية عالية كما بنى في مينائها دار صناعة لبناء السفن الحربية ، وزودها بالآلات ونو النفط (3) وبرجال البحر المدربين من سواحل الأندلس (4) .

والإشارة إلى استخدام النفط هنا تجعلنا نعتقد أن المسلمين في ذلك الوقت ، قد توصلوا إلى استخدام النار الإغريقية التي حرص البيزنطيين على الاحتفاظ بسرية تركيبها منذ أن اخترعوها (1) وقد يؤيد ذلك أنه قبيل هذا التاريخ بسنوات قليلة استخدم الأغالبة لأول مرة في أساطيلهم سفناً تقذف بلهب النفط تعرف بالحراقات ، وذلك رداً على النار الإغريقية التي استخدمها البيزنطيون . (2)

وكيفما كان الأمر ، فإن تلك المجهودات الكبيرة التي بذلها الأمير عبد الرحمن الأوسط في تقوية أسطوله وتحصين سواحله ، قد استمرت وأينعت في عهد ولده الأمير محمد الأول (238 - 273هـ = 852 - 886 م) . فيروي المؤرخون أن هذا الأمير أنشأ في البحر سبعمائة غراب ، وأن جيش المسلمين في عهده بلغ مائة ألف فارس ، منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة (3) .

وحينما عاود النورمانديون هجومهم على السواحل الأندلسية سنة 245هـ (859م) ، استطاع الأندلس أن يردهم على أعقابهم بعد أن كبدهم خسائر فادحة . وقد أورد كل من العذري وابن حيان ، وصفاً مفصلاً لهذه العمليات البحرية التي دارت بين الفريقين ، ننقله هنا لأهميته (1) :

" وفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، خرج المجوس – لعنهم الله – إلى ساحل الغرب من أرض الأندلس ، وهو خروجهم الثاني ، خرجوا في اثنين وستين مركباً ، فألفوا محروساً ، ومراكب الأمير محمد فيه جارية ما بين حائط (2) أفرنجة في الشرق إلى أقصى حائط غليسية في الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان تلقتهما المراكب المنصوبة الجارية من حائط جليقية معافصة في بعض مراسي كورة باجه (beja) ، فغنمتها بما كان فيها من مال ومتاع وعدة وحسبي ، ومضت سائر مراكب المجوس في الريف (3) حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية (أي الوادي الكبير) وما يليها ، وذهب الرعب بهم كل مذهب ، وبادر الأمير محمد بإخراج الجيس إلى الغرب ، واستنفار الناس إلى العدو الطارق ، فنفروا من كل أرب ، وكان القائد لجيش السلطان نحوهم ، عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب ، وتقدمت مراكب الكفرة من إشبيلية ، فاحتلت بالجزيرة الخضراء (1) ، وتغلبت على الحاضرة ، فاستباحتها عنها ، وأحرقت المسجد الجامع ، ثم أقلعت عن بر الأندلس تطلب العدوة (أي المغرب) ، فاحتلت بناكور (2) ، واستباحت أريافها ، ثم عادت إلى ريف الأندلس الشرق . . وتوافت بساحل تدمير (مرسية) ، ودخلوا حصن أوريولة qrihuela ، ثم تقدموا إلى حائط إفرنجة ، فسبوا فيها ، وأصابوا الذراري . . . وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركباً ، ولاقتهم مراكب الإمام محمد وعليها قرقاشيش بن شكوح ، وخشخاش البحري ، ومعها نيم النفط ، وأصناف العدة البحرية ، والتكثيف من الرماة بأوسع ما يحتاجون إليه من النقاب ، فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شذونه ، فيهما أموال كثيرة ، وأمتعة واسعة نقلها الله المسلمين ، ثم صدمهم ابن شكوح وخشخاش صاحبه ، رئيساً أسطول السلطان ، وقاتلاهم حتى غلباهم على مركبين آخرين ، فأحرقوهما بجميع من كان فيهما . فحمى المجوس عن ذلك على خشخاش ، فأحدقوا به . وضاربهم في صدر مركبه دراكاً حتى استشهد رحمه الله وقوم من المسلمين معه . ثم مضت بقية مراكب المجوس مصعدة إلى حائط بقبلونه ...

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين (861 م) ، ظهرت مراكب المجوس في البحر ، فكتب إلى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ . فلم يكن للمجوس في هذه الكرة في الانبساط في البحر والأضرار بأهل السواحل ، ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولاً عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدهم بالخيبة ، فلم يكن لهم بعد إلى الأندلس إلى اليوم عودة (1) " .

مما تقدم نرى ، كما هو واضح ، أن غارات النورمانديين على الأندلس في عهد الأمير محمد ، لم تحرز نجاحاً مثل النجاح الذي أحرزته في عهد والده عبد الرحمن الأوسط ، وذلك بسبب ارتقاء البحرية الأندلسية إلى إلى المستوى الحربي المطلوب للدفاع عن أراضيها .

وفي خلال ذلك الوقت الذي كانت فيه أساطيل الأندلس وجيوشها في قتال النورمانديين وصد عدوانهم في البحر والبر ، لم يتوقف نشاط المغامرين من رجال البحر الأندلسيين عن مواصلة قتال الكارولنجيين في حوض البحر المتوسط ، وشن الغارات على قواعدهم في آول ومرسيليا في جنوب فرنسا . ولقد كان لهؤلاء البحريين

هناك قواعد شبه دائمة في جزيرتي كامرج camargue وماجلون عند مصب نهر الرون للإغارة منها على تلك الجهات . ومن المؤسف أننا لا نجد لنشاطهم أثر رواية إلا في الحوليات الأوروبية التي سجلت هذه الأحداث . وهذا شئ طبيعي إذ أنه من العبث أن نلتمس في كتابات مؤرخي المسلمين شيئاً عن هذه القرصنة بحكم كونها منظمة غير رسمية . أي أن الدولة الأموية لم تنظمها تنظيماً رسمياً إلا أنها كانت تشرف عليها وتشجعها (6) . ومن أمثلة ذلك حادثة رولان رئيس أساقفة آرل الذي أسره البحريون الأندلسيون سنة 860 م ، وساقوه إلى أحد مراكبهم ، وطلبوا فيه فدية كبيرة . ورضي أهل آرل بتقديم هذه الفدية ، وأخذوا في جمعها لإنقاذ أسقفهم ، ولكن حدث في أثناء ذلك أن مات الأسقف وهو لا يزال أسيراً ، فكتم الأندلسيون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي طلبوها ، أخرجوا جثة الأسقف إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عندما كان حياً ، وأجلسوه على مقعد مرتفع وكان المسيحيون قد جاءوا جداً جمعاً عظيماً لتهنئة الأسقف بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحول فرحهم مأتماً (1) .

وأمام هذه الغارات المتواصلة ، اضطر ملك فرنسا شارل الأصلع أو الجسور ، أن يعقد صلحاً مهيناً مع الأمير محمد سنة 864م كي يتيح لسكان هذه المنطقة الفرنسية الجنوبية بعض الراحة من تلك الغارات (2) .

وبعد وفاة الأمير محمد ، تجددت غارات البحريين الأندلسيين على ساحل بروفانس في جنوب فرنسا ، في عهد ولديه المنذر (273 - 275 هـ = 886 - 888 م) ، وعبد الله (275 - 300هـ = 888 - 912م) . ولقد استطاع هؤلاء المجاهدون الأندلسيون في سنة 275 هـ (888م) ، أن يؤسسوا على قمة جبل في خليج سانتروبين saint tropez ، معقلاً جديداً سماه المعاصرون باسم فراكسنيتم fraxineturn ، وقد ندرس هذا الاسم الآن ، وأغلب الظن أنه كان في نفس المكان الذي عليه الآن قرية جارد فرينه garde - freinet ، كما تسمى الغابة التي تحيط بها باسم غابة المور أي المسلمين . ويمتاز هذا الموقع المرتفع بأنه يشرف على سهول بروفاس وحدود إيطاليا (3) .

ولقد تحدثت جميع المصادر الألمانية والفرنسية والإيطالية عن نزول الأندلسيين في فراكسنيتم ، ووصفت الغارات التي شنوها من تلك القاعدة على البلاد الداخلية مثل دوفيني dauphine ، وبيومونت plemont ، وسافوي savoy ، ونيس ، وكيف أنهم تمكنوا من التحكم في المواصلات التي بين إيطاليا وفرنسا ، واحتلوا جميع ممرات جبال الألب الموصلة بين البلدين فيما بين مونت ستي والبحر المتوسط لدرجة أنهم كانوا لا يسمحون لأحد بالمرور منها دون أن يدفع لهم رسماً معلوماً . وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عن نشاط هؤلاء المجاهدين ، إلا أنها أشارت بإختصار إلى موقع فراكسنيتم ، الذي أطلقت عليه اسم جبل القلال بمعنى رؤوس الجبال (جمع قلة) . وينص ابن حوقل على أن هذا الجبل ، كان تابعاً لصاحب الأندلس (1) ، بينما يصفه الاصطخري بأنه كان في الأصل خراباً وفيه ماء ، ثم عمره المسلمون وثاروا في وجوه الإفرنجة ، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم (2) .

واستمرت قاعدة فرا كسنيتم شوكة في جنب الفرنجة في هذه النواحي مدة قرن تقريباً ، واستطاعت وحداتها البحرية بالتعاون مع وحدات جزر البليار ، ووحدات موانئ الثغر الأعلى في الأندلس مثل طرطوشه أن تكون أسطولاً أندلسياً بديع التنظيم سيطر على غربي حوض البحر المتوسط في القرن الرابع الهجري (10م) (3) .

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

في القرنين الثامن والتاسع الهجري (4 ، 15 م)

ذكروا أن الغالب بالله محمد الشيخ مؤسس مملكة غرناطة ، كان له صهر من أهل بلدة أوجونة يعرف بأبي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة (1) شاركه في فتوحاته وفي تأسيس ملكه فلما استقر الأمر الغالب بالله بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الأمر ، فقال له " أنا أمي ، لا أكتب ، وعزك من عزي ، وملكك من ملكي ، فأسكنه بالقصبة وقدمه على الجيش . ثم توفي الرئيس ابن اشقيلولة وخلف ولدين : أبا إسحاق ، وأبا محمد ، فصاهرهما السلطان على ابنتيه . مؤمنة وشمس ، وولى الأول على مدينة وادي آش guadix كما ولى الثاني على مدينة مالقة Malaga ، وأنجبوا البنين والبنات وصارة أحوالهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدهم السلطان جاريه ، إلى أن كبر ابن السلطان وولى عهده محمد ، فنافس هؤلاء الأبناء بني اشقيلولة وقلق بهم (2)

ولما مات السلطان محمد الشيخ وآل الأمر إلى ولده محمد الثاني المعروف بالفقيه (671 - 701 هـ - 1272 = 1302م) زادت النفرة بين بني اشقيلولة وبين خالهم السلطان الجديد ، فأظهروا الامتناع والعصيان بمدينتي وادي آش ومالقه ، ثم أعلنوا ولاءهم وتبعيتهم لسلطان المغرب أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (656 - 685هـ = 1258 - 1286 م) وانتهز - سلطان المغرب هذه الفرصة وأعلن تأييده للثوار واستولى على مدينة مالقة وأقامة بها عيد النحر سنة 675هـ (1277م) (1) وتخوف السلطان من أطماع سلطان المغرب وظن به الظنون ، وخشي أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمدين عباد وغيره من ملوك الطوائف ، فلجأ إلى جيرانه المسيحيين ، وعقد مع سانشو الرابع sancho iv ملك قشتالة وخايمي الثاني jaims ii ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب .

واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمي أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف tarifa والجزيرة الخضراء algeoiras التي كانت في يد المرينيين ، لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوت المغربية إلى الأندلس . ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك .

ثم نازلت أساطيل أرادون وقشتالة مدينة الجزيرة الخضراء 677هـ (1278م) منيت بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربي والسبتي ، واضطرت إلى الإقلاع عنها خائبة السعي وتمكن سلطان المغرب من العبور بجيوشه إلى أسبانيا . وكانت مالقة في خلال ذلك الوقت قد استردها سلطان غرناطة بعد أن داخل واليها من قبل المرينيين وعوضه عنها بالمنكب وشلوبانية . فنازلها ملك المغرب وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المريني إلى أن صادمت الأحوار رؤوس الخيل ، ولكنه عجز عن احتلالها ، واضطر سلطان المغرب إلى فك الحصار عن مالقة والعودة إلى الجزيرة الخضراء . واستمرت المناوشات والحروب قائمة بين الفريقين إلى أن تم الاتفاق بينهما على أن يتنازل سلطان غرناطة عن مدينة وادي آش قاعدة بني اشقيلولة لسلطان المغرب ، بينما يتنازل سلطان المغرب عن مدينة القصر الكبير (1) في شمال المغرب لسبتي اشقيلولة . وفي سنة 687هـ هاجر

بنو اشقيلولة بأموالهم وأهليهم ورجالهم إلى مدينة القصر الكبير وأعمالها ، واستقروا بها إلى أن انقرضت أيامهم في أواخر الدولة المرينية (2) .

على أن سلطان غرناطة رغم هذا الإتفاق السالف الذكر ، لم يأمن جانب بني اشقيلولة ، وتوقع أغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه ، ولهذا استولى على مدينة وادي آش وطرد عامل المرينيين منهما ، كما استنجد بالقوى المسيحية الأسبانية لسد المضيق بأساطيلهم : وفي سنة 691 هـ (1292م) قام سانشو الرابع ملك قشتالة بمحاصرة طريف برا بينما حاصرها ملك أراجون بأساطيله من البحر . أما ملك غرناطة ، فإنه اكتفى بمهاجمة مدينة أسطبونة إحدى القواعد الأندلسية التابعة لسلطان المغرب ، وانتهت هذه العمليات بسقوط طريف في أيدي القشتالين بعد حصار دام ستة أشهر (3) .

على أن ملك قشتالة لم يلبث أن نسي وعوده السابقة لملك غرناطة ، ورفض تسليمه ثغر طريف بل واحتفظ أيضاً بالحصون الغرناطية التي كان محمد الثاني قد سلمها إليه في مقابل تسليمه قاعدة طريف ، وثارت ثائرة سلطان غرناطة لهذه الخدعة ، ولم يجد وسيلة أمامه سوى العبور إلى سلطان المغرب أبي يعقوب يوسف سنة 692هـ (1293 م) ليطلب منه الصفح على مسلكه السابق ، وليطلب منه أيضاً معونة حربية لاسترداد طريف . (1)

واستجاب سلطان المغرب لطلبه . وهاجمت الجيوش والأساطيل المغربية والغرناطية قاعدة طريف ولكنها لم توفق في احتلالها ، وترجع المصادر الأسبانية هذا الفشل إلى بطولة قائد حامية المدنية قزمان الطيب guzman el buene الذي فضل أن يقتل المسلمون ولده أمام عينيه على أن يسلم المدينة (2) .

غير أن السلطان محمد الثاني ، وإن كان لم يوفق في استعادة طريف ، إلا أنه استطاع أن ينتزع من القشتاليين مدينتين من أعمال جيان وهما قيجاطة Quesada سنة 695 هـ (1295م) () والقبذاتي alcuadate سنة 699هـ (1299م) . ثم انتهت هذه الحروب بعقد صلح بين غرناطة وكل من قشتالة وأراجون سنة 702هـ (1302م) .

وفي أوائل القرن الثامن الهجري (14م) قامت في بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية ، ولم يلبث السلطان نفسه أبو يعقوب يوسف أن مات مقتولاً بيد بعض عبيده سنة 706هـ (1306م) .

ولقد حركت أنباء هذه الفوضى ، أطماع سلطان غرناطة الجديد محمد الثالث (702 - 709هـ 1302 - 1309هـ) في السيطرة على المضيق ، فانتهز هذه الفرصة وأمر ابن عمه أبا سعيد فرج صاحب مالقة بالاستيلاء على سبته ، فاقتحمها بأساطيله وجنده واستولى عليها سنة 706هـ (1306 م) وقبض على ولاتها من بني العزفي وأرسلهم أسرى إلى غرناطة (2) .

وغضب سلطان المغرب أبو ثابت عامر (706 - 708هـ) من هذا التدخل الغرناطي في شئون بلاده ، وقام من فوره بتأسيس مدينة تطوان (3) جنوبي سبتة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية في سبتة . ولم يعش السلطان أبو ثابت طويلاً لكي يحقق آماله ولكن ابنه أبو الربيع سليطان (708 - 710هـ = 1308 - 310م) واصل سياسته بضرورة استعادة سبتة وتحالف مع مملكتي قشتالة وأراجون ضد غرناطة .

ورأى كل من ملك قشتالة فرنالدو الرابع ، وملك أراجون خايمي الثاني ، أن الفرصة باتت سانحة للقضاء على مملكة غرناطة ، فتحالفا على غزوها في وقت واحد على أن تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مينة الجزيرة الخضراء

من الجنوب ، بينما تهاجم الأساطيل الأراجونية مدينة المرية من الشرق ثم يتقابل الجيشان في مدينة غرناطة العاصمة (!) .

وحينما علمت غرناطة بأنباء هذا العدوان المشترك على أراضيها ، ثارت ثائرة أبنائها ، وأخذوا يستعدون للقتال . وساءهم أن يجدوا سلطانهم محمد الثالث قد استنفد جميع المخزون من المؤن والغلال أثناء عملياته العسكرية في بلاد المغرب ، فقاموا بثورة ضده ، انتهت بخلعه ونفيه إلى ثغر المنكب almunecar ، وتولية أخيه أبي الجيوش نصر سلطاناً على غرناطة (708 - 713 - 1309 - 1314 م) (1) .

ورأى سلطان غرناطة الجديد ضرورة إعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر المسيحي المنتظر . فعبر إلى سلطان المغرب أبي الربيع سلمان ، وتنازل له عن مدينتي رندة والجزيرة الخضراء ، كما أعاد إليه ثغر سبتة الذي سبق أن استولى عليه أخوه ، ثم توج هذا كله بعقد قرانه على أخت سلطان المغرب (2) .

ثم رأى سلطان غرناطة ، بعد أن ألقى عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة الخضراء ورندة ، أن يتقرب إلى ملك قشتالة فرناندو الرابع ، ويعرض عليه بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفه ملك أراجون . غير أن ملك قشتالة رفض هذا العرض ، وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب أيضاً لأنه ، كذلك عليه وعلى ملك أراجون (2) .

وفي عام 709هـ (1309 م) هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتمكن من الاستيلاء عليه . ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولاً احتلالها ولكنه فشل واكتفى بحصارها . وفي الوقت نفسه (709هـ) حاصر ملك أراجون خايمي الثاني بجيوشه وأساطيله ثغر المرية .

غير أن هذا الهجوم المزدوج انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من المدينتين الصمود أمام العدوان ولا سيماً مدينتي المرية التي تعرضت في هذه الحرب لأشد هجومعرفته في تاريخها . ولهذا اهتم به المؤرخون القدامى والحديثون وكتبوا عنه في شئ من التفصيل . (1) .

ولقد انتهى هذا المشروع الحربي الفاشل بأن عقدت كل من قشتالة وأراجون صلحاً مع غرناطة والمغرب ، وقامت بعد ذلك علاقات طيبة بين هذه الدول الأربع تشهد بها مجموعة المراسلات المتبادلة بينها ، والمحفوظة الآن في أرشيف تاج أراجون بمدينة برشلونة . (1)

وفي سنة 713هـ (1314م) حدث انقلاب داخلي في مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها أبي الجيوش قصر ونفيه إلى مدينة وادي آش وتوالية ابن عمه أبي الوليد اسماعيل الأول (703 - 725هـ 1314 - 1325 م) . وقد حاول السلطان اسماعيل أن يحافظ على العلاقات الودية التي تربط غرناطة بقشتالة وأراجون . غير أن محاولاته باءت بالفشل وخصوصاً مع قشتالة التي أظهرت تأييدها لذلك نصر المخلوع وأعلنت الحرب على غرناطة . (2)

ثم قام الأميران بدور وخوان ، الوصيان على ملك قشتالة الطفل الفونسو الحادي عشر ، بحملة على مملكة غرناطة أحرزت بعض النجاح في منع السلطان اسماعيل من استعادة جبل طارق ، ولكنها انتهت بمقتل الأميرين القشتاليين في مروج غرناطة سنة 719هـ (1319م) وتذهب الرواية الأسبانية إلى أن الأميرين المذكورين ماتا موتة طبيعية في هذه المعركة ، الأول (بدور) مات بالسكتة القلبية ، والثاني (خوان) مات من الحرب

والعطش (1) . ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية التي نراها واضحة في رواية الوزير ابن الخطيب عند قوله ، وتقدم لتربيته والنيابة عليه عمه دون بطره pedro ، وهو الذي وقعت عليه وقيمة المرج بظاهر بظاهر غرناطة ، وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب ، وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة أن غطته ، واحتج إلى بناء البرج ، وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطر إلى الكشف عن التابوت ، فألفى قد عفن ، واستوذنت فيما يفعل بتلك الرمة ، فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده أساقفهم . فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ، ألفى بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يد مجاهدة يوم الوقيعة ، كانت سبباً للفتح . فاستعيرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وأمرت برده بمكان بنائه وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكاية الكفار إذا مروا به ، وتقليد الفخر للدين ما شاء الله . (2) " .

وسارعت قشتالة بعد هذه الكارثة إلى عقد صلح مع غرناطة سنة 720 هـ (1320م) ولكنها نكبت في العام التالي بوفاة الملكة ماريا دي مولينا maria de mlina جدة الملك القاصر الفونسو الحادي عشر والوصية عليه بعد وفاة أعمامه . وادي موتها إلى قيام منازعات داخلية بين أمراء قشتالة حول الوصاية على العرش . وانتهز سلطان غرناطة اسماعيل هذه الفرصة واستولى على بعض المدن القشتالية مثل بسطة baza وأشكر huescar سنة 724هـ (1324 - 1325م) . وتنبغي الإشارة هنا إلى أنه في احتلال هذه المدينة الأخيرة استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة في الأندلس . وقد أورد ابن الخطيب وصفاً هاماً لهذا السلاح الجديد وما أحدثه من ذعر في صفوف الأعداء وهذا الوصف يعتبر في الواقع من أقدم النصوص التاريخية عن استعمال الأسلحة النارية وفيه يقول :

نازل السلطان أشكر ...... ونشر الحرب عليها ، ورمي بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة محماة طاقة البرج المنيع ، فعاثت هيات الصواعق السماوية ونزل أهلها قسراً على حكمه . وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكريا ابن هذيل :

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد

غرائب أشكال سما هرمس بها مهندسة تأتي الجبال فتنهد

ألا أنها الدنيا تريك عجائباً وما في القوى منها فلابد أن يبدو (1)

ومن الطريف أن المصادر الأسبانية المعاصرة في وصفها لأحداث هذه الحرب ، أشارت إلى هذا السلاح الرهيب ففي مدونة ثوريتا نجد العبارة التالية : " وانتشرت الإشاعات في مدينة لقنت alicante بأن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً عجيداً " (1) .

ورأى أمراء قشتالة أن خير وسيلة لحسم منازعاتهم الداخلية ، هي أن يباشر الملك الفولسو الحادي عشر حكم بلاده بنفسه رغم صغر سنه (15 سنة) وقد تم ذلك فعلاً في أغسطس سنة 1325م . وفي السنة التالية هاجم هذا الملك مملكة غرناطة منتهزاً فرصة الاضطرابات التي حلت بها نتيجة لمقتل سلطانها اسماعيل وتولية ابنه محمد الرابع (725 - 733 هـ = 1326 - 1333م) .

وأمام النجاح الذي أحرزه الهجوم القشتالي في الأراضي الغرناطية ، أسرع محمد الرابع إلى سلطان المغرب أبي سعيد عثمان الثاني ، واتفق معه على التعاون عسكرياً ضد قشتالة . وقد رد ملك قشتالة على ذلك بأن عقد اتفاقاً مع ملك أراجون ضد خطر الغزو المغربي ، وهي اتفاقية طركونة tarragona سنة 1328م .

ثم بدأت الحرب في صيف 730هـ (1330م) ، وكانت شديدة في الجهة القشتالية ، ضعيفة في الجبهة الأراجونية ، ويبدو أن الفونسو الرابع ملك أراجون لم يكن جاداً في هذه الحرب ، إذ لم يهاجم ميناء المرية كما كان متفقاً عليه ، واقتصر على إرسال حملة إلى منطقة لورقة lorca (2) أما قشتالة فقد تحملت عبء القتال وحدها ، واستطاع الفونسو الحادي عشر أن يحتل عدة حصون غرناطية ، ولكن الجيوش الغرناطية بالتعاون مع الأساطيل المغربية التي أرسلها السلطان أبو الحسن علي المريني (731 - 749هـ - 1331 - 1348م) بقيادة ولده أبي مالك تمكنت في نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنة 733 هـ (1333م) وحاول ملك قشتالة إنقاذ هذه القاعدة الهامة ولكن بعد فوات الأوان (3) ومن المؤسف أنه بينما كان سلطان غرناطة محمد الرابع في طريق عودته إلى عاصمته بعد هذا النصر ، إذ به يقع صريعاً بيد بعض المتآمرين من جنوده ، وخلفه على عرش غرناطة أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (732 - 755هـ = 1333 - 1354م) . واستطاع أبو الحجاج أن يصل إلى اتفاق مع ملك قشتالة ، وأن يعقد معه معاهدة اشترك فيها سلطان المغرب أيضاً أبو الحسن المريني سنة 734هـ (1334 م) وكان من شروط هذه المعاهدة أن يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مدة أربع سنوات ، على ألا تمر قوات مغربية إلى الأندلس اللهم إلا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية في الأندلس . وفي نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أراجون (1) .

على أن كل هذه المعاهدات ، لم تحل المشكلة القديمة القائمة ، وهي مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق ، فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الأخيرة بعد . وانتهز كلهما فرصة السلام للتسابق على التسلح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجهاً نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسي للسيطرة البرية بعد ذلك . ورأى سلطان المغرب أبو الحسن المريني أن يستعين في هذا المضمار بخبرة الملاحين الجنوبيين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس (2) ، بينما رأى ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر أن يستعين بأساطيل ملك أراجون . وقد أمده بالفعل بدور الرابع ملك أراجون بأسطول تحت قيادة gllabert de gruylles (1) ، بينما أرسل الخليفة المتوكل أبو يحيى الحفصي أسطولاً من ست عشرة قطعة إلى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية . ويذكر ابن خلدون أن أساطيل المغرب وتونس التي تجمعت بمرسى سبتة كانت تناهز المسائة ، وأن السلطان أبا الحسن المريني عقد عليها لمحمد بن علي العرفي حاكم سبتة (2) ، بينما تذكر المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب بلغت مائتين وخمسين شراعاً .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدأت المعركة في ربيع 740هـ (1340م) عندما حاول القائد الأرجواني gilabert de gruyiles عبور المضيق والاتصال بقائد الأسطول القشتالي Alonso jofre tenorio في مياه اشبيلية عندئذ تصدى له الأسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال ، ودارت بينهما معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الأسطول الأراجوني وقتل قائده ، وانسحاب فلوله إلى برشلونة بقيادة نائب القائد المقتول pwdro de moncada :

ولا شك أن انسحاب الأسطول الأراجوني من ميدان المعركة ، كان ضربة قاضية للأسطول القشتالي الذي لم يستطع الصمود وحده أمام أسطول المغرب ، فمني هو الآخر بهزيمة ساحقة وقتل قائده Alonso jofre tenorio واستولى المسلمون على بعض قطعة . وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان أبو الحسن المريني سيداً بلا منازع على مضيق جبل طارق ، وصار من السهل عليه نقل قواته إلى أسبانيا في في سهولة ويسر .

واتجهت أنظار هذا المجاهد الكبير إلى مدينة طريف القاعدة الباقية في أيدي الأسبان من ثغور المضيق . فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله في يده ، كما صار الطريق أمامه مفتوحاً إلى قادس وأشبيلية لهذا عول على احتلالها وأجاز إليها بجيوشه وأساطيله وأحاط بها من كل جانب براً وبحراً في المحرم سنة 741هـ . واشترك معه في هذا الحصار سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف الأول بجيوشه أيضاً .

وشعر ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر بخطورة الموقف ، فاستنجد بملك أرجوان بدور الرابع ، كما استنجد بصهره ملك البرتغال الفونسو الرابع ، وهرع الجميع إلى ساحة طريف بغية إنقاذها ، وفي 7 جمادي الأولى سنة 741 هـ (أكتوبر سنة 1340 م) دارت بين الفريقين معركة حاسمة انتهت بهزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم . وسميت هذه الموقعة في المصادر العربية باسم موقعة طريف ، أما المصادر الأسبانية فقد سمتها بوقعة نهر سلادو del rio salado على اسم النهر المجاور لطريف في جنوب أسبانيا ، كما سمتها أيضاً بوقعة الملوك الأربعة de los cuatro reyes (1) .

ولدينا نص مختصر عن سبب هزيمة المسلمين أورده ابن الخطيب الذي فقد أباه وأخاه (2) في هذه المعركة . يقول فيه : " ودون الفنش – ملك البرتغال – هو الذي أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه . وكان مصافه بإزائنا أهل الأندلس وحملنا عليه وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيئاً وراءهم فاصلاً عن الملكين ، يمد من ظهر به اختلال وتضعضع : فبادر إلى عدونا فقراء وسبب له الظهور (3) .

ويضيف ابن الخطيب ، في موضع آخر سبباً ثانياً لهذه الهزيمة وهو خروج أهل البلد المحصور واشتراكهم في القتال ضد المسلمون فيقول . وكان اللقاء بظاهر طريف ، وساء التقدير . واختل مصاف المسلمين وأضاعوا الحزم ، وخرج أهل البلد المحصور وهم شوكه ، وضيقت مجال القتال ، وأجفان الروم ناضجة بأساليب السهام حتى دخل البلد فرسان الروم فوقعت الهزيمة التي حصدت شوكة المسلمين وأهلكت نفوسهم واكتسحت أموالهم ، وأسلم السلطان مضاربه ، ومن جملة ما بها أزواجه من بنات الملوك ، وقعت بهم المثلة بعد القتل ، وكان الخطب على الإسلام قل أن يجتمع مثله " (1) .

وانتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التي حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة ، وواصل هجومه على غرناطة فاستولى على قلعة يحصب (2) alcala la real وباغو priego ثم حاصر أخيراً مدينة الجزيرة الخضراء سنة 743هـ (1342 م) ودام هذا الحصار مدة طويلة تقرب من السنتين ، وذاعت أنباؤه في أنحاء أوروبا ، وسارع إليه عدد كبير من الفرسان الإنجليز والألمان والفرنسيين للمشاركة فيه . وسقط بعضهم قتلى بسيوف المسلمين (3) كذلك شاركت أراجون في هذا الحصار بجزء من أسطو لها بقيادة الأثير bernardo de gabrera (4) .

وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة إنقاذ هذه القاعدة الهامة بشتى الطرق السلمية والحربية ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل ، وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء في ربيع سنة 744 هـ (5) (1344م) ثم عقدت معاهدة سلمية بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات (1) .

وقبل انتهاء أمد هذه المعاهدة ، حاول الملك الفونسو الحادي عشر تحقيق أمنية طالما فكر في تحقيقها وهي الاستيلاء على جبل طارق . فأناخ عليه بجيوشه وأساطيله وأحاط به من كل جانب ، ولكن وباء الطاعون انتشر في معسكره ، ولم يلبث هو نفسه أن راح ضحية لهذا الموت الأسود في مارسة سنة 1350م (751هـ) .

وحينما علم السلطان أبو الحجاج يوسف بخبر وفاته ، أمر جنوده بعدم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجثمان مليكها إلى إشبيلية (2) . وقدر ملك قشتالة الجديد بدور (3) ، لسلطان غرناطة والمسلمين هذا الصنيع ، فعقد معه معاهدة ود وصداقة (4) . كذلك عقدت أراجون مع ملك غرناطة معاهدة سلمية مماثلة وتبادلت معه خطابات ودية (1) .

وما كادت غرناطة تنعم بالسلم والهدوء من جانب جيرانها المسيحيين حتى دب نزاع جديد بينها وبين سلطان المغرب أبي عنان فارس (2) (749 – 759هـ : 1348 – 1358م) والسبب في هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من إخوة أبي عنان وهما الأميران أبو الفضل وأبو سالم ، خرجا عن طاعة أخيهما السلطان ، وهربا إلى سلطان غرناطة ملتمسين حمايته ، وقبل أبو الحجاج يوسف طلبهما وأواهما في بلاطه – وقد آثار هذا العمل غضب السلطان المريني ، فأرسل إلى سلطان غرناطة خطاباً شديد اللهجة ، مليئاً بعبارات الاحتجاج والتهديد ، وكان رد السلطان يوسف عليه واضحاً ، إذ أوعز إلى الأمير أبي الفضل بالسفر إلى قشتالة وطلب معونة من ملكها بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه . ووافق ملك قشتالة على طلب الأمير المغربي أبي الفضل لأنه كان متوخفاً من أطماع أبي عنان ، فأمده بالأساطيل والأموال وأنزله بنواحي السوس في جنوب المغرب كي يشعل حرباً أهلية ضد أخيه وثارت ثائرة السلطان أبي عنان لهذا العمل العدائي ، وطلب من ملك أراجون أن يتعاون معه على محاربة غرناطة وقشتالة (1) . غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما مات أخوه أبو الفضل أثناء حروبه بالمغرب ، وقتل سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف أثناء تعأديته لصلاة عيد الفطر في شوال سنة 755 هـ (2) (أكتوبر سنة 1354م) .

وولى عرش غرناطة بعد أبي الحجاج يوسف ولده السلطانه محمد الخامس الغنى بالله (755 – 760 هـ 763 – 793 هـ = 1354 – 1359 – 1362 – 1391 م) . وحاول هذا السلطان الجديد أن يعيد العلاقات الودية بين غرناطة والمغرب بعد أن تأزمت في عهد والده ، فأرسل إلى فاس سفارة لهذا الغرض برئاسة وزيره لسان الدين بن الخطيب الذي يبدو أنه نجح في سفارته . إذ يروي أنه حينما مثل بين يدي السلطان وقبل أن يسلم عليه ، أنشده قصيدة يقول في مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك مالاح في الدجى قمر

فاهتز أبو عنان لأبياتها وقال لابن الخطيب : " ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، وقد علق أحد الحاضرين على ذلك بقوله . لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا (3) .

غير أن السلطان أبا عنان لم يلبث أن راودته أحلامه القديمة بغزو الأندلس ، والسيطرة على المضيق ، خصوصاً بعد أن تم له ضم المغرب الأوسط إلى ملكه . وقد لاحظ أن خلدون ذلك عند قوله : " وكان أبو عنان يؤمل في

ملك الأندلس ، (1) رأى أبي عنان أنه من الصعب عليه تفيذ مشروعه ما دام هناك حلف قائم بين غرناطة وقشتالة . ولهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلي عن هذا الحلف الذي جعله يدين بالتبعية لملك قشتالة ويدفع له الجزية ، غير أن محمد الخامس رفض هذا العرض لأنه كان يجنح دائماً إلى مسالمة قشتالة (2) ، أو لأنه ، كما يبدو ، كان يشك في نوايا سلطان المغرب . عندئذ رأى أبو عنان أن يتحالف مع بدور الرابع ملك أراجون الذي رحب من جانبه بهذا المشروع لأنه كان فعلاً في حرب مع قشتالة ، ووقع الاتفاق بين الملكين سرقسطة في يوليوسنة 1357 م (3) (758هـ) .

ويبدو أن الاستعدادات للحرب قد بدأت فعلاً بدليل قول ابن خلدون بأن الأساطيل المغربية والأراجونية قد أخذت تتجمع في مضيق جبل طارق منتظرة الأمر بالهجوم ، وأن السلطان أبا عنان أرسل إلى حليفة ملك أراجون هدية فاخرة عربوناً لصداقته وامتنانه (1) .

غير أن هذه المشروعات الحربية لم تلبث أن توقفت فجأة نتيجة لوفاة أو مقتل السلطان أبي عنان (2) . في سنة 759هـ (ديسمبر 1358 م) . إذ انتهز ملك تلمسات المخلوع أبو حمو الثاني هذه الفرصة واستعاد ملكه بالمغرب الأوسط ، بينما سادت المغرب الأقصى حروب أهلية بين أولاد السلطان المتوفي طمعاً في العرش . ورأى الوزير حسن بن عمر الفودودي أن يستأثر بالنفوذ في الدولة غدير من قتل ولي العهد أبا زيان ، واختار طفلاً من إخوته يدعى السعيد أبو بكر ، فأقامه سلطاناً على المغرب وصار يحكم باسمه .

على أن هذا الاختيار لم يعجب الكثيرين من زعماء المغرب ، فاتجه بعضهم بعضهم إلى غرناطة وبايعوا الأمير أبا سالم إبراهيم المريني الذي سبق أن التجأ إليها فراراً من أخيه أبي عنان ، وظن أبو سالم أن غرناطة سوف تساعده على تحقيق آماله في ملك المغرب نظراً للعداء الذي كان بينها وبين حكومة فاس على عهد أخيه ، ولكن سلطان غرناطة فضل أن يسلك سياسة محايدة في تلك الظروف المضطربة ، واضطر أبو سالم إلى الفرار إلى ملك قشتالة بدور الأول بمدينة اشبيلية طالباً مساعدته في الوصول إلى عرش المغرب . وكان رأي المستشارين في البلاط القشتالي عدم الموافقة على مساعدة الأمير المغربي ، لأن من مصلحة قشتالة أن يكون سلطان المغرب طفلاً قاصراً مثل السعيد أبي بكر ، ولكن الملك بدور لم يستجب لهذا الرأي ، وقرر مساعدة الأمير أبي سالم بعد أن أخذ عليه الضمانات

والمواثيق بالوقوف إلى جانبه ضد أراجون . ثم أمده بالأموال وبالأساطيل التي عبرت به إلى الساحل المغربي ، وهناك تمكن أبو سالم بعد أحداث وحروب من التربع على عرش المغرب في شعبان 760 هـ (يونيو سنة 1359 م) (1) .

وكان من الطبيعي أن تتجه سياسة هذا السلطان الجديد نحو مخالفة كل من قشتالة وغرناطة ، والتخلي عن سياسة التحالف مع أراجون التي رسمها أبو عنان من قبل . وكانت الحرب وقتئذ قد استمرت بين هاتين المملكتين الإسبانيتين قشتالة وأراجون ، وصمم ملك قشتالة على مهاجمة خصمه في مياهه الإقليمية ليثبت له أنه قادر على منازلته في البحر الذي هو ميدانه . واستعان في ذلك بحليفه محمد الخامس الذي لم يتردد في إمداده بأسطول غرناطي من عشر شواني حربية بجميع بحارتها وأسلحتها كما سمح له باستخدام آلة واعد البحرية الغرناطية ليستعين بها في تموين أساطيله (1) .

وبينما كان ملك قشتالة منهمكاً في غاراته البحرية ضد ميناء برشلونة وغيرها من الموانئ الأراجونية (2) ، إذا بخليفة محمد الخامس يعاني انقلاباً داخلياً في مملكته انتهى بخلعه وتولية أخيه أبي إسماعيل الثاني مكانه وذلك في رمضان سنة 760 هـ (أغسطس سنة 1359م) (3) . وتمكن السلطان المخلوع من الفرار ليلاً على ظهر جواده إلى مدينة وادي آش guadix التي تعهدت بحمايته . ومن هناك بعث محمد الخامس إلى حليفه سلطانه المغرب يطلب منه قبوله كلاجئ سياسي في بلاطه وقبل السلطان أبو سالم هذا العرض لأنه رأى أن وجوده بجانبه يفيده كسلاح ضد حكومة غرناطة وضد أمراء بني مرين المقيمين في كنفها إذا ما فكروا يوماً في غزو المغرب ، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون : " وأراد أن يعده زبوناً (أي حرباً وقوة) على أهل الأندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب " (1) .

ثم أرسل السلطان أبو سالم رسولاً خاصاً من قبله ليصحب محمد الخامس في رحلته إلى المغرب بعد أن أقنع المتغلب على غرناطة بذلك . وفي ذي الحجة سنة 760هـ (نوفمبر سنة 1359م) خرج محمد الخامس من مدينة وادي آش ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب وشاعره عبد الله ابن زمرك وجماعة من مماليكه واتباعه متجهاً إلى ميناء مربلة marbella ، ومن هناك أبحر عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة ثم سار إلى العاصمة فاس حيث استقر بها تحت كنف السلطان أبي سالم ورعايته (2) .

ولم يكد يمر عام على هذا الوضع حتى عانت مملكة غرناطة انقلاباً آخر طوح برأس سلطانها أبي الوليد اسماعيل الثاني في شعبان سنة 761هـ
(يونيو 360 م) . وتولى مكانه قاتله وهو زوج أخته وأحد أبناء (1) عمومته محمد أبو سعيد المعروف في المصادر الأسبانية باسم البرميخو el - bermejo ومعناه اللون البرتقالي للضارب إلى الحمرة ، وهو لون لحيته وشعره (2) . ورأى هذا السلطان المغتصب أن التحالف مع قشتالة أمر يتعذر تحقيقه نظراً للصداقة التي تربط ملكها بالسلطان المخلوع محمد الخامس ولهذا اتجه نحو بدرو الرابع ملك أراجون ، والضم إليه في حروبه ضد قشتالة (3) .

وقدر ملك قشتالة ، بعد انضمام غرناطة إلى أراجون ، صعوبة الحرب في جبهتين في آن واحد ، ولذا اضطر إلى أن يستجيب لوساطة البابا بعقد صلح مع أراجون في 13 مايو سنة 1361 ، كي يتفرغ بذلك لمحاربة غرناطة (4) .

ولكي يبرر ملك قشتالة شرعية هذه الحرب ، أعلن نفسه مدافعاً عن حقوق السلطان الشرعي المخلوع محمد الخامس ضد الغاصب أبي سعيد البرميخو (5) . وعلى هذا الأساس طلب من سلطان المغرب أن يسلمه سلطان غرناطة المخلوع كي يساعده في العودة إلى عرشه ولكن السلطان أبا سالم تلكأ في تنفيذ هذا الطلب ، إذ يبدو أنه اتفق مع البرميخو سراً على منع محمد الخامس من العبور إلى أسبانيا في مقابل أن يقوم البرميخو باعتقال جميع أمراء بني مرين المقيمين عنده بغرناطة (1) .

وغضب ملك قشتالة من موقف سلطان المغرب ، وهدده بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية في أسبانيا إن لم ينفذ مطلبه . واضطر السلطان أبو سالم أمام إصرار بدور القاسي وتهديده أن يرضخ لمطالبة ، فأمر أساطيله بالتجمع في مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة ، متظاهراً بحرب الأسطول الأراجوني ، بينما كان غرضه الحقيقي هو إجازة السلطان المخلوع إلى الساحل الأندلسي . وفي الوقت نفسه وصلت الأساطيل القشتالية إلى ميناء

سبتة للقيام أيضاً بمهمة إجازة السلطان محمد الخامس إلى أسبانيا ، وهنا نترك المؤرخ المعاصر لسان الدين بن الخطيب يصف لنا رحيل سلطانه من فاس إلى الأندلس كما شاهده بنفسه ، فيقول (2) .

وألح سلطان قشتالة في تسليم السلطان أبي عبد الله إليه ، (3) ليتولى شد أزره ، ويجتهد في جبر حالة . وألقيت إليه المعاذير فتبا عنها سمعه ، ورفق عن غرضه في رفع السلم عند إخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من ضروب ملاطفته فترجع الرأي على توجيهه إلى الأندلس . وقد كان الأسطول (1) تألف بفرضة المجاز من سبتة موريا بجهاد من ظهر به من عدو برشلونة . ووصلت أساطيل الروم (2) المفخرة في غرض إجازته ، قد أركبها ملك النصارى (3) وجوه خدامه : فقعد السلطان أمير المسلمين بالمغرب (4) في قبة العرض المتخذة بجنة المصارة . ووقع البريح ببروز الناس إلى الفضاء الأفيح ، واستحضرت الجنود والطبول وأوعية المال صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ (5) . واستحضر السلطان (6) فصعد على القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطهمة ، حليها ذهب بحت " ونشرت حوله الألوية " وقرعت الطبول ، وركب السلطان (7) مشيعاً إياه غلوة ثم انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى عن الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها في جملة كثيفة . وبلى من رقة الناس وأجاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكوناً وعفافاً وقرباً قد ظلله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم العهد ، منتزع الحق فتبعته الخطط وحميت له الأنفاس وحث السلطان أمر عبد الله ابن نصر الموجه إلى الأندلس ركابه إلى سبتة ، لا يصدق بالإفلات ولا يثق بالنجاة ، فعارت له خيل ونفقت حموله لشدة السير ، واستقر بسبتة ، واستعجل الجواز ، وحل بجبل الفتح بعد مراوضة كبيرة لقواد الأسطول (1) الرومي ومحاورة ، إذ تبرعوا بإجازته ، ولم يسمحوا في خلاف ذلك ليجلبوا الفخر لسلطانهم وينسبوا الحركة إليه . فأعملت الحيلة ولقفت الحجة وقطع السلطان ألسنتهم بمال بذلك مكارمة لهم ، وأركب أجفانهم طائعة من كبار قرابته واستقر بجبل الفتح ، وطال به مقامه تتردد الرسل بينه وبين ملك الروم . ثم ارتحل نحوه (2) في لمة من مماليكه ووجوه قرابته . وتحفى السلطان – بدرو – بمقدمه ، وبالغ في بره ، وأفرط في التنزل لوجهته ، وأبعد المادا في خطأ تنقيه ، وأرجل الأكابر لأداء حقه ، توسع في نزله ، وعم بالملاحظة جميع من في صحبته ، وإعطاء صفقة يمينه بالمظاهرة والمعاضدة ، وسلفه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته ، وشرط له أن لا يبزره حصناً ، ولا ينقصه فتحاً ، ولا يعلق به طماعية ، وأنه على السلم مدة حياته ، ويتركه وصية في عقبة ، وانصرف مجبوراً قرير العين ، منشرح الصدر ، فلحق بسائر الجيش المريني ومن تخلف عنه من قومه بظاهر رنده (1) .

واتخذ محمد الخامس من مدينة رندة (2) ronda مقراً له ولحكومته المؤقتة ، وكانت في ذلك الوقت ، تابعة لسلطان بني مرين ، ومن هناك أخذ محمد الخامس يكاتب زعماء غرناطة ويحرضهم على ترك طاعة البرميخو والانضمام إليه ، كما أخذ يعد العدة لمحاربة هذا السلطان المغتصب ، وقد أمده سلطان الغرب بست سفن حربية ، كما أمده ملك قشتالة بخمس أخرى ، ووعداه بمزيد من الأساطيل والجيوش لاسترداد ملكة . ويضيف ابن الخطيب أن محمد الخامس أخذ يرصد رجاله لقطع الطريق على رجال البرميخو وسفاراته المتجهة إلى المغرب . ومن الطريف أن من بين الذين وقعوا في أسره الفقيه محمد بن علي بن محو البلنسي الذي كان مقرئاً في قصره أيام سلطنته ، وقد اضطر محمد الخامس إلى العفو عنه حنيناً إلى حسن تلاوته (3) .

ولدرأ هذا الخطر ، رأى السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو أن يستنجد بحليفه ملك أراجون فكتب له خطاباً بتاريخ 3 من ذي القعدة سنة 762هـ (4 سبتمبر سنة 1361م) يخبره فيه بأنه تفادياً لشروط المعاهدة المبرمة بين قشتالة وأرجوان ، فإنه يرى أن يتكفل الأسطول الأراجون بمقاومة هجوم سلطان المغرب ، بينما يتكفل الأسطول الغرناطي بمحاربة الأسطول القشتالي (1) .

ولم يكتف البرميخو بهذا التكتيك الحربي بل صمم على إرسال بعض المرشحين لعرش المغرب من أمراء بني مرين المقيمين عنده إلى المغرب لإشعال نار الحرب الأهلية ضد السلطان أبي سالم جزاء مساعدته لمحمد الخامس ، واختار لهذا الغرض اثنين من أولاد عم سلطان المغرب وهما عبد الحليم وعبد المؤمن . وحاول هذان الأميران الإبحار من ثغر المنكب almunecar على ظهر سفينة حربية غرناطية ، غير أن أسطول المغرب وقشتالة المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ، هاجم هذه السفينة واضطر بحارتها إلى غرسها في الرال فتعذر سيرها بعد ذلك . على أن ركاب السفينة انتهزوا حلول الليل ، وغياب الأسطول المشترك لقضاء حاجته من زاد الماء ، وأبحروا تحت جنح الظلام على ظهر سفينة أخرى صغيرة واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلمسان بالمغرب الأوسط (2) . وهناك رحب بهم أبو حمو الثاني ملك تلمسان وآواهم عنده . ثم نادى بعبد الحليم سلطاناً على المغرب الأقصى لأنه أكبر سناً من أخيه عبد المؤمن ، وأمده بالمال والرجال . وكان الملك أبو حمو يهدف من وراء ذلك أن يثير حرباً أهلية بين بني مرين الذين طالما شردوه وشردوا باءه آبنى زيان من قبل ، وضموا تلمسان إلى ملكهم بالمغرب الأقصى (1) .

ونجحت سياسة كل من غرناطة وتلمسان في بث سمومهما في فاس ، ففي 22 ذي القعدة سنة 762 هـ (23 سبتمبر سنة 1361 م) اغتيل السلطان أبو سالم المرين على أثر انقلاب داخلي دبره وزيره عمر بن عبد الله (2) . وكان لهذا الحادث نتائج سريعة أثرت في الأحداث السياسية بمنطقة المضيق إذ صدرت الأوامر إلى الأساطيل المغربية المكلفة بحراسة المضيق والإغارة على السواحل الغرناطية ، بالعودة إلى قواعدها فوراً .

كذلك صدرت أوامر مماثلة إلى الجيوش المغربية المقيمة مع محمد الخامس في رندة ، تطلب منها التخلي عن مساعدته ولم يلبث الخامس أن وجد نفسه فجأة وحيداً خصوصاً بعد أن تخلى عنه أيضاً أقرباؤه واتباعه وفروا هاربين إلى غرناطة أو المغرب (2) واضطر الغني بالله في غمرة يأسه أن يترك مدينة رندة التابعة لبني مرين ، وأن يتجه بمن تبقى معه من رجال إلى إشبيلية لكي يتدبر الأمر مع صديقه بدرو الأول ملك قشتالة . ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت أبي سالم حليفهما الثالث ، وبسبب اقتراب حلول فصل الشتاء ، فاعتذر لمحمد الخامس عن عدم إمكان مساعدته في هذه الظروف الصعبة ، ولكنه عمل على إكرامه وتطييب خاطره ، وأنزله هو وأتباعه في ضيافته بمدينة استجه ecija الجميلة المطلة على الثغور الغرناطية (1) .

وكان المغرب الأقصى في خلال ذلك الوقت يعاني فتنة داخلية ، إذ لم يرض الناس بسلطنة تاشفين بن أبي الحسن (الموسوس) ، الذي خلف أخاه أبا سالم ، لضعف قواه العقلية . ورأى الوزير المستبد عمر بن عبد الله أن يستبدله بابن أخيه أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المقيم ببلاط ملك قشتالة بإشبيلية . واستعان الوزير المذكور في تنفيذ ذلك بمحمد الخامس نزيل استجه كي يتوسط لدى صديقه بدرو الأول في أن يسمح للأمير أبي زيان بالعبور إلى فاس وقبل محمد الخامس القيام بهذه الوساطة واشترط في مقابل ذلك تسليمه مدينة رنده التي كانت تابعة لبني مرين ووافق الوزير عمر بن عبد الله على هذا الشرط تحت تأثير

صديقه المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، وانتهى الأمر بأن نجحت الوساطة وانتقل محمد الخامس إلى رندة كما اعتلى أبو زيان محمد الثاني عرش المغرب في صفر سنة 763 هـ (نوفمبر 1361 م) . (1)

وفي ربيع تلك السنة 763 هـ (1362م) قام ملك قشتالة بغارات متلاحقة على حدود مملكة غرناطة ليشغل جيوشها ، بينما اخترق محمد الخامس الأراضي الغرناطية واستولى على الشقيرة antequera ولوشه loja ، وبليش velez ، وقمارش comarex ، والحمة al hama ، ثم استولى على مالقه العاصمة الثانية لمملكة غرناطة . (2)

ولما رأى السلطان أبو سعيد البرميخو أنه لا فائدة من المقاومة صمم على الهرب فجمع ما في خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلاً إلى أشبيلية دون اتفاق سابق مع ملكها كما يقضي العرف بذلك (3) . وكان البرميخو يؤمل أنه بهذا العمل سوف يكتسب رضاء الملك بدرو وعفوه وحمايته غير أن بدرو القاسي أو العادل لم يغفر للبرميخو ما اقترفه من آثام وذنوب فقتله كما قتل سبعة وثلاثين من فرسانه في طلياطة tablada بضواحي إشبيلية في رجب سنة 763 هـ (إبرايل سنة 1362 م)(1) .

وحرص السلطان محمد الخامس بعد عودته إلى عرشه ، على أن يظل حليفاً مخلصاً لملك قشتالة ، وقد نوهت المصادر الإسلامية والمسيحية بهذه الصداقة ، وأشارت إلى أن ملك قشتالة بعث إلى محمد الخامس برأس البرميخو ورؤوس فرسانه الذين كانوا معه ، فأمر السلطان بتعليقها على أسوار قصر الحمراء .

وفي الوقت نفسه أعاد محمد الخامس إلى الملك بدرو جميع الأسرى القشتاليين الذين كانوا في مملكته كما قدم له الهدايا الفاخرة رمزاً لصداقته وامتنانه . (2)

أما سلطان فاس أو زيان محمد ، فإنه حاول استرجاع رندة إلى سلطان بني مرين وطالب السلطان محمد الخامس يردها مهدداً بمنع أسرته التي كانت لا تزال بالمغرب ، من العودة إلى غرناطة . ويذكر ابن الخطيب الذي كان مقيماً هو الآخر بالمغرب ، في ذلك الوقت ، أنه تدخل لدى المسئولين في المغرب في هذا الشأن واستطاع حل هذه الأزمة والعودة إلى غرناطة صحبة الأمير سوف ولي عهد غرناطة وبقية الأسرة الملكية . ولم يذكر ابن الخطيب كيف حلت هذه المشكلة ، ولكن من الثابت أن رنة ظلت تابعة لمحمد الخامس بدليل أن الخطابات التي تبودلت بينه وبين ملوك قشتالة وأراجون كانت تنص صراحة على اسم رندة بين البلاد الخاضعة له (1) .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الحادث لم يؤثر في العلاقات الودية خبين فاس وغرناطة إذ لم ينس أبو زيان محمد المجهودات التي بذلها كل من محمد الخامس وبدرو الأول في توليته عرش المغرب . ولهذا حرص على توطيد علاقة بهما ، فأوفد إليها في سنة 765 هـ (1362م) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون كسفير له في هذا الغرض . وقد نجح ابن خلدون في مهمته ، قصد أول الأمر بلاط غرناطة حيث احتفى به السلطان محمد الخامس وأكرمه وأقطعه قرية البيرة بضواحي غرناطة وقد تسرى ابن خلدون بجارية أسبانية تدعى عند ، وبعث إليه صديقه الوزير الغرناطي ابن الخطيب برسالة من الأدب المكشوف في هذا الموضوع نقلها المقري في نفحه (2) .

ثم اتجه ابن خلدون بعد ذلك إلى بلاط اشبيلية حيث حظى بلقاء بدر الأول ، ويقول ابن خلدون أن ملك قشتالة طلب منه البقاء في إشبيلية ووعده بأن يعيد إليه أملاك أجداده بإشبيلية ولكنه اعتذر وعاد إلى غرناطة ومنها إلى فاس (1) .

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى شغل ملك قشتالة بثورة داخلية ضده قام بها أخوه الغير شرعي هنري دي تراستمارا henrique de trastamara واستطاع هذا الأمير الثائر أن ينال تأييد كل من البابا ، وملك فرنسا شارل الخامس ، وملك أراجون بدرو الرابع ، الذين اعترفوا به ملكاً على قشتالة في مارس سنة 1366 ، وأمدوه بالمال والرجال لمعاونته ضد أخيه .

وحاول ملك أراجون أن يضم الغرب الإسلامي إلى هذا الحلف ، فأرسل كتبه وسفراءه إلى كل من سلطان فاس وغرناطة محاولاً إقناعهما بمهاجمة قشتالة ، مقدماً لهما جميع التسهيلات الممكنة من مال وسلاح وأساطيل (1) وكان غرضه من وراء ذلك هو عزل مملكة قشتالة ، وأحاطتها بشبكة منت الأعداء . غير أن محاولات ملك أراجون في هذا السيل لم تلبث أن فشلت تماماً أمام الصداقة القوية التي كانت تربط كلا من ملك غرناطة وفاس بملك قشتالة بدرو الأول .

هذا ولم يكتف السلطان محمد الخامس برفض التحالف مع أراجون بل سارع إلى إمداد صديقه بدرو بقوة من خيرة فرسانه بقيادة القائد الغرناطي أبي الفرج رضوان المعروف في المصادر الأسبانية المعاصرة باسم دون فرج الكابثاني (1) . el – cabezani ولعل معناها ، ذو الرأس الصلبة أو الكبيرة " .

على أن الملك بدرو ، رغم ذلك ، لم يستطيع مقاومة الجيوش المتحالفة ضده ، واضطر إلى ترك البلاد لمنافسه ، والالتجاء إلى ملك البرتغال ثم ملك انجلترا طلباً للمعونة الحربية .

وشعر ملك غرناطة بخطورة موقفه بعد أن تخلى عنه حليفه ، فكتب إلى ملوك المغرب والجزائر يعلمهم بحقيقة الموقف ويخبرهم بأن الجيوش الفرنسية والأساطيل الأراجونية قد وضعت خطة عدوانية تحت إشراف البابا للقضاء على أملاك المسلمين في المغرب والأندلس (7) . وكان لهذا النداء صدى عميق في نفوس أهل المغرب والجزائر ، إذ سارعت أساطيلهم محملة بالجنود والأقوات والأسلحة إلى غرناطة (1) . ثم قامت الجيوش الإسلامية مجتمعة تحت قيادة محمد الخامس بهجوم خاطف على المواقع الاستراتيجية القشتالية المهددة للملكة غرناطة قبل أن يستتب الأمر لذلك القشتالي الجديد هنري دي تراستمارا . واستطاع المسلمون في شعبان سنة 767 هـ (إبريل 366 م) الاستيلاء على حصني برغه bargo ، وباغو prigo ، اللذين كان القشتاليون يغزون منهما مدينة رندة وأحوازها (2) وفي الشهر التالي استولوا على حصن آشر iznajar (3) . المنيع الذي يقع عند نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وإشبيلية ، كذلك استولوا على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق . وقد لعبت الجيوش الجزائرية دوراً بارزاً في احتلال هذا الحصن الأخير (4) .

أما أراجون ، فإنها انتهزت هذه الفرصة ، وشنت هجوماً بحرياً على السواحل الغرناطية ، واستطاعت في ربيع الثاني سنة 768 هـ (أواخر سنة 1366م) أن تأسر سفينة غرناطية متجهة إلى ثغر هنين (5) وعليها هدايا ثمينة أرسلها السلطان محمد الخامس إلى صديقه أبي حمو الثاني ملك تلمسان (1) .

ورأى سلطان غرناطة ، بعد أن ضمن سلامة حدوده ، أن يلجأ إلى الحلول السياسية لمداواة أعدائه ودفع شرهم ، فأرسل سفراءه إلى ملكي أراجون وقشتالة (2) ، مبدياً لهما استعداده لعقد سلم دائم معهما أن توقفا

عن مهاجمته ، ونجحت غرناطة في سياستها إذ فضل كل ن بدرو الرابع ملك أراجون وهنري دي تراستمارا ملك قشتالة قبول هذا العرض مؤقتاً حتى يتفرغا لحل مشاكلهما الداخلية . (2)

وفي خلال ذلك الوقت كان ملك قشتالة المخلوع بدرو الأول يسعى لدى ملكي البرتغال وانجلترا للحصول على معونة عسكرية تعيده إلى عرشه ولم يستطع ملك البرتغال تحقيق رغبته بينما وافق ملك إنجلترا ادوارد الثالث على مساعدته لأن بلاده كانت في حرب مع فرنسا (حرب المائة عام) فأمده بجيش بقيادة ابنه وولي عهده أمير الغال ادوارد الرابع المعروف بالأمير الأسود نسبة إلى لون درعه . وكان هذا الأمير في ذلك الوقت مقيماً في مدينة بوردو محارباً للفرنسيين في بلادهم (1) .

واستطاع الجيش الإنجليزي أن يحرز نصراً كبيراً على الجيوش الفرنسية والأرجوانية المتحالفة في موقعة ناجر najera شمال أسبانيا في شعبان سنة 768 هـ (إبريل 1267 م) (2) وبهذا النصر استعاد الملك بدرو عرشه من جديد ولكنه ظل مع ذلك في حالة حرب مع أخيه وحلفائه . ولقد ساء موقف الملك بدرو بعد ذلك عندما انسحب الأمير الإنجليزي بجيشه من أسبانيا نتيجة لمرضه ولعدم قدرة بدرو على دفع نفقات حملته .

واضطر بدرو أن يطلب مساعدة صديقه محمد الخامس بعد أن أصبح وحيداً في الميدان . ولم يتردد ملك غرناطة في إمداده بألفين من خيرة فرسانه بقيادة أبي الفرج رضوان وكان غرضه من ذلك أن يزيد الحرب اشتعالاً بين الأخوين فيكفا عن مناوأة المسلمين (2) .

ولم يكتف محمد الخامس بذلك ، بل انتهز فرصة انشغال الأخوين بحروبهما ، وقام بهجوم واسع النطاق على قرطبة وجيان سنة 770 هـ (1386 م) . وقد اشترك معه في هذا الهجوم جيش من المتطوعين المغاربة بقيادة شيخ الغزاة الأمير عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن ، وقد أشادت المدونات القشتالية (1) المعاصرة بشجاعة هذا القائد المغربي abenfaluz أي ابن يفلوسن . وذكرت أنه استطاع أن يخترق حصون قرطبة وأنه لولا هطول الأمطار وكثرة الأوحال لتمكن المسلمون من الاستيلاء على عاصمتهم القديمة (2) .

كذلك يشير ابن الخطيب عند كلامه عن الحملة التي شنها الغرناطيون على مدينة جيان jaen سنة 1367 م ، أن صيحة المسلمين في هذه الحرب كانت : " والثارات أهل الإسكندرية " (3) . وهذه الصيحة تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها بالأندلس تلك الغارة الوحشية التي شنها ملك قبرص بطرس لوزجنان lusignan على مدينة الإسكندرية سنة 767 هـ (1365 م) كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات .

وكيفما كان الأمر فإن هذه الحروب التي قامت بين بدرو وأخيه هنري انتهت بهزيمة بدرو ومقتله عند بلدة مونتيل montlel وتولية هنري عرش قشتالة سنة 1369 م . ولما كان هنري إبناً غير شرعي لألفونسو الحادي عشر ، فقد أثارت توليته معارضة ملوك البرتغال ونافارا وإنجلترا ، إذ أن كلا منهم كان يرى نفسه أحق بملك قشتالة من هنري بسبب أواصر القربى التي تربطهم بالأسرة الملكية الشرعية . ولم تلبث هذه المعارضات أن تحولت إلى حروب بين الملك هنري ومعارضيه .

ولقد انتهز السلطان محمد الخامس هذه الفرصة وعقد حلفاً مع ملك البرتغال فرناندو الأول ، ومع سلطان المغرب عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (768 - 774 هـ = 1366 - 1372م) .

على أن يقوم ملك البرتغال بمهاجمة قشتالة من جهة غاليسيا في الشمال (6) ، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب يعاونه في ذلك أسطول سلطان المغرب من جهة البحر (2) ونجحت هذه الخطة ، وسقطت الجزيرة الخضراء في أيدي المسلمين في ذي الحجة سنة 770 هـ (يوليو 1369 م) وإن كان السلطان محمد الخامس قد عمد إلى تدمير حصونها وأسوارها خوفاً من سقوطها في يد العدو مرة أخرى . (1)

ولقد انتهت هذه الأحداث المتشابكة بعقد صلح دائم بين كل من : قشتالة وأراجون وبين غرناطة والمغرب في سنة 771 هـ (1369 - 1370 م) وتبودلت السفارات الودية بينهما .

على أنه يبدو أن انتهاء المشاكل والأخطار الخارجية بالنسبة لغرناطة ، كافة من العوامل التي شجعت وزيرها وراسم سياستها لسان الين بن الخطيب على الفرار إلى المغرب حينما أحس بكثرة السعايات ضده ، وفساد الجو بينه وبين سلطانه . وقد صرح ابن الخطيب نفسه بأنه لم يغادر غرناطة إلا بعد أن وطد أمورها ، وتأكد السلم بينها وبين جيرانها (2) .

غير أنه يلاحظ أن ابن الخطيب كان في أواخر حكمه قد ربط سياسة غرناطة بعجلة فاس ، وحرص على تنفيذ أوامر سطان المغرب عبد العزيز المريني ، وتحقيق رغباته في كل ما يطلبه من غرناطة (3) . وكان هدف ابن الخطيب من وراء ذلك هو سكنى المغرب (4) والاستقرار فيه إذا ما عزل عن منصبه . وقد أثارت هذه السياسة شكوك السلطان محمد الخامس – الذي كان يخشى من أطماع السلطان المريني في بلاده خصوصاً بعد أن ضم المغرب الأوسط إلى ملكه وأصبح قوة يخشى خطرها . ثم جاءت الأحداث بعد ذلك مؤكدة لهذه المخاوف والشكوك ، إذ يقول ابن خلدون : " فأجمع – ابن الخطيب – التحول عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار إليها في لمسة من فرسانه ، فلما حاذى جبل الفتح (1) فرضة المجاز إلى العدوة مال إليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيزأو عز إليه بذلك ، وجهز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (1371 م) بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وإبداء ما كان كامناً في نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايبه . وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن النباهي ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ،

عن ذلك ، وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد " قال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ا كان في جواري ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته (1) ....

ويضيف ابن خلدون بعد ذلك بأن ابن الخطيب حرض السلطان عبد العزيز على ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتوعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ، ونمى ذلك إلى ابن الأحمر (محمد الخامس) فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها (2) .

رغير أن السلطان عبد العزيز لم يعش بعد ذلك طويلاً إذ مات سنة 774 هـ (1372 م) وخلفه ابنه زيان محمد السعيد وكان طفلاً في الرابعة من عمره ، فاستبد بالأمر وزيره أبو بكر بن غازي الذي كان صديقاً لابن الخطيب .

على أن هذا الوضع السياسي الجديد الذي اقتضى إقامة سلطان طفل على عرش المغرب ، قد أتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الأمراء الطامعين في الملك ، وكانت النتيجة أن دبت الفوضى والحروب الأهلية في المغرب ، واستولى بنو عبد الواد على تلمسان والمغرب الأوسط ففقد المغرب بذلك وحدته وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سانحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وأبعاد الخطر المريني عن بلاده . فعمل أولاً على تأييد استقلال بني عبد الواد – أعداء بني مرين – بتلمسان ، ثم ألغى من مملكة غرناطة منصب شيخ الغزاة الذي كان يشغله أحد أمراء بني عبد الحق (أبو بني مرين) وتولى هو وأولاده قيادة الجنود الغزاة أو المتطوعين المغاربة في غرناطة ، ثم أخذ بعد ذلك يتدخل في شؤون العدوة المغربية فبعث ببعض الأمراء المرينيين المقيمين عنده إلى المغرب ملوحاً لهم بالعرش المغربي ومقدماً لهم جميع المساعدات الممكنة .
وواضح أن هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو إثارة الفتن والقلاقل ضد الوزير المستبد بحكم الغرب أبي بكر بن غازي صديق ابن الخطيب .

" أول أمير أرسله سلطان غرناطة ، هو الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن المريني الذي سبق أن سجنه في غرناطة بإيعاز من السلطان عبد العزيز .

ونزل هذا الأمير بساحل غساسه أو بطوية عند مصب وادي ملوية بنواحي مليلة ، واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته وأعلن عن مطالبته بعرش المغرب . وفي نفس هذا الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيوشه إلى جبل طارق الذي كان تابعاً لبني مرين في ذلك الوقت ، فشدد الحصار حوله وحشد جيوشه على السواحل الأندلسية مظهراً العبور إلى المغرب (1) .

وأمام هذا الخطر المزدوج ، رأى الوزير ابن غازي أن يعمل على حماية مدينة سبته ، قفل العدوتين ، من أي هجوم يقع عليها من الأندلس . فأرسل ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس على رأس جيشه كبير لحاية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما في ذلك جبل طارق ، بينما اتجه هو إلى محاربة المطالب بعرش المغرب الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس أن يلجأ إلى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ أغراضه ، فاتصل من جنوب الأندلس بحاكم سبته الجديد محمد ابن عثمان بن الكاس ، واستطاع إقناعه بأن من الخير للغرب وأهله أن يكون سلطانه رجلاً راشداً بدلاً من هذا الطفل الذي لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على إقامة الأمير المريني أبي العباس أحمد بن

أبي سالم سلطاناً على المغرب ، على أن يكون هو – أي ابن الكاس – وزيره في المستقبل ، ووعده بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفي مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن الكاس أن يسلمه ثلاثة أشياء :

1) جبل طارق .

2) لسان الدين بن الخطيب .

3) الأمراء المرينيين .

وتنفيذاً لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق إلى سلطان غرناطة الذي أرسل بدوره جيشاً غرناطياً صحبه الأمير أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس لاحتلال عاصمة المغرب فاس (1) .

وعلم الوزير أبو بكر بن غازي بخيانة ابن عمه محمد بن عثمان ، فأسرع لملاقاته ومنعه من دخول فاس ، ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة 776 هـ (1374م) .

وهكذا أصبح المغرب تحت رحمة الأميرين المرشحين لعرش المغرب : أبي العباس أحمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من أحفاد السلطان أبي الحسن المريني . وبطبيعة الحال قام نزاع بين هذين الأميرين حول أحقية كل منهما في عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة إلى التدخل بينهما لتسوية هذا النزاع ، فطلب من عبد الرحمن الخضوع لأبي العباس ومساعدته في احتلال فاس على أن يستقل هو بحكم عاصمة المغرب الثانية مراكش .

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقي للمغرب يولي ويعزل من يراه من أمراء بني مرين . وكان طبيعياً أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على غريمه لسان الدين وقتله وحرقه بعد امتحانه وتعذيبه ومصادرة أمواله وضياعه وذلك سنة 776هـ (1374 م) (1) .

ولم يكد السلطان أبو العباس أحمد تستقر له الأمور في فاس حتى طمع في توحيد ملك بني مرين تحت سلطانه ، فدخل في صراع طويل مع منافسه عبد الرحمن بن يفلوسن سلطان مراكش ، وانتهى الصراع بين هاتين العاصمتين بانتصار فاس على مراكش ومقتل عبد الرحمن سنة 784 هـ (1382م) .

ولم يكتف أبو العباس بهذا النصر الذي جعله سلطاناً بدون منازع على جميع المغرب الأقصى ، بل اتجه بصره نحو المغرب الأوسط يريد ضمه إلى ملكه كما كان الحال في عهد آبائه . واستنجد سلطان تلمسان أبو حمو الثاني بسلطان غرناطة محمد الخامس الذي كان يحرص بدوره على بقاء المغرب الأوسط مستقلاً عن نفوذ المرينيين . ولهذا حاول سلطان غرناطة إقناع سلطان فاس بترك مشاريعه التوسعية في المغرب الأوسط ولكن دون جدوى واستولى أبو العباس على تلمسان وفر صاحبها أبو حمو إلى الصحراء . وكان رد سلطان غرناطة على هذا العمل ، أن أرسل إلى سبتة أميراً مرينياً من أبناء أبي عنان يدعى موسى ، وزوده بالرجال والأموال والأسلحة كما أرسل معه كوزير له مسعود بن ماساي ، واستطاع موسى أن يحتل العاصمة فاس ويعلن نفسه سلطاناً على المغرب سنة 786 هـ (1384م) كما أعلن في الوقت نفسه أن مدينة سبتة تابعة لسلطان غرناطة . (1) أما أبوالعباس فإنه لم يلبث أن قبض عليه في تلمسان ، وأرسله أسيراً إلى غرناطة حيث عامله السلطان محمد الخامس معاملة كريمة حسنة .

ولم يعش السلطان موسى أكثر من سنتين ، إذ مات سنة 788هـ (1386) ، وحاول سلطان غرناطة أن يقيم مكانه أميراً مرينياً آخر يدعى بالواثق ، ولكن الوزير مسعود بن ماساي ثار على هذا الوضع وقبض على هذا السلطان الجديد وعلى جميع من معه من الجنود الغرناطيين ورفض أن يطلق سراحهم إلا بعد تسليم سبتة . ورد سلطان غرناطة على هذا التهديد بأن أرسل المغرب السلطان المخلوع أبا العباس أحمد ليكون سلطاناً للمرة الثانية ، وأرسل معه جيشاً أندلسياً بقيادة أحد قواده البارزين ، وهو أبو الفرج رضوان الذي سبق له أن اشترك هو وفرسانه في صفوف ملك قشتالة بدور الأول ضد أخيه هنري وحلفائه الأراجونيين والفرنسيين واستطاع أبو العباس بهذه القوة الغرناطية أن يستولي على فاس ويقتل الوزير ابن ماساي ويعلن نفسه سلطاناً على المغرب سنة 789 هـ (387 م) . (1)

ولقد حرص السلطان أبو العباس في هذه المرة على أن يوطد علاقاته مع سلطان غرناطة ، فأخذ يتبادل معه الهدايا والسفارات ، ويفهم من قصيدة للشاعر الغرناطي المعاصر عبد اللن بن زمرك (ت 796 هـ) ، أن السلطان محمد الخامس زار مدينة سبتة (2) في خلال هذه الفترة مما يدل على قوة نفوذه في منطقة المضيق .

ثم توفى محمد الخامس الغني بالله سنة 793 هـ (1391 م) وخلفه على عرش غرناطة ابنه يوسف الثاني ولا شك أن هذه الوفاة قد أثارت مطامع أبي العباس القديمة ، فيشير السلاوي إلى أنه استطاع مد نفوذه إلى تلمسان بالمغرب الأوسط ، وأنه يطمع في مملكة غرناطة نفسها ، ولكنه مات قبل أن يدرك غرمنه سنة 796 هـ (1293 م) (1)

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب عدد من ملوك بن مرين ، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم وحيطهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم فعاشوا عيشة ترف ولهو . ومن تصاريف القدر العجيبة أنه في الوقت الذي أخذ الضعف فيه يدب إلى كل من غرناطة وفاس ، كانت القوة قد بدأت تتجمع في كل من أسبانيا والبرتغال .

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حربية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد الملك خوان الأول (1385 - 433 م) مؤسس أسرة أفيس avis (2) التي حكمت البرتغال بعده . ولقد أبدى هذا الملك اهتماماً خاصاً بالبحرية والأساطيل ، واحتلال القواعد البحرية التي تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة في منطقة المضيق .

وانتهز هذا الملك فرصة اضطراب الأحوال في المغرب ، وهاجم بنفسه مدينة سبتة ceuta بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة ، واستولى عليها وعلى منطقة جباله في أغسطس سنة 1415 م (818هـ) ، وفر حاكمها المدعو صلاح بن صلاح ، وقام أمكانه حاكماً من قبله اسمه بدور منسس fedro meneses .

وذكر محمد القادري في كتابه نشر المثاني ، قصة في كيفية استيلاء لبرتغاليين على سبته ، تشبه قصة قيصر (1) مع الزباء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسة كعادة المعاهدين ، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد (2)

وحاول المسلمون استعادة هذه القاعدة الهامة سنة 1419 م (822 هـ) ، فهاجمها سلطان المغرب أبو سعيد المريني من البر ، بينما هاجمها سلطان غرناطة محمد الثامن من البحر ، ولكن البرتغاليون تمكنوا من إحباط هذه المحاولة .

وولى بعد خوان الأول ابنه الأكبر أدوارد duarte سنة 1433م الذي حاول احتلال طنجة ، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون فرناندو ، ودون هنري سنة 1437 م (841 هـ) ونزلت الحملة في مدينة سبتة ثم اتجهت إلى طنجه ، وهاجمها هنري من ناحية البر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر (1) . وخشي المسلمون أن تتكرر مأساة سبتة من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت . وكان سلطان المغرب في ذلك الوقت طفلاً صغيراً يدعي عبد الحق بن أبي سعيد المريني ، ويدير شئون دولته وزيره أبو زكريا يحيى الوطاسي المعروف بأبي زكري . ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجة في إرسال الإمدادات إلى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة إلى الانسحاب إلى سبته ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطريقها وأسر الأمير فرناندو وعدد كبير من البرتغاليين . واشترط المغاربة في مقابل إطلاق سراح الأسرى ، أن ينسحب البرتغاليون من سبتة . ورأى ملك البرتغال أن تسليم سبته تضحية لا تقدر بثمن ، ولهذا رفض هذا العرض ، وبقي أخوه فرناندو في الأسر إلى أن مات بفاس في 5 يونيو سنة 1443م . (2)

وفي خلال ذلك الوقت ولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس الذي سار على سياسة أسلافه التي ترمي إلى السيطرة على مضيق جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة .

ملحق

جغرافية الباز الاشهب

قراءة ثانية في سيرة الشيخ عبدالقادرالكيلاني، وتحقيق محل ولادته وفق منهج البحث التاريخي

د/جمال الدين فالح الكيلاني

ان وقائع التاريخ الكبرى عائمات جليد طرفها ظاهر فوق الماء ، وكتلتها الرئيسية تحت سطحه ومن يريد استكشافها عليه أن يغوص في الأعماق (جان جاك روسو).

ما علمنا فيما بلغنا من التقات الناقلين وكرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، كان شيخ السادة الشافعية و السادة الحنابلة ببغداد وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر وانتهى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق وتتلمذ له خلق لا يحصون عدداً من أرباب المقامات الرفيعة، وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالتبجيل

والإعظام ،والرجوع إلى قولة والمصير إلى حكمه، وأُسرع إليه أهل السلوك – التصوف – من كل فج عميق. وكان جميل الصفات شريف الأخلاق كامل الأدب والمروءة كثير التواضع دائم البشر وافر العلم والعقل شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه معظما لأهل
العلم مُكرّماً لأرباب الدين والسنة، مبغضاً لأهل البدع والأهواء محبا لمريدي الحق مع دوام المجاهد ولزوم المراقبة إلى الموت. وكان له كلام عال في علوم المعارف شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله سبحانه وتعالى سخي الكف كريم النفس على أجمل طريقة .وبالجملة لم يكن في زمنه مثله رضي الله عنه
(الامام النووي)

جيلان هي قرية تاريخية
عراقية تابعة لمدينة المدائن قرب بغداد.

==التاريخ==

ذكرتها عشرات المصادر والمراجع التاريخية والجغرافية وكتب البلدانيين العرب واليها نسب العديد من الأعلام ولعل من أهمهم الشيخ *عبد القادر الجيلاني* في (470 هـ 561 –هـ(، الإمام الصوفي والفقيه الحنبلي ، الذي يوصف بـ "تاج العارفين "و"محيي الدين" و"الباز الاشهب". إليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية والذي ساهم في اعداد جيل صلاح الدين الذي حرر القدس الشريف من الصليبيين.

))هو أبو صالح السيد محي الدين عبد القادر الجيلاني بن السيد أبي صالح موسى بن السيد عبد الله الجيلي بن السيد يحيى الزاهد بن السيد محمد المدني بن السيد داود الامير بن السيد موسى الثاني بن السيد عبد الله أبي المكارمبن السيد موسى الجونبن السيد عبد الله المحضبن
السيد الحسن المثنىبن السيد الإمام الحسن السبطبن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب زوج السيدة البتول فاطمة الزهراءبنت رسول الله
محمد صلى الله عليه وسلم. فبينه وبين فاطمة الزهراء أحد عشر أبا.((

،ولاصحة لولادته في جيلان الطبرستان ،لان اغلب من ذكرها اعتمد على رواية واحدة رددت بدون تدقيق او تحقيق، ويؤكد نسبته الى جيل العراق، عدد من المؤرخين منهم صاحب مخطوطة*مهجة البهجة ومهجة اللهجة * والعلامة مصطفى جواد في كتابة اصول التاريخ والادب والمؤرخ حسين علي محفوظفي مخطوطاته والدكتور ناجي معروف في مقالته جيلان العراق وسكانها وهي مخطوطة عند طلابه وتحدث عنها الدكتور يوسف زيدان

في كتابه) عبد الكريم الجيلي (والدكتور خاشع المعاضيدي في كتابه اعالي الرافدين ، وتؤكد المصادر إلى أن الشيخ عبد القادر لم يكن مهتم بموضوعة الاصل والفصل وهذا معروف مما فتح الباب لان ينسب لطبرستان والامام لم يعلق على ذلك شانه شان موضوعة نسبه –مما يتناسب وشخصيته كما يقول العلامة مصطفى جواد في تعليقه على كتاب تكملة اكمال الاكمال.

يقول الجغرافي ياقوت في معجم البلدان والجيل قرية من اعمال بغداد تحت المدائن بعد زرارين ويسموها الكيل وقد سماها ابن الحجاج –الكال– قال))لعن الله ليلتي بالكال – انها ليلة تعر الليالي ((وقال اذا نسب الى البلاد قيل جيلاني واذا نسب الى رجل منهم قيل جيلي ، وقال صاحب مخطوطة) مهجة البهجة ومحجة اللهجة (وجيل قرية بشاطىء الدجلةعلى مسيرة يوم واحد من بغداد تحت المدائن مما يلي طريق واسط العراق واليها وفيها ولد شيخ الإسلام عبد القادر ،واغلب سكانها من الاكراد النازحين من كردستان الكبرى المترامية الاطراف وبالذات من قبيلة بشدر،وهذا ما اورده المؤرخ عباس العزاوي في تعليقاته على رحلة المنشي البغدادي،وهذا يعلل تعلق الاكراد به ،وطبعا هذا لايتعارض، باي حال من الاحوال، مع نسبه الحسني العريق.

ولقد نعتته المصادر القديمة اجمع بالجيلي وهي نسبة جيلان العراق، ومن الجدير بالذكر ان هناك العديد من المناطق في العالم تحمل اسم جيلان منها جيلان العراق وجيلان إيران وجيلان أفغانستان وجيلان تركيا وجيلان كوسوفو وجيلان مصر،بل ان من ينسبه الى جيلان الطبرستان يتردد الى اي قصبة منها بالتحديد ينسب فمرة الى نيف ومرة الى بشتير وغيرهما،مما يدل على ان الموضوع مرتبك اصلا عند القدامى، ومن يتصفح مخطوطة تاريخ شيخ الاسلام عبدالقادر للدروبي يطلع على روايات مختلفة في مكان الولادة ،مع ترجيح واضح لرواية جيل العراق،ومن يتابع سيرة الامام عبدالقادر ،يعرف انه قضى اغلب سياحاته وايامه الاولى في جيل العراق ،ومن المؤكد انه ليس للصدفة دور في ذلك ،بل دليل على ارتباطه بهذه بالارض،ويؤكد علاء اللامي في كتابه السرطان المقدس نقلا عن استاذه هادي العلوي،ان كلمة الجيلي،تحرفت الى الكيلاني ،في العصور المتاخرة ،وان جل مصادر تاريخ تذكر لقبه الجيلي لاغيره ،كابن الجوزي وهو معاصر له وابن الاثير وابن كثير وابن شاكر ،ومن المهم ان السيد شرف الدين الكيلاني في كتابه تاريخ النقباء يؤكد انه منسوب الى جيل العراق، ولكنه يرجع ويقول انه نسب اليها لقضائه اوقاتا طويله فيها لا لولادته فيها ،وهذا ما لايتناسب مع منهج البحث ولا يقبله المنطق ،ومن المستشرقين اشارت البروفيسورة جاكلين شابي الاستاذه في السوربون اشارة واضحة الى وجود رواية واضحة تشير الى انه ولد في بلاد الرافدين ومن هنا يتجلى لنا وبوضوح تام ان الامام عبدالقادر عراقي الولادة والوفاة وهذه، حقيقة تاريخية – جغرافية ،قائمة على منهج البحث التاريخي ،وهو ما تعتمده الاسرة الكيلانية كرواية رسمية لها في تاريخ الاسرة المتوارث جيل عن جيل.

*ولقد ذكر العلامة سالم الالوسي ، ان الرئيس السابق احمد حسن البكر في بداية حكمه ، طالب إيران باسترجاع رفات الخليفة هارون الرشيد ، كونه رمز لبغداد في عصرها الذهبي،وذلك بدعوة من المرحوم عبدالجبار الجومرد الموصللي، الوزير السابق في عهد عبدالكريم قاسم ،وصاحب كتاب هارون الرشيد ، ولكن إيران امتنعت ،وبالمقابل طالبت استرجاع رفات الشيخ عبدالقادر الكيلاني ،كونه من مواليد كيلان إيران ،وعندها طلب الرئيس من العلامة مصطفى جواد ،بيان الامر ،فاجاب مصطفى جواد : ان المصادر التي تذكر ان الشيخ عبد القادر مواليد كيلان إيران ،مصادر تعتمد رواية واحدة وتناقلتها بدون دراسة وتحقيق ،اما الاصوب فهو من مواليد قرية تسمى (جيل) قرب المدائن ،ولاصحة كونه من إيران او ان جده اسمه جيلان ، وهو ما اكده العلامة حسين علي محفوظ في مهرجان جلولاء الذي اقامه اتحاد المؤرخين العرب وكان حاضرا الالوسي ايضا سنة 1996،وفعلا اخبرت الدولة الإيرانية بذلك ولكن بتدخل من دولة عربية ،اغلق الموضوع.

.انظر جبل العراق، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبوعبد الله ياقوت بن عبد الله
البغدادي(ت626هـ/1228م)، معجم البلدان،ج2، دار صادر، بيروت،1977، ص49وابن شاكر
الكتبي فوات الوفيات ج4 ص2 وحاجي خليفة كشف الظنون ج2 ص340 ويوسف زيدان
تحقيقه للديوان و كتابه عبدالكريم الجيلي الهيئة المصرية للكتاب القاهرة
1988ص15وخاشع المعاضيدي من بعض انساب العرب بغداد1990ج2ص77 وابراهيم الدروبي
المختصر في تاريخ شيخ الاسلام طبع باكستان ص15والمستشرقة جاكلين
شابي،عبد القادر الجيلاني بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الادبية ،ترجمة سحلول
،بيروت2003 12 وعباس العزاوي ،رحلة المنشي البغدادي ، الباب الثالث،ص36,
بغداد1959،شرف الدين الكيلاني ،تاريخ النقباء ،طبع بيروت ،ص28 والمؤرخ التركي
شمس الدين سامي، كتاب قاموس الاعلام،ج4 ص3087.
وانظر مواقع النت المتعددة التي ترجمت لكل من مصطفى جواد وحسين علي محفوظ
وسالم الالوسي ،وهم اعلام المؤرخين في العراق في العصر الحديث و حجة في
الاختصاص.

.

- المصدر كتاب :الشيخ عبدالقادرالكيلاني رؤية تاريخية معاصرة ،دكتور جمال الدين فالح الكيلاني ،تقديم الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف،مؤسسة مصر مرتضى،بغداد.

-

الديار اللندنية2012/1/22

قائمة المصادر

- ❖ إبن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت630هـ) .

الكامل في التاريخ ، ط10،2ج، (تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

- ❖ الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب، (ت748هـ) .

الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ط1، (حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمد عيسى صالحية)، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، 1988.

- ❖ الإسنوي، جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت772هـ).

طبقات الشافعية، ط1، 2ج، (تحقيق كمال يوسف الحوت)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

- ❖ إبن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت 668هـ) .

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، (شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا).
دار مكتبة الحياة، بيروت،(د. ت.).

- ❖ الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ) .

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط1،10ج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

- ❖ الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر(ت 340 هـ) .

كتاب فيه معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين، (تحقيق خديجة محمد كامل)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1998.

- ❖ إبن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779 هـ) .

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ط4،2ج، (تحقيق الدكتورعلي المنتصر الكتاني)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405 هـ.

- ❖ البنداري، الفتح بن علي (ت 643 هـ).

سنا البرق الشامي، وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني المتوفى سنة 597 هـ، ط (بدون)، (تحقيق دكتورة فتحية النبراوي)، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1979.

- ❖ التادفي، محمد بن يحيى الحنبلي (ت 963 هـ) .

قلائد الجواهر في مناقب تاج الأولياء ومعدن الأصفياء وسلطان الأولياء الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني، ط2، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ، 2004 م .

- ❖ التلمساني، أحمد بن محمد المقري (ت 1041هـ).

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط بدون، 8ج، (تحقيق الدكتور احسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1988.

❖ إبن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي (ت 728 هـ).

الخلافة و الملك، ط2، ج1، (تحقيق حماد سلامة و مراجعة الدكتور محمد عويضة). مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1994م.

❖ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) .

البيان و التبيين، ط7، 4ج، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998 .

الحيوان، ط2، 8ج، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ج1-ج1965/3، ج1966/4، ج5 /غير متوفر، ج1967/6، ج1968/7، ج8 /1969.

❖ الجامي، الملا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت 898 هـ).

نفحات الأنس من حضرات القدس، ط1، 2ج، 2م، (تحقيق محمد أديب الجادر)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003 .

❖ ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسي، (ت 614هـ).

رحلة ابن جبير، (د. ط.)، 1 ج، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، مصر، (د. ت.) .

❖ إبن أبي جرادة ، كمال الدين عمر بن أحمد (إبن العديم) (ت 660 هـ) .

بغية الطلب في تاريخ حلب، ط1، 10 ج، (تحقيق الدكتور سهيل زكار). دار الفكر، بيروت، 1988.

زبدة الحلب من تاريخ حلب، ط1،2 ج،2م، (حققه وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة ، 1997.

❖ إبن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ) .

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1،10ج، دار صادر، بيروت، 1358هـ.

صيد الخاطر، ط1، (تحقيق عبد القادر أحمد عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

تلبيس إبليس، (د. ط.)، 1 ج، (تصحيح و تعليق ادارة الطباعة المنيرية). دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.).

صفة الصفوة، ط 2، 4ج، (تحقيق محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي)، دار المعرفة، بيروت، 1979.

شذور العقود في تاريخ العهود، ط 1، 1 ج، (دراسة وتحقيق أبي الهيثم الشهبائي، الدكتور أحمد عبد الكريم نجيب)، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، (د. م.)، 2007م .

❖ الجيلاني، محي الدين أبو صالح عبد القادر بن موسى (ت 561 هـ) .

الغنية لطالبي طريق الحق، ط1، 2ج، 1م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت.) .

الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ط1، (ضبطه و قدم له الدكتور محمد الصباح)، دار مكتبة الحياة، (بدون بلد)، 1995م.

فتوح الغيب، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2004م.

❖ حاجي خليفة ، (ت 1067 هـ) .

كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، ط(بدون)، 2ج، (عني بتصحيحه وطبعه وتعليق حواشيه محمد شرف الدين يالتقايا، المعلم رفعت بيلكه الكليسي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت.) .

❖ إبن الحنبلي، أبو الفرج ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الأنصاري (ت 634).

الإستسعاد بمن لقيته من صالحي العباد في البلاد، في: شذرات من كتب مفقودة من التاريخ، استخرجها وحققها الدكتور احسان عباس، 2ج ، (ج1، ط 1) (ج2 ، ط3). دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

❖ الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ).

تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ط1، 14ج، يلحقه ذيول بارقام اخرى، (دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

❖ إبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) .

المقدمة، وهو الجزء الأول من كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978.

❖ إبن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، (ت 681 هـ) .

وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، ط (بدون)، 8ج، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، (ج5، ج8 /1977)، و باقي الأجزاء (د. ت.).

❖ إبن الدمياطي، أبو الحسين أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي، (ت 749 هـ).

المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للحافظ إبن النجار البغدادي، ط1، 1ج، 1م، (دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، منشور مع كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في المجلد رقم 21، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

❖ إبن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي، (ت281هـ).

الأولياء، ط 1، (تحقيق محمد السعيد بن بسيوني الزغلول)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993.

❖ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت 748 هـ).

المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله بن الدبيثي (ت 637 هـ)، ط1، 3ج، 1م، (دراسة و تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، منشور مع كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في المجلد رقم 15، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

العبر في خبر من غبر، ط1، 4ج، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول)،دار الكتب

العلمية، بيروت، 1985.

تاريخ الإسلام و و فيات المشاهير و الأعلام، ط 1(عدا ج1، ج 9: ط2)، 52ج وذيل، (تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1988 – 2000.

- الرفاعي، أحمد بن علي، (ت 578 هـ).

البرهان المؤيد، ط (بدون)، 1 ج، (جمع و تحقيق إبراهيم الرفاعي)، دار آل الرفاعي، دار التراث العربي، قنا – مصر، (د. ت.).

- ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، (ت 795 هـ).

الذيل على طبقات الحنابلة، ط (بدون)، 2ج، 1م، (تصحيح محمد حامد الفقي)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952.

- ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين الخازن (ت 674 هـ).

الجامع المختصر في عنوان التواريخ و عيون السير، (الجزء التاسع و هو من تاريخ بلغ فيه مؤلفه إلى سنة 656 هـ)، (عني بنسخه ونشره وإصلاح تصحيفه وتعليق حواشيه وعمل فهارسه، مصطفى جواد)، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، 1934م.

مختصر أخبار الخلفاء، ط (بدون)، 1 ج، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1309هـ.

- سبط إبن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي، (ت654هـ).

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط 1، (القسم الأول من الجزء الثامن1وقايع سنة 495 – 589هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند، 1951.

- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت 771 هـ) .

طبقات الشافعية الكبرى، ط2، 1 ج، (تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الدكتور محمود محمد الطناحي)، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، 1992 م .

معيد النعم و مبيد النقم، ط2، (تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمد بوالعيون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993.

- السراج، أبو نصر عبد الله بن علي الطوسي، (ت 378 هـ).

اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ط1، (ضبطه وصححه كامل مصطفى الهنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.

- السلامي، أبو المعالي محمد بن رافع، (ت 774 هـ).

تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار، ط2، ج1، (صححه وعلق حواشيه المحامي عباس العزاوي)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2000م.

- السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد، (ت 412هـ).

ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، **ط1،1 ج، (تحقيق الدكتور محمود الطناحي)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1993.**

الفتوة، ط 1، (تحقيق الدكتور إحسان ذنون الثامري، و الدكتور محمد عبد الله قدحات)، دار الرازي، عمان، 2002م.

طبقات الصوفية، ط 3، 1ج، (تحقيق نور الدين شريبة)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

❖ السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، (ت 562 هـ).
الأنساب، ط 1، 5ج، (تقديم و تعليق عبد الله عمر البارودي)، دار الجنان، بيروت، 1988.

❖ السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد، (ت 632هـ).

كشف الفضائح اليونانية و رشف النصائح الإيمانية، ط1، (تحقيق وتعليق الدكتورة عائشة يوسف المناعي)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 1999م.

عوارف المعارف، ط2، (ضبطه وصححه محمد عبد العزيز الخالدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005 م.

❖ السهروردي، ضياء الدين أبو النجيب عبدالقاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه،(ت 563 هـ).

آداب المريدين، ط (بدون)، (تحقيق طه عبد الرؤوف سعد)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د. ت.).

❖ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت 911هـ).

حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، ط 1، 2ج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967م.

❖ أبوشامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي، (ت 665 هـ).

تراجم رجال القرنين السادس و السابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2، 1ج، (صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره و راجع أصله عزت العطار الحسيني)، دار الجيل، بيروت، 1974م.

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية، ط1، 4ج، (تحقيق ابراهيم الزيبق)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.

❖ إبن شاهنشاه ، محمد بن تقي الدين عمر، (ت 617 هـ) .

مضمار الحقائق و سر الخلائق، ط 2، (تحقيق الدكتور حسن حبشي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005 م.

❖ الشريف الجرجاني، علي بن محمد، (ت 816 هـ).

كتاب التعريفات، ط (بدون)، 1ج ، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م .

❖ الشطنوفي، نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن اللخمي، (ت 713هـ).

بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني، ط 1، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ، 2001 م.

❖ الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشافعي المصري، (ت 973هـ).

الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ط 1، 2ج، 1م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء – المغرب، 1999م.

❖ إبن الصابوني، جمال الدين أبو حامد محمد بن علي المحمودي، (ت 680 هـ).

تكملة إكمال الإكمال، ط (بدون)، 1 ج، (حققه وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد)، المجمع العلمي العراقي، بغداد، (د. ت.) .

❖ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت 764 هـ) .

الوافي بالوفيات، ط 1، 29ج، (تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى)، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2000م.

نكت الهميان في نكت العميان، ط 1، 1 ج، (تحقيق الأستاذ أحمد زكي بك)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، 2007م.

❖ الطرسوسي، أبو عمروعثمان بن عبد الله بن إبراهيم (ت هـ).

سير الثغور، في: **شذرات من كتب مفقودة من التاريخ**، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ،2 ج، (ج 1: ط 1)،(ج 2 : ط 3)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد المالكي، (ت 520 هـ). **سراج الملوك**، ط (بدون)، 1 ج، مطبعة بولاق، مصر، 1872م.

❖ العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، (ت 1162 هـ).

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط 3، 2 ج، دار **الكتب العلمية**، بيروت، 1988م.

❖ ابن عجيبة، أحمد بن محمد، (ت 1224 هـ).

إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري، ط (بدون)، 1 ج، دار الفكر، بيروت، (د. ت.) .

الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي، منشور مع كتاب: ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري، ط (بدون)، 1 ج، دار الفكر، بيروت، (د. ت.) .

❖ ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي، (ت 571 هـ).

تاريخ مدينة دمشق، ط 1، 80 ج، (دراسة و تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي)، دار الفكر، بيروت، 1995 - 2000.

❖ ابن عقيل، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي الحنبلي، (ت 513هـ).

التعليقات المسماة كتاب الفنون، ط (بدون)، 2 ج، (حققه و قدم له و علق عليه جورج مقدسي)، دار المشرق، بيروت، 1970 – 1971م.

❖ إبن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، (ت 1089هـ).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، 11 مجلد، (تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط)، دار إبن كثير، دمشق، 1986 – 1993م.

❖ العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ، (ت 749 هـ).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط(بدون)، السفر الثامن طوائف الفقراء الصوفية، (تحقيق بسام محمد بارود)، المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، 2001 م.

- ❖ الغزالي، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت505 هـ).

أصناف المغرورين، ط (بدون)، 1 ج، (دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور)، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986م.

المنقذ من الضلال، في: مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط 1، 1 ج، دار الفكر، بيروت، 2003.

روضة الطالبين و عمدة السالكين، في : مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط 1، 1 ج، دار الفكر، بيروت، 2003.

- ❖ إبن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن نور الدين علي المالكي، (ت 799هـ).

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ط 1، ج 1، (دراسة و تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

- ❖ إبن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف بإبن الفوطي الحنبلي، (ت 723 هـ) .

تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، (الجزء الرابع: الأقسام الأول والثاني والثالث في ثلاثة مجلدات)، (تحقيق الدكتور مصطفى جواد)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، القسم 1: 1962، القسم 2: 1963، القسم3: 1965. 1962 – 1965م.

- ❖ إبن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الدمشقي، (ت 851 هـ).

طبقات الشافعية، ط 1، 4 ج، (اعتنى بتصحيحه و علق عليه ورتب فهارسه الدكتور الحافظ عبد العليم خان)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدراباد الدكن، الهند، 1979 – 1980م.

- ❖ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت 674 هـ).

آثار البلاد و أخبار العباد، ط (بدون)، 1 ج، دار صادر، بيروت، (د. ت.).

- ❖ القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، (ت 465 هـ). **الرسالة القشيرية**، ط (بدون)، 1 ج، دار التربية، بغداد، (د. ت.).
- ❖ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت 821 هـ).

صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ط (بدون)، 14ج، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

- ❖ إبن الكازروني، ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، (ت697 هـ). **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، ط (بدون)، 1ج، (حققه وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد)، وزارة الإعلام، بغداد، 1970م.
- ❖ الكاشاني، عبد الرزاق بن أحمد، (ت 736 هـ).

رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، ط (بدون)، 1ج، (تحقيق و تقديم سعيد عبد الفتاح)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ، 1995م.

- الكتبي، محمد بن شاكر، (ت764هـ) .

فوات الوفيات و الذيل عليها، ط (بدون)، 5ج، (تحقيق الدكتور احسان عباس)،دار صادر، بيروت، (د. ت.).

- إبن كثير، الحافظ أبو الفداء اسماعيل الدمشقي، (ت774 هـ).

البداية والنهاية، ط 1، 14 ج، (تحقيق علي شيري)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

- الكلاباذي ، تاج الاسلام أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري، (ت 380هـ).

التعرف لمذهب أهل التصوف، ط (بدون)، 1ج، (تحقيق و تقديم الدكتور عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ،1960.

- مجهول، (مؤلف من القرن الثامن الهجري).

كتاب الحوادث، وهو الكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة و التجارب النافعة والمنسوب لإبن الفوطي، ط 1، 1 ج، (حققه و ضبط نصه و علق عليه الدكتور بشار عواد معروف، الدكتور عماد عبد السلام رؤوف)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.

- أبو مدين، شعيب بن الحسين، (ت 594 هـ) .

أنس الوحيد و نزهة المريد، (وهو ملحق بكتاب عنوان التوفيق في آداب الطريق لإبن عطاء الله السكندري)، ط 1، 1 ج، (تحقيق الدكتور خالد الزهري)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

- ابن المعمار، أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم البغدادي الحنبلي، (ت 642هـ).

كتاب الفتوة ، ط1، 1ج، (حققه و نشره الدكتور مصطفى جواد، الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، الدكتور عبد الحليم النجار، أحمد ناجي القيسي)، مكتبة المثنى، بغداد، 1958.

- المقدسي، المطهر بن طاهر، (ت نحو 355 هـ).

البدء و التاريخ ، ط (بدون)، 6ج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت.).

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ) .

المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ط 1، 3 ج، (تحقيق الدكتور محمد زينهم، مديحة الشرقاوي)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م.

- إبن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي المصري، (ت 804 هـ).

طبقات الأولياء، ط2، 1ج، (تحقيق نور الدين شريبة)، دار المعرفة، بيروت، 1986م.

- المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، (ت 1031 هـ).

الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوي الكبرى، ط (بدون)، 4ج، 2م، (تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (د. ت.) .

- إبن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي، (643هـ).

ذيل تاريخ بغداد، ط 1، 5 ج، 5 م، (دراسة و تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، منشور مع كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في المجلدات الخمسة ذوات الأرقام 16، 17، 18، 19، 20، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

❖ نظام الملك ، الحسن بن علي الطوسي، (ت 485 هـ).

سياست نامه أو سير الملوك، ط 2، 1 ج، (ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار)، دار الثقافة، الدوحة – قطر، 1987.

❖ إبن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الغني الحنبلي البغدادي،(ت 629 هـ).

كتاب التقييد لمعرفة الرواة و السنن و المسانيد، ط1،2 ج، (تصحيح وتعليق ألطاف حسين، تنقيح محمد عظيم الدين)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن – الهند، 1983م.

❖ الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان الغزنوي، (ت 465 هـ).

كشف المحجوب، ط (بدون)، 1 ج، (دراسة وترجمة و تعليق دكتورة سعاد عبد الهادي قنديل)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1974.

❖ الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، (ت611هـ).

الإشارات الى معرفة الزيارات، ط 1، ج 1، (تحقيق الدكتور علي عمر)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م.

❖ اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني المكي، (ت 768 هـ) .

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط1،4 ج، (وضع حواشيه خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية الملقب كفاية المعتقد ونكاية المنتقد،ط2، 1ج، (تحقيق وتصحيح ابراهيم عطوه عوض)، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1990م.

روض الرياحين في حكايات الصالحين، ط (بدون)، 1ج، (تحقيق محمد عزت)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د. ت.).

❖ ياقوت الحموي، (ت 626هـ).

معجم الأدباء ارشاد الأريب الى معرفة الأديب، ط1، 7ج، (تحقيق الدكتور احسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

معجم البلدان، ط (بدون)، 5 ج، دار الفكر، بيروت، (د. ت.).

قائمة المراجع العربية و المترجمة / الكتب

المراجع العربية

- البغدادي، السيد محمد سعيد الراوي (ت 1354 هـ/1936 م)، (1997).

تاريخ الأسر العلمية في بغداد، ط 1، 1 ج، (حققه وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف)، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام (دار الشؤون الثقافية العامة).

- الجالودي، عليان عبد الفتاح محمد، (1996).

تطور السلطنة و علاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي (447 هـ/ 1055 م – 590 هـ / 1193 م). رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

- جواد، الدكتور مصطفى، وسوسة، الدكتور أحمد، (1958).

دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، ط (بدون)، 1 ج، بغداد: المجمع العلمي العراقي.

- الحسين، الدكتور قصي، (1993).

من معالم الحضارة العربية الاسلامية، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

- حسين، يحيى أحمد عبد الهادي، (1992).

الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير (575 – 656 هـ). رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية، عمان.

- الدسوقي، عمر، (د. ت.).

الفتوة عند العرب، ط (بدون)، 1 ج، القاهرة: مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

- الدوري، الدكتور عبد العزيز، (2007).

دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ط 1، 1 ج، (سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عبد العزيز الدوري رقم 4)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- السوداني، مزهر عبد، (1980).

الشعر العراقي في القرن السادس الهجري، ط (بدون)، 1 ج، بغداد: دار الرشيد للنشر.

- عفيفي، الدكتور أبو العلا، (1963).

التصوف الثورة الروحية في الإسلام. ط 1، 1 ج، القاهرة: دار المعارف.

- العمادي، الدكتور محمد حسن عبد الكريم، (1997 او بعدها).

خراسان في العصر الغزنوي، ط (بدون)، 1 ج، اربد – الاردن : مؤسسة حماده للخدمات والدراسات الجامعية ودار الكندي للنشر و التوزيع.

- عواد، كوركيس، (1986).

خزائن الكتب القديمة في العراق منذ اقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة، ط 2، 1 ج،

بيروت: دار الرائد العربي.

- الكيلاني، الدكتور ماجد عرسان، (2002).

هكذا ظهر جيل صلاح الدين و هكذا عادت القدس، ط 3، 1 ج، دبي - الامارات العربية المتحدة: دار القلم للنشر والتوزيع.

- محبوبة، دكتور عبد الهادي محمد رضا، (1999).

نظام الملك الحسن بن علي بن إسحق الطوسي (408 / 485 هـ) كبير الوزراء في الأمة الإسلامية : دراسة تاريخية في سيرته و أهم أعماله خلال استيزاره، ط 1، 1 ج، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

- محمد، الدكتور عبد العزيز، (د. ت.).

الفتوة في المفهوم الاسلامي: دراسة في الاخلاق الاسلامية، ط (بدون)، 1ج، الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

- مجموعة من الباحثين، (2000).

بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

- النجار، الدكتور عبد المجيد، (1983).

المهدي بن تومرت: حياته و آراؤه و ثورته الفكرية و الاجتماعية وأثره

بالمغرب، (رسالة دكتوراة منشورة). ط 1، بيروت: دار الغرب الاسلامي.

المراجع المترجمة الى العربية

- بروكلمان، كارل، (1968).

تاريخ الشعوب الاسلامية، ط 5، 1 ج، (نقله الى العربية نبيه أمين فارس، منير البعلبكي)، بيروت: دار العلم للملايين. ـ، (د. ت.).

تاريخ الأدب العربي، 6ج، (نقله الأجزاء 1، 2، 3 الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، ونقل الجزء 4الى العربية السيد يعقوب بكر، و رمضان عبد التواب)، ج1/ط 5، ج2 /ط 4، ج 3، 4/ط 3، ج 5/ط (بدون)، ج 6/ط (بدون)، القاهرة: دار المعارف.

- جيب، هـ. أ. ر.، والعوا، عادل، (1977).

علم الاديان و بنية الفكر الاسلامي، ط 1، بيروت- باريس: منشورات عويدات.

- خاتشاتريان، الكساندر، (1998).

أهل الفتوة و الفتيان في المجتمع الاسلامي، ط 1، 1 ج، بيروت: المركز العربي للابحاث والتوثيق.

- دوزي، رينهارت، (1980 – 2000).

تكملة المعاجم العربية، ط1، 11 ج، (نقله الى العربية و علق عليه الدكتور محمد سليم النعيمي)،1980(ج1، ج2)،1981 (ج3، ج4)، 1982(ج5)، (ج6 د. ت.)، 1991 (ج7)، 1997 (ج8)، 1999 (ج9)، 2000 (ج10)، (ج11؟)، بغداد: وزارة الثقافة والاعلام.

- سزكين، فؤاد، (1991).

تاريخ التراث العربي، ط (بدون)، 10ج، 3 م، (نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي، راجعه عرفه مصطفى وسعيد عبد الرحيم)، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية.

- شترك، الحسيني، السيد عبد الرزاق، الدوري، عبد العزيز، (1984).

بغداد. ط 1، 1 ج، كتب دائرة المعارف الإسلامية رقم 15، (لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية: ابراهيم خورشيد، الدكتور عبد الحميد يونس، حسن عثمان)، بيروت: دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة.

- شيمل، آنا ماري، (2006).

الأبعاد الصوفية في الاسلام و تاريخ التصوف، ط1، 1ج، (ترجمة محمد اسماعيل السيد، ورضا حامد قطب)، كولونيا – المانيا: منشورات الجمل. ظهرت الطبعة الانجليزية الاولى سنة 1975 والالمانية سنة 1979.

- لسترنج، كي، (1985).

بلدان الخلافة الشرقية. ط2، 1ج، (نقله إلى العربية وعلق عليه ووضع فهارسه بشير فرنسيس، كوركيس عواد)، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- العش، الدكتور يوسف، (1991).

دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط. ط1، (ترجمه عن الفرنسية نزار أباظة، محمد الصباغ)، بيروت: دار الفكر المعاصر.

- ماسينيون، لويس، (2004).

آلام الحلاج. ط1، 4ج،1م، (ترجمة الحسين مصطفى الحلاج)، بيروت: شركة قدمس للنشر و التوزيع.

- مقدسي، جورج، (1994).

نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين و في الغرب. ط1، 1ج، (ترجمة محمود سيد محمد)، جدة: جامعة الملك عبد العزيز، مركز النشر العلمي.

- ـ ، (1984).

خطط بغداد في القرن الخامس الهجري. ط (بدون)،1ج، (ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي)، بغداد: المجمع العلمي العراقي.

- نيكولسون، رينولد أ.، (1947).

في التصوف الإسلامي و تاريخه. ط (بدون)، 1ج، (نقلها إلى العربية وعلق عليها أبو العلا عفيفي)، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

Arburry, A. J., (1970).

Sufism: an account of the mystics of Islam.

New York: Harper & Row.

The Encyclopaedia of Islam (New Edition), B. Lewis, CH. Pellat and J. Schacht (ed.'s). Vol. II (C- G). Leiden: E. J. Brill, 1965.

(Futuwwa), pp, 961- 969, by: FR. Taeschner.

The Encyclopedia of Islam and The Muslim World, II Vol., Richard C. Martin (ed.), Macmillan Reference USA, New York, 2004. (Vol.1 A-L. Vol.2 M-Z)

Makdisi, George, (1963).

Ibn 'Aqil et la Resurgence de l' Islam Traditionalist AU XI^{e} SIECLE (V^{e} siecle de l' Hegire).

Damas: Institut Francais de Damas.

Muhamad, Abdul Munim Rashad, (1963).

The Abbaside Caliphate (575/ 1179- 656/ 1158).

Unpublished thesis submitted for the degree of Doctor of Philosophy. The School of Oriental and African Studies, The University of London (SOAS), London.

Saunders, J. J., (1965).

A History of Medieval Islam.

London & New York: Routledge.

Trimingham, J. S., (1965).

:سيرة الباحث الدكتور جمال الدين فالح الكيلاني- بقلم العلامة

أ.د.إبراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث –جامعة الموصل

صديق عزيز ، أتابع منذ فترة طويلة ، نشاطاته العلمية، ولي معه علاقة تبادل علمي .... هو جمال الدين بن فالح بن نصيف بن جاسم بن أحمد الحجية بن عبد الكريم بن عبد الرحيم بن خميس بن محمد بن عثمان بن يحيى بن (حسام الدين،من الأسرة الكيلانية، ذرية الشيخ عبد القادر الكيلاني الحسني العلوي(قدس الله سره العزيز.

من مواليد 1972، ومنذ طفولته أولع بحب التاريخ ،و قراءة الكتب المتنوعة ،تأثر بوالده الأستاذ فالح الحجية الكيلاني –الأديب والشاعر،وأخذ عنه حب الأدب والمعرفة وتذوق الشعر،وبحكم نشأته في الخالص وعلاقة القرابة التي تربطه بالعلامة سالم عبود الالوسي ،تعرف بالعلامة مصطفى جواد وتراثه ،واهتم منذ بواكير حياته العلمية بالتراث القادري والذي بات تخصصه الدقيق،ويعد نفسه من تلاميذ الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ومدرسته التاريخية،مارس التدريس في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي ، كما حاضر في جامعة . بغداد والجامعة المستنصرية واتحاد المؤرخين العرب وجامعات القادسية والبصرة وواسط

حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية –ابن رشد –جامعة بغداد . كما نال شهادة (دبلوم .)في اللغة الانكليزية من معهد المعلمين

لم يقف عند هذا الحد ، بل غذ السير ، وأكمل دراسته وحصل على شهادة (دكتوراه) فلسفة في التاريخ الإسلامي من جامعة سانت كلمنتس العالمية. ولحبه التاريخ والدراسات التاريخية انتمى إلى" معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد " ، وحصل على شهادة ماجستير آداب في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية . حصل على لقب "باحث علمي" من مركز دراسات التاريخ والوثائق . والمخطوطات سنة 1998

والدكتور الكيلاني عضو اتحاد المؤرخين العرب 1996وعضو الهيئة العربية لكتابة تاريخ الانساب1998 وعضو جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق1995 وعضو (شرف) لجنة الدراسات القادرية المغرب1997.
. مشرف مركز دراسات الإمام عبد القادر الجيلاني المتخصص بالتراث والتاريخ والأنساب القادرية 2011

كرم بالعديد من الشهادات التقديرية من المجمع العلمي العراقي1996 والهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب .2000 ،والهيئة العامة للاثار1997 وجامعة بغداد1999 وغيرها

اهتم بتاريخ الأنساب وشغل نفسه بهذا اللون المهم من الدراسات التي تحتاج إلى معرفة بأمور كثيرة .وقد أجيز في مجال دراسة وتدقيق الأنساب من ثلة من الأساتذة العراقيين المعروفين أمثال الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف والأستاذ سالم عبود الالوسي والأستاذ اللواء احمد خضر العباسي والأستاذ الشيخ خليل الدليمي والأستاذ جمال الراوي .ومنذئذ قام الدكتور الكيلاني بدراسة وتدقيق العشرات من شجرات النسب ومن كافة أنحاء العراق وبموجب كتب رسمية من الهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب وغيرها ، ويفخر بأنه حضر عدة جلسات للعلماء الأعلام كل من الشيخ العلامة عبد الكريم محمد المدرس-مفتي الديار العراقية-والعلامة الدكتور حسين -علي محفوظ والعلامة الدكتور علي الوردي و العلامة الدكتور حسين أمين

كما أن لديه العديد من البحوث والدراسات والكتب .من كتبه المنشورة :كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد مراجعة الأستاذ الشاعر فالح الحجية الكيلاني ،مكتبة المصطفى ، القاهرة ،2009.وكتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ،مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي – بغداد 2011. وهو بالاصل رسالة باشراف الدكتورة لقاء الطائي والدكتور رؤوف وكتاب " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي ، دراسة وتحقيق " ،تقديم الدكتور حسين أمين شيخ المؤرخين –نشر على نفقة السيد احمد الكيلاني ،الجزائر 2011 .وكتاب " أصول التاريخ الإسلامي " ،مراجعة الدكتور حسين علي محفوظ (مخطوط) 1999.وكتاب " تنقيحات دراسة تحليلية لنسب الإمام عبدالقادر الجيلاني" ، مراجعة الدكتور عبد القادر المعاضيدي (نشر محدود) منه نسخة محفوظة في المكتبة القادرية1996. وكتاب" .(دراسات في التاريخ الأوربي" ، تقديم الدكتور كمال مظهر احمد (معد للنشر

ومن بحوثه ودراساته :عرض كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد في مجلة فكر حر 2009.وعرض مخطوطة مهجة البهجة ومحجة اللهجة (كتاب) منشورة في جريدة الصباح 2005.ومقالة مصطفى جواد ومخطوطة نادرة عن الكيلاني جريدة الصباح 2006. ومقالة رشيد عالي الكيلاني ابن ديالى المشورة في جريدة العراق 2002.ومقالة المقدادية أصل التسمية المنشورة في جريدة العراق 2002.ومقالة" الشرق الأوسط واصل

التسمية" المنشورة في مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس 2009.ومقالة عن " براغماتية السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب "،مجلة فكر حر 2009.ومقالة عن "الشيخ عبدالقادر الكيلاني: جيلان العراق لا جيلان طبرستان،مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس 2009.وتفسير الجيلاني – دراسة في نسبة التفسير للمؤلف، مجلة رؤى 2010. و"المؤرخ هشام جعيط – دراسة في رؤيته للسيرة النبوية " ، مجلة رؤى 2010.

هذا فضلا عن عشرات المقالات المنشورة على شبكة الانترنت وضمن مواقع كثيرة ومن الموضوعات التي كتبها موضوعات ،عن عصر الرسالة وعصور الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والعصر الحديث والمعاصر والشخصيات العربية والإسلامية وبعض الشخصيات الغربية ،مثل مقالات تدور حول الشيخ عبد القادر الجيلاني وذريته في العالم ،وأهمية ثورة الحسين في التاريخ العربي الإسلامي، و إبان بن عثمان المؤرخ المبكر،والإمام الغزالي، والإمام الرفاعي، والإمام أبو مدين ،والإمام البخاري ،والشيخ ابن تيمية وقوميته، والشريف البعقوبي،الامين والمأمون والميكافلية ،والطريقة القادرية المبكرة ،و معنى الباز الاشهب،و التراث الصوفي – دراسة أولية والإمام أبو إدريس البعقوبي، والمغول، وجنكيز خان، وهولاكو خان، وتيمورلنك، والدولة الفاطمية وخلفاءها، وبغداد، وسمرقند، وكابول، ودلهي، والمقدادية أصل التسمية، والناصرية العراقية، والصويرة العراقية، والعزيزية العراقية، وال بابان، وال السعدون، ومحمد الفاتح ،وسليمان القانوني ،ومراد الرابع، وعبد الحميد الثاني، والشرق الأوسط ،والمكنا كارتا، وعبد القادر الجزائري، وجمال الدين الافغاني ،وعبد الكريم قاسم ،والحبوبي الشاعر والإمام، والسيد محمد باقر الصدر، والمؤرخ الدروبي وجهوده في تدوين تاريخ الأسرة القادرية في العهد العثماني، والرينسانس ،ومترنيخ، وبسمارك، وهتلر، وميكافللي والميكافلية، وونستون تشرشل، وجان جاك روسو ،والثورة الفرنسية، ولويس الرابع عشر ،ولويس السادس عشر، وماري انطوانيت ،ونابليون الأول ،ونابليون الثالث، وقراءة في كتاب–لينين– خطوة إلى الإمام خطوتان إلى الوراء، وتلخيص كتاب قصة الفلسفة للمؤرخ ويل ديورانت، وتاج محل ،والأزهر، والقرويين، وبدر شاكر السياب، و" الصراع السياسي والديني في اليمن قبل الإسلام –نجران نموذجا " .

درس التاريخ على أيدي العديد من أساتذة التاريخ في العراق منهم الأساتذة الدكاترة عماد عبد السلام رؤوف وكمال مظهر احمد وفاروق عمر ،وعبدالرزاق الانباري وعبد القادر المعاضيدي وخاشع المعاضيدي وعبد القادر الشيخلي وجعفر عباس حميدي ويقظان سعدون العامر وحمدان الكبيسي وقحطان عبد الستار الحديثي وهاشم يحيى الملاح وعبد الامير العكام وصادق ياسين الحلو ومفيد كاصد الزيدي ومحمد احمد الشحاذ وعبد الامير دكسن وعبد الجبار ناجي وفاروق عباس وهيب وخضير الجميلي وطارق نافع الحمداني ومحمد جاسم المشهداني ومحمد باقر الحسيني ومزاحم علي عشيش البعاج وناهض عبدالرزاق القيسي ومحي هلال السرحان.

من آراءه" أن التاريخ لايعرف اليوم والأمس والغد وإنما هو نهر الحياة يمضي الى الاجل المضروب الذي قدره علام الغيوب، فالتاريخ كله تاريخ معاصر ،نعم له تقسيمات علمية، ولكنه يعيش معنا ويهمنا وعلينا أن نستفاد منه في حياتنا كلها ويستند في هذا الرأي على أن استقراء التاريخ خير من التجارب ،وان اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر ،يبدو ، امرا بعيدا عن الحقيقة والواقع لان

التطور التاريخي يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها ببعض ، وان وقائع التاريخ الكبرى عائمات جليد طرفها ظاهر فوق الماء ، وكتلتها الرئيسية تحت سطحه ومن يريد استكشافها عليه أن يغوص في الأعماق ،و التاريخ هو طريق الإنسانية الى الحضارة، لأنه ضوء ينير الماضي لرؤية الحاضر و المستقبل ، فجذور أنظمتنا السياسية ،والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية ،تمتد عميقا في تربة الأجيال الماضية".

ويعتقد جازما "أن الدنيا سراب ووهم وخداع وصنم كبير ، بحلوها ومرها وبعقدها ومعقديها فهي تراب ،ورغم بريق الحياة اللاهثة وراء أمل كاذب ،وسيطرة مجتمع ثيوقراطي فأنه فرز بيروقراطية مسيطرة،بلا رحمة على مجتمعاتنا الشرق أوسطية في زمن تعولمت فيه الدنيا وأصبحت قرية صغيرة ،وأصبحت للإنسان(العادي) مكانة مكينة في إدارة مجتمعاته لا في إدارة بيته فحسب".

وهو يرى "أن الثقافة أو ما يصطلح عليه بالانتلجيستا والوجود او الانطولوجيا ،والأدب والفن والإبداع والمعرفة ، مصطلحات نقدسها ظاهرا ،ولانهتم بها باطنا ، ويتساءل أين ارتعاشات بدر شاكر السياب وحبيبته اقبال ؟ وأين الجواهري ودجلته؟ واين طه حسين وايامه ؟ واين العقاد ونقده؟ واين شعرائنا العظام من امروء القيس وقفا نبك من ذكرى حبيبته ؟اين المتنبي وانفته ؟ اين ابن رشد وفلسفته؟ أين ابن حزم وطوق حمامته اين عبدالقادر وتصوفه وأبو حيان التوحيدي وانسنته وابو العلاء وأحزانه و أين شوقي وحافظ والرصافي والزهاوي والحبوبي ،نسينا كل ارثنا العظيم ورجعنا نقلب خرافات عجائز ماتت ورجعنا" لعصر سي السيد" كما حكاه محفوظ ،لنظر للغرب وهو يقدس افلاطون المثالي وارسطو المضحي وسقراط العقلاني،وفرانسيس بيكون المجدد وجان جاك روسو الرومانسي وعما نوئيل كنت سيد الفكر الحديث ونتيشة وزرادشت الجديد،وميكافللي وسياسته التي لاترحم ،وجون ستيوارت مل وبراكماتيته ،وجان بول سارتر ووجوديته ، وتراهم يهيمون بتولستوي والحرب والسلام ودستوفسكي والجريمة والعقاب وانطون تيشخوف ومسرحلته وكوكل ومعطفه العظيم ، وفكتور هيجو والبؤساء ،وديكنز وقصته بين المدينتين وهمنجواي ووداعا للسلاح وليس آخرهم ماركيز صاحب مائة عام من العزلة والحب في زمن الكوليرا ،ود جي جي موبسان وكافكا .

ويتمنى علينا – في يوم من الأيام– أن نكرم اديبا او نحتفي بعالما بحياته لابعد مماته ....ونكرمه لذاته لا لايديولوجيا تبناها ووافقت هوى انسان أو جماعة،في مجتمع (الميدل ايست) الذي حرص نابليون ومترنيخ وبسمارك وتشرشل وهتلر وادرو ولسون ،ان يبقى بعيدا عنهم ،وأراده برنارد لويس وجيب وبراون وبارتولد وكراتشوفسكي وجولديزيهر وغيرهم من عمالقة الاستشراق ان يبقى تابعا وضيعا لهم. وهو يعد قراءه ان يعمل شيئا من اجل إحياء تراثنا الإنساني وابرز صفة فيه هي تقبل الاخر مهما كان رأيه وشكله وانتماءه" .ومن الآراء التي يعتز بالتمثل بها قول الشيخ عبد القادر الكيلاني : ((اعمل الخير لمن يستحق ولمن لايستحق والأجر على الله)) . وكذلك بقوله : ((اود لو ان الدنيا بيدي فاطعمها للجياع)).

المصدر موقع الدكتور ابراهيم العلاف*.